



جامعة محمد الخامس بالرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مركز دراسات الدكتوراه
الإنسان والمجال في العالم المتوسطي
تكوين الدكتوراه:

"آداب وفنون متوسطة"
بنيّة البحث:
"الدراسات المغربية الأندلسية / التفاعل الأدبي في الغرب الإسلامي"

أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد

- من القرن 5 هـ / 11 م إلى القرن 10 هـ / 16 م -

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه

من إعداد :
الطالب : سعيد الشرعي

تحت إشراف:
أ.د : نعيمة مني
أ.د : فيصل الشرايبي

2019/2015م

حقوق الطبع

سعيد الشرعي

2019

عنوان الأطروحة: أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد و التجديد

- من القرن 5 هـ / 11 م إلى القرن 10 هـ / 16 م -

من إعداد:
الطالب: سعيد الشرعي

صودق عليها: 29 / 11 / 2019م

اسم الأستاذ(ة): أ.د محمد السيدي
(رئيس اللجنة)

اسم الأستاذ(ة)
(الأستاذة المشرفة) : أ.د نعيمة مني

اسم الأستاذ(ة)
(الأستاذ المشرف) : أ.د فيصل الشرايبي

اسم الأستاذ (ة) : أ.د محمود عبد الغني
(عضو اللجنة)
مقررا

اسم الأستاذ (ة) : أ.د ابراهيم افليح
(عضو اللجنة)
مقررا

اسم الأستاذ(ة): أ.د سعيدة الإدريسي التفراوتي
(عضو اللجنة)
مقررة

-إهداء-

- ✓ إلى والدتي وملكتي حورية الخنشوفي سر نجاحاتي ...
- ✓ إلى الروح الطاهرة لوالدي عبد السلام الشرعي...رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.
- ✓ إلى أفراد أسرتي الصغيرة "الشروحة" فيض من العطاء والإيثار والحب اللامتناهي...أخواتي:
الحنونات فوزية ومريم وفاطمة الزهراء، وإخواني: ياسين وعبد الصمد، وعزيز الصديق
الوحيد في عتمة دروب الحياة والأخ الشقيق المثالي الذي شملني بالدعم المادي
والمعنوي منذ أول يوم لي بالجامعة، حفظه الله وأقر عينه بابنتيه سارة الشرعي وفاطمة
الزهراء الشرعي.
- ✓ إلى زوجتي الرقيقة ورفيقة دربي أميمة...ملكت عليهما الأطروحة يومها ونومها...
- ✓ إلى ابني أمير شمسي التي لا تخيب...
- ✓ إلى كل المسكونين بالأدبين المغربي والأندلسي...

- شكر وتقدير -

حيث إنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فإنني أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان وجميل الاعتراف لكل من له فضل على هذا العمل خاصا بالذكر والتقدير كلا من:

1- إدارة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – أكادال، أساتذة وإداريين وتقنيين وقيمين على مكتبة الكلية وأعوانا، وذلك لما شملوني به من تقدير ومساعدة ورقي تعامل طوال ثمان سنوات متواصلة من التحصيل العلمي.

2- الأستاذة الدكتورة نعيمة مني بصفتها رئيسة لمختبر الدراسات الأندلسية، ومشرفة أولى على هذا العمل، وأستاذة عالمة متمكنة متواضعة تتلمذت على يدها في سلك الإجازة كما في سلك الماستر، ناهلا من فيض علمها، معجبا بتواضعها وبانخراطها الدائم في الأعمال الجموعية الخيرية، مشمولاً بعطفها العلمي وتكبتها بصبر لا يعرف الكلل عناء توجيهي في بحثي باذلة جهدا لا يمكن أن أوفيه حقه من الوصف والشكر، فقد ضحت براحتها ووقتها في رعاية هذا العمل خطوة خطوة جازاها الله عني كل خير.

3- الأستاذ الدكتور فيصل الشرايبي بصفته مشرفا ثانيا على هذا العمل، وأستاذا عالما عالي الكعب، تكبد مشاق التنقل المستمر من جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء إلى جامعة محمد الخامس بالرباط شاملا إياي بالتشجيع والتحفيز والتوجيه، باثا في عملي روح الإتقان ودقة الطرح وجمال الإخراج، واهبا نفسه لخدمة العلم في حمية تبعث على الجد والاجتهاد والثقة المسعفة على المضي قدما لبلوغ أهداف وغايات ومرامي هذا البحث المتواضع. والله من وراء القصد فيه وهو المستعان عليه وشكر الناس من شكره. فاللهم اجعلنا من الشاكرين.

ملخص مقتضب للأطروحة :

أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد و التجديد

- من القرن 5 هـ / 11م إلى القرن 10 هـ / 16م -

من إعداد :

الطالب : سعيد الشرعي

إن الهدف الأسمى من هذه الأطروحة هو: "التأكيد على التأصيل في أدب الغرب الإسلامي، من خلال الكشف عن معالم التفاعل بين أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية". وهي من ثلاثة أبواب، ورد كل باب منها في فصلين: أولهما نظري يبسط المفاهيم وحدود الاشتغال، وثانيهما عملي يدرس ويحلل المتنون المقامية ويستخلص النتائج. فبابها الأول في معالم التقليد والتجديد في المقامة الأندلسية (من النشأة إلى أفول شمس الأندلس في ارتقائها من التلمذة إلى الندية فالأستاذة)، والثاني في مظاهر الاتباع والابتداع في المقامة المغربية (من الرحم المرابطي إلى المهد الموحد، فالنضج المريني والأستاذة السعدية، وذلك استكمالاً لصورة عامة وشاملة لأدب المقامة المغربية، رسم ملامح نصفها الأول - واليتم في مجال الدراسات الجامعية المتخصصة في أدب المقامة المغربية - الباحث محمد السولامي في دراسته المقتصرة على العصر العلوي) ، والباب الثالث في التفاعل بين المقامتين مغربية وأندلسية، وفي معالم التأصيل والخصوصية فيهما.

إن التماثل بين المقامات المشرقية والمقامات المغربية والأندلسية لا يتعدى الثابت في المقامات العربية المشرقية من أركان المقامة المعروفة، والتي لم تخل بدورها من إغفال درجة ميل المقامات الأندلسية والمغربية نحو أدب الرسالة. ذلك أن المختلف والجديد في مقامات العدوتين أكثر من الثابت المتوارث المؤلف، كما أن بعضا من التماثل لا يلغي كثيرا من التمايز فيها، وهو تمايز طال مضمون المقامة كما طال شكلها، مما طبع مقامات العدوتين بالتميز والتأصيل الناجمين أساسا عن تعلق شديد بالبيئة المحلية وبالواقع المعيش. فما يرسخ طابع التأصيل فيها هو انطلاقها من واقعها الاجتماعي بالنقد والتعرية والكشف، لتقويم وإصلاح أحوالها الاجتماعية المنحدرة افتراضا من أحوالها سوسيو-اقتصادية أو سياسية أو سيكولوجية. فمقامات العدوتين تتسم باستقلالية تكشف معالم هويتها وتأصيلها - في تمايزها عن بعضها البعض، وفي تمايزها عن مقامات المشرق العربي - معبرة عن خصوصيات أدب الغرب الإسلامي (العدوتين تحديدا)، بالشكل الذي يجعل المتلقي يحكم بانتماء المقامة إلى المشرق أو المغرب أو الأندلس، وذلك حتى ولو أخفينا عنه اسم المقامي الذي أنشأها، وهذا هو جوهر التأصيل في أدب المقامة في الغرب الإسلامي.

إن كل أدب في بداياته ينزع إلى الاحتذاء الذي قد يرغم المقامي على التخلي عن المحلي والنهل من النتاج الأدبي المشترك، بيد أن الأديبين الأندلسي والمغربي لم يظلا طويلا حبيسي مرحلة التلمذة (على الأدب العربي المشرقي)، بل تجاوزاها لما كتبت لهما أسباب الندية وبعدها الأستاذة دون أن يفقد أي منهما لونه المحلي الخاص به والمميز له عن الآخر. ومن هنا، التأصيل في أدب مقامة العدوتين الذي ما هو إلا ملمح عام للتأصيل في أدب الغرب الإسلامي، وهو ما جعلته هدفا لهذه الأطروحة، وجعلت له عنوانا: "أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد - من ق5 هـ/11م إلى ق10 هـ/16م".

RESUMÉ:

LA LITTÉRATURE DE LA MAQAMAT EN OCCIDENT ISLAMIQUE, ENTRE IMITATION ET RENOVATION

-DU 5^{ème} siècle AH/11 JC, AU 10 AH/16 JC-

Par:

Saïd CHARAI

Le but ultime de cette thèse est de mettre l'accent sur l'enracinement dans la littérature occidentale islamique, à travers les aspects de détection d'interaction établis entre la littérature de la maqamat andalouse et la littérature de la maqamat marocaine. Cette thèse est composée de trois parties, chaque partie comprend deux chapitres. Le premier est théorique traite les concepts et les limites de recherche . Et le second est pratique permet d'étudier et d'analyser les textes de la littérature de la maqamat et d'en tirer des conclusions. La première partie traite les aspects d'imitation et de la rénovation dans la maqamat andalouse , et la seconde partie, traite les aspects du suivi et d'innovation dans la maqamat marocaine (dès sa naissance chez les Almoravides et les almohades, à la maturité pendant l'époque Marini et Saadi, et ce de manière à compléter l'image générale et globale de la littérature de la maqamat marocaine , en précisant que

celui qui a dessiné les premières caractéristiques dans le domaine des études universitaires spécialisées en littérature de la maqamat marocaine est le chercheur Mohammad Assoulami, dans son étude qui a été limitée à l'époque Alaouite). La troisième partie aborde l'interaction entre les maqamats : marocaine et andalouse, et les aspects d'enracinement et leur particularité. La Ressemblance entre les maqamas orientales et les maqamats marocaines et andalouses ne dépasse pas les éléments constants dans maqamats arabes orientales parmi les piliers connus de la maqamat , ces derniers ont été omis d'où la tendance des maqamats andalouses et marocaines vers la littérature de lettre . Ce qui est différent et nouveau dans ces maqamats , Car le différent était plus que le constant hérité habituel , et une partie de la ressemblance n'élimine pas beaucoup de différenciation qui a touché le contenu ainsi que la forme, Ce qui caractérise les maqamats par l'enracinement et l'innovation, résultant principalement d'un fort attachement à l'environnement local et à la réalité vécue. Ce qui caractérise ces maqamats par l'enracinement est leur émergence de leur réalité sociale à travers la critique et la divulgation, pour corriger et réparer les distorsions sociales issues, par ,desdistorsionsocio-économiques,politiques ou psychologique hypothèse les maqamats marocaines et andalouses se caractérisent par l'indépendance qui révèle leur identité et leur enracinement dans la différenciation de l'une à l'autre, et dans leur différenciation par rapport aux maqamats de l'Orient arabe, tout en exprimant les particularités de la littérature de l'Occident islamique, de telle sorte que le récepteur décide de l'appartenance de la maqamat à l'Orient, au Maroc ou à l'Andalousie, même si nous cachons le nom de l'auteur qui l'a établi , ce qui est le noyau de l'enracinement dans la littérature de la maqamat en occident islamique .

Chaque littérature dans ses débuts tend à imiter , ce qui pourrait forcer le l'écrivain de la maqamat à abandonner la réalité locale pour aller vers la production littéraire commune, mais les littératures (andalouse et marocaine) ne sont pas restées longtemps prisonnières de la période d'apprentissage (de la littérature orientale arabe), mais elles l'ont dépassé, sans qu'aucune d'entre elles perde sa particularité et sa distinction l'une de l'autre . D'où l'enracinement dans la littérature des maqamats (andalouse et marocaine), qui n'est qu'un trait général de la littérature de l'Occident islamique, ce que j'ai fait un sujet de cette thèse, et ce que je lui a fait un titre : « **La littérature de la maqamat en Occident islamique, entre imitation et rénovation - DU 5ème siècle AH/11 JC, AU 10 AH/16 JC -** » .

ABSTRACT:

THE LITERATURE OF MAQAMAT IN THE ISLAMIC WEST BETWEEN IMITATION AND RENOVATION

- FROM THE 5th century AH /11AD, TO THE 10th AH/16AD-

By:

Said CHARAI

The ultimate goal of this thesis is to focus on rooting in Western Islamic literature, through the interaction detection aspects established between the literature of the Andalusian maqamat and the literature of the Moroccan maqamat. This thesis consists of three parts, each part comprises two chapters. The first is theoretical treating the concepts and limits of this search . And the second is practical to study, analyze the texts of the maqamat and draw conclusions. The first part deals with the aspects of imitation and renovation in the Andalusian maqamat , and the second part, deals with aspects followed and innovation in the Moroccan maqamat (from its birth among Almoravides, bring up in the Almohades, at maturity during the Marini

and Saadi periods, in order to complete the general and global image of the literature of the Moroccan maqamat, specifying that the one who drew the first characteristics in the field of university studies specialized in literature of the Moroccan maqamat is the researcher Mohammad Assoulami , in his study which was limited to the Alawite period) . The third part discusses the interaction between maqamats : Moroccan and Andalusian, and the rooting marks and their particularity.

The resemblance between the oriental maqamats and the Moroccan and Andalusian maqamats does not go beyond the constant elements in oriental Arabic maqamats among the known pillars of the maqamat , these latter have been omitted hence the tendency of the Andalusian and Moroccan maqamats towards the literature of the letter ; What is different and new in these maqamats , Because the different and the new was more than the usual constant inheritance , and a part of the resemblance does not eliminate a lot of differentiation , this differentiation which touched the content as well as the form , which characterizes the maqamats by rooting and innovation , resulting mainly from a strong attachment to the local environment and lived reality.

What characterizes these maqamats by rooting is their emergence of their social reality through criticism and disclosure , to correct and repair the social distortions resulting , hypothetically, from socio-economic , political or psychological distortions . The Andalusian maqamat and the Moroccan maqamat are characterized by the independence which reveals their identity and their roots in the differentiation from one to the other , and in their differentiation from the maqamats of the Arab East , while expressing the peculiarities of the literature of the Islamic West , so that the receiver decides the belonging of the maqamat in the East , or in Morocco or Andalusia, even if we hide the name of the writer who established it, which is the core of rooting in the literature of the maqamat in the Islamic west.

Every literature in its beginnings tends to imitate, which could force the writer of the maqamat to abandon the local reality to go towards the common literary production, but the literatures (Andalusian and Moroccan) did not stay long prisoners of the period of learning (of Arab Oriental literature), but they have gone beyond it, without any of them losing its particularity and its distinction from each other. Hence the rooting in the literature of maqamats (Andalusian and Moroccan), which is only a general feature of the literature of the Islamic West, what I did a subject of this thesis, and what I did to him a title : "**The literature of the maqamat in the Islamic West, between imitation and renovation- FROM THE 5th century AH /11AD, TO THE 10th AH/16AD- "**.

- الفهرس -

- مدخل ص1
- مقدمة ص6
- الباب الأول: المقامة الأندلسية بين التقليد والتجديد
- ❖ الفصل الأول: الإطار النظري
 - المبحث الأول: تحديد مفهوم المقامة
 - المطلب الأول: التحديد اللغوي والاصطلاحي ص11
 - المطلب الثاني: الأصل والنشأة والرحلة إلى الأندلس ص15
 - المطلب الثالث: التفاعل مع باقي الأجناس الأدبية ص22
 - المبحث الثاني: بواعث ميلاد المقامة
 - المطلب الأول: دواعي انتشار المقامة في الأدب العربي المشرقي ص26
 - المطلب الثاني: دواعي ذيوع المقامة في الأدب الأندلسي ص29
 - المبحث الثالث: صورة عامة عن النثر العربي مشرقيا وأندلسيا حتى ق9 هـ
 - المطلب الأول: تأثير النثر الأندلسي بالنثر العربي المشرقي ص33
 - المطلب الثاني: المطلق والنسبي في تأثير النثر الأندلسي ص42
- ❖ الفصل الثاني: الإطار العملي
 - المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة الأندلسية
 - المطلب الأول: رائدا فن المقامة المشرقية العربية (الطرف المؤثر) ص52
 - ✓ الفرع الأول: الهمداني ص52
 - ✓ الفرع الثاني: الحريري ص55
 - ✓ الفرع الثالث: الائتلاف والاختلاف بين المقامات الهمدانية والحريرية ص58
 - المطلب الثاني: نماذج لرواد المقامات بالأندلس (الطرف المتأثر) ص61

- ✓ الفرع الأول: المتأثرون بالهمذاني (مقاميو عصر ملوك الطوائف 422 / 484 هـ) ص 63
- (أ) ابن شهيد ص 63
- (ب) ابن شرف القيرواني ص 67
- ✓ الفرع الثاني: المتأثرون بالحريري (مقاميو عصر المرابطين 484-541 هـ) ص 72
- (أ) أبو الخصال ص 72
- (ب) السرقسطي ص 73
- (ج) الوادي آشي ص 73
- (د) ابن عياض اللبلي ص 74
- ✓ الفرع الثالث: المقاميون المجددون (مقاميو الأندلس الصغرى 635-897 هـ) ص 75
- (أ) ابن الخطيب ص 75
- (ب) ابن المربع ص 75
- (ج) الفقيه عمر الزجال ص 76
- (د) النباهي المالقي ص 76
- المطلب الثالث: نسبة تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة المشرقية العربية ص 77
- ✓ الفرع الأول: في المقامات الأندلسية بشكل عام ص 77
- ✓ الفرع الثاني: في المقامات السرقسبية بشكل خاص ص 82
- المبحث الثاني: معالم التجديد والخصوصية في المقامة الأندلسية
- المطلب الأول: في المقامات الأندلسية عموماً ص 89
- ✓ الفرع الأول: التداخل مع الرسالة ص 89
- ✓ الفرع الثاني: الارتباط بأدب الرحلة ص 91
- ✓ الفرع الثالث: خدمتها لأغراض شعرية/ عدم الاستشهاد بأشعار الغير ص 92
- ✓ الفرع الرابع: الخلو من الكدية ص 93
- ✓ الفرع الخامس: طول الحجم والإطناب ص 94
- ✓ الفرع السادس: الارتباط بالبيئة المحلية ص 95
- ✓ الفرع السابع: الخلو من التعقيد اللغوي ص 95

✓ الفرع الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة ص 96

● المطلب الثاني: في المقامات السرقسطية خصوصا ص 99

● الباب الثاني: المقامة المغربية بين التقليد والتجديد

❖ الفصل الأول: الإطار النظري

- المبحث الأول: المقامة المغربية: النشأة والامتداد والخصوصية

● المطلب الأول: المقامة في المغرب (تأريخ الظاهرة) ص 106

● المطلب الثاني:مغرب المقامة (النتاج المقامي المغربي النشأة والامتداد) ص 113

● المطلب الثالث: مغربية المقامة (التأصيل والخصوصية) ص 122

● المبحث الثاني: دواعي انتشار أدب المقامة في الأدب المغربي

● المطلب الأول: دواعي لغوية ص 124

● المطلب الثاني: دواعي المحاكاة ص 128

● المطلب الثالث: دواعي سيكوسوسيولوجية ص 130

- المبحث الثالث: عوامل تأثير النثر المغربي بالنثرين المشرقي والأندلسي

● المطلب الأول: الرحلة إلى المشرق (التأثير المشرقي) ص 131

● المطلب الثاني:الجوار والوحدة السياسية بين العدوتين(التأثير الأندلسي) ص 137

❖ الفصل الثاني: الإطار العملي

- المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة المغربية

● المطلب الأول: مقامي عصر المرابطين (ق 5 – 6هـ) ص 147

● المطلب الثاني: مقامي عصر الموحيين (ق 6 هـ / 12م) ص 151

● المطلب الثالث: مقاميو عصر المرينيين(ق 7-8 هـ / 13-14م) ص 155

✓ الفرع الأول: عبد العزيز الملزوزي (ت 667هـ) ص 155

✓ الفرع الثاني: مالك بن المرحل (ت 699هـ) ص 161

✓ الفرع الثالث :عبد المهيمن الحضرمي (ت 749هـ) ص 167

● المطلب الرابع:مقاميو عصر السعديين (ق 10هـ و 11/16هـ أوائل 17م) ص 175

- ✓ الفرع الأول: محمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت 990 هـ) ص 175
- ✓ الفرع الثاني: محمد بن أحمد المكلاتي (ت 1041 هـ) ص 181
- ✓ الفرع الثالث: الأزاريقي ص 189
- ✓ الفرع الرابع: أبو عبد الله بن علي الفشتالي (ت 1021 هـ) ص 198
- المطلب الخامس: مواطن متأثر المقامة المغربية بالمقامة العربية المشرقية ص 204
- المبحث الثاني: معالم التجديد والاستقلالية في المقامة المغربية ص 207
- ✓ المطلب الأول: التداخل مع الرسالة ص 209
- ✓ المطلب الثاني: الارتباط بأدب الرحلة ص 210
- ✓ المطلب الثالث: خدمتها لأغراض شعرية / الاستشهاد بأشعار الغير ص 210
- ✓ المطلب الرابع: الخلو من الكدية ص 211
- ✓ المطلب الخامس: طول الحجم والإطناب ص 213
- ✓ المطلب لسادس: الارتباط بالبيئة المحلية ص 213
- ✓ المطلب السابع: الخلو من التعقيد اللغوي ص 214
- ✓ المطلب الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة ص 215

• **الباب الثالث: أدب المقامة في الأندلس والمغرب: التفاعل والتأصيل**

❖ **الفصل الأول: الإطار النظري**

- المبحث الأول: التفاعل والتأصيل ومفاهيم مجاورة ص 221
- المبحث الثاني: المشترك الجغرافي والسياسي بين العدوتين وحمية التفاعل الأدبي ص 231

❖ **الفصل الثاني: الإطار العملي**

- المبحث الأول: اقتفاء الصوت المغربي في المقامة الأندلسية ص 255
- المطلب الأول: المغرب/المكان (ابن الخطيب أنموذجا: مقامة مفاخرات مالقة وسلا) ص 255
- المطلب الثاني: المغرب/ الإنسان (السرقسطي أنموذجا: المقامة البربرية) ص 264
- المبحث الثاني: اقتفاء الصوت الأندلسي في المقامة المغربية ص 280
- المطلب الأول: الأندلس/ المكان ص 280
- المطلب الثاني: الأندلس/ الإنسان (الملزوزي أنموذجا: مقامة طرفة الظريف) ص 287

- المبحث الثالث: مظاهر التفاعل والتأصيل في المقامات الأندلسية والمغربية
- المطلب الأول: معالم الائتلاف والاختلاف بين مقامات العدوتين ص291
- ✓ الفرع الأول: معالم الائتلاف /التفاعل ص291
- ✓ الفرع الثاني: معالم الاختلاف/ الخصوصية ص297
- المطلب الثاني: معالم التأصيل في مقامات العدوتين ص299
- خاتمة ص304
- ببليوغرافيا

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)

- سورة البقرة، الآية: 32 -

صدق الله العظيم

- هذه الأطروحة -

"...تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلفه عاقل عالم إلا في أحدها، وهي : إما شيء لم يسبق إليه
يخترعه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يدخل بشيء
من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه..."(*)

- ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ) -

(*) مقتطف من رسالة للوزير أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، بين فيها فضائل علماء الأندلس لما
وقف على رسالة لأبي علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني ذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد
أخبار علمائهم و مآثر فضائلهم وسير ملوكهم . وقد ورد هذا المقتطف من الرسالة في آخرها بعد أن ذكر ابن حزم عددا
هاما من التأليف الأندلسية، قال : " وإنما ذكرنا التأليف مستحقة الذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل
عالم إلا في أحدها ... و أما التواليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلقت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا
أكثر من أن نحيط بعلمها ."
وقد وردت رسالته- في فضل أهل الأندلس ومكانة الأندلس بالنسبة لما جاورها من البلدان - ب: "نفح الطيب من غصن
الأندلس الرطيب"، لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني. تحقيق: إحسان عباس. بيروت. دار صادر. طبعة 2004. المجلد
الثالث. ص 176.

-الاعتذار-

"...أنبي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في تحفه : لو خير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر."

-القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (٥٩٦هـ)-

(تنسب خطأ للعماد الأصفهاني (٥٩٧هـ))¹

¹ تصويب: كلمة جميلة نسبها كثير من الباحثين خطأ للعماد الأصفهاني (مؤرخ وأديب كبير عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت 597هـ/1201م). وهي في واقع الأمر للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (كان وزيراً لصلاح الدين. ت 596هـ/1200م)، وقد كتبها إلى العماد الأصفهاني معذراً عن كلام كان قد استدركه عليه، وأولها : «إنه قد وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً ...»
للتحقق ينظر: كتاب أبجد العلوم. الجزء الأول. الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم. صديق بن حسن القنوجي (ت 1307هـ/1889م). تحقيق : عبد الجبار زكار. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق. ط:1973(نهاية الفصل الخامس. ص 71).

1- موضوع البحث: السياق العام /دواعي الاختيار /المدفء العام

إن عنوان هذه الأطروحة الموسومة ب: " أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد ، من ق 5 هـ -11م إلى 10 هـ - 16م "، يشكل المفتاح الرئيس لولوج عوالم مضمونها ،وذلك بوصفه المحدد الأساس الدال بتركيز على موضوعها، بيد أنه يتطلب مني بعض التوضيح المنهجي القمين بالتحديد الدقيق لأبعاده المكانية والزمانية درءا لأي التباس:

- **أوله:** أن تحديدي للفضاء المكاني في هذه الدراسة بعبارة "الغرب الإسلامي" لم يكن القصد منه الدلالة على تلك الرقعة الجغرافية الشاسعة الأطراف – التي تشمل الأندلس، والمغرب، وموريتانيا، والجزائر، وتونس، وليبيا – بقدر ما قصرت دلالتها على العدوتين وذلك جريا على سنة أغلب الباحثين ممن وظفوا عبارة "الغرب الإسلامي" وقصروها على الأندلس والمغرب الأقصى. فغني عن البيان ما يتطلبه البحث في أدب المقامة في الغرب الإسلامي بكل أقطاره من وقت وجهد يخشى أن يقود التقصير فيهما إلى بناء رؤية ناقصة لفضاء جغرافي شاسع قد تقود مساحته للجوء إلى الاقتضاب والإيجاز اللذان قد يقودان بدورهما للإخلال بالإنصاف، ومن هنا اقتصاري على العدوتين وتسخير كل الجهد والوقت لاستيفاء كل جوانب التفاعل والتأصيل في أدب المقامة أندلسية ومغربية.

- **ثانيه:** تغطي الكرونولوجيا المشفوعة بالاستقصاء والتحليل النتاج المقامي الأندلسي منذ نشأته في القرن 5 هـ وحتى سقوط الأندلس في ق9 هـ، كما وتغطي النتاج المقامي المغربي منذ مرحلته الجنينية المرابطية والموحدية(ق5و6 هـ)،ومرورا بالقرن 7 هـ حيث نشأته الفعلية في العصر المريني ،وانتهاء إلى العصر السعدي (ق10 و 11 هـ) حيث مرحلة النضج والاكتمال،وذلك دون أن تمتد الدراسة إلى العصر العلوي،ذلك أن الباحث محمد السولامي كان له قصب السبق في تناول هذا العصر بكثير من العناية في الاستقصاء(لوفرة المقامات)،وهو الأمر الذي حدا بي للبحث في الفترة ما قبل العصر العلوي استكمالا لرؤيته، وإسهاما في توسيع أفقها وطبع النظر

إلى المقامة المغربية بالشمولية بما هو قمين بالتعريف بها بشكل جاد وواع لا يقبل الاجترار ولا التكرار، بقدر ما يطمح إلى إضافة الجديد إلى الأدبيات التي تعنى بفن المقامة المغربية.

إن البحث في موضوع " أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد - من ق 5 هـ - 11م إلى 10 هـ - 16م - " يعد امتدادا طبيعيا لتعلق شخصي بالأدبين الأندلسي والمغربي بشكل خاص، فقد كان مسبوqa بالبحث في موضوع : " أدب المقامة في الأندلس بين الخصوصية والاتباعية من 5 هـ إلى 9 هـ " بوصفه رسالة لنيل شهادة الماستر، وهي رسالة كانت مسبوقة بدورها بالبحث في موضوع: " التفاعل في الأدب الأندلسي - مقارنة لبعض مظاهر التأثير والتأثير - " الذي شكل بحثا لنيل شهادة الإجازة. فالأمر يتعلق بسيرورة معرفية مقصودة في ذاتها ومحددة في غاياتها، ذلك أن المقامة المشرقية العربية استأثرت باهتمام الباحثين ولم يتم الالتفات إلى مقامة الغرب الإسلامي بالشكل المطلوب وبحجم الانشغال الذي تستحقه، وإن تم ذلك الالتفات فإنه غالبا ما هم الأندلس ولم يطل المغرب، ثم إنه حتى الأعلام المشرقية التي التفتت إلى مقامة الغرب الإسلامي غالبا ما كان يعوزها الإنصاف.

ومن هنا، انخراطي في هذا البحث مدفوعا بفضول معرفي وإيمان عميق متولدين عن جميل شغف بأدب الغرب الإسلامي، وعميق انتماء لبلاد المغرب، وسامي التزام بالتعريف بجانب مهم من الأدبين الأندلسي والمغربي، وتبيان ما كان بينهما من تفاعل على مستوى أدب المقامة. ولا يخفى علينا ما في ثنايا ذلك من تعريف بجانب مهم من الثقافة الوطنية المغربية، ومن إعلاء من شأنها بشكل خاص، ومن شأن ثقافة وأدب الغرب الإسلامي بشكل عام.

2- إشكال البحث/ صعوباته/ حدوده/ الدراسات السابقة :

إن ميل بعض الدراسات - خاصة المشرقية العربية - إلى اعتبار أدب الغرب الإسلامي امتدادا للأدب المشرقي العربي، وضمنه اعتبار المقامات الأندلسية والمغربية صورة باهتة للمقامات المشرقية، يطرح إشكالا حقيقيا ينطلق من الفهم العام الذي يؤطر تصورنا لفن المقامة وعلاقتها بالمجتمع، وينتهي إلى مساءلة مقامة الغرب الإسلامي في ذاتها. وبمعنى آخر، إذا كنا نتصور المقامات سجلا تاريخيا ومرآة حقيقية تعكس تناقضات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية للمجتمعات البشرية، فإن ما يترتب عن هذا الفهم هو الإقرار بضرورة

التصاق مقامة الغرب الإسلامي بواقعها الاجتماعي والفكري والتعبير عن أحواله، وبالتالي تعبير النتاج المقامي الأندلسي والمغربي عن نفسه من حيث خصوصيته وتجديده واستقلاليته. وإذا كان الاشتغال إلى وقت قريب جدا بالمقامة الأندلسية قد أتاح لي نفي التصور المغلوط عنها بالاتباعية المطلقة، والإقرار لها بالخصوصية والإبداع، فإن ذلك الاشتغال واكبه انشغال فكري حقيقي بالمقامة المغربية – طوال فترات تحرير رسالة الماستر – وصل درجة الالتزام للتعريف بأدب المقامة بالمغرب، خاصة وأن الساحة الأدبية تفتقر إلى مرجع متخصص في هذا الصدد (اللهم الرسالة الجامعية لمحمد السولامي والمقتصرة على العصر العلوي وحسب)، وخاصة وأن الجوار الجغرافي والتاريخ السياسي المشترك - في فترة ما - بين العدوتين يقتضي بل ويقضي بحدوث تفاعل بين أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية.

وإذا كانت نشأة فن المقامة بالأندلس مرتبطة بالرحلة أساسا، وبالتعلق بالمشرق وبالرغبة في معارضته، فماذا عن نشأته بالمغرب؟. وهل صحيح أن الإرهاصات الحقيقية الأولى لظهور أدب المقامة بالمغرب تعود إلى العصر المريني كما ذهب إلى ذلك عدة باحثين مغاربة؟. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا عن التفاعل بين الأدبين الأندلسي والمغربي (أدب المقامة خصوصا)، خاصة وأن العدوتين كانتا تحت حكم دولة واحدة في وقت ما؟. لماذا قفزهم على العصر المرابطي (1055-1145م)، والعصر الموحيدي (1147-1250م) وهما من أخصب فترات إنتاج المقامة في الأندلس؟.

تتناسل الأسئلة في هذا الصدد وتتراحم رغبة في الكشف عن الخصوصية في الموروث المقامي المغربي، والكشف عن أوجه تفاعله مع الموروث المقامي الأندلسي، وذلك لتكوين صورة شمولية وواضحة عن أدب المقامة بالغرب الإسلامي من حيث التأصيل، والخصوصية، والإبداع، والتفاعل. وهي صورة لم توفها جل الدراسات والأبحاث السابقة في الموضوع حظها من العناية، ذلك أنها غالبا ما تلتقي حول ثلاثة أمور أساسية:

- أولها: غالبا ما يطلق الباحثون لفظ "المغرب" ويريدون به الدلالة على "الغرب الإسلامي"، ونمثل لذلك بكتاب: (فن المقامات بين المشرق والمغرب، ليوسف نور عوض). فرغم أنه اشتغل على الفترة الممتدة ما بين القرنين 4 و14هـ، فإنه عرض فقط لبعض مقامات الأندلسيين ولم يفعل مع مقامات المغرب الأقصى. وكذلك وجدنا إحسان عباس في كتابه (تاريخ

الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين) يورد ثبنا بواحد وعشرين اسما للمقاميين الأندلسيين ضمنهم مقاميون مغاربة صنفهم على أنهم أندلسيون.

- **ثانيها:** تعرض جل الدراسات المتون المقامية المتفرقة في المصادر وتتحاشى تحليلها ودراستها أو تأريخ الظاهرة، ونمثل لذلك بكتاب: (فن المقامات بالأندلس، نشأته وتطوره وسماته، لقصي عدنان سعيد الحسيني)، وكتاب: (الأدب العربي في الأندلس، لعبد العزيز عتيق). وفي الأدب المغربي نمثل لهذا الجانب بكتاب: (النبوغ المغربي لعبد الله كنون)، و(المعسول لمحمد المختار السوسي).

- **ثالثها:** أقلامها مشرقية في الغالب الأعم، وهي لا تحبذ الاعتراف عادة بنبوغ أدب الغرب الإسلامي، وهو ما يفسر شح الدراسات المتناولة لأدب المقامة المغربية مقارنة مع الأندلسية والمشرقية العربية، ذلك أن الدراسات التي تحدث فيها أصحابها عن نشأة المقامة في الأدب المغربي تعود إلى أقلام مغربية، ونمثل لها بكتاب: (الأدب المغربي لمحمد الصادق عفيفي)، وكتاب: (الحياة الأدبية بالمغرب في عهد الدولة العلوية لمحمد لخضر).

إن مجرد التفكير في أن الأندلس والمغرب كانتا دولة واحدة تحت حكم المرابطين والموحدين، يبعث على تقصي مظاهر التفاعل الأدبي بين العدوتين. ومن هنا انشغالي واشتغالي بإعادة ترتيب ما تم في الموضوع من دراسات، ومحاولة تقديم جديد فيما يهم قراءة الموروث المقامي للغرب الإسلامي تقاربه في كليته، وليس في جانب منه دون الآخر، أو في فترة زمنية خصبة الإنتاج دون غيرها. ثم إن وضع مقامة الغرب الإسلامي موضع تأصيل وتفاعل يطرح عدة صعوبات على مستوى المصادر والمراجع المساعدة في البحث، فطبيعة الموضوع من حيث عدم احتفاء الدراسات السابقة به بالشكل الذي يتماشى مع الهدف المعلن، فرضت علي الكثير من الصبر والجهد لتجميع ما تفرق من شذرات المتون المقامية المغربية في ثنايا مصادر ومراجع لا تتناول موضوع البحث المتعاقد عليه، ولكنها تدل عليها أو تلمح إلى مواطنها المتناثرة والمتطلبة للتجميع والتحليل. وغير خاف علينا ما يفرضه الإخلاص في العمل في هذا الباب، وما تفرضه الأمانة الأدبية والعلمية من صعوبات ومسؤوليات. ومن هنا يصبح الأدب المغربي عالما لا بد من ولوجه عبر السفر في أسفاره ومخطوطاته للتأريخ الفعلي لنشأة المقامة المغربية ولتطورها ولخصوصياتها ولتفاعلها مع جارتها الأندلسية، وذلك في انسجام تام مع ما

توصلت إليه من تأصيل للمقامة الأندلسية في رسالة الماستر، وفي تناغم تام مع الهدف الأسمى من هذا البحث: "التأكيد على تأصيل أدب الغرب الإسلامي، والكشف عن معالم التفاعل بين أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية".

يشكل هذا البحث امتدادا لرسالة الماجستير التي خصصتها للبحث في معالم الخصوصية في النتاج المقامي الأندلسي، ذلك أني اجتهدت في إنجاز دراسة خاصة بأدب المقامة الأندلسية لا تجتر مضامين الدراسات السابقة عليها بقدر ما تنزع إلى ترسيخ مفاهيم من قبيل: الخصوصية - الاستقلالية - الإبداع - التجديد - تأصيل النتاج المقامي الأندلسي. وحيث إن البحث في المقامة المغربية - بشكل عام - كان أقل حظا من البحث في المقامة الأندلسية فقد كان لزاما علي - بحكم الانتماء - العمل على سد النقص والخصائص الحاصل في مجال التعريف بالمغرب الأقصى من خلال إنتاجه المقامي، والاعتراف بتميزه وابتداعه والتصاقه ببيئته والتعبير عنها. ذلك أن مفاهيم من قبيل: "المقامة المغربية"، و "المقامة في المغرب"، و "مغرب المقامة"، و "مغربية المقامة"، تحمل دلالات متعددة و مشروعنة تتراوح ما بين الدلالة أولا على أدب إقليمي خاص، والدلالة ثانيا على جنس أدبي له حضور حقيقي ومتميز في بلاد المغرب، والدلالة ثالثا على بلاد لها إنتاج مقامي معترف به ومقاميون رواد، والدلالة أخيرا على أنها مقامات تعبر عن خصوصيات واقعها المغربي.

إن طبيعة البحث في الموضوع تقتضي تجميع المتون المقامية المتفرقة، كما تستلزم استدعاء المقامات الأم (للهمذاني) والمقامات الأنموذج (للحريري) لتبين معالم الاتباع من معالم الابتداع، ذلك أن الحديث عن السرقسطي (أندلسيا) أو مالك بن المرحل (مغربيا) يجر للحديث عن سابقيهما، كما أن الحديث عن الهمذاني يرتد بنا للحديث عن ملهميه استحداث فن المقامة (أحاديث ابن دريد وغيرها)، وهو ما يجعل المنهج التاريخي يفرض نفسه هاهنا بالحاح دون غيره من المناهج الأدبية الخارجية أو الداخلية .

إن طبيعة البحث في موضوع غير مسبوق في جزئياته، وغير متيسر المراجع، هو ما يقود أيضا لاعتماد الوصف و التحليل مجسدين في تحليل المحتوى والدراسة الوصفية التحليلية لمضامين مقامات العدوتين للوقوف على خلفياتها (محاكاة - معارضة - استحداث جديد...). فالمنهج يستند إلى تصور نظري قوامه مواجهة المتون المقامية في مضامينها وخلفياتها، وفي أشكالها ومكوناتها البنائية وقواعد كتابتها، مع الاعتماد على التحليل والمقارنة. ولذلك فقد جاء

المنهج من تلقائه تاريخيا مستندا على الوصف والتحليل، مطيعا للبحث منسجما معه ومنبثقا عن طبيعته. فالوصف عملية تتعدى مجرد جمع بيانات إلى التحليل والربط والتفسير والتصنيف واستخلاص النتائج، والتحليل يحضر بإلحاح فارضا نفسه بحدة أمام كل نص مقامي إذ يسمح بدراسة المتون المقامية، وذلك عبر تفسير وتحليل النصوص المقامية وتأويلها، وإعمال النقد فيها، واستنباط واستنتاج الأحكام منها. فعمليتا الوصف والتحليل تتماشيان والتقسي التاريخي الذي يفرض حضوره كلما تم التفكير في : تذوق النصوص المقامية وجمعها في أنواع أو مذاهب أدبية – إعمال النقد فيها في شقيه الموضوعي والتأثري – الرجوع إلى كتب التراجم والتاريخ لتكوين معرفة دقيقة عن عصر المقامي المجدد أو المقلد...، وما إلى ذلك من ثوابث المنهج التاريخي.

وتأسيسا عليه، تتألف الدراسة من مقدمة ومدخل وثلاثة أبواب وخاتمة، وهو ما عبرت عنه بتصميم البحث(المحتويات)، والذي توخيت فيه الدقة والتدرج والتسلسل في الوصول إلى الهدف الأسمى من البحث : "التأكيد على تأصيل أدب الغرب الإسلامي، والكشف عن معالم التفاعل بين أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية". فالبحث من ثلاثة أبواب، وكل باب ورد في فصلين أولهما نظري يبسط المفاهيم وحدود الاشتغال، وثانيها عملي يبسط المتون ويستخلص النتائج. إذ الباب الأول في المقامة الأندلسية، والثاني في المغربية، والثالث في التفاعل بين المقامتين مغربية وأندلسية، وفي معالم التأصيل والخصوصية فيهما.

فأما الباب الأول وهو في المقامة الأندلسية بين التقليد والتجديد فقد قسمته إلى فصلين أولهما نظري وثانيهما عملي، وهو يتناول التحديد اللغوي والاصطلاحي لمفهوم المقامة، وأصلها ونشأتها ورحلتها إلى الأندلس، والتفاعل القائم بينها وبين باقي الجناس الأدبية، وبواعث ميلاد المقامة في الأدبين العربي المشرقي و الأندلسي، ومدى حقيقة التأثير المطلق للأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي، وكذا مظاهر الاختلاف والائتلاف بين المقامات الهمدانية والمقامات الحيرية، وأهم المقاميين الأندلسيين المتأثرين بالهمداني، وأولئك المتأثرين بالحيرية، والمجددين منهم، وقد فصلت في مواطن تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة المشرقية العربية، وفي معالم التجديد و الخصوصية في المقامة الأندلسية عموما وفي المقامات السرقسطية خصوصا.

وقد خصصت الباب الثاني للمقامة المغربية بين التقليد والتجديد واتبعت فيه نفس الهيكلة المعتمدة في تناول الباب الأول، فهو كذلك من فصلين أحدهما نظري والآخر عملي، عرفت فيهما بأدب المقامة المغربية وبنشأته وامتداده، وبدواعي انتشاره في الأدب المغربي، وبعوامل تأثره بالثنيتين المشرقي العربي والأندلسي، وبرواد المقامة في العصر المريني وفي العصر السعدي وفيما قبلهما من إرهابات أولية لنشأة المقامة المغربية بالعصرين المرابطي والموحدي، وخلصت منه إلى معالم التأثير في المقامة المغربية، وإلى معالم التجديد والاستقلالية فيها.

وأما الباب الثالث فهو أيضا من فصلين (نظري وعملي)، ويتناول المشترك الجغرافي والسياسي بين العدو الأندلسية والعدو المغربية وحنمية التفاعل الأدبي بينهما، ومن تم محاولة اقتفاء الصوت المغربي في المقامة الأندلسية (الإنسان والمكان المغربيين)، ومحاولة اقتفاء أصداء الصوت الأندلسي في المقامة المغربية (الإنسان والمكان الأندلسيين)، ومنه استجلاء مظاهر التفاعل والتأصيل في مقامات الغرب الإسلامي (العدوتين أنموذجا).

ولا يدعي البحث البتة أنه شمل كل مستويات التأصيل والتفاعل في مقامات الغرب الإسلامي بالمعالجة والتقصي، إلا أنني أمل أن أكون قد وفقت في مساعي من حيث الطرح والعرض والتناول واستخلاص النتائج، ومن حيث الإجابة بأمانة عن الإشكالية المطروحة في مدخل هذا البحث، راجيا أن أكون قد كشفت بصورة واضحة عما جعلت عنوانا له : "أدب المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد - من ق 5 هـ - 11م إلى 10 هـ - 16م -".

وأخيرا، فإن البحث في إشكالية التأصيل والتفاعل في المقامتين المغربية والأندلسية بحث قابل لمزيد من الاقتحام والإثراء، وما محدودية تناولي لها إلا نتاج إكراهات مهنية وزمنية. بيد أن النتائج من وراء إنجازها هي المعول عليها، خاصة وأني لم أرض باجترار إشكاليات مسبوقه تجعل من أطروحة الدكتوراه مجرد بحث إجازة موسع لا يضيف جديدا للبحث الأدبي، بقدر ما يقرر ويكرر المعارف والتجارب السابقة، فتغيب بذلك هواجس البحث العلمي. ومن هنا هذه المحاولة المتواضعة في دراسة أدب المقامة الأندلسية والمغربية وفق مقاربة تحتفي بالمضمون بوصفه ثورة اجتماعية وليست لغوية وحسب، فقد ظل عدد كبير من الباحثين حبيسي آفاق محدودة لا تخرج عن إشكاليات الشكل والإيقاع، كما وأن البحث في أدب المقامة المغربية ظل حبيس عصر العلويين مرتبطا به لضخامة نتاجه المقامي.

• مقدمة الفصل الأول من الأطروحة/ الفصل الأول - الباب الأول:

تقتضي دراسة فن المقامة الأندلسية - من حيث تأرجحها ما بين التيار التقليدي المتأثر بالمقامة المشرقية العربية، وما بين التيار التجديدي الملصق بالواقع الأندلسي والمعبر عن خصوصيته وتميزه - الاستهلال بفرش نظري للدراسة، وهو ما يمثل هذا الفصل من حيث تتبعه لمفهوم المقامة تعريفاً وتحديداً وأصلاً ونشأة ورحلة إلى الأندلس ودواعي حسن ذبوع في الأدب الأندلسي الذي يجنح نثره - في تأثره بالأدب العربي المشرقي - إلى النسبي لا إلى المطلق، ذلك أن النثر الأندلسي عكس الصراع المشرقي - آنذاك - بين القديم والحديث، فكان أن سار النتاج المقامي الأندلسي في اتجاهين: اتجاه تقليدي اتباعي، واتجاه تجديدي ابتداعي.

كما ويحرك هذا الفصل النظري عدة إشكاليات ويجب عنها، ومن ذلك: القول بأن المقامة البديعية "زهرة برية" نبتت فجأة دون أن تكون لها جذور في مقامات الزهاد لابن قتيبة ومقامات الوعاظ وأقاصيص الكدية، ومنها القول بفارسية المقامة لا بعروبة أصلها، والقول بتأثر البديع بابن دريد ومعارضته، والربط غير الضروري للمقامة بالكدية، وكسر المقامات الحدود بين الشعر والنثر مشكلة فضاء لتفاعل عدة أجناس أدبية، ومنها ما يهيم ماهية أدب المقامة، ذلك أنه يبدي ظاهراً تعليمياً لغوياً، لكنه - أيضاً - يفجر باطناً ثورياً اجتماعياً.

- الفصل الأول: الإطار النظري -

- المبحث الأول: تحديد مفهوم المقامة
- المطلب الأول: التحديد اللغوي والاصطلاحي
- المطلب الثاني: الأصل والنشأة والرحلة إلى الأندلس
- المطلب الثالث: التفاعل مع باقي الأجناس الأدبية
- المبحث الثاني: بواعث ميلاد المقامة
- المطلب الأول: دواعي انتشار المقامة في الأدب العربي المشرقي
- المطلب الثاني: دواعي ذبوع المقامة في الأدب الأندلسي
- المبحث الثالث: صورة عامة عن النثر العربي مشرقيا وأندلسيا حتى ق9 هـ
- المطلب الأول: تأثير النثر الأندلسي بالنثر العربي المشرقي
- المطلب الثاني: المطلق والنسبي في تأثير النثر الأندلسي

-المبحث الأول: تحديد مفهوم المقامة

● المطلب الأول: التحديد اللغوي والاصطلاحي

ورد في لسان العرب أن المقامة بالفتح هي: المجلس والجماعة من الناس، قال: وأما المقام والمقام بالفتح والضم، فقد يكون كل منهما بمعنى الإقامة، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضموم. والمقام بالفتح: موضع القدمين. والمقامة بالضم: الإقامة. وقوله تعالى: "لا مقام لكم"، أي لا موضع لكم. وقرئ لا مقام لكم بالضم، أي لا إقامة لكم. وقوله عز وجل: "وحسنت مستقرا ومقاما" أي موضعا. والمقام والمقامة بالكسر أي المجلس. ومقامات الناس: مجالسهم. قال العباس بن مرداس أنشده ابن بري¹:

فَأَيَّ مَا وَأَيْكَ كَانَ شَرًّا فَقَيْدَ إِلَى الْمَقَامَةِ لَا يَرَاهَا

أي عمي، دعاء عليه. ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس: مقامة. ومنه قول لبيد²:

وَمَقَامَةٍ غُلِبَ الرِّقَابَ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ لَدَى بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ

وأشده ابن بري لزهير³:

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهُمْ وأنديةٌ ينتأبها القولُ والفعلُ

فمقامات الناس: مجالسهم. والمقامة والمقام: الموضع الذي تقوم فيه. والمقامة: السادة⁴.

¹ ابن بري: أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي المصري اللغوي النحوي المعروف بابن بري. لم يكن في الديار المصرية مثله، وكان قيما بالنحو واللغة والشواهد، صنف "اللبان في الرد على ابن الخشاب" في رده على الحريري. توفي 582 هـ / 1186م. (المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. فرح ناز علي صفدر. ص28).

² لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العاوي، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم ويعد من الصحابة والمؤلفة قلوبهم. هو أحد أصحاب المعلقة. توفي 41هـ / 661م (فرح ناز. ص26).

³ زهير بن أبي سلمى بن رباح المزني من مضر، حكيم الشعراء في الجاهلية. توفي ق 13هـ / 609م (فرح ناز علي صفدر. ص 26).

⁴ لسان العرب. ابن منظور، مادة (ق-و-م). وقد جاء في الصحاح نفس ما ورد في اللسان مع تغيير طفيف. فواضح بما لا يدع مجالاً للشك أن ابن منظور اعتمد في تعريفه على الجوهري، وقد صرح بذلك في مقدمة لسانه: "وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها... سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم". ص10. ويقصد بالكتب الأصول الخمسة التي عول عليها في جمع مادة قاموسه، وهي: تهذيب اللغة للأزهري - المحكم لابن سيده الأندلسي - الصحاح للجوهري-الجمهرة لابن دريد - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير. ثم إن الفيروزآبادي في القاموس المحيط اعتمد على سابقه، إذ ذكر في مقدمة قاموسه: "شرعت في كتابي الموسوم ب"اللامع المعلم العجائب، الجامع بين المحكم والعباب". ص59. (يقصد العباب الزاخر للصاغاني). فما يطبع حركة التأليف المعجمي عند العرب هو طابع التكرار والاجترار والاستنساخ والاعتماد على جهود السابقين، وهو ما دفعني لاعتماد لسان العرب دون سواه بحكم شهرته وغنى وتعدد مصادره، أسفا على أن أدبنا العربي لا يحفل بقاموس تاريخي كما هو حال القواميس والمعاجم الغربية.

ولم ترد لفظة (مقامة) في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في قوله تعالى: (الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب) (الآية 35: سورة فاطر) ، في حين وردت لفظة (مقام) أربعة عشر مرة، وهي إما مصدر بمعنى القيام، وإما بمعنى الموضع الذي يقام فيه، إذ ذكر القرطبي في تفسير قوله سبحانه وتعالى: (قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما) (الآية 73: سورة مريم)، وقرئ (مقاما) بضم الميم وهو موضع الإقامة، ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة. وقرئ (مقاما) أي منزلا ومسكنا. وقيل: المقام الذي يقام فيه بالأمر الجليلة.⁵ ومعلوم أن العرب كانوا يطلقون اسم المقامة على المجلس القديم أو ما يدور فيه، ذلك أن الصحراء في العصر الجاهلي كانت تتحول ليلا إلى مجالس للمسامرة والتحدث بالقصص والمواعظ.

لقد تطورت كلمة المقامة من فضائها اللغوي قبل أن تستقر في فضائها الاصطلاحي الفني كما تبلور على يد بديع الزمان الهمذاني ، ولعل المنتبغ لمسار هذا التطور تستوقفه ثلاث محطات⁶ :
- أولها " مقامات الزهاد " التي روى ابن قتيبة⁷ بعضها منها في كتابه " عيون الأخبار "، وتعرف كذلك ب " مقامات الوعاظ "، وهي مواعظ يقف بها الراوي أمام الخليفة لنصحه وإرشاده. ومن أشهرها: مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي، ومقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور⁸. ففي هذه المرحلة المتقدمة ارتبطت المقامة بالوعظ دون سواه من الأغراض المختلفة.

⁵- السرد العربي، الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل. ضياء الكعبي. ص 101.
⁶ يذهب زكي مبارك إلى أن " بديع الزمان الهمذاني ليس المنشئ الأول لفن المقامات، وإنما حاكى أحاديث ابن دريد (223هـ / 321هـ) ... ترك أربعين حديثا حدثنا عنها الحصري في زهر الآداب، وهي التي هاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب في معارضتها أربعمئة مقامة لم يبق منها إلا أربعون". النثر الفني في القرن الرابع. ص 278. وإلى مثل ذلك ذهب شوقي ضيف نافيا أن يكون الهمذاني قد أنشأ فعلا أربعمئة مقامة كما صرح الحصري والثعالبي : " فمجرد معارضة بديع الزمان لابن دريد في أحاديثه الأربعين يقتضي أن تكون أحاديثه أو مقاماته أربعين أيضا ". المقامة. ص 17.
⁷- أفرد ابن قتيبة الدينوري (ت 282 هـ) في كتابه بابا كاملا للحديث عن " مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك"، جامعا خطبا دينية أطلق عليها اسم مقام. وهو من عشر مقامات، وفي كل واحدة منها يلقي الزاهد كلمة أمام الخلفاء الأمويين والعباسيين، ويشجعون الخلفاء على إمعان النظر في عاقبة أمورهم ومصيرهم، ويدعونهم إلى الاعتبار، كما في مقام خالد بن صفوان أمام هشام.
⁸- تحدث المسعودي (ت 346 هـ) في كتابه: " مروج الذهب " عن خطب لعلي بن أبي طالب، وعن موعظة لعمر بن عبد العزيز ألقاها بمناسبة مقاماتها.

- **ثانيها:** "مقامات الخطباء" التي كانت تدور في المساجد، ذلك أن الخلفاء - ولاسيما معاوية - كانوا يوسعون منصب الإمامة ليشمل منصب "قاص" مهمته تذكير الناس ونصحهم عبر ألوان من القصص والأساطير والثقافة العامة، وهو ما لقي اهتمام الناس لإيثارهم طريقة الوعظ غير المباشر المذهب للملل عن السامعين.

- **ثالثها:** ألوان المحاورات الأدبية التي عرفها أهل القرن الثالث والتي عرفت بالمقامات، وما يدلنا على ذلك " وصية ابن المدبر في "الرسالة العذراء" للمتأدب بالنظر في كتب المقامات والخطب والمحاورات. وفي هذه المرحلة انتقلت المقامات إلى كلام المعتفين الذين يتوسلون إلى الأغنياء بكلام مسجوع، فيقولون: "ارحموا مقامي هذا" ⁹. ولعل بديع الزمان الهمذاني (ت 398هـ) حين أنشأ مقاماته قد تمثل فيها مقامات السائلين في الأسواق والمساجد فجعل بطله متشرداً.

وإجمالاً، فالمقامة في بعدها اللغوي تمثلت في حديث يلقي على جماعة من الناس إما بغرض النصح والإرشاد والوعظ، وإما بغرض الثقافة العامة، وإما بغرض التسول، وذلك دون أن تلتزم شكلاً فنياً محدداً.

لقد انطلقت كلمة المقامة من هذا الأفق اللغوي لتتبلور في مفهومها الاصطلاحي عند بديع الزمان الهمذاني ¹⁰، ذلك أنه عبر بها عن مقاماته المعروفة بـ "المقامات الأم" ¹¹. فمن الدلالة على

⁹ فن المقامات بين المشرق والمغرب. يوسف نور عوض. ص 10-12

¹⁰ الهمذاني: " هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني، ولد سنة 358 هـ، نشأ بهمدان إحدى مدن فارس الشمالية، ودرس العربية والأدب، ثم غادرها سنة 380 هـ. وقد درس على أبي الحسين بن فارس مستنظفاً علمه، ثم رحل إلى جرجان وبعدها إلى نيسابور سنة 382 هـ وبها ألقى مقاماته، وشجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي خلاف تصدى له البديع حتى طار ذكره وارتفع شأنه عند الملوك والرؤساء، ولما توفي الخوارزمي خلا له الجو فحسنت حاله. عاجلته المنية وهو في سن الأربعين سنة 398 هـ. " (شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني. محمد محيي الدين عبد الحميد. ص 7).

ويذهب أنور الجندي في كتابه - خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث - أن الهمذاني فارسي الأصل (ص 168). في حين يذهب شوقي ضيف - في كتابه المقامة - إلى أنه عربي مضرّي تغلبي. فهو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الملقب بلقب بديع الزمان، ولد في همدان وهي مدينة جبلية في إيران سنة 358 للهجرة، وفي رسائله دلالات مختلفة على أنه من أسرة عربية. قال في إحداها: " إني عبد الشيخ، واسمي أحمد، وهمدان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد " ص 13.

¹¹ فقد وردت كلمة المقامة في مقامات بديع الزمان الهمذاني أربع مرات، مرة بصيغة المفرد، وثلاث مرات بصيغة الجمع، غير أنه استشهد بها مرة واحدة وذلك في المقامة الرصافية في الحديث عن اللصوص، قال: " وأصحاب العلامات ومن يأتي المقامات ". (المقامة. شوقي ضيف. ص 314)

على المجلس أو الجماعة من الناس تكون فيه، أو الأحداث من الكلام، إلى الدلالة على الحكاية القصيرة المثيرة المسجوعة، والتي قد تتضمن أبياتا من الشعر أو قد لا تتضمن. تدور حول مغامرة بطل ظريف، ذلق اللسان، عالم باللغة، خبير بدقائقها، يكتسب بالحيلة والكديّة، وسيلته في ذلك قدرته اللغوية والأدبية. وهي حكاية تزخر بالحركة والحوار والسجال، وقد تشتمل على ملحة أو طرفة ويرويها راوية واحد. فبديع الزمان شكل مرحلة النضج والاكتمال بالنسبة لمسار تطور المقامة، إذ صارت على يده فنية متخذة لبوسا بديعيا غير مسبوق.

هكذا صارت المقامة تدل على قصة قصيرة، بطلها نموذج إنساني مكذوم ومتسول. لها راو وبطل، وتقوم على حدث ظريف، مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة، تحمل داخلها لونا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية، ومحكومة بإطار من الصنعة البلاغية واللفظية. لقد أصبحت المقامة تفهم على أنها حكاية أدبية قصيرة، يدور أغلبها حول الكديّة والاحتيال لجلب الرزق، وتشتمل على نكتة أدبية تستهوي الحاضرين. والحق يقال، إن قصص المقامة لا تدور كلها حول الكديّة¹²، ذلك أنه لكل مقامة موضوع منفصل، وأما الكديّة فهي صفة ملازمة للبطل وحده.

12- الكديّة: من كدى إذا سأل واستعطى الناس فهو مكذوم، والكديّة حرفة السائل الملحاح، وأصل معنى الكديّة في اللغة الشدة من الدهر. وقد برزت في عصر بديع الزمان الهمذاني بروزا قويا، ذلك أن الحياة الاجتماعية تردت ترديا بشعا شنيعا، إذ بسط الفقر ظلاله على سواد الشعب وعلى كثير من خاصته. فهذه الأوضاع أدت إلى ظهور طبقة من المكدين والمتسولين، وتميزت فيها جماعة اتسمت بالذكاء والتوسع في الحيلة، وهي طائفة الساسانيين تفرقوا في أقاليم شتى من العالم، ويعرفون ببني ساسان أو العجر. حياتهم قائمة على التنقل والسفر، يسكنون الخيام والعربات المتحركة، يتميز رجالهم بالكسل على العكس من نسائهم، وهم معروفون بإباحيتهم. وقد عدد البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوي) بعض حيلهم، ومنها: المكي (رجل يدخل المسجد ويدعي أن اللصوص أخذوا كل ما معه)، والمشعب (وهو الذي يعمي ولده حتى يسأل به الناس) ... ومعظم المكدين من الظرفاء. وقد اتصل بهم بديع الزمان، وفيهم كتب مقامته الساسانية. أشهر شعرائهم: الأحنف العكبري، وأبو دلف الخزرجي. (للتوسع ينظر: فن المقامات بين المشرق والمغرب. مرجع سابق. ص 89 إلى 95).

● المطلب الثاني: الأصل والنشأة والرحلة إلى الأندلس

يفضي البحث في أصل المقامة إلى اتجاهين متعارضين : فمن الدارسين من يربطه بالفرس، ومنهم من يربطه بالعرب. إذ يرجح أنصار الاتجاه الأول أن أسلوب الأدب العربي ظل جامعا للإيجاز في أداء المضمون غير منفصل عنه حتى اتصل بالآداب الفارسية القديمة، فطراً عليه ذلك الطابع الدخيل من السجع والزخرف، وتطور تطوراً واسعاً حتى ظهرت المقامات. "وهي فن مصطنع قائم على التأنق اللفظي حيث الإغراق في السجع والإسراف في البديع من جناس وطباق، وتزيد في المقابلة والموازنة. والمعروف أن الذين قادوا هذا الاتجاه لم يكونوا عرباً وإنما كانوا من أصل فارسي، من أمثال : عبد الحميد وابن العميد والصاحب بن عباد، وبديع الزمان (في السجع) ، ومن أمثال: بشار وأبي نواس (في الشعر الحسي)".¹³

إن إشاعة عبد الحميد للزخرف والازدواج، وانحراف ابن العميد – من بعده – إلى السجع، ومن بعده تلميذه الصاحب بن عباد ، كل ذلك كان مقدمة لبديع الزمان الهمداني في المقامات . "وقد كان طبيعياً أن تواكب حركة السجع هاته مهاجمات الشعوبيين لأسلوب الأدب العربي الأصيل، ذلك أن الهمداني هاجم أسلوب الجاحظ¹⁴ ، وأنكر سهولة ألفاظه ووضوح معانيه، وقال إن أسلوبه بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات".¹⁵ وكان الجاحظ قد أشار إلى أن السجع من خصائص لغة العرب، ولكن دون إسراف ولا إفراط ، وإلى مثل رأيه أشار الخفاجي في كتابه " الفصاحة" في تعريف السجع: "إن أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى وكان غير مقصود، فذلك بلاغة والفواصل مثله. وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيب والفواصل مثله، وقد سمي ما في القرآن فواصل ولم يسم سجعا، وذلك تنزيهاً للقرآن عن الوصف اللاحق لغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم".¹⁶

¹³- خصائص الأدب العربي. أنور الجندي. ص 181-182.

¹⁴- الجاحظ: "أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي الليثي المعروف بالجاحظ، البصري العالم المشهور، صاحب التصانيف في كل فن، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب الحيوان فلقد جمع فيه كل غريبة، وكذلك كتاب البيان والتبيين. ت 255 هـ/ 668 م بالبصرة وقد نيف على تسعين سنة." (ابن خلكان. وفيات الأعيان. مج 3. ص 470-474).

¹⁵- خصائص الأدب العربي. مرجع سابق. ص 182.

¹⁶- سر الفصاحة. الخفاجي. ص 94.

فقد عرف العرب قبل الإسلام ما عرف بسجع الكهان، كرهه الرسول صلى الله عليه وسلم وأزرى به .

وقد ندد الكثيرون بزيف هذا الأسلوب وبعده عن أصالة الأدب العربي. وكان ابن خلدون قد تنبه إلى خطر السجع والزخرف والمقامات فقال في مقدمته: "لقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية... واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال على المنثور كله على هذا الذي ارتضوه وسلطوا الأساليب عليه، وهجروا المرسل وتناسوه خصوصا أهل الشرق"¹⁷. فقد هاجم ابن خلدون هذا النمط ووصفه بالبعد عن البلاغة والأسلوب العربي الأصيل. وإذا كانت الدعوة إلى السجع والزخرف قد ذاعت، فإنها انحصرت في عدد قليل من الكتاب، وأما العمالقة من أمثال: الفارابي، وابن سينا، والبيروني، وابن حزم، والجاحظ وغيرهم، فقد التمسوا أسلوب القرآن الكريم. ولقد كان الساجعون عالمين بخروجهم عن طبيعة البيان العربي تابعين للغزو الشعبي الفارسي، وقد صور الحريري¹⁸ هذا المضمون حين قال في مقدمة مقاماته: " وأرجو أن لا أكون في هذا الهذر الذي أوردته ... كالباحث عن حقه بظلفه ... فألحق بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا." ¹⁹

فالخلاصة المهمة التي ننتهي إليها من وراء حجج الاتجاه الأول، أن المقامات ليست فنا أصيلا من فنون الأدب العربي، وإنما هي فن فارسي دخيل على أدبنا العربي الموازن بين العناية باللفظ والعناية بالمضمون، وذلك على نحو ما عرف به: الجاحظ، وابن حزم، وابن تيمية، والغزالي، وابن خلدون، وابن القيم، وكثيرون.

وأما الاتجاه الثاني الذي يرد المقامة إلى أصول عربية فممثلوه كثر – أمثال أحمد ضيف وغيره – وقد قالوا بعروبة المقامة مفندين حجج الاتجاه الأول، ومما انتصروا به أن:

17 - المقدمة. ابن خلدون. ص 567-568.

18 - هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري منسوباً إلى صناعة الحرير أو بيعه، ولد سنة 446 هـ بالمشان، وهي قرية قرب البصرة. قرأ العربية على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين، والفقهاء على أبي إسحاق الشيرازي. وعين صاحب الخبر بالبصرة وهو منصب ظل به إلى أن مات، فتوارثه أولاده من بعده حتى 556 هـ. والحريري خلافاً للهمداني متفق على عروبه. ولد في البصرة، لكنه عمل مع (أنو شروان) وزير الخليفة المسترشد وهو الذي دفعه إلى صنع مقاماته. فانتسب نطق فن المقامة حدث بسبب أنه كان يرضي الحكام والولاة والرؤساء الذين لم يكونوا عرباً. (شرح مقامات الحريري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الجزء الأول. ص 13 وما بعدها).

19 - شرح مقامات الحريري. مقدمة المؤلف. ص 8.

أ- ظهور المقامات في اللغتين العبرية والسريانية كان بعد ظهور ترجمة مقامات الحريري إلى السريانية، ولو أن المقامات الفارسية سابقة على المقامات العربية لكان الأولى أن تنقل الترجمة عنها، وذلك تماماً كما حدث مع كتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجم إلى السريانية قبل أن يترجم إلى العربية.

ب- اعتراف القاضي حميد الدين أبو بكر بن محمود البلخي²⁰ (المتوفى سنة 559 هـ) في مقدمة مقاماته المشهورة ب"مقامات الحميدي"، بأنه ترسم في مقاماته خطى الحريري (ت 516 هـ) وبديع الزمان الهمذاني (ت 398 هـ)، وأنه أراد أن يدخل هذا الفن إلى اللغة الفارسية حتى يعرف به مواطنيه، ويحفظهم على التعرف على البلاغة العربية والفارسية معا.²¹

ج- قدرتنا على تتبع الأصول التي صاغ منها بديع الزمان نموذج الفني، وهو ما فعلناه نسبياً في المطلب السابق من هذا الفصل الأول من هذه الأطروحة ، ذلك أن المقامة بدت ذات روافد وأصول عربية شكلت مصادر أثرت في مقامات الهمذاني ، ومن ذلك أخبار الأعراب الواردة في عدد كبير من كتب الأدب والكثير من أشعار الكندية ونوادر الشطار.

ولقد كان الداعي الأساسي من وراء إدراج هذا المطلب، هو احتكاكي المباشر خلال عملية التقيش بكتاب: "المقامات، السرد والأنساق الثقافية" لعبد الفتاح كيليطو، والذي ذهب فيه إلى أن المقامة "زهرة برية"²² نبتت فجأة، وهو يريد أنه لم تكن لها أصول وروافد عربية، متناسياً وغافلاً عن الموروث الحكائي العربي، وموروث الكندية، وأسمار مجتمع القبيلة، وحكايات الوعاط، وما إلى ذلك من مظاهر ثقافتنا الشعبية العربية الضاربة في القدم.

²⁰ - هو أول من عرف من مقاميي الفرس. وقد دخلت المقامات إلى العبرية عن طريق الترجمة التي قام بها "ابن شلوموا" لمقامات الحريري والتي أنشأ على غرارها خمسين مقامة أسماها "سفر تحكومي" أي: كتاب الحكمة، وقد تضمن كثيراً من آيات التوراة.

²¹ - ينظر كتاب: فن المقامات بين المشرق والمغرب. يوسف نور عوض. ص 13. وللتوسع في المقامات الحميدية، ينظر كتاب: "المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي - الحريري والحميدي خصوصاً- فرح ناز علي صفدر "رفعت جو". وهو في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت في معهد الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف ببيروت، تقع في 608 صفحة، وطبعت أول مرة سنة 2011 م.

²² - ينظر كتاب: "المقامات: السرد والأنساق الثقافية". عبد الفتاح كيليطو. ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي. ص: 6.

فالهمداني - مرسى القواعد الفنية للمقامة بشكلها المعروف ومن بعده الحريري والسرقسطي²³ وغيرهم - لم ينشئ المقامة من فراغ أو من عدم ، وإنما يتعلق الأمر بسيرورة همت فنون النثر العربي، وكانت البوصلة التي وجهت المقامة لسد الخصاص والنقص الحاصل آنذاك في أحد أهم الأجناس الأدبية، وهما : القصة والمقالة ، أو لنقل عدم نضجها واكتمالهما ساعتها.

وقد ذكر زكي مبارك في هذا الصدد، وتحديدا في معرض حديثه عن خصائص النثر الفني في القرن الرابع (عصر الهمداني): " وكل ما يمكن الاطمئنان إليه في تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو... ليس في القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الأول والثاني والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين، أمثال ابن العميد والخوارزمي وبديع الزمان. وأولى هذه الخصائص إيثار البديع، فقد كان الكتاب السابقون يميلون إلى المحسنات البديعية ولكن في غير إسراف، فلما جاء كتاب القرن الرابع قصدوا إليها قصدا... " .²⁴

وأما الحديث عن رحلة المقامة المشرقية إلى الأندلس، فإنه يطرح سؤال الكيف :كيف رحلت؟ وكيف نشأت في الأندلس؟ .

والجواب نجده في الرحلات التي بدأت في وقت مبكر من قيام دولة الأندلس، فقد كانت متباينة الأغراض يقوم بها العالم والطالب، والغني والفقير لأداء فريضة الحج، "ورغم هذا الاختلاف في الراحلين إلى المشرق ، وفي دوافع الرحلة ، فإنهم التقوا - فيما يبدو - في الحرص على

²³ - هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني القرطبي السرقسطي المعروف أيضا بالأشتركوني أو الأشتركوني (نسبة إلى أشتركوني وهي حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس). ولد في سرقسطة ثم كان مسكنه في قرطبة، كما كان في سبتة سنة 509 هـ. لحقته زمانه (علة مقعدة) سنة 538 هـ توفي منها في 21 من جمادى الأولى (538 هـ / 1143/12/ 02م) (تاريخ الأدب العربي. ج 5. عمر فروخ. ص 237). أهم ما خلف المقامات السرقسطية أو اللزومية والتي عارض بها مقامات الحريري، وكتابه "المسلسل" وهو في خمسين بابا، وهو في الألفاظ التي يكون لكل معنى كلمة منها معنى آخر، وقد حاولت الرجوع لبعض المصادر الخاصة بالأعلام فلم أجد إلا شذرات متفرقة تهم سيرة السرقسطي، ومن ذلك النزر القليل الذي ساقه ابن بشكوال (494-578هـ): "محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي. من أهل سرقسطة. سكن قرطبة. يكنى: أبا الطاهر صاحبنا. سمع من أبي علي الصدفي كثيرا، ومن أبي محمد بن ثابت، وأبي عمران بن أبي تليد، وأبي محمد بن ثابت. وبقرطبة وإشبيلية من غير واحد من شيوخنا. وكان مقدما في اللغة، والعربية، شاعرا محسنا، وله مقامات من تأليفه. أخذت عنه واستحسننت، وتوفي رحمه الله في قرطبة في جمادى الأولى من سنة 538 هـ". (الصلة. الجزء الثالث. ص 853).

²⁴ - النثر الفني في القرن الرابع. زكي مبارك. ج 1. ص 125 .

إحضار كتب المشاركة إلى الأندلس "25 فقد كان الأندلسيون يتلقفون ما يصل إليهم من تراث المشرق بالحفظ والمدارسة، ولا يلبث أن يصير مادة للمعارضة، ومن ذلك فن المقامات الذي لم يقتصر انتشاره على بيئته المشرقية بل طال ذبوعه البيئة الأندلسية، " وكان تأثير مقامات بديع الزمان في أدباء القرن الخامس محدودا ، ذلك من خلال المقامات التي وصلتنا لكل من أبي حفص عمر بن الشهيد، وأبي المطرف عبد الرحمان بن فتوح، وأبي محمد مالك القرطبي، وابن شرف، إذ وصلتنا لكل واحد من هؤلاء مقامة واحدة "26.

فمقامات البديع انتشرت بوجه خاص أيام ملوك الطوائف بالأندلس، حيث قام بعض الأدباء بمحاكاتها، وقد أوردهم ابن بسام في ذخيرته، وهم المشار إليهم أعلاه. وفي أوائل عهد المرابطين بالأندلس ظهرت مقامات الحريري بالمشرق، وحظيت باهتمام بالغ لم يكتب لمقامات الهمذاني مستحدث فن المقامة. وقد ذكر إحصان عباس في هذا الصدد أن : " الاهتمام بمقامات الحريري حين ظهرت كان أشد، إذ أقبل الكتاب على معارضتها ومنهم ابن شرف القيرواني... وجد منهم من سمع منه مقاماته ... وكان لأبي القاسم بن جهور أكبر أثر في نشرها بالأندلس إذ تلقاها عنه عدد كبير من التلامذة "27. فقد التفت الأندلسيون - بعد مرحلة الهمذاني - إلى مقامات الحريري، وصاغوا على منوالها، وقلدوها، "وقد سمع عدد من الأندلسيين هذه المقامات من صاحبها الحريري ونقلوها معهم إلى بلاد الأندلس، وأهمهم: أبو العباس الشريشي²⁸ (ت619هـ) أخذها عن أبي بكر بن أزهر الحجري صهر أبي القاسم بن جهور ... وعن ابن جبير الرحالة المعروف. وقد ألف الشريشي شروحا على المقامات الحريرية: الكبير، الأوسط، الأصغر "29.

25- فن المقامات بالأندلس. قصي عدنان سعيد الحسيني. ص16-17.

26 - دراسات في الأدب الأندلسي. محمد سعيد محمد. ص 301.

27- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف المرابطين. إحصان عباس. ص 243.

28 - هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي. شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ كبارها الأدبية، ووسطها اللغوية، وصغرها المختصرة. لا تمدنا ترجماته بمادة كافية عن أسرته وحياته ورحلاته وأولاده، كل ما نعرف أنه ولد وتوفي بشريش. وقد قدم شرحه إلى الأمير الموحي أبو يوسف يعقوب، فيكون تاريخ تأليفه شرح المقامات بين 586 و595 هـ، وكانت سنه بين 35 و40 سنة تقريبا . (تاريخ النقد الأدبي في الأندلس. محمد الرضوان الداية. ص 721-224).

وأما محمد أبو الفضل إبراهيم محقق كتاب: " شرح مقامات الحريري للشريشي " فإنه يذكر أن الشريشي ولد بشريش سنة 577 هـ (أجمل بلاد الأندلس) وتوفي بها سنة 619 هـ. وقد ألف من الكتب غير شرحه مختصرا لنوادير أبي علي القالي، وشرحا لكتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي، وآخر لشرح الجمل للزجاجي، وجمع مشاهير قصائد العرب، كما وضع رسالة في العروض (ص 17) .

29 - في الأدب الأندلسي. محمد رضوان الداية. ص 257.

ويبقى السرقسطي - صاحب المقامات اللزومية - أهم من عارض الحريري، وسيأتي الحديث عنه في الفصل التالي. وقد استمرت المعارضات إلى حوالي القرن التاسع الهجري، كمقامات: أبي عمر الزجال - والقاضي النباهي- ولسان الدين بن الخطيب . ولن نسهب في تطور فن المقامة في الأندلس فذاك درس تاريخي لا يسعنا المجال للخوض فيه لاعتبارات شكلية تهم توازن أبواب وفصول ومباحث هذه الدراسة. وقد وضع إحسان عباس ثبنا بأسماء المقاميين الأندلسيين ممن وصلتنا أعمالهم أو ضاعت مع ما ضاع من تراثنا الأدبي العربي إذ ذكر في هذا الصدد أن: " ما أنتجه الأندلسيون من مقامات سواء أكانت معارضة للبديع أو الحريري، فإنه يشغل الفترة القائمة بين ابن شهيد وحتى القرن التاسع الهجري . وفيما يلي قائمة اسمية بأهم ما قدموه في هذا الفن ، سواء وصلتنا صورته أو عرفنا اسمه فقط:

1. مقامتان لأبي عبد الله بن شرف القيرواني.
2. مقامة لأبي حفص عمر بن شهيد.
3. مقامة للأديب أبي محمد بن مالك القرطبي.
4. مقامة لعبد الرحمن بن فتوح تشبه مقامة ابن شرف النقدية.
5. مقامة لابن المعلم.
6. مقامة صنعها الفتح بن خاقان على الأستاذ أبي محمد البطليوسي وعليها رد يسمى الانتصار، وقد نسبت لابن أبي الخصال فنفاها عن نفسه وتبرأ منها.
7. مقامة لابن أبي الخصال عارض بها الحريري.
8. المقامات اللزومية للسرقسطي الأشرقي.
9. مقامة لأبي إسحاق بن خفاجة الشاعر لم يبق منها إلا أبيات في ديوانه.
10. مقامتان لمحارب بن محمد بن محارب الوادي أشي (ت 553هـ) كتب إحداهما إلى القائد أبي عبد الله بن ميمون، وكتب الأخرى في مدح القاضي عياض بن موسى.
11. المقامة الدوحية أو العياضية الغزلية لأبي عبد الله بن عياض اللبلي.
12. سبع مقامات للأديب أبي الحسن بن سلام المالقي.
13. مقامات في أغراض شتى لعبد الرحمان بن محمد السالمي المالقي(ت 571 هـ).

14. مقامة في أهل غرناطة لمحمد بن خلف الهمذاني الغرناطي (ت 573 هـ).
15. مقامات لابن القصير عبد الرحمان بن أحمد (576 هـ).
16. مقامة صنعت في ثلب بعض أعيان مالقة، ونسبت إلى علي بن جامع الأوسي، فخاف على نفسه مما عسى أن ينجز إليه منهم بسببها فخرج عن ذلك البلد.
17. مقامة لأبي بكر الكاتب يحيى بن محمد الأركشي تسمى " قسطاس البيان في مراتب الأعيان".
18. مقامات لسان الدين ابن الخطيب ومنها: مقامة السياسة، ومقامة وصف البلدان، ومعيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف.
19. مقامة العيد لأبي محمد عبد الله الأزدي (ت 750 هـ).
20. المقامات النخلية لأبي الحسن النباهي المالقي.
21. مقامة " تسريح النضال إلى مقاتل الفصال " لأبي عمر الزجال (ت 844 هـ)، ومقامة أخرى له في شأن " الوباء " ³⁰.
- إن هذا التراكم في المقامات - سواء ما وصلنا منها فعلا، أو ما وصلنا مبتورا (صنيع ابن بسام في بعض المقامات)، وما لم يصلنا ووجدنا أخباره متشذرة بين ثنايا أمهات المصادر والمراجع- يسمح بتبيين حقائق محددة عن طبيعة المقامة الأندلسية، وهو ما سنحاول الوقوف عنده طويلا في الفصل القادم.

³⁰ - ينظر " تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين". مرجع سابق. ص 244 إلى 246، إذ هناك إحالة على أهم المصادر المتضمنة للمقامات الأندلسية ومن ذلك: النخيرة - بغية الوعاة - المغرب - رسائل إخوانية - التكملة- النفع- أزهار الرياض...

● المطلب الثالث: التفاعل مع باقي الأجناس الأدبية، وسؤال النوع؟

إن انفتاح المقامة على عدة أجناس أدبية - أو لنقل تفاعلها معها أو هو تداخلها معها، أو هو كذلك خرق لحدود الأجناس الأدبية - يمثل ظاهرة ملفتة في إنتاج النصوص المقامية، وعلامة من علامات اكتمال الأجناس الأدبية. ولعل أول ما يكشف لنا هذا التفاعل بين الأجناس الأدبية هي عناوين المقامات ذاتها، إذ نجد للهمذاني خمس مقامات تحمل عناوينها ثنائية معبرة عن هذا التداخل وهي³¹ :

- المقامة القريضية: المقامة/الشعر
- المقامة الشعرية : المقامة/الشعر
- المقامة الوصية : المقامة/الوصية(الخطابة)
- المقامة الوعظية: المقامة/الخطبة الوعظية
- المقامة الخمرية : المقامة/الخمرية (غرض شعري).

وقد بدا لي بما لا يدع مجالاً للشك أن الهمذاني (رائد فن المقامات) لم يسع لمحاكاة الأجناس الخطابية، بل أكثر من ذلك سعى لخلق جنس أدبي جديد يؤشر لاكتمال وتكامل الأجناس الأدبية في فن المقامة. فليست المقامة نوعاً سردياً منغلقة على ذاته، إذ استجابت منذ نشأتها وتطورها في عصور مختلفة لتفاعل نصي شكل انفتاحاً على أجناس وأنواع سردية نثرية وشعرية لعل أهمها: الخبر- الشعر- الرحلة - الرسالة - المناظرة - الوصية - الألغاز- الأحاجي اللغوية - القرآن الكريم- الأحاديث الشريفة - الأمثال³².

³¹ السرد العربي القديم. الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل. مرجع سابق. ص. 136
³² لدى الحريري أو السرقسطي لا تتيح عناوين المقامات الكشف اليسير لمظاهر التفاعل بين الأجناس الأدبية، بل يقتضي الكشف عن التداخل بين الأجناس الرجوع إلى المتون وقراءتها. ومهما يكن فقد سمي الحريري المقامة الثالثة والعشرين بالمقامة الشعرية، والمقامة الرابعة والأربعين بالمقامة اللغوية، في حين سمي السرقسطي المقامة العشرين بالخمرية، والثلاثين بمقامة الشعراء. والمتون هي ما يكشف عن حضور الأجناس الأدبية الأخرى.

لقد توزع الباحثون حول هذه العلاقة الإشكالية - المقامة والتفاعل مع باقي الأجناس الأدبية - بين أربعة توجهات:

✓ **أولها:** يرى أن بعض المقامات قصص بمفهوم القصة القصيرة، وطبقوا عليها مقاييس نقدية معاصرة لم تكن ساعة إنشائها، فوجدوا فيها الكثير من النقص الفني المعيب.

✓ **ثانيها:** يرى أنها ليست من القصص في شيء، وإنما هي حكاية بسيطة ساذجة لم يكتمل نموها لتغدو قصة.

✓ **ثالثها:** يرى أنها أقرب إلى المسرحية منها إلى أي جنس أدبي آخر، وهو صنيع "جابر قميحة" بشأن المقامة التبريزية للحريري، إذ جعلها مسرحية قصيرة من فصل واحد تنسجم مع كل المعايير النقدية المسرحية.³³

✓ **رابعها:** يرى أنها نوع له سماته الخاصة التي تميزه عن أي شكل قصصي آخر، " إذ المقامة جنس أدبي قائم بذاته لم تعرف اللغات الأخرى له نظيراً، وكان يمكن أن يصبح هذا الجنس أخصب جنس أدبي في العربية لو قبيض له من يعنى بأمره ويكشف عن عناصره، ويحول بينه وبين الانحراف عن نقد العادات والتقاليد والقضايا العامة إلى المماحكات اللفظية، والألغاز اللغوية، وتكلف الحلى اللفظية التي لا تعود على المعنى بطائل ذي قيمة ".³⁴

إن أدب المقامة منذ ولادته على يد الهمذاني قد قام بكسر الحواجز بين الشعر والنثر، وبين النثر وبعض فنونه (الرسالة أساساً - الرحلة - الوعظ - الوصية ...)، ولعل مرد ذلك إلى أن جل المقاميين كانوا أدباء، أي شعراء وناثرين في نفس الوقت، يشتغلون بالمنظوم والمنثور معاً. ثم إن ذلك يعزى إلى التقاطع الذي يعتري جملة من فنون القول شفاهية أو كتابية، ومن ذلك - مثلاً - اشتراك الرسالة والمقامة في التوسل بالشعر كما بالسجع، لدرجة التداخل الفني واستعصاء الفصل والتحديد أحياناً بالنسبة للباحث غير المتخصص.

ضمن هذا الإطار تتصور بسمة عروس أن المقامة تعد أفضل ما يمثل التعدد الأجناسي والتنوع في الفصائل الأدبية والتفاعل الأجناسي، " وإذا كانت بعض المقامات الهمذانية تتميز

³³ - ينظر في ذلك كتابه: "التقليدية والدرامية في مقامات الحريري".

³⁴ - تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الثاني. محمود علي عبد المعطي. ص 394.

بتصريحها من خلال العنوان الذي تتخذه بطبيعة المسلك الأجناسي المتحقق داخلها... فإنه على النقيض من ذلك، لا تتيح المقامات الحريرية أو غيرها من المقامات الأخرى ذلك الكشف اليسير لتلك العلاقة التفاعلية، وهو ما يدفع إلى محاولة الحفر داخل النص للكشف عن أساليب تشكله القائمة على تفعيل المقومات الأجناسية لعديد من الأجناس وتوظيفها وفق أشكال مختلفة وتطويعها لأغراض المقامة ومقاصد الكتابة".³⁵

هكذا يبدو جليا أن دراسة فن المقامة تبدو مهمة غير يسيرة، خاصة وأن المقامات تمثل نسا ثقافيا مشحونا بعدة أنواع سردية داخلية في الموروث السردى العربى القديم، بل ممهدة لظهور الفنون الأدبية الحديثة (القصة - المسرحية - المقالة...).

والسؤال الذي يطرحه نفسه بإلحاح في هذا المقام هو: ما الحدود المتحكمة في تحديد جنس المقامة؟

" إن إبداع الهمذاني لفن المقامة يقوم في بنيته السطحية على ضفيريّتين متلازمتين:

✓ **أولاهما:** قالب الحكائي المستلهم - فنيا وموضوعيا - من حكايات المكدين أو الحكاية الشطارية، بحيث أعاد إنتاجها على نحو تبدو وكأنها من وحي الخيال على حد تعبيره.

✓ **ثانيهما:** الأسلوب البديعي القائم على الاستخدام الثابت للسجع، اتفقا مع ذوق العصر وأسلوب النخبة".³⁶

وعلى الرغم من اختلاف النقاد والدارسين في تصنيف المقامة من حيث النوع الأدبي، إلا أن معظمهم اعتبرها نمطا قصصيا لما يلازمها من أربعة مظاهر تحقق هويتها السردية وهي:

- البنية السردية: أو تكرار الشكل السردى المرتبط بظهور شخصيتي البطل والراوي وحدث التعارف بينهما .

- موضوع الكدية/الحيلة.

- الأسلوب المسجع.

- الإسناد أو نسبة الخطاب: أي نسبة المؤلف قولا أو نصا إلى شخصية أو شخصيات خيالية، إذ لا يتكلم مباشرة.

³⁵ - التفاعل بين الأجناس الأدبية. بسمة عروس. ص 261.

³⁶ - النثر العربى القديم. محمد رجب النجار. ص 279.

وإذن، فما ينتظم المقامة ويشكل خصائص ملازمة لها هي المحددات الآتية :

- **وحدة الحدث والموضوع:** إذ تتكون المقامة من حدث قصصي واحد متخيل له مقدمة مثيرة لفضول المتلقي، وعقدة، وخاتمة، تربط بينها جميعا حبكة بسيطة ومقنعة سرديا. وأما وحدة الموضوع، فالمقامات - وبخاصة المشرقية - تكاد جلها تدور حول مجال واحد هو موضوع الكدية، ومن هنا تعدد المقامات - ظاهريا - بتعدد الحيل والألاعيب.

- **وحدة البطل والراوي:** فالبطل رجل فصاحة وبلاغة، وحيلة ودهاء، يمتحن الكدية، كثير السفر والترحال. كذلك لكل مقامة راوية خيالي دوره الأساسي سرد الأحداث ونقلها لغويا إلى المتلقي، وقد يتبادل الدور مع البطل فيصبح الراوية هو بطل المقامة في حال غياب بطلها الأصلي، وكلاهما ثابت عند كل كاتب من كتاب المقامات.³⁷

- **وحدة المكان والزمان:** فالمقامة الواحدة تدور أحداثها في مكان واحد، قد يكون عاما (مدينة مثلا) أو خاصا (مسجد - سوق)، وأما الزمان : فإما عام (تاريخي - العصر الجاهلي...) أو خاص (لا يتجاوز مقدار يوم وليلة).

- **وحدة الشكل اللغوي والأسلوبي:** الاعتماد الكبير على السجع والازدواج الثابتين والمستمرين في كل جمل نص المقامة، واعتماد أساليب منطوية على روح التهكم والسخرية الاجتماعية.

- **وحدة الغاية والوظيفة:** "فجل المقامات تدور حول الكدية في ظاهرها، وأما جوهرها فيحيل عليه ترحال البطل وسفره في أرجاء العالم الإسلامي لتعيرية واقعه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي (التجارة بالدين- صراعات مذهبية- الإيمان بالخرافات...). فالوظيفة اجتماعية، وهي أيضا جمالية تتمظهر في الجانب الحكائي والتعبيري (جماليات السرد- جماليات الأداء (سجع- تصوير فني- نزعة فكاهية)..."³⁸.

³⁷ - لدى الهمذاني : البطل هو: أبو الفتح الإسكندري، والراوي هو: عيسى بن هشام .

لدى الحريري : البطل هو: أبو زيد السروجي، والراوي هو: الحارث بن همام .

لدى السرقسطي: البطل هو: السائب بن تمام، والراوي هو: المنذر بن حمام.

³⁸ - النثر العربي القديم. مرجع سابق. ص 288

- المبحث الثاني: بواعث ميلاد المقامة

● المطلب الأول: دواعي انتشار المقامة في الأدب العربي المشرقي

أ- البواعث العامة:

- أدت الحالة الاجتماعية في العصر العباسي (الهوة الكبيرة بين طبقة الفقراء وطبقة الأغنياء) إلى ظهور الاستجداء وانتشاره في ق 4هـ/10م، " فهذا الضرب من الحياة الاجتماعية كان مبعثا لوجود مقامات بديع الزمان الهمداني ومقامات الحريري " ³⁹، فالمقامة انعكاس لهذا الواقع بكل متناقضاته.

- الميل الشديد إلى التكلف في الصنعة اللفظية والبديعية في هذا العهد كان باعثا آخر على ظهور المقامات.

ب. البواعث الخاصة: تختلف باختلاف كتاب المقامة:

- كان هدف بديع الزمان الهمداني إصلاح المجتمع عن طريق عرض مشكلات مختلف الطبقات، بشكل مزين بالسجع لكنه مسل، ولم يظهر فيه أن اللغة كانت الهدف الأول والأخير. يعتقد شوقي ضيف أنه " ليس في القصة عقدة ولا حبكة، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يعن بشيء من ذلك، فلم يكن يريد أن يؤلف قصصا، وإنما كان يريد أن يسوق أحاديثا لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية وتقف بهم على ألفاظها المختارة " ⁴⁰.

فالغاية التعليمية في مقامات الهمداني وغيره ممن جاء بعده واضحة جلية، ذلك "أن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر، وإن من يتابع البديع في مقاماته يحس حقا أنه ألفها لغرض التمرن على الكتابة والإنشاء" ⁴¹. وفي هذا الرأي ظلم مسرف لعبرية بديع الزمان الذي عبر في مقاماته عن روح عصره وارتبط بمجتمعه وبهمومه، فجاءت مقاماته ثروة لفظية تضم الزينة والصنعة كما المضمون الهادف .

39 - المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 43.

40 - المقامة. مرجع سابق. ص 8.

41 - الفن ومذاهبه في النثر العربي. شوقي ضيف. ص 118.

- لدى الحريري استجاب في تأليفها "لمن إشارته حكم، وطاعته غم"⁴²، وقد اختلف المؤرخون حول من أمره بكتابتها.

- لدى السرقسطي كان الباعث هو المعارضة.

فهذه البواعث قد تكون تقليدا أو معارضة، أو إظهارا للقدرات اللغوية، أو تشجيعا للآخرين

على كتابتها. وهي بصنفيها - العام والخاص - تتنازعها أربعة أغراض أساسية:

أ. غرض المحاكاة في الموضوعات: وأهم تجلياته :

-الكدية و الاستجداء : لأن التسول كان منتشرا في القرن الرابع و الخامس الهجري خاصة

بالمشرق. وأما الأندلس فلها وضع خاص إزاء التسول والمتسولين، وهو ما انعكس على

المقامات الأندلسية، وذلك باستثناء بضع مقامات للسرقسطي اتخذت من الكدية موضوعا لها.

- الوعظ : إذ يظهر المقامي أفكاره الحكمية وينصح الناس ويرشدهم.

- الألغاز : بغرض إظهار البراعة اللغوية والمعرفية.

- الأحاجي : بغرض التعليم والتسلية.

ب. الغرض التعليمي والأخلاقي: فليست المقامات مجرد حكايات، وإنما لها أغراض أخلاقية

وتعليمية تتوسل بالمح للتنبيه والتهديب. فالجانب الأخلاقي يظفر بالحيز الأكبر في موضوعات

المقامات، وقد أقر بهذا الهدف الحريري في مقدمة مقاماته: "فأي حرج على من أنشأ ملحا

للتنبيه، لا للتمويه، ونحى به منحى التهديب، لا الأكاذيب، وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب

لتعليم أو هدى إلى صراط مستقيم"⁴³. فهدفه تعليمي تهذيبي ديني أخلاقي، توجه بمقاماته إلى

الطلاب لتمرينهم وتهذيبهم وإكسابهم تجارب الدنيا عبر حكايات أبطال المقامات، وتعليمهم

صنعة الكتابة والإنشاء والشعر بأساليب أنيقة. وقد " أشار الحريري - مثلا - إلى عدة طرق في

التعليم كما في "المقامة النحوية" و "المقامة الطيبية" و "المقامة الحلبية"، واعتمد أحيانا الألغاز

وغرضه التعليم كما في "المقامة الفرضية" التي قصد بها تعليم بعض أصول الشرع في إطار

من الملاحظة البلاغية، واعتمد أيضا الأحاجي كما في "المقامة الملطية" و "المقامة النجرانية"⁴⁴.

42- المقامات . الحريري. المقدمة. ص 5.

43- المصدر نفسه. ص 8-9.

44- المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 329.

ج. الغرض اللغوي: فمن أهداف المقاميين: دلالتهم على قدراتهم الفنية وإظهار ما لديهم من عظيم الثروة اللغوية، والإفصاح عن اتساع ثقافتهم في مختلف آفاق المعرفة السائدة في عصورهم، وتبيان قدراتهم على التلاعب بالألفاظ أو ما يعرف باللعب أو التلاعب اللفظي في علم اللسانيات.

د. الغرض الاجتماعي: تفاوت المقاميون في درجة التصاقهم بالواقع ووصف عادات أهله وعقائدهم وخرافاتهم وسبل عيشتهم، ومشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية والأدبية والعلمية، "فالحريري - مثلا - لم يقدم إلا تشخيصا باهتا جدا للنفس البشرية وللمجتمع الذي كان يعيش فيه"⁴⁵، إذ لا تعطينا مقاماته صورة واضحة عن مجتمعه العباسي، اللهم تركيزه على ظاهرة التسول قاصدا أن يكشف عن حالة ضياع الأدب والأديب و ما واكب ذلك من فقر و سوء الأوضاع الاجتماعية، وقد كشف عن ذلك في "المقامة المكية" و " لربما يعود ضعف الحريري في الاعتناء بوصف مجتمعه إلى تركيزه على الألاعيب اللفظية لإبراز تفوقه اللغوي على الهمذاني ومعاصريه"⁴⁶. تلك هي قيمتها التاريخية والاجتماعية، " فهي صورة للعصر الذي فشت فيه عادة التلصص والكدية، وفيها تمثيل لحياة طائفة من المستجدين الذين قست عليهم ظروف الحياة، وتكررت لهم الأيام، فهم لم يوفقوا في الحصول على ما يقيم أودهم عن طريق عمل مثمر، فلجأوا إلى مختلف الحيل وشتى الأساليب، واتخذوا منها وسيلة للارتزاق."⁴⁷

45 - المقامات .عبد الفتاح كيليطو.مرجع سابق. ص 177.

46 - المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 341 .

47 - دراسات ومقالات في الأدب العربي. محمد بن ناصر الدخيل. ص 157- 158 .

● **المطلب الثاني: دواعي ذبوع المقامة في الأدب الأندلسي**

إن من دواعي انتشار المقامة في الأندلس خاصة، وفي الغرب الإسلامي وفي بعض بقاع العالم عامة:

أ. **الإعجاب بالمقامات (الناحية الجمالية):** ذبوع صيت مقامات الهمذاني دفع أهل الأندلس إلى محاكاتها، وهذه المحاكاة اتسعت رقعتها بعد الشهرة الواسعة لمقامات الحريري، إذ حظيت مقاماته بالشرح والترجمة لما زخرت به من ألفاظ وأمثال وألغاز وقضايا نقدية ولغوية واجتماعية ونفسية. و"تبرز هذه الأهمية في عدد شراح مقامات الحريري إذ أحصى (حاجي خليفة) أكثر من خمسة وثلاثين شارحا لمقامات الحريري أهمهم: الشريشي، والمطرزي، والعكبري... وما يفسر انتشار فن المقامات وعناية الأدباء بها أن عدد المقاميين تجاوز الثمانين مؤلفا بدءا من بديع الزمان الهمذاني في القرن 4 هـ/10 م ، وانتهاء بناصيف اليازجي في القرن 13 هـ/19 م".⁴⁸

ب. **التقليد والمعارضة:** أشهر من عارض الهمذاني هو الحريري، إذ تكاد مقاماته تكون صورة طبق الأصل منها، والحريري نفسه يعترف بهذا التقليد، ومع إظهاره التقدير الكبير للهمذاني فقد تفوق عليه. "وقد سبقه إلى ذلك ابن نباتة السعدي⁴⁹ في القرن الرابع الهجري، وحاول تقليده ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة. وكذلك سبق الحريري أيضا ابن نايقا البغدادي⁵⁰ الذي قلد الهمذاني في تسع مقامات بطلها واحد (اليشكري) و رواها متعددون، تدور أكثرها حول الكدية، و لكن ليس فيها جمال اللفظ الذي نجده عند بديع الزمان الهمذاني أو عند الحريري، و لعلها من أجل ذلك لم تشتهر بين الناس"⁵¹.

48 - بديعيات الزمان. فيكتور الكك. ص 129-137 .

49 - ابن نباتة السعدي: أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة التميمي السعدي، ولد في بغداد سنة 327 هـ/939م، كان شاعرا مجيدا، وله في سيف الدولة بن حمدان غر القصائد ونخب المدائح. توفي سنة 405 هـ/ 1014 م ببغداد. (وفيات الأعيان. ابن خلكان. مجلد 3. ص 190-192).

50 - ابن نايقا البغدادي: أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين بن داود بن نايقا، ولد سنة 1019/410م. هو الأديب الشاعر اللغوي المترسل من محل أهل الحريم ببغداد. له مصنفات منها كتاب (الجمان في تشبيه القرآن)، وله مقامات أدبية مشهورة. ووفاته كانت سنة 485 هـ/1092م. (وفيات الأعيان. ابن خلكان. مجلد 3. ص 98).

51 - المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 137.

ومن بعد الحريري قام الأدباء قدامى ومحدثين بوضع المقامات تقليدا ومعارضة، فأنشأوا خمسين مقامة على نسق مقامات الحريري، " كما نجد ذلك عند السرقسطي (ت538هـ /1143م)، والزمخشري (ت538هـ /1143م)، وابن الصيقل الجزري (ت701هـ)، والسيوطي (ت911هـ)، ومحمد المويلحي (ت1348هـ /1930م)، وناصر اليازجي (ت1871/1288م) وغيرهم" ⁵².

ج. إظهار القدرات اللغوية:

ألف الأدباء - قدامى ومحدثين - مقاماتهم لإظهار قدراتهم الفنية واللغوية، جاعلين منها فنا لغويا عربيا قائما بذاته، ولعل هذا السبب كان الأهم ضمن أسباب انتشار فن المقامة في المشرق والغرب الإسلامي.

د. الجانب التعليمي:

قصد المقاميون من كتابة مقاماتهم تعليم الناشئين، وتدريبها في المدارس، و"إلى اليوم لا تزال تدرس في جميع المدارس الإسلامية في آسيا وخاصة في الهند وفي إيران" ⁵³. إذ " يبدو أن إنشاء المقامات كان لغاية تعليمية، ولتدريب الناشئة على الاطلاع على الأساليب العربية القوية والتمرس بها، وحفظ ما تضمنه المقامات من شوارد اللغة وغريب الألفاظ" ⁵⁴.

هـ. جانب الإمتاع:

أراد المقاميون لفن المقامة أن يكون أدب تسلية، ولذلك لا غرو أن وجدنا بعضهم لم يتقيدوا بالمقومات الأساسية للمقامة كما عهدناها عند الهمداني والحريري، لدرجة أنهم استعملوا المفردات العامية للحد الذي كاد يجعل فن المقامة أدبا شعبيا، في غير ما مراعاة للقواعد اللغوية.

⁵² - تفيد فهرست المرجع السابق إلى من عارض الحريري من المشاركة والمغاربة وهم إضافة لمن ذكرنا أعلاه : الوهراني (ت575هـ/1179م)، والقلقشندي (ت821هـ)، والسيوطي (ت911هـ) وذلك إلى حدود القرن 12هـ/18م. وأما مقاميو ق 13هـ/19م، فهم: أحمد البربير (ت1811م)، وأحمد فارس الشدياق (ت1882م)، وعبد الله فكري (ت1889م).

⁵³ - المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 144.

⁵⁴ - دراسات و مقالات في الادب العربي. مرجع سابق. ص 161.

-المبحث الثالث:صورة عامة عن النثر العربي مشرقيا وأندلسيا حتى

القرن التاسع الهجري .

لم يتجاوز النثر العربي في العصر الجاهلي موضوعات محددة مثل الخطابة والأمثال وسجع الكهان. ومع ظهور الإسلام اختفى سجع الكهان، واتسع مجال الخطابة التي صارت تنحو منحى الكتابة الفنية، التي أخذت صورتها النهائية على يد عبد الحميد الكاتب. وبان انتقالنا إلى العصر العباسي بدأ الاهتمام بالكتابات الطويلة وتأليف الكتب، فنبغ ابن المقفع في ترجمته لبعض الكتب الفارسية، ونبغ الجاحظ في الرسائل الطويلة، وبرزت العناية بالزخرف والتميق. فمع أواخر القرن الرابع الهجري نحت الحضارة العربية نحو التعقيد في شتى تجلياتها ومن ذلك النثر، فقد أكثر أبو العلاء المعري من التعقيد وتبعه كتاب من أمثال الحريري. فالنثر العربي كان يتأرجح بين مذهبين: مذهب الصنعة، ومذهب التصنع. وهذا الصراع بين المذهبين، انتقل إلى بلاد الأندلس، وظهر جليا في إنتاجات الكتاب الأندلسيين " فهو تقليد قام على محاكاة النماذج المشرقية في صور من الاضطراب والاختلاط، إذ نرى الكتاب يجمعون في نماذجهم بين صور المذاهب المختلفة، وقلما وجدنا من يعيش في مذهب واحد. وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبدا عن شخصيتهما في أدبهما، بل لقد عبرتا عنها من حين إلى حين، ولكن في شكل شاحب ضئيل".⁵⁵

لقد سار الأدب الأندلسي في تطوره على سنن تطوره في المشرق، في تأثر بدأ كبيرا ثم صار يضمحل مع مرور الزمن، لتتكون للشخصية الأندلسية سماتها الخاصة. ولا أدل على ذلك من قول ابن خلدون: " إن أهل الأندلس يتشبهون بالمشاركة في عهد الأمويين والعباسيين، وليس بعد ذلك " ⁵⁶ .ومن تم يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الأدب الأندلسي يُكون مرحلة من مراحل الأدب العربي وليس أدبا مستقلا بذاته، إذ أنه قد نشأ ونضج في تأثر تام بالأدب المشرقي، وذلك قبل أن يرتقي لمستوى التجديد لدرجة التأثير في الآداب الأوروبية.

⁵⁵ - الفن ومذاهبه في النثر العربي. مرجع سابق. ص 391.

⁵⁶ - النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. عبد الحلیم حسین الهروط. ص 244.

فغني عن البيان القول بعنصري التقليد والمحاكاة التي بدت على أدباء الأندلس، لدرجة أنهم لم يتخذوا من الأدباء المشاركة نماذج فقط، وإنما تسموا أيضا بتسمياتهم وعارضوهم في نثرهم وشعرهم. فقد وجدنا المقاميين الأندلسيين أولا مقلدين ومحاكين، ثم مجددين ثانيا حين التفتوا لبيئتهم وربطوا أدبهم بالحياة حتى منحوه التميز والإشعاع في المشرق كما في أوروبا.

ولقد كان تأثير الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي يتسرب بفعالية عن طريقين:

- **الأول:** عن طريق الوافدين إلى الأندلس من علماء المشرق وأدبائه وفنانيه حاملين معهم ثروة ضخمة من التراث العربي قديمه ومحدثه، وكثيرا من أصول الحضارة والعادات الاجتماعية المشرقية.

- **الثاني:** عن طريق الأندلسيين الذين كانوا يرحلون إلى المشرق طلبا للعلم والأدب، ثم يعودون بما حصلوا عليه من كتب العلم والأدب.

وأما الوسائل المساعدة على ذلك التأثير فيمكن اختزالها في وسيلتين:

- **الأولى:** وتتجلى في جمع الكتب وإقامة المكتبات التي كان يؤمها الباحثون والدارسون، مما كان له وقعه الإيجابي على تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالأندلس، "ولنا في عناية الخليفة عبد الرحمان الناصر باقتناء الكتب النادرة، وفي المكتبة الضخمة لابنه الحكم المستنصر الأموي، كما في مكتبة مأمون دولة الموحدين، خير دليل".⁵⁷

- **الثانية:** وتتمثل في أمراء الأمويين وخلفائهم في الأندلس، ومن تلاهم من ملوك الطوائف، والمرابطين، والموحدين، وبنو الأحمر، " فأغلب هؤلاء لم يكن منهم إلا من هو أديب أو شاعر أو عالم، إذ كانوا قائمين على نهضة الأندلس الأدبية والعلمية داعمين لها "⁵⁸ ، وهو ما شجع أهل الأندلس على الاشتغال بالأدب والعلم، وما حققه بالتالي الازدهار للحركة الأدبية والعلمية في الأندلس.

57 - الأدب العربي في الأندلس. عبد العزيز عتيق. ص 155.

58 - المرجع نفسه. ص 155 .

● المطب الأول: تأثير النثر الأندلسي بالنثر العربي المشرقي

إن فن النثر في الأدب العربي الأندلسي لا ينفصل عن فن النثر في الأدب العربي المشرقي، ومن ثم فإنه " ليس غريبا أن تتأثر الأندلس بالاتجاهات النثرية في المشرق متمثلة في هؤلاء العمالقة: عبد الحميد، وابن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، والبديع، والحريري، والقاضي الفاضل وغيرهم... إذ تظهر تلك الاتجاهات في آثار الأندلسيين من أمثال: ابن برد الأكبر، وابن برد الأصغر، وابن زيدون، وابن بسام، والفتح بن خاقان، والسرقسطي، وأبو مروان بن حيان، ولسان الدين الخطيب، وغيرهم... "59 .

فقد عرف النثر تطورا ملحوظا في مختلف أطوار العصر الأندلسي، ففي:

أ- **الصدر الأول من الفتح:** عرف بنماذج قليلة فرضتها ظروف الفتح كالخطابة، وكتابة العهود والرسائل. وهو نثر غلبت عليه المسحة المشرقية من حيث قوة العبارة وعدم اللجوء للمحسنات، إذ لا يلتزم أصحابه سجعا ولا توشية إلا ما جاء مناسبا واقتضته العبارة.

ب - **عهد بني أمية والطوائف:** ظهر نوع من النثر متأثر بنثر الجاحظ، وكان للحكام دور مهم في تشجيع الأدباء على التأليف، وإلى جانب النثر الفني ظهر نوع آخر من النثر، هو النثر التأليفي ومنه كتاب العقد لابن عبد ربه (ت 328هـ)، فقد اعتمد في تأليفه هندسة بنائية خاصة، وفيه برزت مقدرته البلاغية العالية لا سيما في المقدمات، والفرش التي وضعها لأبواب الكتاب، "فالسجع والموازنة يتناوبان عليها ... إلا أنه يكون بعيدا عن التكلف والتصنع، مع ميله إلى الجمل القصار، والتوسع والتبسط في القول في أثناء الكتاب، وبذلك فهو أشبه بأسلوب الجاحظ في كتاباته على اختلاف موضوعاتها"60 ، كما وغلبت على هذا العصر الرسائل الديوانية.

⁵⁹- تجديدات الأندلسيين في النثر العربي. ابراهيم موسى بن حاسر السهلي. ص 70. وللتوسع في القائمة ينظر: " الأدب العربي في الأندلس". عبد العزيز عتيق. ط 2. ص: 429 إلى 436. وينظر: " تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين". إحسان عباس. ص: 236 إلى 280 ، وكذا: " الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه". مصطفى الشكعة. ص: 513 إلى 515.

⁶⁰ - النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 245.

وفي فترة الحجابة (376 هـ – 400 هـ) وصل تأثير ابن العميد وبديع الزمان، "فقد تميز ابن شهيد في شرح الحقائق بأسلوب قصصي خيالي (التوابع والزوابع) ⁶¹، وأحدث ابن حزم نوعا من البلاغة بين الخطب والرسائل" ⁶². ومن المحاولات الخيالية ما كتبه ابن برد الأصغر (ت 445 هـ) في المناظرة بين السيف والقلم، أو المناظرة بين المدن أو بين الأزهار مبتدعا فنا جديدا غير مسبوق. " كما أنه في عهد الفتنة وعصر الطوائف (400-484 هـ) ظهر ابن زيدون (ت 463 هـ) صاحب الرسالة الهزلية والرسالة الجدية، وابن حيان الأندلسي (ت 469 هـ) الذي كان يعرض للتاريخ في قالب أدبي أخذ فيه قوة نسج، وإشراق عبارة وشدة تأثير" ⁶³. وممن تميزوا أيضا في أسلوبهم الخاص في الكتابة: ابن حزم الفقيه (ت 465 هـ) الذي لم يحفل بالسجع والتكلف، في حين فعل عمه أبو المغيرة بن حزم (ت 438 هـ) الذي كان شديد التعلق ببديع الزمان لدرجة معارضته له في إحدى رسائله.

⁶¹ التوابع والزوابع: تعد رسالة التوابع (ج. تابعة، وهي الجنية تحب الإنسان وتتبعه حيث ذهب) والزوابع (ج. زوابع، وهو رئيس الجن أو اسم شيطان) لابن شهيد (أبو عامر بن عيسى بن شهيد القرطبي. ت 436 هـ) مما يفخر به النثر الأندلسي لطرافة مضمونها وجدة منحها القصصي الذي يعتمد الخيال. وهي تدعى أيضا "شجرة الفكاهة" ولكنها لم تصلنا كاملة، وقد احتفظ ابن بسام (ت 542 هـ) بجزء منها في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" (تحقيق، إحسان عباس. ط 1975. ق 1. ص 245-301). والجديد في الرسالة أنها جاءت في شكل قصة خيالية تدور أحداثها في عالم الجن ولذلك يتطابق اسمها مع مضمونها. وقد كان الباحث على إنشائها محاولة ابن شهيد إثبات تفوقه الأدبي والنيل من خصومه وحساده وخاصة الإفليلي (أبو القاسم ابراهيم بن زكرياء الزهري المعروف بالإفليلي، نحوي مشهور). فقد ألفها لغرض شخصي تولد عن شعوره بالحيف والغبن عوض التقدير والتكريم من لدن معاصريه، وتتكون الرسالة من مدخل وأربعة فصول: الأول في توابع الشعراء، والثاني في توابع الكتاب، والثالث في نقاد الجن، والرابع في حيوان الجن (فصل فكاهي ساخر). ولعل جماع الآراء التي صدر عنها ابن شهيد في رسالته تؤكد أن صراعه مع خصومه لم يكن صراعا شخصيا بقدر ما كان صراعا بين مذهبين فكريين:

- **أولهما:** يعترف بالموهبة والطبع أصلا في كل أديب، ويؤمن بالتجربة ولا يعول على الكتب وحدها (وهو مذهب ابن شهيد).

- **ثانيهما:** لا يعترف إلا بالحفظ والاستظهار وسعة الاطلاع، ويمثله الإفليلي وبعض شيوخ اللغة.

فقد حاول في رسالته الدفاع عن رأيه وإثبات حججه وصحته، فكانت رحلته الخيالية وسيلة لإثبات موهبته الشعرية والنثرية والنقدية، وإثبات تميزه عن معاصريه من خصومه القرطبيين.

وقد كان تناول الرسالة بالدرس والتحليل – في الفصل الثاني من ماستر تفاعل الأدب والثقافة في العالم المتوسطي مع الدكتور الأستاذ عبد السلام الطاهري – متعة فكرية، ولذلك لازالت تفاصيل الدراسة عالقة بذهني اكتفيت منها بتقديم القضية المحورية للرسالة متجاوزا المعالجة الفنية تفاديا للإطناب. واختصارا، فالرسالة تتميز بطابع قصصي (سرد – حوار – شخصيات – وصف – لغة – مكان وزمان)، وبتابع خيالي (لكل أديب شيطان يلهمه، وتابع ابن شهيد هو زهير بن نمير)، وبتابع فكاهي (فالفكاهة منتشرة في ثنانيا فصول الرسالة، ومتوزعة بين السخرية والازدراء والتهمك وخاصة عند الحديث عن خصمه الإفليلي أو بعض شيوخ اللغة).

⁶² تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة. إحسان عباس. ص 273 .

⁶³ الأدب الأندلسي. أحمد هيكل. ص 362.

وعليه، فإن أساليب الكتاب الأندلسيين في هذا العهد كان تعتمد طريقة المرسل والمتوازن والأسلوب المسجوع، " وربما صح التعبير أن ابن دراج حلقة الوصل بين الأسلوبين، على نحو ما كان ابن العميد في المشرق، ذلك أن أسلوبه خارج عن المؤلف في الأندلس، حيث كان يتردد بين السجع والازدواج".⁶⁴

ج - عهد المرابطين والموحدين: لوحظت عناية فائقة بالكتابة الإنشائية والتأليف والكتب الجديدة، ففي عصر المرابطين (484 هـ - 541 هـ) أخذ النثر الفني يجنح إلى المبالغة في استعمال البديع، فقد اعتمد الكتاب السجع حتى في كتاباتهم التاريخية، ولا سيما التي تتعلق بترجمة الأدباء كما الحال بالنسبة لابن خاقان (ت 529 هـ) في كتابيه القلائد والمطمح، أو لابن بسام (ت 542 هـ) في الذخيرة. إن أهم ما يميز هذا العصر هو ظهور الرسائل الدينية التي تميز فيها ابن الخصال (ت 539 هـ)، فقد " ظل الأسلوب المسجوع هو الذي وسم عصر المرابطين بطابعه، فقد التزمه الكتاب التزاما تاما، متكلفا بالأغلب والأعم ولزموا فيه لزوم ما لا يلزم، مع الاتكاء على المحسنات اللفظية و المعنوية، وما يترتب عن ذلك من تنميق شديد وزخرفة"⁶⁵.

وفي عهد الموحدين (541 هـ - 667 هـ) اصطبغ الأدب بالصبغة الدينية، إذ أن كثيرا من كتاب هذا العصر كانوا أهل دين و فقه، فكانوا يتكفون الأدب ويسرفون في الصناعة. فقد برز أبو المطرف بن عميرة (ت 658 هـ)، وابن طفيل (ت 581 هـ)، وابن الأبار (ت 658 هـ)، وهم جميعا استعانوا بالسجع المزدوج. ومالت الرسالة الديوانية في هذا العهد إلى الإسهاب

⁶⁴- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 247.

⁶⁵- المرجع نفسه. ص 248.

والتطوير، وبرزت قصص جديدة خيالية فلسفية مثل: قصة حي بن يقظان.⁶⁶

د - عهد بني الأحمر 635-897 هـ: ظهر النثر الديواني الذي يضم الرسائل والكتابات على

شواهد القبور، والنثر الإخواني، وكذا النثر الوصفي (أعلام، شخصيات، مدن، وصف،

⁶⁶ قصة حي بن يقظان: لابن طفيل (ت 581هـ) أديب وعالم وطبيب وفيلسوف أندلسي، كانت له حظوة عظيمة عند أبي يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين (1163-1184 م) إذ كان طبيبه، وكان الطب في الغالب المدخل للفلسفة إذ كان أحد علومها. لم يبق لنا من مؤلفاته إلا رسالة "حي بن يقظان في أسرار الحكمة المشرقية" والتي نقلت إلى لغات كثيرة منها: اللاتينية سنة 1671 م، والإسبانية 1910م، والفرنسية 1910م، والروسية 1920م، والإنجليزية. فقد ظهر ابن طفيل في القرن الثاني عشر للميلاد، وهو من جبايرة المفكرين في العصور الوسطى كما وصفه بذلك أكثر الباحثين، وقصته من أجمل الكتب المبتكرة - في موضوعها - التي ظهرت في العصور الوسطى جميعها، وكان لها واسع التأثير في الآداب الأوربية (ظهور روبنسن كروزو - ماوكلي - طرازان). لقد جعل ابن طفيل من "حي" طفلاً ولد من غير أب ولا أم في إحدى جزر الهند (القوقاق)، كما أجاز رأياً آخر وهو أن "حياً" ولد لأب وأم من البشر، إذ كانت أمه أخت ملك جبار منعها من الزواج طالما أنه لم يجد لها كفواً من بني الإنسان، ولكنها تزوجت سرا ب "يقظان" أحد وزرائه، ولما جاءها الوضع أخذت حياً ووضعته في صندوق وألقته في اليم، فسار الصندوق حتى وصل إلى الجزيرة ونشأ حي هناك. وقد كان ابن طفيل موقفاً في جعل "حي" إنساناً معزولاً في جزيرة تعالى. ذلك أنه لم يكن غافلاً ولا لاهياً عما يحدث حوله، لأنني حي بكل معنى الحياة، ولأنه يقظان بكل وعيه وإدراكه.

فالأساس الفلسفي لهذه القصة هو الطريق الذي كان عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة، وقد رمى ابن طفيل من ورائها إلى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة. كما أنه بناها على نظرية له، مفادها أنه في وسع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول إلى معرفة الله تعالى، إذ المعرفة عنده حدسية مبنية على الكشف والإلهام كالتي عند الصوفية، ونظرية مبنية على المنطق كالتي عند العلماء (مؤسسة على الحواس). وقد جعل ابن طفيل حي بن يقظان يسلك المعرفتين، فتارة يصل إلى معرفة الأشياء بحواسه، وتارة بطريق الكشف.

واختصاراً فإن القصة تطرح عدة قضايا أبرزها محورية:

- طلب المعرفة وسيلة من وسائل التغلب على العزلة. وقد شرح هذه النظرية بعد قرون الفيلسوف الروسي "نيقولاي بردياتوف" في كتابه: "العزلة والمجتمع".

- المعرفة عند ابن طفيل مكتسبة وليست فطرية، وهي نهج وصفات. فالنهج أي أسباب وسبل الحصول عليها (الملاحظة - التجربة - الاستنتاج...)، وأما صفاتها فكونها: متطورة - متدرجة - متنوعة - متفرعة.

- تضمنت القصة عدة علوم منها: الطب والتشريح (تشريح حي للظبية) - البيولوجيا - التربية (تعليم إسأل حي بن يقظان الكلام...) - الأخلاق (تقديم حي المساعدة لكل نبات أو حيوان...) - الميتافيزيقا (كشف طريق الوصول إلى الحكمة المشرقية التي ذكرها ابن سينا باعتبارها قمة المعرفة الإنسانية) - الكيمياء (استكشاف حي لمصادر الحرارة الثلاثة: الاحتكاك والسريان والإشعاع) الاجتماع - الفلك - الرياضيات - الجغرافيا - التاريخ الطبيعي...

- تقوم الحكمة المشرقية على إدراك حقائق العالم عن طريق الإرادة والعقل والتفكير، أما في التصوف فإن ما يسمى كشفا عندهم يأتي عن طريق إماتة الحواس وإنكار التفكير، فهو صور تنسج في الخيال، وحي بن يقظان عرف الله تعالى عن طريق الكشف لما أعياه طريق العقل في التوصل إليه، فكانت أدواته القلب المختلف عن العقل.

- تأثر القصة في بنائها بالقرآن الكريم ومن إشارات ذلك:

أ - قضية خلق حي من تراب جزيرة القوقاق = قصة خلق آدم من طين. "إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين". سورة (ص). الآية: 71.

ب - قضية وضع حي في صندوق ورميه في اليم = قصة موسى عليه السلام. "وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني". القصص. الآية: 7.

ج - قضية موت الظبية ودفنها = قصة نبي آدم عندما قتل أحدهما أخاه فهياً الله له غراباً يدلّه على الطريق السليم لمواراة جثته. "فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه". المائدة. الآية: 33.

رحلات...). كما كثر التأليف في الرسائل - مثلما هو الحال بالنسبة لرسائل ابن زيدون - كما في المقامات المسجلة لهموم الحياة، إذ خرجت عن الاستجداء، وبلغت من البراعة ما جعلها كشعر منشور.

إن كل حديث عن تطور النثر الأندلسي لابد وأن ينطلق من دراسة النثر المشرقي من حيث نشأته وتطوره وسماته من ناحية، ثم من حيث علاقة التأثير التي مارسها على النثر الأندلسي من ناحية أخرى. فقد قطع النثر العربي خلال تطوره في المشرق عدة مراحل⁶⁷ يطبعها التداخل كما الخصوصية التي تتمتع بها كل مرحلة:

1- مرحلة صدر الإسلام والدولة الأموية، حيث خطب وأقوال الخلفاء الراشدين وخلفاء الأمويين وأمراءهم وبلغاء عصرهم. وهي خطب يتراوح الأسلوب فيها بين: السجع، والمزاوجة، والترسل، والاقتباس من القرآن الكريم، والميل للإيجاز.

2- يشكل ظهور عبد الحميد بن يحيى الكاتب في أواخر الدولة الأموية بداية المرحلة الثانية في النثر العربي، ذلك أنه جاء بطريقة جديدة في الكتابة. فهو أول من أطنب في موضوع الكتابة وفصله، وجعل من الكتابة موضوعاً يشرحه ويولد معانيه حتى يأتي على آخره. وهو من أطال الرسائل والتحميدات، وجعل من الكتابة الديوانية صناعة من الصناعات، كما تجنب السجع وزخرف اللفظ.

3- مرحلة ثالثة سادت فيها طريقة ابن المقفع في الكتابة، وهي طريقة تعنى ببسط المعاني وتوكيدها، وتكرار الجمل المتقاربة في معناها مع العناية بالتحليل النفسي، والتجارب الأخلاقية، و عدم الحفاوة بالسجع إلا ما جاء منه تلقائياً دون تكلف .

4- تقترن المرحلة الرابعة في النثر العربي باسم الجاحظ الذي طلع على عصره بطريقة جديدة في الكتابة، تأثر بها الكثيرون من كتاب المشرق و الأندلس ، وتتميز طريقته الكتابية بالجمل القصار، والفقرات المتقابلة، وتعدد النعوت للشيء الواحد، واستقصاء كل أجزاء المعنى. كما تتميز بالفكاهة والسخرية ومزج الجد بالهزل، والاستطراد المروح عن النفس، وعدم تعمد

⁶⁷ الأدب العربي في الأندلس. مرجع سابق. ص 430 .

المحسنات البديعية باستثناء السجع.

5-مرحلة ابن العميد⁶⁸ في القرن 4هـ، وقد استن طريقة في الكتابة عرفت باسمه، وأهم سماتها: توخي السجع قصير الفقرات، والاقْتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي، وتضمين الأمثال السائرة، والإشارات التاريخية، والإكثار من أنواع البديع.

6- المرحلة الأخيرة تمثلها طريقة القاضي الفاضل⁶⁹ التي استحدثها بتوسع في طريقة ابن العميد. ومن أصول طريقته: التزام السجع الطويل المنمق غالباً، والتشبيه والاستعارة، والإكثار من أنواع البديع، والتوجيه (احتمال الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره). وقد برزت مساوئ هذه الطريقة في الأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجري فصاعداً.⁷⁰

لقد كانت حالة النثر في الأندلس كحالته في المشرق تقريباً، ذلك أن كل جديد كان يطرأ على نثر المشاركة سرعان ما كان يجد طريقه إلى الأندلس، ويأخذ به الأندلسيون في كل ما ينشئون في فنون النثر. وكان الانتقال من فن إلى آخر يكاد يكون متبعا نفس التطور الذي حدث في المشرق، فالمكاتبات التي تصدر عن أمراء قرطبة وخلفائها المرwanيين - مثلاً - تشبه تلك التي كانت تصدر عن الخلفاء الأمويين في المشرق. وعندما تطورت الكتابة مع ابن المقفع، رأينا مثل ذلك يظهر في كتابات ابن حزم الأندلسي القرطبي ولما اشتهر الجاحظ لدى الأندلسيين وجدنا ابن زيدون في رسالته الهزلية - التي يسخر فيها من ابن عبدوس منافسه في حب ولادة بنت المستكفي - قد فعل مثل الجاحظ في "رسالة التربيع والتدوير" التي كتبها في أحمد بن عبد الوهاب أحد كتاب عصره. ولما بلغت مدرسة ابن العميد في الكتابة إلى الأندلس في القرنين 5 و6 هـ، وجدنا عدة كتاب يتأثرون بها وينسجون على منوالها في رسائلهم وكتبهم، ومن ذلك: "الذخيرة" لابن بسام (ت542هـ)، و"مطمح الأنفس" و"القلائد العقيان"

⁶⁸- هو الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين العميد المتوفى سنة 360هـ ، وقد كان يعد في عصره كاتب المشرق.

⁶⁹- هو أبو علي عبد الرحيم البيساني، ولد بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين سنة 529 هـ، ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية وترقى في وظائف الكتابة حتى صار وزيراً لصلاح الدين الأيوبي ثم لولده العزيز، وأخيه الأفضل من بعده، وتوفي سنة 596 هـ بالقاهرة.

⁷⁰- الأدب العربي في الأندلس. مرجع سابق. ص 433.

للفتح بن خاقان (ت 535 هـ). وقبل ذلك كانت قد وصلت مقامات بديع الزمان الهمذاني ورسائله إلى الأندلس أواخر القرن 4 هـ، وبعدها مقامات الحريري، إذ أقبل عليها الأندلسيون بالدرس والشرح والمعارضة. فبانتقال المقامات من المشرق إلى الأندلس، سارع أدباء الأندلس إلى شرحها ونقدها، ومنهم من أنشأ على غرارها مقامات أندلسية مشهورة، كمقامة أبي حفص عمر بن الشهيد، ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي، ومقامة عبد الرحمن بن فتوح، وكلها مذكورة في ذخيرة ابن بسام. كما أن إحسان عباس وضع بكتابه "الأدب الأندلسي" فهرسا طويلا بكتاب المقامات بالأندلس، وهو فهرس يطلعنا على مدى اهتمام الأدباء الأندلسيين بمعارضة المقامات⁷¹. أما من شرحوا مقامات الحريري فكثير، نذكر منهم: عقيل بن عطية (ت 1211م)، وأبو العباس أحمد الشريشي (ت 1222م). "ثم ترجمت أيضا إلى اللغات العبرية واللاتينية وهو ما كان له تأثيره البالغ في إيجاد "قصص الشطار" المعروفة في الأدب الإسباني، إذ اتجه الروائيون إلى التحدث عن أحوال المجتمع وظروف المغمورين من الناس، فأبدعوا روائعهم في الاتجاه الواقعي متناسين الخرافات التي كانت تعج بها قصصهم الخيالية قبل ذلك. وتم لهؤلاء الإسبان من وراء هذا كله قيادة الأدب الأوربي إلى عالم الواقع الملموس"⁷². "وفي أواخر القرن السادس والسابع الهجري غربت طريقة القاضي الفاضل إلى الأندلس، فتكلف الجري عليها كل قليل البضاعة من الأدب، وكل ملتزم بالزخارف اللفظية في تكلف، حتى ندر أن تجد من يكتب نثرا غير مسجوع، وهو ما كان له وقع سيء على النثر العربي المشرقي والأندلسي"⁷³.

فهذه أبرز الجوانب التي تأثر فيها نثر الأندلسيين بالنثر العربي في المشرق، علما أن الأندلسيين قد قالوا في فنون النثر التقليدية المشرقية، وزادوا عليها ما اقتضته ظروف بيئتهم الخاصة، ومن ذلك فن المقامة بوصفه مجالا للمعارضة النثرية المؤكدة للذات الأندلسية وقدرتها على التفوق والتميز والإشعاع الأدبي الأندلسي .

⁷¹- الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 304 إلى 307.

⁷²- الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير. محمد رجب البيومي. ص 130.

⁷³- الأدب العربي في الأندلس. مرجع سابق. ص 436.

إن المقامة - كما وضع تقاليدھا بديع الزمان الھمذاني ونسج علی غرارھا أبو القاسم علي الحريري - قطعة من النثر الفني علی صورة حكاية قصيرة ، تنتهي في مغزاھا إلى عبرة أو طرفة، يرويھا شخص واحد خيالي لا يتغير هو عيسى بن هشام عند الھمذاني، وهو الحارث بن ھمام عند الحريري. وبطل كل حكاية شخص آخر خيالي أيضا، هو أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان، وهو أبو زيد السروجي في مقامات الحريري.

أما عن انتقال هذا الفن - الذي استحدثه المشاركة في القرن الرابع للهجرة مضيفين به فنا جديدا إلى فنون النثر العربي - إلى بلاد الأندلس، فقد عرف الأندلسيون فن المقامات عن طريق من رحل منهم إلى الشرق وعاد إلى بلاده محدثا الناس به، ناشرا إياه بينهم. وقد " انتشرت مقامات بديع الزمان الھمذاني بوجه خاص أيام ملوك الطوائف بالأندلس، حيث قام بعض أدباء ذلك العصر بمعارضتها وتقليدها، كما فعل أبو عبد الله محمد بن شرف القيرواني، إذ وضع مقامات عارض بها البديع في بابہ، وصب فيها علی قالبه. وفي أوائل عهد المرابطين بالأندلس ظهرت مقامات الحريري بالمشرق ، ثم ما لبثت أن انتشرت بالأندلس فكثرت معارضاتها كما شروحاتها " ⁷⁴. وممن تأثر بها كذلك الأديب أبو الطاهر محمد التميمي السرقسطي (ت 538 هـ بقرطبة) صاحب كتاب "الخمسين مقامة اللزومية" وهي المعروفة ب "المقامات السرقسطية"، وقد عارض بها مقامات الحريري الخمسين، ويعد من المتفرغين للمقامة. أما من عداه فلا نجد للواحد منهم سوى مقامة أو مقامتين، باستثناء الوزير لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ) فله ثمان مقامات. ولم تخرج موضوعات ما هو معروف من مقاماتهم عن: النقد الأدبي، والسياسة، والمدح، والهجاء، والغزل، والمجون، ووصف المدن أو الرحلات. ومن المهم الإشارة إلى أن " قلة من كتاب المقامة الأندلسية هم من اقتفوا أثر الھمذاني أو الحريري في معظم مقاماتهم، أما الغالبية العظمى منهم فقد خرجوا بالمقامة إلى صورة أشبه بالمقالة، ولم يبقوا من تقاليد المقامة المعروفة غير عنصر السجع الملتزم وعنصر الاستجداء " ⁷⁵.

⁷⁴- الأدب العربي في الأندلس. مرجع سابق. ص 481 .

⁷⁵- نفسه. ص482 .

ولم يؤثر فن المقامات في الأدب الأندلسي فحسب⁷⁶ بل أثر أيضا - عن طريق الأدب الأندلسي - في الآداب الأوربية، وكثيرة هي دراسات العرب والمستشرقين المثبتة والمؤكدة لهذا التأثير.

⁷⁶- من فنون النثر الأندلسية الأخرى التي طالها التأثير نذكر فنين آخرين هما:

أ - المناظرات: وهي فن يهدف منه الكاتب إلى بيان قدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه، منها ما يأتي على صورة رسالة أو مقالة، وهي فن شرقي عرف عند الجاحظ. أما مناظرات الأندلسيين فقد عرفت توجيهين : مناظرات خيالية كالتالي أجراها ابن برد الأصغر الأندلسي بين السيف والقلم ، أو كالتالي أجراها لسان الدين بن الخطيب بين مالقة وسلا، أو مناظرات غير خيالية تدور حول الإشادة والفخر بمناقب الأندلس، كما فعل ابن حزم (ت 456هـ) في رسالة بين فيها فضائل علماء الأندلس، ورد بها على رسالة لابن الربيب القيرواني الذي ذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم.

ب - الرسائل: وهي قطع نثرية قد يتخللها شعر من نظم الكاتب أو من شعر غيره، والرسائل الأدبية متنوعة، ومن أهمها لدى الأندلسيين:

- الرسائل الديوانية: أو السلطانية، وكانت تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك موجهة إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه، أو لأعدائه.
- الرسائل الاخوانية: وهي التي تدور بين الإخوان والأصدقاء، أو التي يرسلها كاتب لمن يريد مودته أو يلتمس منه أمرا، وهي على عدة أنواع منها: التهناني، التعازي، التهادي، التشوق، الاعتذار، الاستعطاف، العتاب... وقد سبقت الإشارة لطبيعة هذا النثر في معرض حديثنا عن تطور النثر الأندلسي في مرحلة عهد بني الأحمر.

● المطلب الثاني: المطلق والنسبي في تأثر النثر الأندلسي.

يقودنا هذا المطلب للوقوف على أسباب معارضة المقاميين الأندلسيين للمقاميين المشاركة من حيث مدى انبثاقها من رغبة في إثبات استقلالية وتأكيد وجود الذات الأدبية الأندلسية، أو من رغبة في تقليد امتصاصي واجتراري لا محاكاة فيه ولا تجديد، أو هي الرغبة في المنافسة مع المشرق والتفوق عليه. فهي بواعث مركبة يتداخل فيها الذاتي بالموضوعي، والفرع بالأصل، والهامش بالمركز، كما ويتدخل فيها خلو الساحة الإسبانية في تلك الفترة من أية حركة فكرية، فكان طبيعياً أن يتحول الاهتمام الأندلسي إلى المشرق.

إنه من السهل بما كان التدليل على تبعية الأندلس للمشرق إن سياسياً أو فكرياً أو أدبياً أو ثقافياً أو عمرانياً، وهو ما فعله العديد من النقاد والدارسين الذين تناولوا الأدب الأندلسي بالدراسة والتحليل متفقين على ظاهرة ارتباط الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي. ومن هنا يتوجب علينا أن نفكر في ماهية هذه الاتباعية، وفي حدودها، و مراحلها، ونتائجها. وبصيغة أخرى، يجب أن ننظر في تأثر الأدب الأندلس بالأدب العربي المشرقي من حيث كونه حقيقة مطلقة أم حقيقة نسبية .

ينعت بعض الدارسين الأدب الأندلسي بـ "كم السترة العربية"، أو بـ "أدب بلا طفولة"، أو بـ "صوت خافت للمشرق"، ومعنى ذلك أن الأدب الأندلسي جزء لا يتجزأ من الأدب العربي المشرقي. وبالمقابل، فإنه من المهم جداً التنصيص على أن الأدب و/أو الفكر العربي في المشرق في مراحل الأولى طبعه الأخذ عن الأمم الأخرى، والتأثر بمناهجها وأفكارها، فتكونت من ذلك كله الحضارة العربية الإسلامية.

فالقصد أن نقرر أننا حينما ندرس الأدب/الفكر الأندلسي فإنما ندرس جانباً من جوانب تراثنا العربي، الذي ما هو في نهاية المطاف إلا جزء مهم من التراث الإنساني. فالحضارات إرث إنساني مشترك، وحيث إن الأدب نتاج الفكر الإنساني فهو لا يمكن أن يكون حكراً على أمة ما دون سواها. ومن هنا يتخذ التفاعل بين الآداب مشروعيته، وتصبح إمكانات التأثير والتأثير من الأمور البديهية التي من الطبيعي جداً أن تحدث. فالأكيد أن التفاعل حصل، بل وإنه مستمر في التحقق وبقاء، طالما أن العولمة أحالت العالم إلى قرية صغيرة تحتك فيها الثقافات الإنسانية

المختلفة، تتحاور وتتلاقح وتتفاعل مولدة أدبا إنسانيا كونيا لا يعترف بالحدود الإقليمية بين آداب وثقافات شعوب العالم.

والقصد كذلك أن نؤكد على أن تأثر الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي ليس تأثرا تاما ينزع عنه كل خصوصية وإبداع وتميز، أي أنه تأثر نسبي غير مطلق. فهذه الحقيقة الثابتة لا بد أن نتعاقد عليها وأن نقر بها، حتى لا يفهم من حديثنا في المطلب السابق عن تبعية النثر الأندلسي للنثر المشرقي على أنها تبعية مطلقة، ذلك أنه حتى المقامات السرقسطية المجسدة للاتجاه التقليدي للمقامات الأندلسية لم تخل من خصوصية، وأن المقامات الممثلة للاتجاه التجديدي لم تخل من تبعية، وإن كانت أقل مظاهرها الالتزام بمستوى البناء الفني للمقامة.

ولتبيان وجه الصحة في ما نذهب إليه، سنرصد ثلاث شهادات نفت عن الشخصية الأندلسية استقلالها و تميزها و خصوصيتها، لنصل منها إلى دحضها، فنقول مع القائلين بوجود لون رمادي ما بين ما هو أبيض وما هو أسود، أي أن التأثير عملية تفاعل نسبي وليس مطلق، وأن قراءة الأعمال الأدبية الأندلسية ينبغي أن تتم عبر مساءلة مراحل تطور الأدب في خصوصياته الأندلسية (تلمذة - ندية - أستاذة).

لقد ورد في مقدمة الذخيرة ما نصه: " إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجنوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما... فغاظني منهم ذلك وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة⁷⁷... وإنما ذكرت هؤلاء ائتساء بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم ب " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " " ⁷⁸.

⁷⁷ - "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". أبو الحسن بن علي بن بسام الشنتريني (ت 546هـ). الجزء 1. ص 3-4 .

⁷⁸ - المصدر نفسه. ص 18.

وأما " يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، فهي من تأليف أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (ت 469هـ).

ومما جاء في كتاب تجديدات الأندلسيين في النثر العربي لصاحبه السهلي: " حدثوا أن صاحب بن عباد حين تصفح كتاب العقد⁷⁹ ... قال مستخفاً: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم فإذا هو يشتمل على أخبار بلادنا... ولا حاجة لنا به"⁸⁰.

وارتباطاً بالسياق نفسه، ورد في الكتاب عينه ما نقله مؤلفه على لسان أحمد أمين في "ظهر الإسلام" والذي خصص أمين جزءاً منه لدراسة الأدب في الأندلس، معتبراً أن هذا الأدب ما هو إلا صدى خافت للأدب العربي في المشرق: " ولو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة أهو مشرق أم أندلسي لم نكد نحكم حكماً صحيحاً جازماً على الشاعر أمغربي هو أم مشرقى..."⁸¹.

إن المتأمل في هذه النصوص مجتمعة بما تطرحه من قضايا جوهرية في الدرس الأدبي الأندلسي، سيهتدي لا محالة إلى الوقوف على مسألتين بالغتين من حيث الأهمية، عميقتين من حيث التناول:

- أولهما : مدى حقيقة تأثر الأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي.

- ثانيهما : حجم و أبعاد و حدود هذا التأثير إن كان فعلاً حقيقة لا محض صدفة أو تخاطر (وقوع الحافر على الحافر- التناص).

فالأهمية تكمن – في تقديري المتواضع – في إبراز وجه من أوجه التفاعل بين الأدب الأندلسي والأدب العربي في المشرق، والعمق يكمن في ما قد يحيل عليه ظاهر النصوص المقترحة - كمدخل - للمناقشة و يخفيه جوهرها أو ما وراء سطورها. أما قضية تأثر الأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي فجلية ثابتة لا تحتاج منا لكثير من الجهد والعناء في البسط والعرض والاستدلال، ما دامت موضع إجماع بين جل الدارسين والباحثين قدامى ومحدثين. وأما قضية حدود و أبعاد ذلك التأثير فهي تحتاج منا لبعض التوضيح، خاصة وأنها شكلت

79- المراد بالعقد: كتاب العقد الفريد. تأليف: أبو عمر بن محمد بن عبد ربه الأندلسي .

80- "تجديدات الأندلسيين في النثر العربي". مرجع سابق. ص27.

81- المرجع نفسه. ص 57.

منزلقا لم يسلم منه حتى كبار الباحثين، طبعتها أحيانا النظرة التجزئية وأحيانا العصبية الإقليمية أو العصبية الفكرية ، و أحيانا أخرى سوء التقدير .

إن حقيقة تأثر الأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي ثابتة بينة لا غبار عليها، يؤكدها سبق زمني يقدر بأكثر من مائتي عام بين ازدهار الحضارة العربية في المشرق وازدهارها بالأندلس، وهو سبق جعل الأدب الأندلسي في مراحل تطوره الأولى في وضع تلمذة بالنسبة للمشرق العربي (التأثر). وهذا الوضع هو الذي يشير إليه ظاهر النصوص المقترحة (صرخة ابن بسام رغم اقتدائه بمنهج الثعالبي في تبويب ذخيرته – المقولة الشهيرة للمصاحب بن عباد – موقف أحمد أمين ومن شاطروه نفس التوجه كبطرس البستاني في (ادباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث) والمستشرق الإسباني "جارتيا جومت" صاحب "الشعر الأندلسي" وغيرهم كثير...)⁸² .

وإذا شئنا أن نلح في الالتصاق بظاهر هذه النصوص الثلاثة جاز لنا أن نذهب مذهب ابن بسام أو الوزير صاحب بن عباد أو أحمد أمين أو من ذهبوا مذهبهم فنقول إن التأثر واقع، ولن نستطيع أن ننكر أن الأندلسيين سموا شعراءهم بألقاب الشعراء المشاركة، واستعاروا أسماء حواضر المشرق وأطلقوها على حواضر أندلسية، وأكثروا من المعارضات الشعرية لدرجة التطابق في النظم والأسلوب والمعاني بين شاعر أندلسي وآخر مشرقي (بين المتأثر والمؤثر)، وهذا ما يفسر ما ذهب إليه أحمد أمين في النص الثالث المقترح.⁸³

والحق أقول ، إن ظاهر النصوص لا ينصف الأدب الأندلسي لأنه لا يمثل سوى مرحلة

⁸² - هناك عدة نماذج لمن أدانوا الأدب الأندلسي كمصطفى الشكعة في "الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه"، وكتابات شوقي ضيف، وعبد العزيز عتيق في "الأدب العربي في الأندلس"، و "تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة" لإحسان عباس ... وبالمقابل، هناك عدة نماذج أغلبها معاصر اعترفت للأدب الأندلسي بشخصيته المستقلة، ومن ذلك أحمد هيكل في "الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة"، ومحمد رجب البيومي في "الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر" ، وما إلى ذلك مما لا يسع المجال لحصره والوقوف عند حيثياته.

⁸³ - احتكاكي بكتاب "الأدب العربي في الأندلس" لعبد العزيز عتيق، في فصله المعنون ب "الشعر الأندلسي و التقليد"، وقف بي على هذه الظاهرة الفريدة، فالرصافي عند الأندلسيين هو ابن رومي الأندلس ، و ابن زيدون هو بحثري الأندلس، و ابن دراج القسطلي هو منتبني الأندلس ... ثم إنهم شبهوا اشبيلية بحمص، و غرناطة بدمشق، و فاس ببغداد ... وأما مصداق ما ذهب إليه أحمد أمين فما حكى من أن الشاعر الأندلسي الملقب بالغزال ، وجد في بغداد في جماعة من المتقنين ، فأنشدهم شعرا لنفسه و ادعى أنه لأبي نواس فصدقوه و انبهروا بشعره، ثم قال لهم : إنها (أي الأبيات) لي .

واحدة من مراحل نماء وتطور هذا الأدب، وهي مرحلة التلمذة - كما أسلفت - في حين يغيب ظاهرها مرحلة ثانية، وهي الندية مع المشرق، فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر على الأندلسيين تفوقهم في الفنون الشعرية التقليدية الموسعة، وقد كانوا فيها مبدعين محاكين غير مقلدين - من حيث الموضوعات - إذ تماشوا مع ضرورات مجتمعهم (وصف الطبيعة - رثاء المدن و الممالك...)، بل تميزوا في فنون شعرية محدثة لم يسبقهم إليها أحد و هي : الموشحات و الأزجال و شعر الاستغاثة و الاستجداد ، وهي المرحلة الثالثة حيث الأستذة على أوروبا (التأثير).

وهذه المراحل الثلاث هي عينها التي تناولها الأستاذ قاسم الحسيني في مقاله "المؤثرات الثقافية في القصيدة الشعرية الأندلسية"⁸⁴ بكثير من الدقة وبعد النظر، إذ وصف المرحلة الأولى بالاستهلاكية (من بداية الفتح الإسلامي حتى عصر الإمارة)، ونعت المرحلة الثانية بالتأسيسية (عصر الولادة والخلافة حيث الانفتاح على المشرق والإنتاج الفاعل)، ووسم المرحلة الثالثة بالإنتاجية وبناء الشخصية الثقافية الأندلسية.

إن تأثر الأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي حقيقة مطلقة، لكن حدود هذا التأثير هي ما يشكل الحقيقة النسبية خاصة وإذا ما تعاملنا مع هذا التأثير ضمن إطاره العام وأريد به المراحل الثلاث لتطور الأدب الأندلسي، وذلك بأن نرد كل إنتاج أندلسي إلى سياقه - مرحلته - لفهم حدود وأبعاد علاقة التأثير التي ربطت الأدب الأندلسي بالأدب العربي المشرقي. وأن نعيد قراءة التأثير على أنه معارضة أدبية برزت في المنظوم وانتقلت إلى المنثور، وهي معارضة الباعث عليها نفسي أكثر مما هو أدبي، قوامها الحنين للمشرق والارتباط والتعلق به، والرغبة في إثبات الذات، والغيرة، والمنافسة، وهي طباع جبلت عليها النفس البشرية لا علاقة لها بتغيير الأمكنة أو توالي الأزمنة.

لقد اختلف دارسو الأدب الأندلسي حول تفسير ظاهرة التقليد والمعارضة، فوجدنا منهم من ربطها بما هو نفسي، وآخر بما هو اقتصادي أو اجتماعي، وكل منهم يتقيد بالجانب الذي اختزله من الظاهرة متناسيا ما لا ينسجم مع تصوره. بيد أن الأمر ليس على هذا القدر من

⁸⁴ - قاسم الحسيني. (المؤثرات الثقافية في القصيدة الشعرية الأندلسية). (مجلة كلية الآداب بالرباط). العدد 28. (ص 123-151).

البساطة، خاصة وأن ظاهرة المعارضة هي ظاهرة أدبية لا تقبل الاختزال أو التجزئ، ما دامت عناصرها ذات طبيعة جدلية تستلزم النظر إليها في كليتها وشموليتها وليس في جزء من أجزائها الملتحمة، إذ لا يمكن فهم ما هو سياسي بعيدا عن ما هو اجتماعي، و لا ما هو نفسي مستقلا عن ما هو اقتصادي أو تاريخي، وما إلى ذلك. ثم إن الأندلس في مرحلة التلمذة لم تكن حرة في اختيار أستاذها لعدة اعتبارات:

- **أولها:** الارتباط اللغوي والديني بالمشرق.
 - **ثانيها:** الاعتزاز بالأصل والرغبة في جعل الوطن الجديد (الأندلس) صورة مطابقة للوطن الأم (المشرق العربي)
 - **ثالثها:** خلو الساحة الإسبانية ساعتها من أية حركة فكرية، فكان طبيعيا أن يكون الموروث الثقافي المشرقي العربي هو المرجع الوحيد للأندلسيين.
- وتأسيسا عليه، يمكن أن نقيس درجة تأثر النثر الأندلسي (المقامة الأندلسية) بالنثر المشرقي العربي (المقامة المشرقية)، برد كل إنتاج نثري إلى مرحلة إنتاجه التاريخية، لتكون المقامات السرقسطية - على سبيل المثال - بما وصلت إليه من نضج واكتمال معبرة عن المرحلة الثانية من مسيرة الأدب الأندلسي، أي مرحلة الندية، إذ جعل السرقسطي من مقامات الحريري مجالا للمعارضة وإثبات الذات الأندلسية. في حين شكلت المقامات التي تلت القرن السادس الهجري عناوين للاتجاه التجديدي في المقامة الأندلسية في تعبير عن المرحلة الثالثة وهي الأستاذة، إذ اختلفت المقامة الأندلسية عن المقامة المشرقية من حيث البناء الفني (حذف الراوي - درجة الطول والحجم - الميل إلى فن الرسالة...)، وكذا من حيث المضمون. وطبيعي أن تتأكد ملامح الأستاذة بالقياس إلى موقع البلاد الأندلسية ونهل الآداب الأوروبية من أدبها، وهو ما كان مؤشرا على جر الأدب الأوروبي نحو الأدب الواقعي، ذلك أن المقامة شكلت الإرهاصات الأولى لظهور القصة والرواية بمعناهما الحديث في الأدب الأوروبي.

• خاتمة الفصل الأول/الباب الأول:

لقد تطور مفهوم المقامة من الدلالة اللغوية إلى الدلالة الاصطلاحية والفنية على يد بديع الزمان الهمذاني وتلميذه الحريري، وقد لقي هذا الفن المشرقي العربي الأصول انتشارا واسعا في الأندلس إذ قوبل بالمعارضة والشرح منذ ظهوره الأول عصر ملوك الطوائف بالأندلس في القرن الخامس الهجري وإلى أفول شمس قبيل سقوط الأندلس في القرن التاسع الهجري. وقد كان لاشتغال جل المقاميين مشاركة وأندلسيين بالمنظوم والمنثور معا، أثره في أن يكسر فن المقامة الحدود بين الشعر والنثر، وبين هذا الفن وأجناس أدبية أخرى متنوعة (أدب الرحلة – أدب الرسالة – أدب الخطابة - ...) مشكلا تفاعلا بين عدة أجناس أدبية تتضافر جميعها خدمة لأغراض فن ظاهره تعليمي لغوي، وباطنه إصلاحي اجتماعي. بيد أن هذا التفاعل بين المقامة وباقي الأنواع الأدبية لا ينفي مطلقا الحدود بينه وبينها، ذلك أن ما ينظم فن المقامة ويشكل ثوابت وأركان لها هي: وحدة الحدث والموضوع – وحدة البطولة والرواية – وحدة المكان والزمان – وحدة الشكل اللغوي والأسلوبي – وحدة الغاية والوظيفة.

إن تأثر الأدب الأندلسي بالأدب المشرقي العربي كان ضرورة ملحة يفرضها وضعه وهو في نشأته الأولى، إذ كانت شبه الجزيرة الإيبيرية ساعتها (إسبانيا والبرتغال حاليا) خلوا من كل حركة فكرية أو أدبية أو علمية (عصور الظلام في أوروبا مقابل نهضة عربية وصلت الصين)، فكان من الطبيعي أن يتجه اهتمام الأندلسيين إلى الثقافة المشرقية العربية للارتباط اللغوي والديني. غير أن ذلك التأثير لم يكن مطلقا بقدر ما كان نسبيا قلصت من حدته رغبة الأدباء الأندلسيين في التفوق والتميز وهو ما تم لهم فعلا بما وسعوا من فنون وبما استحدثوا من أغراض وفنون (المقامات السياسية – المقامات البلدانية - شعر الاستغاثة والاستنجاد – شعر الطبيعة أو المفاضلة بين الأزاهير...). بما يتمشى وضرورات حياتهم وحاجاتهم التعبيرية، وهو ما يفسر الخصوصية في الأدب الأندلسي عامة وأدب المقامة خاصة من حيث التصاقه ببيئته واستعراضه لمشاكلها السوسولوجية والعقدية الدينية والفكرية بغية التغيير والإصلاح.

• مقدمة الفصل الثاني من الأطروحة/ الفصل الثاني - الباب الأول:

إن دراسة معالم الاتباعية في المقامات الأندلسية مشروطة بدراسة المقامات المشرقية البديعية والحريية ، وذلك لتبيان ما بينهما من تماثل وتمايز. والتماثل أمر بديهي ، إذ هو تأثر اللاحق بالسابق ، لكنه تماثل لا ينفي ما بينهما من تمايز. ومن هنا تسمية الفصل بالعملية ، إذ هو تطبيقي يلامس المقامات في مظانها ورقيا ويغوص في ما بين سطورها بالدراسة والتحليل والتعريف بالممكن من خلفياتها التاريخية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، رادا كل مقامة إلى مرحلة ما من مراحل تطور ونماء المقامة الأندلسية: مرحلة التلمذة - مرحلة الندية - مرحلة الأستاذة، وذلك على امتداد أربعة قرون (النتاج المقامي الأندلسي محصور ما بين القرن 5 و9 هـ).

إن الأندلس لم تقدم للأدب العربي مقاميا يضاهي الحريي و الهمداني سوى السرقسطي - بحكم عدد مقاماته - الذي تأرجح فيها ما بين التقليد والتجديد . وأما المقامات الأندلسية عامة، فقد بدا عليها الانحراف عن التقاليد المقامية المشرقية الموروثة عن الهمداني والحريي منذ المقاميين الأوائل المتأثرين بهما ، إذ مالوا بها إلى الرسالة. كذلك سنتبين كيف أن المقاميين الأندلسيين المجددين لم يلتزموا بأصول المقامة المشرقية لا شكلا ولا موضوعا، بل واستحدثت لسان الدين بن الخطيب مقامات غير مسبوقة من حيث الموضوع.

فهذه جوانب عامة في التفاعل في المقامة الأندلسية يطرحها هذا الفصل بكثير من التفصيل في معالم التجديد والخصوصية فيها .

- الفصل الثاني: الإطار العملي -

- المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة الأندلسية
- المطلب الأول: رائدا فن المقامة المشرقية العربية (الطرف المؤثر)
 - ✓ الفرع الأول: الهمذاني
 - ✓ الفرع الثاني: الحريري
 - ✓ الفرع الثالث: الائتلاف والاختلاف في المقامات الهمذانية والمقامات الحريرية
 - المطلب الثاني: نماذج لرواد المقامات بالأندلس (الطرف المتأثر)
 - ✓ الفرع الأول: المتأثرون بالهمذاني (مقاميو عصر ملوك الطوائف 422هـ / 484هـ)
 - (أ) ابن شهيد / (ب) ابن شرف القيرواني
 - ✓ الفرع الثاني: المتأثرون بالحريري (مقاميو عصر المرابطين 484-541هـ)
 - (أ) أبو الخصال / (ب) السرقسطي / (ج) الوادي آشي (د) ابن عياض اللبلي
 - ✓ الفرع الثالث: المقاميون المجددون (مقاميو الأندلس الصغرى 635-897هـ)
 - (أ) ابن الخطيب / (ب) ابن المربع / (ج) الفقيه عمر الزجال / (د) النباهي المالقي
 - المطلب الثالث: مواطن نسبية تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة المشرقية العربية
 - ✓ الفرع الأول: في المقامات الأندلسية بشكل عام
 - ✓ الفرع الثاني: في المقامات السرقسية بشكل خاص

- المبحث الثاني: معالم التجديد والخصوصية في المقامة الأندلسية
- المطلب الأول: في المقامات الأندلسية عموماً
 - ✓ الفرع الأول: التداخل مع الرسالة
 - ✓ الفرع الثاني: الارتباط بأدب الرحلة
 - ✓ الفرع الثالث: خدمتها لأغراض شعرية/ عدم الاستشهاد بأشعار الغير
 - ✓ الفرع الرابع: الخلو من الكدية
 - ✓ الفرع الخامس: طول الحجم والإطناب
 - ✓ الفرع السادس: الارتباط بالبيئة المحلية
 - ✓ الفرع السابع: الخلو من التعقيد اللغوي
 - ✓ الفرع الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة
 - المطلب الثاني: في المقامات السرقسية خصوصاً

-المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة الأندلسية

• المطلب الأول: رائدا فن المقامة المشرقية العربية (المؤثر)

✓ الفرع الأول: الهمداني

ذهب الثعالبي إلى أن بديع الزمان الهمداني (258هـ - 398هـ) قد أملى أربعمائة مقامة، كما ذهب إلى ذلك عدة محدثين منهم زكي مبارك، معتمدين على نص للحصري⁸⁵ في كتابه (زهر الآداب) يثبت أن الهمداني عارض أحاديث ابن دريد الأربعة بمقاماته الأربعمائة⁸⁶. والواقع أن من يعود إلى أحاديث ابن دريد⁸⁷ يلاحظ عليها جملة من الملاحظات أبرزها محورية: أ - لا تتجاوز أن تكون مجرد أخبار تاريخية لا طرافة فيها ولا خيال، وإنما هي واقعية حقيقية. ب - شخصياتها شخصيات حقيقية غير مختلقة أو متخيلة.

وعلى أساس هذا تضارب الباحثون حول الرائد الحقيقي لأدب المقامة، فمنهم من ألحق اللقب بابن دريد ومنهم من ألحقه بالهمداني. وقد انتهينا في الفصل الأول إلى ضرورة الفصل بين الحديث عن أصول وجذور المقامة، والحديث عن المقامة كفن قائم بذاته له معالم موضوعية وفنية محددة⁸⁸.

⁸⁵ - الحصري: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم، المعروف بالحصري، القيرواني، الشاعر المشهور، وله ديوان شعر، وكتاب زهر الآداب وثمر الألباب، توفي بالقيروان سنة 1022/413م (ابن خلكان. وفيات الأعيان. مج 1. ص 54- 55) .
⁸⁶ - "النثر الفني في القرن الرابع". مرجع سابق. ص 250 (يرجح زكي أنها أربعون، لأن المعارضات كانت تتقارب دائما في الكمية، ثم إنه ليس من المعقول أن تضيع 350 مقامة).

⁸⁷ - ابن دريد (ت 321هـ): هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، ولد بالبصرة سنة 223هـ/837م، نشأ بعمان وكان أبوه من رؤساء زمانه، وورد بغداد بعد أن أسن حتى توفي 321 هـ/ م 933. (المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 49)

⁸⁸ - سبق وأن تعاقنا على أن الهمداني - مؤسس ومبدع فن المقامة - لم يخلقه من فراغ، وإنما من المؤكد أنه استفاد من موضوعات الكدية والبخل والتحايل التي أثارها الجاحظ في البخلاء، وبما سماه ابن عبد ربه مقامات العباد عند الخلفاء، لكن كل ذلك مختلف تماما عن المقامة كفن، ويبقى مجرد إرهاصات مهدت لظهور المقامة وما أحاديث ابن دريد إلا واحدة من تلك الإرهاصات.

كما أن ما وصلنا من مقامات الهمداني هو خمسون مقامة أو تزيد قليلا، ففي المرجع الذي اعتمدها وجدناها واحدا وخمسين مقامة، وعند شارحها محمد عبده ثلاثا وخمسين مقامة . وأسمائها تباعا:"المقامة القريضية- الأزاوية - البلخية - السجستانية - الكوفية - الأسيديّة - الغيلانية - الأذربيجانية - الجرجانية - الأصفهانية - الأهوازية - البغدادية - البصرية - الفزازية - الجاحظية - المكوفية - البخارية - القزوينية - الساسانية - القرديّة - الموصلية - المضيري - الحرزية - المارستانية - المجاعية - الوعظية - الأسودية - العراقية - الحمدانية - الرصافية - المغزلية - الشيرازية - الحلوانية - النهديّة - الإبلية - الأرمنية - الناجمية - الخلفية - النيسابورية - العلمية - الوصية - الصيمرية - الدينارية - الشعرية - الملوكية - الصفرية - السارية - التميمية - الخمرية - المطلبية - البشرية"⁸⁹ .

وإيرادي لأسماء المقامات ليس من قبيل الإطناب، وإنما للإشارة إلى أن الهمداني سمى كل مقامة باسم دال عليها ومعبر عن مضمونها خلافا لمن لحقه من المقاميين المعارضين، ولأننا سنوظفها لاحقا في تبيان وجوه الائتلاف ما بين المقامات الأم (للهمداني) والمقامات الأنموذج (للحريري).

تجتمع مقامات البديع على اختلاف وتنوع وتعدد موضوعاتها حول هدف واحد هو تقديم صورة شاملة لواقع بيئته وعصره، وكان مقاماته ثورة على النظام الحاكم، وتعزية للواقع الاجتماعي والاقتصادي الهش للعصر العباسي، حيث اتسعت الهوة بين الفقراء والأغنياء، فظهر التسول والكديّة واستخدام الحيلة لكسب الرزق (طروق الليل - التعامي - مهنة القراد - شكوى تبدل الحال وكثرة العيال...) . "وليست كل مقامات البديع تدور في فلك الكديّة، ذلك أنه في عدة مقامات ظهر بطله الاسكندري غير مكد، وتلك المقامات هي: الوعظية - المضيرية - الرصافية - الشيرازية - النيسابورية - الأهوازية - الملوكية - الخمرية - المارستانية - العلمية - الحلوانية - المجاعية - الخلفية - البصرية - الوجدية - السارية. وإن كان غياب الإكداء لا ينفى وجود الحيلة"⁹⁰.

⁸⁹ - شرح مقامات بديع الزمان الهمداني. مصدر سابق. الفهرس.

⁹⁰ - فن المقامات بين المشرق والمغرب. مرجع سابق. ص 127-128.

وقد تخللت مقاماته مقامات أدبية تعنى بالنقد الأدبي الفلسفي في أفق غاية تعليمية و علمية (الألباز - الأحاجي...) ، كما تخللتها مقامات تتناول أغراضا شعرية (الوصف - الحكمة -...) . "ولقد استطاع الهمذاني في مقاماته أن يصور مختلف جوانب العصر الذي عاش فيه، وأن يعرض شتى نواحيه الاجتماعية والفكرية والأدبية والإنسانية على السواء، فكانت مقاماته صورة حية صادقة عن عصره" ⁹¹ .

والمقامات الهمذانية تصور لنا بعد هذا كله الأخلاق التي كانت سائدة في عصرها، والتي نحت منحى التحلل الأخلاقي، إذ تناول ظاهرة السكر والمجون في "المقامة الخمرية"، حيث يكون الهروب من الواقع في شرب الخمرة، وأحيانا في طريق معاكس، هو الزهد والتفكر في الموت، فكلاهما هروب. كما تناول عدة نماذج إنسانية تعكس مظاهر التفسخ الأخلاقي، ومن ذلك تصويره لملاحم القاضي المحتال والمخادع والمنافق في "المقامة النيسابورية" ، فالنفاق طال هنا شخصية لها وضعها واعتبارها الاجتماعي، ولذلك فنفاقها يصبح أكثر إيلاما. كما تناول شخصية التاجر في "المقامة المضيرية" من زاويتين: الثراء عبر الحرب والانتهازية، والثرثرة وثقل الدم. فالتاجر يستفيد من فقر الآخرين، ويستغل جوعهم أبشع استغلال غير عابئ بكسبه غير الحلال. وقد توسع الهمذاني في الحديث عن التجار وعقليتهم بشكل موسع في "المقامة الوصية"، إذ فصل في صفاتهم في شكل وصايا من البطل (أبو الفتح الاسكندري) لابنه، وأهمها: الحذر من الكرم - عدم الإنفاق - الاقتصار في الطعام على الضروري - قيام علاقته بالناس على الأخذ لا العطاء.

إن ما أود التنصيص عليه هنا، هو أن هنالك تماثلا بين بنية المقامات الهمذانية وتناقضات مجتمع القرن الرابع الهجري، فما المقامات في نهاية المطاف سوى شكل من أشكال التعبير عن طبيعة العصر والمجتمع، "فالظروف التاريخية في مجتمع من المجتمعات تتطلب تعبيرا فنيا معينا وشكلا أدبيا مخصوصا يلائم تلك الظروف، فالأدب نتاج للمجتمع الذي ظهر فيه... - فالشعر مثلا - له ثلاثة أطوار... فالقرون الابتدائية غنائية، والقرون القديمة حماسية، والقرون الجديدة درامية" ⁹² . فقد واكبت المقامات عصر الهمذاني، من حيث هو عصر سمته

⁹¹ - دراسات في الأدب. جورج سالم. ص 55.

⁹² - المقامات والتلقي. نادر كاظم. ص 331.

التكلف والتصنع، ومن تم لم يجد شوقي ضيف⁹³ حرجا في تشبيه مقامات الهمذاني بواجبات المساجد المزخرقة في ذلك العصر، لما لاحظته من تشابه بينهما في التتميق والتصنيع والترصيع. فقد عبر شوقي عن التجاوب بين المقامات والعالم المحيط بها، ومن تم لا غرابة أن تكون المقامات انعكاسا لذلك الواقع المتصنع والمتناقض سوسولوجيا، وهذا التناقض عكسه أبو الفتح الاسكندري، كما عكس خصائص سيكولوجية لنماذج بشرية لا زالت قائمة إلى عصرنا هذا، سمتها الصراع داخليا (نفسيا) وخارجيا (اجتماعيا). فمقامات بديع الزمان "أوفى ما يصور الحياة في عصر منشئها من جوانب كثيرة: سياسية وعقائدية وعرقية وأدبية واجتماعية وتعليمية ولغوية ... فهي وثيقة ذات قيمة اجتماعية وأدبية وسياسية"⁹⁴. فمقاماته أتت على حياة مجتمعه كاملة باستثناء صورة المرأة في عصره، وصورة الحكام المستبدين، وما عدا ذلك فلم تخل مقامة من مقاماته من ظاهرة اجتماعية أو أدبية أو إنسانية.

✓ الفرع الثاني: الحريري

خلف الحريري خمسين مقامة تزيد قليلا عند بعض المحققين، وهي⁹⁵: المقامة الصنعانية - الحلوانية - الدينارية - الدمياطية - الكوفية - المراغية - المعرية - الاسكندرانية - الرحبية - الساوية - البرقعيدية - الدمشقية - البغدادية - المكية - أو الحجازية - الفرضية - المغربية - القهقرية - السنجارية - النصيبية - الفارقية - الرازية - الوبرية أو البدوية - الفراتية - الشعرية أو الحريرية - القطيعية أو النحوية - الكرجية - الرقطاء - السمرقندية - الواسطية - الصورية - الرملية - الطيبية أو الحربية - التفليسية - الزبيدية - الشيرازية - الملطية - الصعدية - المروية - العمانية أو الصحارية - التبريزية - التنيسية - النجرانية - البكرية أو البدوية - الشفوية أو اللغزية - الرملية - الحلبية - الحجرية - الحرامية - الساسانية - البصرية.⁹⁶

⁹³ - الفن ومذاهبه في النثر العربي. مرجع سابق. ص 254.

⁹⁴ - في المقامات. مرجع سابق. ص 25.

⁹⁵ - شرح مقامات الحريري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الفهرس.

⁹⁶ - التزم الحريري أن تكون كل مقامة سادسة أدبية، وكل إحدى عشر زهدية، وكل خامسة وعاشرة هزلية.

"إن من يقرأ مقامات الحريري كلها ويتعقبه فيها يعرف أنه ألفها جميعا عملا واحدا. وحقا يبدو الربط واضحا بين مقامة وتاليتها، فقد كانت وجهة الحريري كوجهة بديع الزمان، ونقصد العناية باللفظ لا بالمعنى، فكلاهما لم يكن يعنيه من بطله ومغامراته سوى عرض صور من الأساليب البليغة".⁹⁷ ففي مقامته الأولى (الصنعانية) يقوم بإجراء التعارف بين الحارث والسروجي، ليتنقلا في البلاد الإسلامية بغية الاستجداء الأدبي، لنجده في المقامة التاسعة والأربعين (الساسانية) وقد شاخ -البطل- ونزع إلى التوبة وفارق الراوية (الحارث). والحريري بهذا يعد المتلقي لبلوغ نهاية مقاماته التي طبعها التكامل والتسلسل، فهي ذات أول واضح وآخر أوضح.

لقد اتخذ الحريري الكدية شكلا ظاهرا لمقاماته، لكن الباطن ينم عن معالجة موضوعات مختلفة منها ما يأنف فيه مع الهمذاني ومنها ما يختلف فيه معه. وهو ما سنعرض له بنأ في الفرع الموالي من هذا المطلب.

كما خص الحريري اثنتي عشرة مقامة للعب اللفظي، ومن ألوان ذلك اللعب أن وجدناه في (المقامة السادسة) وقد اجتمع بأهل البلاغة يعرض عليهم رسالة " التزم فيها أن تكون حروف إحدى كلمتيها منقوطة وحروف الثانية غير منقوطة (الكرم ثبت الله جيش سعودك يزين...). وألفيناه في المقامة السادسة عشرة (المغربية) يعرض لعبة أخرى تتأسس على ما لا يستحيل بالانعكاس (ساكب كاس)، فإنها تقرأ طردا وعكسا فلا تتغير حروفها. وأما في المقامة (القهقرية) فإنه ألف رسالة تقرأ كلماتها من آخرها إلى أولها كما تقرأ من أولها إلى آخرها، وهي مجموعة من الحكم أخرجها... نحو (الإنسان صنيعة الإحسان)"⁹⁸. والأمثلة كثيرة على لزومه ما لا يلزم، أي على تفوقه وحسن توظيفه للموروث العربي (حكم - أمثال - ألغاز - أحاج ...) ، وتمكنه من النحو (المقامة القطيعية)، والفقه (المقامة الفرضية - المقامة الطيبية).

⁹⁷ - المقامة. مرجع سابق. ص 51.

⁹⁸ - المرجع نفسه. ص 60.

إن فكرة التنوع في موضوع مقامات الحريري هي حتما فكرة مقصودة، وقد نص عليها في خطبة الكتاب وسماها بالإحماض⁹⁹، وهو بذلك لا يشذ عن منهج الكتب القديمة التي عمدت إلى التنوع بغية طرد الملل عن القارئ.

إن مقاماته كما تتنوع موضوعاتها تتنوع نماذجها البشرية ففيها: البخيل، والمنافق، والظالم، والزاهد، والطفيلي، والطماع، والعاشق...، بل إن البطل ذاته يتسم بتعدد أبعاده التاريخية والنفسية، "فهو دائما ناغم كثير الشكوى، وهو في شكواه يصف الوضع المتردي لطائفة، ويشير من بعيد وفي حذر شديد إلى الجهة المسؤولة عن هذا الوضع، وذلك على هيئة تلميح في شكل دعابة أو غيرها"¹⁰⁰. وتضافر هذه الأبعاد التاريخية والنفسية والاجتماعية، هو ما منح مقامات الحريري - فيما ذكر غنيمي هلال - "أبعادا جعلها تتفوق على مقامات الهمذاني على الرغم من أسبقيته، وأتاح لها من النضج الفني ما جعلها تتخطى حواجز الزمان والمكان"¹⁰¹.

وكما كان هاجس الهمذاني هو رسم صورة واقعية لواقع عصره، فكذلك فعل الحريري ومن لحقه، "فإذا كان تصوير المجتمع من أهم خصائص الأدب الواقعي في عصور الحضارة والتقدم، فإن المقامات قد انتحت هذا المنحى فعرضت صوراً صادقة لما كانت تموج به الدنيا من خديعة واحتيال"¹⁰².

99 - "الإحماض: الانتقال من شيء إلى شيء، وأصله في الإبل ترعى الخُلة، وهي حلو المرعى فتمله فتنتقل إلى الحمض تأكل منه فيذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة، فتتنشط بذلك على الرعي. يقال: أحضض الرجل إحماضاً، والعرب تقول: الخُلة خبز الإبل، والحمض فاكهتها، فأراد به تنقله في المقامات من حكاية فائقة إلى قضية رائقة، ومن موعظة تبكي إلى ملهية تُسلي، وفي ذلك تنشيط وترغيب في قراءتها، ونفي للملل والكسل عن قارئها". (شرح مقامات الحريري لأبي العباس الشريشي. مرجع سابق. ص 32).

100 - الأدب المقارن من منظور الأدب العربي. مقدمة وتطبيق. عبد الحميد إبراهيم. ص 47.

101 - الأدب المقارن. محمد غنيمي هلال. ص 226.

102 - الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر. مرجع سابق. ص 129.

✓ الفرع الثالث: مظاهر الائتلاف والاختلاف بين المقامات الهمذانية والمقامات الحريرية.

إن تأثير الهمذاني في الحريري أمر مسلم به لا جدال فيه، وقد سلم به الحريري نفسه في خطبة كتابه قائلا: "فأشار من إشارته حُكم، وطاعته غُثم، إلى أن أنشئَ مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظَّالِعُ شَأوَ الضَّالِّيعِ¹⁰³ ... وأنشأتُ ... خمسين مقامة، تحتوي على جدِّ القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان، ...¹⁰⁴ هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سَبَّاق غايات، وصاحب آيات، وأن المتصدِّي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قُدَّامَةً، لا يَغْتَرِفُ إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته"¹⁰⁵.

وفي مقام آخر من خطبة كتابه ذكر: "وأرجو ألا أكون في هذا الهذَرِ الذي أوردته، والمورد الذي توردته، كالباحث عن حتفه بِظُلفِهِ، والجادع مَارَنَ أخفِهِ بكفِّهِ فألحق بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"¹⁰⁶.

ويضيف: "فأي حَرَجٍ على من أنشأ مُلحاً للتنبية، لا للتمويه، ونحا بها منحى التهذيب، لا الأكاذيب! وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم، أو هَدَى إلى صراط مستقيم"¹⁰⁷.

إن الحريري يلتقي مع الهمذاني في عدة مظاهر تطال المضمون كما الشكل،

أبرزها:

- سمي الحريري سبع مقامات بنفس ما سمي به الهمذاني مقاماته، وهي: الكوفية - البغدادية - الدينارية - الساسانية - البصرية - الشيرازية - الشعرية.
- سمي مقاماته بأسماء أماكن وبلدان على نهج الهمذاني.
- ألف خمسين مقامة على غرار الهمذاني (قد يزيد العدد بحسب المحققين).
- جعل الكدية موضوعا أساسيا لبعض مقاماته، وصاحبها بموضوعات فرعية في مقامات أخرى.

103 - شرح مقامات الحريري. الشريشي. مصدر سابق. ص 21.

104 - نفسه. ص 29.

105 - نفسه. ص 32.

106 - نفسه. ص 40.

107 - نفسه. ص 45-46.

- اتخذ لمقاماته بطلا وراوية على غرار الهمذاني، فبطل الحريري هو أبو زيد السروجي وراويته هو الحارث بن همام، ولدى الهمذاني البطل هو أبو زيد الإسكندري، والراوية هو عيسى بن هشام. ولنلاحظ التقليد الذي طال الأسماء: أبو زيد - همام (هشام) .

- تبنى نفس خطة الهمذاني: فالراوية يبدأ بالحديث عن نفسه تمهيدا للخلوص إلى الحدث الرئيسي، وهو اللقاء بمتنكر يكتدي أو يعظ الناس أو يتحدث في مجلس أدب، ثم يظهر في النهاية أنه البطل.

- أجرى - مثلما الهمذاني - الشعر على لسان كل الشخصيات محورية وثانوية.

- طرق نفس الموضوعات وأهمها:

أ. الألغاز والأحاجي نثرا وشعرا.

ب. الوصية.

ج. الوعظ.

وهذا التشابه لا يمكن أن يكون من باب الصدفة أو التخاطر، وإنما هو تأثر اللاحق بالسابق، خاصة وإن كان ذلك السابق كما ذكر الحريري: "سباق غايات، وصاحب آيات...".

وأما وجوه الاختلاف بين المقاميين، فيمكن رصدها كالتالي:

أ. على مستوى أسماء المقامات:

نسب الهمذاني مقاماته - إضافة إلى الأماكن - إلى أشخاص معينين و معروفين، و إلى حيوانات و إلى ألوان من الطعام و الشراب، و من ذلك: "المقامة الغيلانية" نسبة إلى غيلان و هو الشاعر ذو الرمة، و "الجاحظية" نسبة إلى الجاحظ، و "الأسودية" نسبة إلى الأسود بن قنان، و "الحمدانية" نسبة إلى سيف الدولة الحمداني... ومن المقامات المنسوبة إلى الحيوانات نذكر: "المقامة الأسدية" و "المقامة القردية"... ومما نسبه إلى ألوان الطعام أو الشراب نذكر: "المقامة الأزادية"، "المضيرية"، و"النهيدية"، و"الخميرية"¹⁰⁸. وأما مقامات الحريري فليس فيها مقامة واحدة تحمل اسما من نوع هذه الأسماء لأشخاص أو حيوانات

¹⁰⁸ - التقليديّة والدرامية في مقامات الحريري. جابر فميحة. ص 133-134.

أو طعام أو شراب. وإذا كان الهمذاني قد ضيق دائرة الأسماء المنسوبة إلى البلدان (لا تتعدى فارس والعراق والشام)، فإن الحريري قد وسعها لتشمل زيادة على هذه الأمصار: مصر والمغرب، ومكة، والمدينة.

ب. على مستوى الشخصيات:

يبدو راوية الحريري (الحارث بن همام) متوازن الشخصية أقوالاً وأفعالاً، في حين يبدو راوية الهمذاني (عيسى بن هشام) مأكراً ومخادعاً ومنافقاً، يبدي وجه التقوى والورع وحياته الخاصة كلها تهتك أو على حد قوله: (جعلت النهار للناس، والليل للكأس...) ¹⁰⁹. فابن همام واضح الملامح والسمات خلافاً لابن هشام الذي تنعكس فيه عدة صفات سيئة ومتناقضات. وقد سجل بطل الحريري (أبو زيد السروجي) حضوره في كل المقامات ولم يتخلف عن أية مقامة، بينما لم يفعل بطل الهمذاني (أبو الفتح الإسكندري)، إذ لا نجد له ذكراً في بعض المقامات ¹¹⁰.

ج. على مستوى الموضوعات:

- استقل الهمذاني بموضوعات لم نجد لها مثيلاً عند الحريري، وأهمها: وصف اللصوص وحياتهم - الوصف التفصيلي لألوان الطعام والحلوى - مدح الحكام والأمراء (فقد رصد مقامات كاملة لمدح خلف بن أحمد أمير سجستان ¹¹¹) - النقد الاجتماعي اللاذع والصريح للقضاء والقضاة في عصره ¹¹²، في حين اتسم نقد الحريري للحكام والقضاة والأمراء بالاحتراس والحذر.

- انفرد الهمذاني بموضوع غيبي في (المقامة الإبلية)، إذ استغل فكرة شياطين الشعراء وضمنها مقامته، ثم خلفه ابن شهيد (التوابع والزوابع) وأبو العلاء المعري (رسالة الغفران) في القرن الخامس، فألف كل منهما رحلة في ما وراء عالماً. وهو عمل لم نر للحريري مثله في مقاماته.

109 - مقامات الهمذاني. المقامة الخمسون: الخمرية.

110 - مثل: المقامة الغيلانية، والبغدادية، والصفرية، والبشرية.

111 - مثل: المقامة الخفية - النيسابورية - الملوكية.

112 - في المقامة النيسابورية ذكر في وصف قاض ما نصه: "محارب لا ينهب مال الله إلا بين العمود والشهود، وقد لبس دنيته وخلع دينيته وسوى طيلسانه، وحرف يده ولسانه، وقصر سباله، وأطال حباله، وأبدى شقاشقه، وغطى مخارقه، وبيض لحيته، وسود صحيفته، وأظهر ورعه، وستر طمعه".

د. على مستوى الأسلوب:

- مقامات البديع نثرية حظ الشعر فيها قليل، بل إن من المقامات ما لا مكان للشعر فيه نهائياً. وعلى العكس من ذلك، فإن الحريري لم تخل مقامة من مقاماته من الشعر الذي يقارب النثر أحيانا في كمه، بل وقد يزيد عليه.¹¹³

- مال الهمداني إلى السهولة والوضوح والاستعمال الأقل للألغاز والأحاجي¹¹⁴، خلافا للحريري الذي لزم ما لا يلزم فصارت مقاماته تعد من "أغرب نماذج النثر المصنوع"¹¹⁵.

● المطلب الثاني: نماذج لرواد المقامات بالأندلس (المتأثر)

إن ما أنتجه الأندلسيون من مقامات - سواء أكانت معارضة للبديع أو للحريري- يشغل الفترة القائمة ما بين القرن الخامس والقرن التاسع الهجري. وقد سبق وأن عرضت ثبت إحسان عباس لأهم الإنتاجات المقامية الأندلسية، إذ جرد واحدا وعشرين مقاميا، يبدو الخوض في نتاجهم جملة وتفصيلا ضربا من ضروب الإسهاب، ولذلك اقتصر في دراستي على من وصلتنا فعلا مقاماتهم سواء أكانت مبتورة أو كاملة واستثنيت - من ثبت إحسان عباس - ما لصاحبه ذكر وليس لإنتاجه وجود¹¹⁶، مستدركا عليه إسقاطه لأبي حفص بن برد من ثبته وهو

¹¹³ - يظهر ذلك جليا في المقامة الساوية، والملطية، والنجرانية، والشفوية أو اللغزية.

¹¹⁴ - لم يتقل الهمداني أسلوبه بالغريب من الألفاظ سوى في مقامتين هما: الرصافية، والنهيديّة.

¹¹⁵ - النثر الفني في القرن الرابع. مرجع سابق. ص 203.

¹¹⁶ - المقامات مستثناة من الدراسة إما لكونها وصلتنا ناقصة مبتورة، أو لأنها مفقودة، وللإشارة فقد صدر إحسان عباس ثبته بقوله: "وفيما يلي ثبت بأهم ما قدموه في هذا الفن، سواء وصلتنا صورته أو عرفنا اسمه فقط". (عصر الطوائف والمرابطين. ص 305). وإذا كان إحسان عباس يحصر المقاميين الأندلسيين في واحد وعشرين مقاميا، فإن محمود طرشونة يتصور أنه "وجد ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين أندلسيا كتبوا مقامات" فقد ذكر أربعة وعشرين مقاميا يمتدون زمنيا من القرن الخامس إلى التاسع الهجري منهم أصحاب النصوص الكاملة (ابن شرف ق 5 هـ - الفتح بن خاقان ق 6 هـ - ابن أبي الخصال ق 6 هـ - السرقسطي ق 6 هـ - ابن الخطيب ق 8 هـ - ابن المربع الأزدي ق 8 هـ - النباهي ق 8 هـ - أبو عمر الزجال ق 8 هـ)، ومنهم ذوو النصوص المقامية الناقصة (ابن شهيد ق 5 هـ - ابن مالك ق 5 هـ - ابن فتوح ق 5 هـ - ابن المعلم ق 5 هـ - ابن شرف ق 5 هـ - الوادي آشي ق 6 هـ - ابن عياض ق 6 هـ - ابن غالب ق 6 هـ - الهمداني ق 6 هـ)، ومنهم أصحاب نصوص معروفة ضائعة لم تصلنا (ابن خفاجة ق 6 هـ - ابن سلام الباهلي ق 6 هـ - المالقي ق 6 هـ - ابن قصير ق 6 هـ - ابن جامع الأوسي ق غير محدد) - أبو بكر الخطيب (ق غير محدد).

ومما نسجله أن 5 من أصل 24 مقاميا هم من تعرضوا لموضوع الكدية في مقامتهم في، حين اتجه الآخرون إلى مواضيع أخرى كالنقد الأدبي أساسا، والمدح، ووصف القلم، والهجاء، في حين تناول السرقسطي عدة مواضيع لأنه كتب ما يربو عن 40 مقامة خلافا لباقي الأندلسيين الذين اكتفوا بإنشاء مقامة واحدة. وأما غير المؤلفين الأندلسيين باللغة العربية فراندهم الحريري صاحب 50 مقامة. ينظر: (الهامشيون في المقامات العربية وروايات الشطار الإسبانية). ص 46-47 (جدول شامل بالمقاميين الأندلسيين)

من أعلام القرن الخامس الهجري ومتفقا معه في استبعاده لابن غالب الرصافي (ق 6 هـ) صاحب متن في وصف القلم، ولأبي البقاء الرندي (ق 7 هـ) صاحب متن في وصف جارية، وذلك نظرا لأن نتاجهما هو من حيث الماهية رسالة أكثر مما هو مقامة، ولعل هذا أيضا هو مرد إقصاء إحسان عباس لهما من ثبته.

✓ الفرع الأول: المتأثرون بالهمذاني (مقاميو عصر ملوك الطوائف 422 – 484 هـ / ق 5

هـ - 11م)

أ. ابن شهيد (ت 426 هـ) 117 :

شكلت مقامة أبي حفص عمر بن شهيد (382 هـ / 426 هـ) المرتكز الذي انطلقت منه المقامات الأخرى، إذ قلده مشاركة ومغاربة، حتى جاء الحريري من بعد الهمذاني (ق 5 هـ / 11 م) فقلد وأبدع. فابن شهيد يعد أول من تأثر بمقامات بديع الزمان الهمذاني، وهو صاحب رسالة التوابع والزوابع¹¹⁸ المقتبسة من إحدى مقامات البديع (المقامة الإبليسية). خلف مقامة واحدة¹¹⁹،

117 - ابن شهيد: "أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي. ولد سنة 382 هـ / 992م، من مؤلفاته: التوابع والزوابع - حانوت عطار، وغير ذلك. توفي 426 هـ / 1035م". ابن خلكان. وفيات الأعيان. مجلد 1. ص 116.

- "أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد... حاجب الناصر عبد الرحمان، وحامل الوزارتين... كان له أدب تزخر لججه، وتبهر حججه، وشعره رقيق لا يُنقد، ويكاد من اللطافة يعقد...". نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقرئ. المجلد 1. ص 380.

- "كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام، وإذا تأملته... قلت عبد الحميد في أوانه، والجاحظ في زمانه... وكان له في الكرم والجود انهماك... حتى شارف الإملاق". الذخيرة. المجلد 1. ص 118.

118 - يلاحظ الدارس أن هنالك وجوها للشبه بين رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد ورسالة الغفران للمعري، فكلاهما اعتمد الخيال من حيث الطابع القصصي وكلاهما كتب للنيل من خصومه (أبو القاسم الإفريقي خصما لابن شهيد، وابن القارح خصما لأبي العلاء المعري). وأما الاختلاف ففي الأسلوب المتمسم لدى ابن شهيد بالسهولة والوضوح (شأن جل الأندلسيين) وبالغموض والإلغاز والإغراب لدى المعري. ومما وقعت عليه يدي من المراجع المثبتة لنص الرسالة: "ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله"، جمع وتحقيق وشرح محي الدين ديب. ص 193-226. وقد صدرها بقسم كامل في ترجمة ابن شهيد.

119 - وهذا خلافا لما ذهب إليه فرح ناز علي صفدر في ص 78 من كتابها: "المقامة بين الأدب العربي والفارسي. الحريري والحميدي خصوصا" إذ ذكرت مانصه: "نجد ثلاث مقامات لابن شهيد في كتاب الذخيرة، وهي بالرسائل أشبه مما بالمقامات، ولاتقوم على الكدية والشحاذة الأدبية". وقد صنّف إحسان عباس ابن شهيد ثانيا في ثبته "2- مقامة لأبي حفص عمر بن الشهيد"، ذكر مقامة وليس مقامات.

فالواضح أن الباحثة لم تكلف نفسها عناء الرجوع إلى المصادر - الذخيرة تحديدا - وإنما اكتفت بالمراجع، وذلك أوضح في ترجمتها في هامش السياق نفسه لابن شهيد اعتمادا على شوقي ضيف، وليس على أمهات مصادر الأدب الأندلسي. فالإقتباس من المراجع على الرغم من وجود المصادر يقود حتما إلى مثل هذه الأخطاء العلمية المسيئة لقيمة البحث العلمي. يخطئ باحث ويتوارث الخطأ من بعده باحثون. والواضح أن الباحثة سقطت في خطأ وهي تأخذ - دون إحالة منها - عن شوقي ضيف في "تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات. الأندلس" قوله: "ويعرض علينا ابن بسام في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لاتقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات" ص 517. فالمقامات الثلاث التي يقصد هي: مقامة ابن شهيد، ومقامة أبي الوليد بن عبد العزيز المعلم، ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي، وهي المقامات التي تناولها بالتحليل الجزئي الباهت في صفتين.

وصفها ابن بسام بالطول¹²⁰ وأعمل مقصه فيها ببتن بعض فصولها¹²¹ ، ومع ذلك وردت في ثمان صفحات من كتاب الذخيرة (ص 419 إلى 427). وهو ما يعني أنها مقامة طويلة، وأنها لم تصلنا كاملة، وأن اقتضاب ابن بسام ربما انعكس سلبا على فهمنا العام لها .

إن أول ما يطالعنا ونحن نتصفح الذخيرة، ذلك الانحراف المبكر للمقامة الأندلسية عن أركان المقامة المشرقية العربية، فمقامة ابن شهيد خالية من الكدية، وتتفاعل لدرجة الانصهار مع جنس أدبي آخر هو "أدب الرحلة" مما يجعل منها نصا مقاميا رحليا. وهذا الارتباط الوثيق بين المقامة وبين أدب الرحلات هو من مظاهر الخصوصية في المقامات الأندلسية، يضاهي ارتباطها وتداخلها مع فن الرسالة، وتميزها بالطول والإطناب، وما إلى ذلك من المظاهر التي سنعرض لها في حينها بكثير من التفصيل.

وجه ابن شهيد مقامته للفقير ابن الحديد " وأما لماذا قدمها لابن الحديد، وهل لها صلة بالمقدمة عن فن الكتابة وهل يمكن من سياقها كله استنتاج غاية وراء إظهار البراعة البلاغية فتلك أسئلة لا نستطيع الإجابة عنها"¹²². فقد استهل ابن شهيد مقامته بمقدمة عن الكتابة يرثي فيها حالتها قائلا: " إن صناعة الكتابة محنة من المحن، ومهنة من المهن...لاسيما وقد تناولها يد كثير من السوق...فسلبوها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظه، ولا يفرغ في قلبها لفظه..."¹²³. وفي نهاية هذه المقدمة في الكتابة يكشف عن المستهدف بإنشاء المقامة بقوله: "كحركات الفقيه ابن الحديد، فإن أيامه على مناكب الأيام أردية شباب، وفي مفارقتها تيجان نخوة وإعجاب"¹²⁴. وتتوالى بعد ذلك اقتضابات ابن بسام ممهدا لها بعبارة "وفي فصل منها" أو "ومنها"، وتكرر خمس مرات وهو ما يعطينا فكرة واضحة عن الحجم الحقيقي للمقامة. وما الفصول الموالية سوى وصف لرحلة ، "فالمقامة ما هي إلا وصف لنزهة قام بها ابن شهيد ضمنها أبياتا من الشعر وأوصافا من النثر، وليس من وراء مفهومها

¹²⁰ - أول ما استهل به ابن بسام كلامه في مقامة ابن شهيد قوله: "وله من مقامة حذف بعض فصولها لطولها. قال في صدرها: إن صناعة الكتابة محنة من المحن...". الذخيرة. المجلد 1. ص 419 .

¹²¹ - لا يجب أن نفهم من أعمال ابن بسام مقصه الحاذف في المقامات الأندلسية التي أوردها في ذخيرته - والتي سنتناول بالدراسة - ، بأن الحذف يطال الفقرات، وإنما حذفه يهم الصفحات، بل عشرات الصفحات حسبما يفهم من طبيعة الحذف عنده في رسالة ذكر شوقي ضيف - في الأندلس عصر الدول والإمارات المشار إليه سابقا - أن "ابن بسام اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة" ص 527.

¹²² - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. إحسان عباس. ص 248.

¹²³ - الذخيرة. م 1. ص 419.

¹²⁴ - نفسه. ص 420.

الظاهر أية رموز أرادها، ويبدو أنه قدمها لابن الحديد ليظهر بلاغته في فن القول وعلو منزلته في العرض وطول باعه في الوصف" ¹²⁵. فقد استهلها بالحديث عن الكتابة لا بسرد الحكاية، وهو ما يعني أنه كان على وعي تام بأنه يكتب شيئاً غير عادي. وهي عموماً تنقسم إلى مرحلتين واضحتين: المرحلة الديكية، والمرحلة الديرية. "وبتتبعنا لأحداثها قد لا نفقه معنى لإطلاق تسمية المقامة على هذا النص، وهو ما يدعو إلى التساؤل عن أسباب هذا الانحراف والخروج في وقت مبكر عن نهج المقامة البديعية" ¹²⁶. فواضح بما لا يدع مجالاً للشك أن أبا حفص رام في مقامته إلى إظهار براعته في الكتابة والوصف، ولا أدل على ذلك من مقدمة مقامته في فن الكتابة، وما صاحب ذلك من تفجع على ما نالها من أذى المتطفلين عليها.

وبعد هذه المقدمة، يطالعنا ابن بسام بعبارة " وفي فصل منها" لنقف على متن في وصف الربيع، وفي تهيو الفقيه للوضوء فجراً، وأغلب الظن أنه الفقيه ابن الحديد الذي كان رفيق ابن شهيد في رحلته المقامية. وفي ذلك إشارة واضحة لزمان المقامة من حيث هو وقت الفجر كزمن خاص، وفصل الربيع كزمن عام . وفي فصل منها – حسب تعبير ابن بسام - يميلان إلى منزل بدوي أقرب إلى حانوت عطار ، حاول صاحبه إكرامهما بذبح ديك هرم له "عض على أيديهم عضة، وانتفض منهم نفضة، وصعد في بعض الجوائز ¹²⁷... فقال لهم الديك... أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار، وقد أحسنت لدجاجكم سفاداً، وربيت لكم من الفراريح أعداداً، فالآن حين بلي في خدمتكم تاجي، أنعى إلى دجاجي، وتتحى الشفرة على أوداجي؟! ¹²⁸... ثم غشي عليه ... فرقت له أنفس القوم، وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم" ¹²⁹، وعدلوا عنه لما زاد في ترغيبهم في ديك غيره: "وإن له في بني ما لا يجده في، من طيب المشم، ولذة المطعم... فزكى قوله، كل من حوله... واتخذوه من ذلك اليوم حكيماً... ¹³⁰ . وفي فصل من المقامة يصلان إلى قرية مسيحية " فأصغيت فإذا بصوت ناقوس ، في دير قسيس، وقرية آنة، كلها حانة، دار البطاريق،

125 - الأدب العربي في الأندلس. تطوره، موضوعاته، وأشهر أعلامه. علي محمد سلامة. ص485.

126 - النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله. علي بن محمد. ج2. ص571.

127 - الجوائز: ج جائزة، وهي الخشبة تصل بها جدارين لحمل السقف.

128 - الذخيرة: المجلد 1. ص422.

129 - المصدر نفسه. ص423.

130 - نفسه. ص423.

وملعب الكأس والإبريق، سائمتها الخنازير، وحياضها المعاصير، ومياها الأنبذة والخمور¹³¹، إذ حلف عليهم القسيس أن ينزلوا ففعلوا منبهرين بجمال المكان وبجمال الغلمان والجواري، مستمتعين بالتنزه وصيد طيور البرك "فإذا بحر من برك، يخرقه سفين من برك.. فأرسلناها إرسال سهام الأحداق إلى قلوب العشاق، فلم نر إلا ريشا ملحوجا"¹³²، وعلى صخرة بيضاء إلى جانب الماء نقش ابن شهيد قصيدة يصف فيها تفاصيل نزهته. وفي نهاية المقامة يلتقيان بشاب وسيم خارج من السجن راغب في اعتناق الإسلام هروبا مما كان فيه "منفلت من السجن، وأبق من أهل الحصن، وعائد من ظلمات الغواية، بنور الهداية، ومن نل عبادة الأوثان، إلى عز عبادة الرحمن"¹³³. وبقصة الشاب عن توبته وكيف هداه الله للإسلام تنتهي المقامة: "لقد أنحلتني عبادة الطواغيت فعبدت الصليب وقرعت الناقوس، وفعلت كل ما قرت به عين إبليس، قدر لم يكن ليخطئني ولا يتخطاني، إلى أن استتقذني ربي وهداني، وأنا أشهد أيها الأشهاد أن الله إله واحد...مخترع الكل ومنشئه، ومعيده ومبدئه، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى"¹³⁴. - انتهى نص المقامة -.

لقد أفاد الاحتكاك بمتن المقامة في تلمس خاصية أخرى من خصائص المقامة الأندلسية وهي الخلو من التعقيد اللغوي والميل نحو السهولة في انتقاء الألفاظ، والدقة في أداء المعاني خلا ما يمكن مصادفته في المقامات السرقسطية لأن الأمر عنده كان يتعلق بالمعارضة وليس بالتقليد أو المحاكاة، ولأن المرحلة كانت مرحلة ندية للأدب الأندلسي مع الأدب العربي المشرقي، خلافا لمرحلة ابن شهيد والتي كانت مرحلة تلمذة للأدب الأندلسي على الأدب المشرقي العربي.

131 - الذخيرة: المجلد 1. ص 424.

132 - نفسه. ص 425.

133 - نفسه. ص 426.

134 - نفسه. ص 427.

ب. ابن شرف القيرواني (ت 460 هـ/1067 م) 135 :

وصلتنا مقامتان لأبي عبد الله بن شرف القيرواني، وهما مثبتان بالذخيرة، إذ ذكر ابن بسام أن: "لابن شرف مقامات عارض بها البديع، وصب فيها على قلبه، منها مقامة فيها بعض طول، لكنه غير مملول"¹³⁶، عرض فيها أسماء الشعراء وأخبارهم منذ العصر الجاهلي حتى عصره، وذلك على لسان بطلها "أبو الريان"¹³⁷. فمقامته الأولى طويلة تشبه المقامة القريضية لبديع الزمان من حيث النقد الأدبي، والمفاضلة بين الشعراء (جاهليين وإسلاميين)، وهي أشبه بالمقالة الأدبية منها بالمقامة، ولذلك فهو لم يعارض البديع ما دام لم يتقيد بالضوابط الفنية التي وضعها الهمذاني. فأسلوبها تقريرى والعنصر الدرامي فيها غائب، وهي لا تقوم على الكدية. وهو ما يدعو إلى القول بأن هدف ابن شرف كان أدبيا بحتا، ومقامته ما هي إلا رسالة نقدية لا غير. أولها: "جارت أبا الريان في ذكر أهل النظام، ومنازلهم في الجاهلية والإسلام، فقال: عدد

¹³⁵ - قال عنه ابن بسام: "كان أبو عبد الله محمد بن شرف بالقيروان: من فرسان هذا الشأن، وأحد من نظم قلاند الآداب وجمع أشنات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون. له عدة تأليف، منها: كتاب أعلام الكلام - كتاب أباكار الأفكار... ، وله مقامات. توفي سنة 460 هـ/1067م". (ابن بسام. الذخيرة. المجلد 4. ص 104). ذكر ابن بسام ابن شرف في القسم الرابع من ذخيرته حيث ذكر الكتاب الوزراء، والأعيان والسفراء، الوافدين على جزيرة الأندلس والطارئين عليها من أول المائة الخامسة من الهجرة إلى وقته ذلك الذي كان سنة اثنتين وخمسمائة، وكان ابن بسام قد خصص الأقسام الثلاثة الأولى لمن نشأ بالأندلس، ولذلك يُفهم أن ابن شرف كان من المهاجرين للأندلس من أدباء الشام والعراق وصاروا من أهل الأندلس بالوفادة عليها وخلع أوطانهم إليها "مع أن هذه الطائفة لم يُسَمَّ إلا بالأندلس ذكرهم، ولا طار إلا بمدح ملوكنا شعرهم... حدو أبي منصور الثعالبي، فإنه ذكر في يتيمته نفرا من أهل الأندلس فعارضته أو ناقضته، والأدب ميدان يليقُ به المتاح، ويُستحسن فيه الجمال". (الذخيرة. ق 4. ص 3)

- "هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني. قال العماد الأصفهاني: كان في عصر ابن رشيق، طالعت مصنف محمد بن شرف الموسوم ب (أباكار الأفكار)، وهو كتاب أكثر صاحب الخريدة (خريدة القصر وجريدة أهل العصر) من النقل عنه فيما كتبه عن شعراء الأندلس والمغرب. وله أيضا كتاب (أعلام الكلام)". (أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية. محمد رضا الشيباني. ص 85). وتذكر المصادر كذلك أنه ولد في أواخر القرن الرابع نحو 390هـ/1000م في مدينة القيروان، كان أحد شعراء بلاط المعز إذ كان مجيدا متصرفا في فنون الشعر، وقد جمعت الصلة في ذلك المجلس بابن رشيق فكانت بينهما منافسة وخصومة، ولما أريدت سماء القيروان اتخذ ابن شرف سبيله إلى الأندلس التي ظل مقبما بها حتى أدركه الموت.

¹³⁶ - الذخيرة. المجلد 4. ص 120.

¹³⁷ - من الغريب أن يذهب إحسان عباس في كتابه (تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين) إلى أن ابن شرف عارض الحريري ("إن الاهتمام بمعارضة مقامات الحريري حين ظهرت كان أشد، إذ أقبل الكتاب على معارضتها ومنهم ابن شرف القيرواني". ص 243) خاصة وأنه يحيل على الذخيرة في قسمها الرابع، ص 104، وبالرجوع إلى المصدر لا نجد لمعارضة ابن شرف للحريري ذكرا، وإنما المعارضة تخص الهمذاني كما نص على ذلك ابن بسام في ذخيرته. وكما تثبتته تواريخ وفاة الأعلام الثلاثة: الهمذاني (ت 398هـ) - الحريري (ت 556هـ) - ابن شرف (ت 460هـ)، فالمنطق يفرض تأثر ابن شرف بالهمذاني وليس بالحريري.

الشعراء أكثر من الإحصاء، وأشعارهم أبعد من شقة الاستقصاء...¹³⁸ وأما آخرها فقوله: "... هذا ما عندي في المتقدمين والمتأخرين، على احتقار المعاصر، واستصغار المجاور، فحاش لله من الاتصاف، بقلة الإنصاف، للبعيد ولل قريب، والعدو والحبیب. قلت يا أبا الريان، وقيت مرور الحدثان¹³⁹، فلقد سُبكت فهما، وحشيت علما"¹⁴⁰. وهذه المقامة - الرسالة - تعرف بمسائل الانتقاد، ومن اسمها يتضح مضمونها إذ هي مقامة نقدية تحتوي على نقد مشاهير الشعراء الجاهليين والإسلاميين وشعراء الغزل، وكذا المحدثين من الطبقة المتأخرة في الزمان المتقدمة في الإحسان، كالمتنبي و الصنوبري وبعض شعراء الغرب الإسلامي، فقد سعى ابن شرف إلى إبراز صورة ابن شرف الناقد، إذ عبر عن موقفه من الشعراء ومن سقطاتهم و عيوبهم الشعرية، فذكر من الشعراء: امرؤ القيس " الضليل مؤسس الأساس، وبنياته الناس"¹⁴¹، وطرفة، وزهير، وابن حلزة، والنابغة زياد، والنابغة الجعدي، وحسان، ودرید بن الصمة، وجرول، والأخطل، وكثير، وبشار بن برد، وأبو نواس، ودعبل، والبحثري، وابن الرومي، والصنوبري، وابن عبد ربه القرطبي، وابن هانئ محمد الأندلسي "ولادة والقيرواني وفادة وإفادة"¹⁴²، والقسطلي " الحاذق بوضع الكلام في موضعه، لاسيما إذا ذكر ما أصابه في الفتنة، وشكا ما دهاه في أيام المحنة، وبالجملة فهو أشعر أهل مغربه، في أبعد الزمان وأقربه"¹⁴³، وعلي التونسي "بحثري المغرب"¹⁴⁴. فقد جرى ابن شرف أبا الريان في الشعر والشعراء، ومنزلهم في جاهليتهم وإسلامهم، واستكشفه عن مذاهب قدماتهم ومحدثيهم، ولما كان الشعراء أكثر من أن يحصى عددهم ذاكره في المشهورين مبديا آراء نقدية فريدة فيهم، تتميز بالقوة والجرأة.

138 - الذخيرة. م. 4. ص 120.

139 - الحدثان: الليل والنهار، أو حوادث الدهر وأحداثه.

140 - الذخيرة. م. 4. ص 128.

فالمقامة تتألف من ثمان صفحات من مطبوع الذخيرة وهو ما يعطي فكرة عن طولها، وذلك خلافا لمقامته الثانية التي لم ترد في الذخيرة سوى في صفتين (ص 128- 129).

141 - الذخيرة. م. 4. ص 121.

142 - المصدر نفسه. ص 127. ترجمته في وفيات الأعيان. ج 4 (ص 421- 424).

143 - نفسه. ص 127.

144 - نفسه. ص 128.

والواضح أن ابن شرف لم ينس أن يعطي مقامته لونا وبعدا محليا ، فحدثنا عن بعض متأخري شعراء الغرب الإسلامي المشهورين ، ومن هؤلاء ابن عبد ربه الأندلسي¹⁴⁵ ، وابن هاني الأندلسي¹⁴⁶ "له غزل قفري لا عذري، لا يقنع فيه بالطيف، ولا يشفع بغير السيف"¹⁴⁷ ، والقسطلي¹⁴⁸ "المؤخر بالعصر المتقدم في الشعر"¹⁴⁹ ، وعلي التونسي¹⁵⁰ الذي شابه البحتري في الوصف والغزل والمدح، وعمد في شعره لصحة السبك وحلاوة اللفظ. وبهذه الجماعة من الغرب الإسلامي يختتم ابن شرف مقامته بعدما استهلها بجماعة المشاركة، وكأنه يجري مقابلة بين الجماعتين، أو كأنه أراد أن يقول إن للغرب الإسلامي شعره وشعراءه مثلما للمشرق العربي شعره وشعراءه الرواد.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن شرف تناول بالذكر في هذه المقامة الأولى ما لا يقل عن ثمانية وأربعين شاعرا ينتمون إلى مختلف العصور الأدبية، وأعطى تعريفا لكل شاعر أبرز فيه مذهبه الشعري وخصائصه الفنية، وتتصل هذه التعاريف بتاريخ الأدب والنقد الأدبي، غير أنها جاءت مقتضبة في عبارات مسجوعة لا تتجاوز أسطرا قليلة أو كلمات محدودة ، كأن يتعرض لوصف

¹⁴⁵ - هو أبو عمر أحمد بن عبد ربه، ولد في قرطبة على الأرجح سنة 246هـ / 860م. وتلقى بها علومه الأولية، وكان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، ومن ألمع شعراء فترة الخلافة أيام عبد الرحمان الناصر. وله ديوان شعر جيد. توفي سنة 328 هـ / 940م. (يتيمة الدهر. 2/75-100 - وفيات الأعيان 1 / 111-112).

¹⁴⁶ - هو أبو الحسن بن هاني الأزدي، ولد باشبيلية سنة 320هـ / 932م أو 326 هـ / 937م على خلاف في ذلك. وقد نشأ نشأة أدبية، وتمرس بقول الشعر ونبع فيه، لم يطل مقامه بالأندلس فهاجر إلى شمال إفريقية (تونس حاليا)، واتصل بجوهر الصقلي ومدحه، وبيع بعض الولاة كجعفر بن علي الأندلسي، كما لقي المعز لدين الله الفاطمي. توفي ابن هاني سنة 362 هـ / 973م. (ينظر في ذلك: معجم الأدياء 6/668 - وفيات الأعيان 4 / 421 و422).

¹⁴⁷ - الذخيرة. م 4. ص 127.

¹⁴⁸ - هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي، ولد سنة 347 هـ / 958م. ونشأ نشأة أدبية وأغرم بشعر المتبني، وكان من كتاب الإنشاء في أيام المنصور بن أبي عامر. قال عنه ابن حزم: "كان عالماً بنقد الشعر، لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر منه لم أبعده"، توفي سنة 421 هـ / 1030م. (ترجمته في: يتيمة الدهر 2 / 104-116 ، وَ الصلة 1/44 ، وَ وفيات الأعيان 1/135-138 ، وَ العبر 3/142).

¹⁴⁹ - الذخيرة. م 4. ص 127.

¹⁵⁰ - هو علي بن محمد الأيادي نشأ وتربى بمدينة تونس، كان أشهر شاعر إفريقي في مدة القائم بن المهدي، وولده إسماعيل المنصور. وقد عمر الأيادي طويلا، وتوفي في أيام المعز لدين الله سنة 365هـ / 975م. (مجلد تاريخ الأدب التونسي. حسن حسني عبد الوهاب. ص 96).

الشاعر في سطر، مثلما فعل مع عامر بن الطفيل¹⁵¹: "فشاعرهم في الفخار، وفي حماية الجار، و أوصفهم لكريمة، وأنعتهم لحميد شيمة"¹⁵².

ومن المبادئ النقدية التوجيهية التي حملتها المقامة أن " النقد هبة في الموالد، وفيه زيادة طارف إلى تالد"، إذ يرى ابن شرف أن النقد موهبة فطرية تنمو بالثقافة و الاكتساب المعرفي الفني ، وأن كل شاعر في هذه الحياة هو قديم محدث ، وأن الفيصل في الخلاف بين القديم والمحدث هو الجودة والإحسان .وحديثه في هذا وغيره يبدو خاليا من كل تجديد ، لأنه لا يعدو أن يكون تلخيصا لما فصل فيه السابقون ، وتكرارا عقيما لنفس الأمثلة والتبويبات والتقسيمات ،ومنهم القاضي الجرجاني، وإسحاق الموصلي ، والأصمعي، وابن قتيبة، وقدامة بن جعفر ، وابن سلام الجمحي ، وآخرون من رواد النقد الأدبي العربي القديم.

لقد سلك ابن شرف في مقامته مسلك بديع الزمان الهمذاني في مقاماته النقدية الأدبية التي انزاح بها عن موضوع الكدية الذي شغل جل مقاماته بوصفه هدفا رئيسا وفلكا تدور فيه مقاماته، ومن ذلك: المقامة الإبلية، والمقامة الجاحظية، والمقامة القريضية، والمقامة الشعرية. ونهج بعد ذلك نهج ابن شهيد في رسالته (التوابع والزوابع) متناولا بالنقد كثيرا من مشاهير الأدباء (شعراء وكتاب). وبين هذين العمليين" انطلقت تجربة ابن شرف بوصفها أطول مقامة نقدية ، وفق صاحبها في النهوض بها من حديث سريع مجمل إلى رسالة لها مقدمة وفصول ونهاية، وموضوعها الذي لا يكاد يحيد عنه هو النقد . وبذلك وسع من الدائرة الضيقة التي كانت المقامة سجينة خلال إطارها وهو موضوع الكدية"¹⁵³.

¹⁵¹ – أبو عامر بن الطفيل العامري، كان فارس قومه وأحد فتاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، توفي سنة 111هـ/632م. (الأعلام. 20/4 ، وتاريخ الأدب العربي. 117/1) .

¹⁵² – الذخيرة. م.4. ص123.

ومثال ذلك الاقتضاب في الوصف كذلك ، وصفه للراعي عبيد: "فَجُبِلَ على وصف الإبل، فصار بالراعي يعرف، ونُسِي مألُهُ من الشرف"، ووصفه لزيد الخيل : "فخطيبُ سِجاعة ، وفارس شِجاعة، مشغولٌ بذلك عما سواه من المسالك" ، ووصفه لابن مُقيل: "فقدِيمٌ شعرُهُ، وصليبٌ نجره ، ومغلى مدحُهُ، ومُعَلَى قَدْحُهُ".

¹⁵³ – النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي (362هـ/555هـ). أحمد يزن. ص391. تناول المؤلف المقامة باعتبارها مرة رسالة ومرة مقامة فمما ذكر: ابن شرف ورسالته – ألف رسالته بعد أن هجر القطر التونسي – مضمون الرسالة ومنهجها – لم يتقيد بأسلوب المقامة في جميع الرسالة وإنما وسع جوانب القول فجاءت رسالته في مقدمة وفصول وخاتمة – قيمة المقامة النقدية لابن شرف.

وهذا التآرجح لدى المؤلف يبرره ذلك الانحراف المبكر للمقامة الأندلسية عن المقامة المشرقية العربية إلى ما يشبه أدب الرسالة. وهذه خاصية أساسية وملازمة للمقامة الأندلسية تنزع بها نحو التأصيل والاستقلالية والخصوصية والتميز ، ذلك أن أدب الغرب الإسلامي أدب له هويته وطابعه المحلي الخاص.

وأما مقامته الثانية، فمختلفة تماما عن الأولى، صدرها ابن بسام بقوله¹⁵⁴ : "مقامة له أخرى. حدثني الجرجاني قال: كان فتى بجرجان من أبناء الأقبال، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية في الجمال...". فواضح من بدايتها أنها تطرق موضوعا مكشوفاً، فرغم ما تحمله من بلاغة وفصاحة على لسان راويها الجرجاني، فإنها ماجنة تخدش الحياء، توصل فيها ابن شرف بالإحماض، إذ انتقل من الجد إلى الهزل للترويح عن النفس ولإذهاب الملل الذي جلبه الجد المفضي إلى الضجر. مقامة يندى الجبين لفحشها النابع من فحش الموضوع، وبالتالي فحش الألفاظ والمعاني المعبرة عنه، ولو أن القالب كان هو الظرف والبلاغة ودناءة البطل وهو الشيخ الأعمى المشتعل شهوة المخاطب للفتى بقوله: "يا سيدي أنا ضرورة، وتم ضرورة، وقد طالت الغربية، واضطرتني العزبة. فقال الفتى له: فما وجدت لضرورتك سواي ... قال: ... اتق الله خالك... ثم اهتز كأنه نسر مقصوص أو حمار مرهوص، فقمنا وتركنا جانبه... ولاح وجه الصباح، وجئنا إليه بالمصباح... فإذا هو قد فارق النفس النمرودية، ومات الميتة الجاهلية". وبموت الشيخ الأعمى تنتهي المقامة، وهي المقامة الثانية لابن شرف وإن كان أحد الدارسين يشير إلى أن ابن شرف وضع عشرين مقامة سماها إذ ذكر " إن الخبر اتصل في زمانه بأن البديع أنشأ عشرين مقامة، وأنه لم يطلع على هذا العدد، والموجود من أحاديثه العشرين ثلاثة... وابن شرف القيرواني أمضى معظم حياته خارج الأندلس ثم دخلها واتصل ببني عباد"¹⁵⁵.

ولا تكفي في الواقع هاتان المقامتان لتبيان منهج متكامل لدى كاتب مقامي، إذ المرجح أن ابن شرف كتب غيرهما، غير أن مقاماته لم تصل إلينا. لكنهما تبقيان كافيتان للدلالة على الخصوصية المبكرة في المقامة الأندلسية وعدم ارتباطها التام والمطلق بتقاليد وقيود المقامة كما وضعها الهمذاني وجملها خلفه الحريري من بعده.

ومن المقاميين الآخرين المشكلين لنماذج المقاميين الأندلسيين الأوائل (ق5هـ/11م) والمتأثرين ببديع الزمان الهمذاني نذكر: أبو محمد بن مالك القرطبي- أبو المطرف عبد الرحمن بن فتوح-

¹⁵⁴ - وردت المقامة في أقل من صفتين من مطبوع الذخيرة. المجلد 4. ص: 128 - 129 .

¹⁵⁵ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس. محمد رضوان الداية. ص359.

أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم – الفتح بن خاقان – أبو حفص بن برد الأصغر. وقد أثرت التفصيل في نموذجين (ابن شهيد ، وابن شرف) والاقتراب في قادم تعرضي للنماذج الأخرى للمقاميين الأندلسيين المتأثرين بالحريري، لاعتبارات منهجية تهم توازن الفصول من جهة، والنأي عن اعتبار هذه الدراسة مجرد وصف تاريخي كرونولوجي صرف من جهة ثانية، ولأن الحديث عنهم جميعا سيرد في باب الاستناد على أعمالهم المقامية للقول بنسبية تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة المشرقية العربية ، وباستقلال المقامة الأندلسية بشكلها ومضمونها الخاصين منذ نشأتها الأولى بالأندلس، وذلك على نحو افتقدنا فيه المقامة التي تقوم عادة على الكدية والشحاذة الأدبية.

✓ الفرع الثاني: المتأثرون بالحريري "مقاميو عصر المرابطين 484هـ-541هـ (ق6هـ) -

12م"

أ- أبو عبد الله بن أبي الخصال (465-540 هـ): ¹⁵⁶

عارض أبو الخصال الحريري بمقامته المشهورة بالقرطبية والموسومة بـ "ميزان الأعيان بحكم الزمان"¹⁵⁷، إذ اتخذ الحارث بن همام وأبا زيد السروجي بطلين لمقامته - الجارية أحداثها في الريف - التي تبتدئ بجلوس الشيخ السروجي متوسطا الناس مبهرا إياهم بفصاحته داعيا إياهم لعطائه، وبعد انصرافهم عنه تعرف على الحارث بن همام الذي طلب منه المبيت عنده ناويا سرقة، لكن السروجي ليس ممن يقع فريسة لغيره، فقد استيقظ صباحا ليجد صاحبه قد غادر بعد أن ترك رقعة كتب عليها ثلاث قصائد. خف الحارث للسؤال عن السروجي فوجده مرتها عند أحد الخمارين، لأنه شرب ولم يدفع النقود، ففك رهنه.

¹⁵⁶ - ذكره ابن بسام في ذخيرته في المجلد الثالث الذي خصه بذكر الجانب الشرقي في جزيرة الأندلس، قال: "ذو الوزارتين الكاتب أبو عبد الله بن أبي الخصال حامل لواء النباهة، الباهر بالرواية والبداهة، مع منظر ووقار، وشيم كصفو العقار، ومقول أمضى من ذي الفقار، وله أدب بحره يزخر، ومذهب يباهي به ويفخر، وهو إن كان خامل المنشأ نازله، لم ينزله المجد منازلته، ولا فرع للعلاء هضاباً، وارتشف للنساء رضاباً، فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، والذي ألحقه بالمجد، وأوقفه بالمكان النجد، ذكاء طبع عليه طبعه، ونجم في تربة النباهة غرْبُهُ وَنَبْعُهُ...". ص 511-512.

وفي بغية الملتمس، ص 113 نقرأ ما نصه: " هو محمد بن مسعود أبو عبد الله بن أبي الخصال، متقدم في اللغة والآداب والكتابة والخطابة والشعر... توفي سنة 540 هـ مقتولاً". وينظر أيضاً قلاند العقيان. ص 174.

¹⁵⁷ - فن المقامات بين المشرق والمغرب. مرجع سابق. ص 304.

ذكر إحسان عباس أن: "هذه المقامة تختلف عن مقامات الحريري في طولها وميل منشئها إلى أن يجرب قلمه في وصف عدة مقامات، فهناك منظر الريف، وآخر في بيت الحارث، ثم ثلاث قصائد متتابعة ، ثم تفتيش عن السروجي، ثم وصف الحانة وحوار طويل بين الحارث ورب الحانة، ثم اللقاء والحوار بين الحارث والسروجي، ثم وصف اليوم الذي ختمت به تلك الأحداث"158.

فلامح الاتباعية عند أبي الخصال تظهر في اتكائه الشديد على الحريري متبنيا نفس اسمي الشخصيتين الخياليتين ، "والغريب في المقامة أن الراوية هو الذي أراد أن يتحايل على البطل لكنه فشل ، وكان البطل أذكى منه، وهذه النهاية لم نتعود عليها في مقامات الهمذاني أوالحريري"159 . وما نلاحظه في هذه المقامة هو طولها قياسا لما عهدناه عند الحريري، كما أن أبا الخصال أكثر فيها من شعره الذي أورده فيها ، وضمن مقامته الكثير من الأمثال العربية، والاقتراسات من الشعر والقرآن الكريم.ولعل ما يثير الانتباه في هذه المقامة هو تأكدها لخاصية اعتماد المقامي الأندلسي في إنشاء مقامته - في شقها المتعلق بالنظم - على شعره الخاص خلافا لما نجده لدى المقاميين المشاركة، أو المقاميين المغاربة والذين لا يجدون حرجا في إيراد أشعار من نظم غيرهم في مقاماتهم كما سنلاحظ لاحقا.

ب-السرقسطي (ت 536 هـ) :

وهو رائد فن المقامة الأندلسية خصصته بكثير من العناية كما سيتضح مع التقدم في التوسع في باب ترسيخ الخصوصية في النتاج المقامي الأندلسي من هذه الدراسة، ولذلك فلا غرو أنني لن أسوق عنه أي حديث في هذا الفرع الخاص بالمقاميين الأندلسيين التقليديين المتأثرين بالحريري، والذين خصصتهم بكثير من الاقتضاب غير المخل بأهداف البحث.

ج. محارب بن محمد الوادي آشي (ت 533 هـ):

وهو ليس محمد بن جابر الوادي آشي الأصل التونسي مولدا وقرارا (ت749هـ) صاحب كتاب "برنامج الوادي آشي"، والذي يعطينا لمحة عن الحركة العلمية في القرنين السابع و الثامن

158 - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 317.

159 - دراسات في الأدب الأندلسي. محمد سعيد محمد. ص 303.

الهجريين في العصر الحفصي بتونس لما تجددت العناية بدراسة الحديث رواية ودراية بتأثير من الموحدين، فما الدولة الحفصية سوى فرع منهم. وإنما المقصود هو محارب بن محمد الوادي أشي(ت533هـ) صاحب مقامتين - كما ذكر إحسان عباس - لم تصلنا التي في القاضي عياض¹⁶⁰ وإنما وصلتنا التي في مدح القائد عبد الله بن ميمون، والتي اسم بطلها فتح بن ميسور ومكانها مدينة صور، والشخص الثاني فيها يدعى ابن منصور نشأت بينه وبين فتح بن ميسور صداقة ضربها الزمان بسهم، إذ لما كان ميسور في مدينة سلا تشوق إلى المرية فقصدها مارا بسبته حتى وصل إلى وادي أشي، وبينما هو يرتاح إذ بدا له فارس صحبه إلى خيمة سأل صاحبها عن ابن ميمون فوصفه وأثنى عليه وعلى غزواته البحرية. فواضح أن الغاية من المقامة هي مدح القائد بن ميمون وذكر شجاعته في الحروب البحرية، والإطار الخارجي من فراق الصديقين ولقائهما يبدو مصطنعا غير ملائم، لأن اتخاذ صور مكانا لأول لقاء ثم تعريف الرجل المشرقي وهو الصوري بقائد مغربي يبدو واضح الافتعال. وهنا يحضرنا ذلك الشعور بالنقص الذي كان لأهل الغرب الإسلامي تجاه التفوق المشرقي، والرغبة في التفوق والمضاهاة والتجديد. فهو يبدو باعثا حقيقيا على إنشاء الوادي أشي لمقامته المدحية.

د. ابن عياض اللبلي (ت 550 هـ):

يعد اللبلي من المقاميين الأندلسيين الذين لم يستوحوا الحريري في مقاماته الساسانية القائمة على الكدية، وإنما استوحى نهج المقاميين الأندلسيين الذين وصلوا بين المقامة وبين أغراض الشعر من مدح وغزل وغيرهما، وبين أغراض النثر من رسائل وصفية لبعض المشاهد والديار. تدعى مقامته بالدوحية وتسمى أيضا المقامة العياضية الغزلية، وموضوعها الغزل، وقد ذكر ابن سعيد في المغرب فاتحتها. "يتصل منشئها أبو عبد الله محمد بن عياض اللبلي بصدر دولة الموحدين فهو لاحق بأواخر هذا العصر الذي نتحدث عنه (يقصد عصر المرابطين). وأولها:" قال ميزان الأشواق، ومعيار المحبين والعشاق، نبت بي معاهد الأحباب، في ريعان الشباب ... "161 .

¹⁶⁰ - يشير ابن الأبار (في التكملة) إلى أن الأديب محارب بن محمد أشي الذي عاش في القرن السادس وضع مقامة في مدح القاضي عياض بن موسى السبتي (ت 455 هـ). (الأدب العربي في الأندلس. عبد العزيز عتيق. ص 481).
¹⁶¹ - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 325.

✓ الفرع الثالث: مقاميون مالوا إلى التجديد (مقاميو الأندلس الصغرى)

أ- لسان الدين بن الخطيب (713-776 هـ / ق 8 هـ -14 م) :

رائد المقاميين الأندلسيين المجددين، وصاحب الأعمال الأدبية الكثيرة والجيدة، والسر في ذلك ابتلاؤه بالأرق فقد كان يقضي نهاره في تدبير أمور الدولة (مملكة غرناطة ق 8هـ)، ويقضي ليله في الإنتاج الأدبي، ومن تم لقب بذوي العمرين إلى جانب لقبه بذوي الوزارتين. وسأخصه بالكثير من العناية في المتقدم من المطالب، وأما من سواه من المجددين المبدعين في فن المقامة الأندلسية فنذكر: ابن المربع - الزجال - النباهي.

ب- أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ابن المربع) (ت 750 هـ):

يعد من كتاب المقامات في القرن الثامن، وهو أديب غرناطي يعرف بابن المربع. له مقامة ساسانية¹⁶² تدعى (مقامة العيد) كتبها إلى حاكم مالقة الرئيس أبو سعد فرج بن نصر يستجديه أضحية بمناسبة العيد. والمقامة مسجوعة سجعاً عذبا، وهي تصور جوانب كثيرة من المجتمع الغرناطي " تصور ربة البيت وما تكلف به زوجها من مطالب فوق طاقته حتى إذا حضر لها ما تريد عادت فأزرت به... وترينا نظام التوثيق وكتابة العقود في الأندلس، وما كان يشيع هناك من صناعة الفخار، والمحتسب ومن يساعده من الأمانة ورجال الشرطة، والعجائز وتطفلهن، والأولاد والتفافهم حول كل ما يرون"¹⁶³. فهي مقامة بديعة ترسخ الخصوصية في المقامة الأندلسية من حيث التصاقها بالواقع المحلي والتعبير عنه من حيث العلاقة بين الإنسان والمكان في زمان الأندلس، " فهي من خير المقامات تصويرا للبيئة الشعبية الغرناطية في عصر لسان الدين بن الخطيب"¹⁶⁴.

وهذا الاصطباغ باللون المحلي هو ما سيؤكد الاستقلالية في الأدب الأندلسي، وما سيعزز تأثيره في الأدب الإسباني ومنه في الآداب الأوروبية وجرها نحو الواقعية.

¹⁶² - ساسان آخر ملوك الفرس، وقد جرت عادة الأدباء أن يسموا أهل الكدية بأبناء ساسان نسبة إلى رجل اسمه ساسان، كان حاذقا في الاستعطاء، دقيق الحيلة في الاستجداء.

¹⁶³ - تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات - الأندلس. شوقي ضيف. ص522.

¹⁶⁴ - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص326.

ج-الفقيه أبو عمر الزجال (ت 844 هـ) (ق 9 هـ/ 15 م) :

يعرف أيضا بعمر المالقي، وله مقامة ساسانية طابعها الأساسي المجون وهي نظم لا نثر، أسماها " تسريح النضال إلى مقاتل الفصال"، كما أن له مقامة أخرى في أمر الوباء الذي ألم بغرناطة زمن أميرها الغني بالله، وهي تعبر إلى حد كبير عن التصاق المقامة الأندلسية ببيتها المحلية، ولنا في الحديث عنه رجع لاحق.

د-أبو الحسن النباهي المالقي (ت 792 هـ)

له مقامة تدعى بالمقامة النخلية، وهي مفاخرة بين النخلة والكرمة تعكس ذلك الاتجاه الجديد الذي خرج بالمقامة إلى موضوعات جديدة منها المفاخرة - وذلك على غرار ابن الخطيب في مفاخرته بين مالقة وسلا - لكن اختياره للنخلة مسبق¹⁶⁵، فقد اختار نخلة لتكون بطلا لمقامته¹⁶⁶، حاورها الراوي مبديا تعاطفه مع عزلتها بالقرب من قصر الحمراء، ثم أظهر لها كرامة شرعت تفاخرها وتعيرها بالكبر واليبس، وأنه لا ثمار لها ولا أهل ولا مالك ولا بهاء، وأن مجرد بقائها في مكانها دون قطع ولا قلع يعد وحده فضلا كبيرا. فهذا ظاهر المقامة، وأما ما يحيل عليه باطنها فالحالة المزرية التي آلت إليها الأندلس، وما النخلة إلا ذلك الإنسان العربي الأصيل الذي يكاد ينمحي أثره من الأندلس، وأما الكرمة فما هي سوى العنصر النصراني الذي يحاول طرد المسلمين من الأندلس الصغرى (غرناطة). وهذه دلالات غير مسبوقه على الرغم من أن الموضوع نفسه مسبق مطروق، وهنا مكنم جده المقامة الأندلسية وتفردها وإبداعها وتميزها.

¹⁶⁵ - من ذلك: رسالة ابن برد في النخلة (تنظر في الذخيرة لابن بسام. المجلد الأول. ص329-332)، ومن ذلك قصيدة لعبد الرحمان الداخل صقر قريش في نخلة رآها وحيدة برصافة قرطبة (تنظر في: أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لابن الخطيب. تحقيق: ليفي بروفنسال)

¹⁶⁶ - نص المقامة مثبت بالإحاطة لابن الخطيب. القسم 4 / ص96- 97- 98- 99.

• المطلب الثالث: مواطن نسبية تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة

المشرقية العربية

✓ الفرع الأول: في المقامات الأندلسية بشكل عام.

اتخذت المقامة الأندلسية شكلا خاصا بها منذ البوادر الأولى لنشأتها، إذ برزت الخصوصية فيها بجلاء بدءا من أوائل القرن 5هـ/10م لتتعمق أكثر لدى مقاميي القرن 8هـ/14م. فالإنتاج الأدبي الأندلسي عامة لم يخل من محاكاة - أكثر منها تقليدا- وهو ما أهله للتجديد والإبداع، ذلك أن الأدباء الأندلسيين تمثلوا الشعر المشرقي العربي جيدا فعارضوه واستحدثوا أغراض شعرية جديدة (الموشحات والأزجال - شعر الاستغاثة أو الاستنجاد)، كما أنهم تمثلوا النثر المشرقي فحاكوا فن المقامة وعارضوه مستحدثين موضوعات مقامية جديدة غير مسبوقة (المقامات السياسية - المقامات البلدانية). فهم في مجاراتهم للمشاركة لم يقفوا عند الموضوعات المقامية التقليدية وحسب ، وإنما قاصوا بعض الظواهر والموضوعات ووسعوا بعضها الآخر، وخاصة ظاهرة الكدية التي قلت لحد الانعدام في النتاج المقامي الأندلسي. فالواضح أنه قد ظهرت بوادر جد مبكرة للخروج عن نهج المقامة المشرقية. ولهذا، فالقول باتباعية المقامة الأندلسية يكتنف استقلالية لا مجال لإنكارها، ذلك أن مقلدي الهمذاني أمثال : أبو حفص بن شهيد - أبو المطرف عبد الرحمان بن فتوح¹⁶⁷ - أبو محمد مالك القرطبي¹⁶⁸ -

¹⁶⁷ - "أبو المطرف عبد الرحمان بن فتوح، وكان يعرف أيضا بابن صاحب الأسفيريya. كان صديقا لأبي حفص بن برد الأصغر... كان قاضيا للخليفة هشام بن الحكم في قرطبة، وراوية ثبتا ومؤلفا في الأدب وتراجم الرجال. توفي 407هـ" (الذخيرة. ج1. هامش المحقق. مصدر سابق. ص480).

¹⁶⁸ - "أبو محمد بن مالك القرطبي، كان فردا من أفراد الشعر والكتاب، وبحرا من بحور المعارف والأدب، له مقامة أدارها على مديح المعتصم بن صمادح أمير ألمرية" (الذخيرة. ابن بسام. مجلد 1. ص563). وينظر في ترجمته أيضا: (تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. إحسان عباس. ص311-312).

ابن شرف - أبو الوليد المعلم¹⁶⁹ - الفتح بن خاقان¹⁷⁰ - أبو حفص بن برد الأصغر¹⁷¹ ، لم يتعرضوا للكديّة في مقاماتهم - ما عدا ابن المعلم -، وأسقط بعضهم الشخصيتين الخياليتين (الراوي - البطل) من المقامة التي صارت تؤدي على لسان كاتبها ، كما أنهم أطنبوا وأطالوا في حجم المقامة.

فمقامة ابن شهيد (ت426هـ) المصدرة بمقدمة في فن الكتابة والمثبته بالذخيرة ، أقرب ما تكون إلى وصف رحلة أو نزهة. وهي طويلة، قال عنها ابن بسام: "وله مقامة حذف بعض فصولها لطولها"¹⁷²، كما أنها تخلو من الكديّة.

وأما مقامة ابن فتوح فتدور حول النقد الأدبي بالأندلس والتغزل بالمدكر، لم يستتر مؤلفها وراء شخصية وهمية، كما أنه حدد الزمان والمكان ذكرا سنة 430هـ، وذلك خلافا لتقاليد المقامة المشرقية. ومقامته مثبتة بالذخيرة¹⁷³.

وأما مقامة القرطبي فهي في المدح، وهي طويلة مثبتة بالذخيرة¹⁷⁴. قال ابن بسام: " اقتضبت لها طولها، وسقت بعض فصولها"¹⁷⁵، ومع أن ابن بسام أعمل مقصده فيها بالحذف والاقتضاب، فإنها جاءت في اثنتي عشرة صفحة من مطبوع الذخيرة.

وأما ابن شرف القيرواني فله مقامتان بالذخيرة¹⁷⁶، الأولى نقدية طويلة تشبه المقامة القريضية للهمذاني، راويها أبو ريان الصلت بن السكت ، والثانية ماجنة راويها الجرجاني. والواضح أن

¹⁶⁹ - "أبو الوليد محمد بن عبد العزيز بن المعلم، ممن لاح نجمه في سماء اشبيلية، فقد كان وزيرا للمعتضد بن عباد. قال فيه ابن بسام: ممن شهر بالإحسان في صناعة النظم والنثر". (الذخيرة. ج2. ص67).

¹⁷⁰ - "أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأصل، له عدة تصانيف منها: قلائد العقيان جمع فيه من شعراء العرب طائفة كثيرة وتكلم عن ترجمة كل واحد منهم بأعذب عبارة، وله أيضا كتاب مطمح الأنفس... توفي قتيلا سنة 535 وقيل 529 بمدينة مراكش في فندق. ويقال إن الذي أشار بقتله أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين أخو أبي إسحاق إبراهيم الذي ألف له أبو نصر كتاب قلائد العقيان وقد ذكره في خطبة الكتاب". (مختصر ترجمة المصنف المذكورة في قلائد العقيان. المقدمة. ص5).

¹⁷¹ - "الوزير أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد المتوفى سنة 428 هـ، وهو من كتاب ديوان الإنشاء في دولة العامريين. قال عنه ابن بسام: "كان أبو حفص أحمد بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها سحره، وأقام من أودها بناصح نظمه وبارع نثره... كان جده أبو حفص الأكبر واسطة السلك ، وقطب رحي الملك بالحضرة العظمى بقرطبة" (الذخيرة. ج 1. ص302).

¹⁷² - الذخيرة ج1. ص419.

¹⁷³ - نفسه. ص491-492.

¹⁷⁴ - نفسه. ص463 - 470.

¹⁷⁵ - نفسه. ص463.

¹⁷⁶ - نفسه. ص120-128 (المقامة الأولى، وأولها: جاريت أبا الريان...)، ص128-129 (المقامة الثانية، وأولها: حدثني الجرجاني...).

كلتا المقامتين خاليتان من الكدية.

وأما مقامة المعلم فقد أوردها ابن بسام تحت عنوان: فصول من مقامة¹⁷⁷، وهو ما يعني أنه لم يوردها كاملة، وموضوعها هو الاستجداء الأدبي. ويرجح إحسان عباس أنه قالها في مدح المعتضد، ويشبهها برسالة ابن زيدون الهلزية. وأما المقامة القرطبية المنسوبة للفتح بن خاقان فماجنة مغلفة بالهجاء والتعريض بعلماء قرطبة، وبخاصة ابن السيد البطليوسي، وهناك من ينسبها لأبي الخصال. ومن المؤسف أن تتعرض المقامة لمساوئ الأدباء الأندلسيين عوض ذكر محاسنهم. وأما المقامة النخلية لابن برد الأصغر فموضوعها الحديث عن النخلة وأوصافها، وبعض ما قيل فيها من أشعار، وقد كان هو الراوي فيها.

إن هذا الانحراف المبكر للمقامة الأندلسية عن تقاليد المقامة الهمدانية يجعل من تأثر المقامة الأندلسية بالمقامة المشرقية حقيقة نسبية غير مطلقة، وهو ما يضفي على المقامة الأندلسية خصوصية وتميزاً عن نظيرتها المشرقية. وهذا الابتداء المبكر لم يسلم منه أيضاً المقاميون الأندلسيون المتأثرون بالحريري (عصر المرابطين 464-541 هـ / ق 6 هـ - 12 م) أمثال: أبو الخصال (540 هـ)، والسرقسطي¹⁷⁸ (ت 536 هـ)، والوادي آشي¹⁷⁹ (ت 533 هـ)، وابن عياض اللبلي (ت 550 هـ).

فأبو الخصال وإن كان قد عارض الحريري بمقامته¹⁸⁰ المشهورة بالقرطبية، فإنه قد خالفه في طولها وفي رغبة الراوية التحايل على البطل، لكنه فشل وكان البطل أذكى منه، وهي نهاية غير مألوفة لدى الهمداني أو لدى الحريري، ثم إن ما يميزها هو أن أبا الخصال أكثر فيها من شعره الخاص.

¹⁷⁷ _ الذخيرة. ج. 2. ص 67-70.

¹⁷⁸ _ سبقت الترجمة له: تنظر ص 18 من هذه الدراسة.

ينظر في ترجمته: (تاريخ الأدب العربي. عمر فروخ. ج. 5. ص 237)، وكذلك: (الصلة. ابن بشكوال. ج. 3. ص 853).
¹⁷⁹ _ سبق التنبيه لضرورة التمييز بينه (ت 533 هـ) وبين الوادي آشي صاحب "برنامج الوادي آشي" (ت 749 هـ)، والوادي آشي بالهمزة بعدها شين معجمة، نسبة إلى وادي آش بالأندلس، من كورة ألبيرة... والوادي آشي- الذي لا يعنينا - هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم بن حسان القيسي، ويلقب بابن جابر اختصاراً، وبصاحب الرحلتين لرحلته مرتين إلى المشرق. ولد في سنة 673 هـ/1274 م. قرأ القرآن على أبي جعفر بن الزيات بفاس. دخل الجزائر والمغرب الأقصى والأندلس، وفي هذه الأقطار أخذ عنه جماعة من أهلها كابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب. توفي بتونس في الطاعون العام سنة 749 هـ/1338 م. (برنامج الوادي آشي. محمد محفوظ. ص 9-13-20).

¹⁸⁰ _ ورد ذكر أبي الخصال في المجلد الثالث من الذخيرة دون أن يورد ابن بسام مقامته. ص 511-512.

وأما الوادي أشي فصاحب مقامة مدحية¹⁸¹ في القائد المغربي عبد الله بن ميمون يذكر فيها شجاعته في الحروب البحرية، وله مقامة مدحية أخرى في القاضي عياض (ت455 هـ) لم تصلنا . وأما اللبلي فصاحب مقامة غزلية تجعل من أغراض الشعر أدوات وصل بين المقامة كجنس أدبي نثري وبين النظم .

إن هذا الخروج عن الأصول الفنية للمقامة الحريرية والمسبوق بانحراف مبكر عن تقاليد المقامة الهمذانية ،قد مهد الطريق لبروز مقاميين أندلسيين مجددين (مقاميو الأندلس الصغرى 635- 897 هـ / 8-9 هـ / 14 و15م) من أمثال :ابن المربع¹⁸² - لسان الدين بن الخطيب¹⁸³ - والفقهاء عمر الزجال¹⁸⁴ .

فابن المربع (ت750 هـ) في مقامة العيد أطنّب وأطال لدرجة أن ابن الخطيب - في إحاطته - حذف قصيدة المدح عن آخرها. فمن سماتها الطول وكذا الأسلوب الشعبي، فالراوي أقرب لغة وأسلوباً إلى الرواة في السوق مما يجعل القارئ يشعر كأنه يستمع إلى المقامة بدلاً من قراءتها. فالمقامة تعكس الحياة الحقيقية لأحد الأسواق العامة بغرناطة، وموضوع المقامة هو العيد، وإن كان الهدف منها استجداء أضحية العيد.

وأما لسان الدين بن الخطيب(ت776هـ) فإن جانب الابتداع عنده أبرز من جانب الاتباع، إذ انتقت الكدية تماماً من مقاماته، كما أنه جعل لكل مقامة راوية لم يسمه، وأبدع مقامات رحلية ومقامات سياسية ومقامات بلدانية، فكان أول من كتب في هذا الصنف من المقامات في أدبنا العربي في المشرق والغرب الإسلامي. له مقامة في السياسة تبلغ خمس عشرة صفحة أجرى الحوار فيها

¹⁸¹ - المقصود الوادي أشي المقامي المتوفى سنة533 هـ ، وهو غير ابن جابر الوادي أشي الهراوي النحوي الأعمى (ت780هـ) ، ولا ابن جابر الوادي أشي صاحب كتاب برنامج الوادي أشي (ت 749 هـ).

¹⁸² - هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي المعروف بابن المربع (ت 750 هـ)، أديب غرناطي له مقامة ساسانية كتبها إلى حاكم مالقة أبي سعد فرج بن نصر يستجديه أضحية العيد.

¹⁸³ - هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني المعروف بابن الخطيب (ت 776هـ)، استنبت موضوعات مقامية جديدة غير معروفة قبله، ومتماشية مع الخصوصيات المحلية لبيئته وعصره. له ثمان مقامات، مما يجعله إلى جانب السرقسطي (صاحب 50 مقامة) أحد المتفرغين للمقامة خلافا لسواهما من المقاميين الأندلسيين ممن اكتفوا بإنشاء مقامة أو مقامتين. وللإشارة فالمجلد الخامس من نفح الطيب يشكل القسم الثاني من النفح وهو في التعريف بلسان الدين، وهو من ثمانية أبواب.

¹⁸⁴ - الفقيه أبو عمر الزجال (ت844هـ)، يعرف أيضا بعمر المالقي، وله مقامة ساسانية سماها "تسريح النضال إلى مقاتل الفصال"، وهي عبارة عن قصيدة نونية طويلة من 83 بيتاً. وقد ذكر له المقري في (أزهار الرياض) مقامة أخرى في أمر الوباء تحت السلطان على الرحلة إلى مالقة والخروج من مكان تقشي الوباء.

بين الخليفة هارون الرشيد وحكيم فارسي (تحدث ابن الخطيب بلسانه)، وهي ذات طرح سياسي إصلاحي يذكرنا ببرنامج ابن المقفع الذي طوع الأدب لخدمة السياسة أوائل العصر العباسي، فالجديد أن يتجه الوعظ في المقامات مما هو اجتماعي إلى ما هو سياسي. كما أن له مقامات انتقادية مثل (قطع الفلاة بأخبار الولاية)، ومقامات بلدانية مثل: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ومقامة المفاخرة بين مالقة وسلا .

وأما الأديب الفقيه عمر صاحب الأزجال، فله نونية طويلة وطأ لها بنثر، وجعل الكل مقامة ساسانية نصها مثبت بالنفح¹⁸⁵، وهي ماجنة محفوظة عند العامة مرفوضة عند الخاصة، وأولها: " يا عماد السالكين ومحط رجال المستفيدين والمتبركين.. "186، وقد أثبتتها المقرئ لأنها من الهزليات التي تقع لكثير من الأئمة على سبيل الإحماض يعنون بها غالبا لإظهار البلاغة والافتقار كما فعل الحريري وغير واحد. ومن أبدع ما صدر عنه كذلك مقامة في أمر الوباء¹⁸⁷ وأولها: " إلى حمراء الملك وقلعته ومقر العز ومنعته... "، وآخرها: " وكتب بتاريخ ربيع الآخر عام 844. انتهت المقامة "188، وهي كلها في الاحتجاج على إبقاء السلطان في مكان قد فشا فيه الوباء، وتزيين الرحلة له إلى مالقة، وموضوعها كما هو باد جديد مرتبط بالبيئة الأندلسية المحلية. وأما ما يمكن اعتباره بذورا للاتباع والتقليد والمحاكاة والتأثر في المقامات الأندلسية فإنه محدد ومحدود، ومن ذلك أن ابن شرف القيرواني كتب مقامة نقدية تشبه المقامة القريضية للهمذاني من حيث النقد الأدبي و المفاضلة بين الشعراء (جاهليين وإسلاميين) دون أن يتعرض للشعراء الأندلسيين، وهنا مكن اتباعيته. وأن الفتح بن خاقان صاحب المقامة القرطبية نسجها على غرار المقامة المشرقية من حيث أن بطلها المتخيل يحمل اسم "علي بن هشام". وأن ملامح الاتباعية عند أبي الخصال تظهر في اتكائه على الحريري متبنيا نفس اسمي الشخصيتين الخياليتين، إذ اتخذ الحارث بن همام راوية وأبا زيد السروجي بطلا لمقامته. وأما الأزدي في مقامة العيد فقد كان مبدعا في ربط المقامة بالواقع الأندلسي (سوق غرناطة) لكنه كان متبعا في موضوعها المرتبط بالكدية والاسترزاق واستجداء أضحية العيد.

185 – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المقرئ التلمساني. مجلد 5. (ص40-46). وينظر نصها في: "أزهار الرياض في أخبار عياض" للمؤلف نفسه. ج1. (ص116-124).

186 – أزهار الرياض. ج1. ص. 117.

187 – نفسه. ص125-132.

188 – المصدر نفسه. ج2. ص 132.

✓ الفرع الثاني: في المقامات السرقسية بشكل خاص

1- على مستوى المضمون:

يقر السرقسطي في تصدير مقاماته بتأثره بالحريري حيث ذكر ما نصه: "أما بعد حمد الله العلي والصلاة على المصطفى النبي، فهذه خمسون مقامة أنشأها أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي بقرطبة من مدن الأندلس عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريري بالبصرة، أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره، ولزم في نثرها ونظمها ما لا يلزم فجاءت على غاية من الجودة والله أعلم"¹⁸⁹. والواقع أنه تأثر أيضا بالهمداني دون أن يصرح بذلك صراحة، إذ أن بعض مقاماته خلت من المقدمة والخاتمة، وهو في ذلك يتفق مع الهمداني في مقاماته، ويختلف عن الحريري الذي تبدأ مقاماته بمقدمة وتنتهي بخاتمة.

وقد وكل السرقسطي حكاية مقاماته للمنذر بن حمام رواية عن السائب بن تمام، وسار فيها على النسق الذي سارت عليه مقامات الحريري. فالسائب بن تمام هو الذي يقوم بالمغامرة، ويلتقي في معظم الأحيان بالشيخ العبقري المحتال السدوسي (أبو حبيب)، الذي لا تختلف فلسفته عن فلسفة بطل الحريري، وأحيانا يتدخل في قصة المقامة فتیان أو أحدهما، وهما ابنا الشيخ السدوسي، الأول: حبيب، والثاني: غريب.

إن أول ما يطالعنا ونحن نحاول رصد مظاهر الاتباعية في المقامات اللزومية، هو أسماء الشخصيات الأساسية، ذلك أن اسم راوية الحريري هو (الحارث بن همام)، وراوية السرقسطي- كما ذكرنا- هو (المنذر بن حمام)، إذ جاءت كلمة (حمام) على وزن (همام)، وكذلك الراوية عند السرقسطي هو (السائب بن تمام)¹⁹⁰ على وزن (الحارث بن همام).

وعلى الرغم من استلهام السرقسطي عناصر شخصية بطله من شخصية أبي زيد السروجي، فلم يكن الحريري مصدره الوحيد، ذلك أن نماذج هذه الشخصية تكاثرت في واقع الحياة الأندلسية، فقد بدأت أفواج كبيرة من العجر وأبناء ساسان تأخذ طريقها إلى بلاد الأندلس، مما جعل الحياة الأندلسية تتأثر إلى حد كبير بما أدخله هؤلاء من أساليب الغناء والرقص والشعر. وقد كشف

¹⁸⁹ - المقامات اللزومية. أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي. تحقيق: حسن الوراكي. ص 17.

¹⁹⁰ - "السائب ليس سائب الاسم فقط، بل سائب الجسم أيضا، لأنه رحالة لا يكاد يستقر في مكانه ولكنه حبيس الموقف". دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص 307.

السرقسطي عن هذه الظاهرة في مقامته الثانية عشرة وهي: الفارسية. قال على لسان الراوي: "فخرجت أستهدي النواسم وأستخبر المطي الرواسم، وإذا بركب قادم مثل الخوافي والقوادم ... فقلت: من أين وضع الركب ... فقال: نحن ركب العراق... نحن أبناء فارس ذوو المنابت الخالصة..."¹⁹¹. فالمقامة صورة حقيقية للهجرات التي وفدت على بلاد الأندلس وقوامها أبناء ساسان.

وقد استخدم بطل السرقسطي نفس الأساليب التي كان يستعملها بطل الحريري في احتياله، فهو يتخذ من كثرة العيال وتبدل الحال سببا يبرر به الاكداء من الناس. قال في المقامة الرابعة: "أيها الناس... آوي إلى زُعبِ الحواصل كالأسِنَّةِ والمناهل يتطلعون إلي تطلع الغريم، ويستعطفوني استعطافي للكريم، فما يظنون بي وقد جئتهم صفر الوطاب خائب الاحتطاب"¹⁹². ومنها أيضا ظهور السدوسي مستجديا الناس في المسجد كما هو جلي في المقامة الخامسة، وهي ظاهرة اجتماعية وظفها قبله الحريري في المقامة الثالثة عشرة، وقبلهما الهمذاني في المقامة السابعة عشرة. فقد وظف السرقسطي حكايات المكدين كما فعل الحريري والهمذاني، فبدا الاحتيال عنده على وجهين: احتيال على الأفراد (وهو قليل)، واحتيال على الجماعات (وهو الأكثر ورودا). ومن أشكال الاحتيال الأخرى طرق شكل الانتحال، كانتحال شخصية طبيب كما في المقامة التاسعة والأربعين لدى السرقسطي على غرار المقامتين الموصلية والسجستانية لدى الهمذاني. كما طرق الاحتيال بالرقية كما في المقامة الرابع والأربعين، والتاسع والأربعين، وذلك على غرار المقامة العمانية عند الحريري، والمقامة الحرزية للهمذاني .

لقد عرض السرقسطي لظاهرة الكدية في ثلاث عشرة مقامة من مقاماته، فكان مقلدا لسابقه، ولم يكن راصدا لظاهرة اجتماعية موجودة فعليا في بيئته الأندلسية، لأن ظاهرة التسول كانت شبه منعدمة في الأندلس. وقد بدت المقامات التي عاصرت السرقسطي أو سبقته خالية منها، وبالتالي يكون تعرض السرقسطي للكدية مجرد تقليد فني لا غير.

191 - المقامات اللزومية. مصدر سابق. ص 120.

192 - المصدر نفسه. ص 43.

ومما نلاحظه كذلك على هذه المقامات السرقسطية الإكثار من ذكر البطل السدوسي في أماكن السكر، وهو صاحب فلسفة خاصة في ذلك، قال¹⁹³ :

أنا السدوسي فاعلمُ وكُلُّ دهري عِيدُ
إن فاتني اللهو يوما فإنني مستعيدُ
وقد علمت يقينا إن السَّعيدَ سَعِيدُ

ويبدو واضحا أن السرقسطي أراد من موقف السدوسي في حالة السكر والمجون، أن يصور جانبا من الحياة الأندلسية، كثرت فيه الحانات والبيوت ذات البيارق الخافقة والقيان، وكل ما يمت إلى حياة اللهو بصلة. وقد خصص لهذا الجانب مقامة كاملة أسماها "الخمرية"، وهي العشرون في ترتيب مقاماته. فقد عالج قضية مستهلكة مشرقيا، لكنها ذات امتداد وحضور في البيئة الأندلسية. فتفشي ظاهرة الخمر ما هو إلا شكل من أشكال الهروب من الواقع، وإن كان هروبا مؤقتا.

لقد بدا السرقسطي بدا في مقامته الخمرية، كما في المقامة الخامس والثلاثين المسماة "الدب"، منتقدا العيوب الاجتماعية في عصره، إذ صور فيها الشيخ أبا حبيب يتكسب من ترقيص دب له، والناس متعلقون حوله. كما طال نقده الاجتماعي عدة مظاهر أخرى، ومنها انتحال مهنة الطب والعرافة معا كما أسلفنا. فقد حاول محاربة السذاجة والخرافات، واستهجن فساد القضاء، وشكا الدهر والغربة والانحلال الأخلاقي، وضياع الأدب. كما ومارس النقد¹⁹⁴ في مقامته الثلاثين وهي أطول مقاماته، "ومن المؤسف جدا بل ومن الغريب أيضا أنه لم يتعرض لأي شاعر أندلسي، ويبدو أن هذا ما دفع الضبي في بغية الملتمس إلى القول عنه أنه "سرقسطي البقعة عراقي الرقعة"¹⁹⁵. فمقامته لم تقدم جديدا بخصوص حياة الكتاب والشعراء في بلاد الأندلس،

¹⁹³ - المقامات اللزومية. المقامة السادسة. ص 60.

¹⁹⁴ - مارس السرقسطي النقد الأدبي خصوصا في مقامته الثلاثين وهي (مقامة الشعراء)، وفي المقامة الخمسين وهي (في النظم والنثر). والملاحظة الأساسية هنا، هي أن الأحكام النقدية في المقامتين قديمة متداولة ومعروفة لا جديد فيها سوى الصياغة. إذ تذكرنا آراؤه بآراء النقاد القدامى (ابن سلام الجمحي- ابن قتيبة ...)، فواضح أنه اعتمد على آرائهم الموثقة في كتب الأدب العامة وكتب التراجم والمختارات. وهذا ضرب من ضروب الاتباع لا ابتداع فيه. ذلك أنه أطلعنا على آراء غيره في عدد من الشعراء المشاركة، وفي أفضلية النثر والشعر، ولو أنه تعرض للشعراء الأندلسيين مثلما فعل غيره لكان أفضل (ابن فتوح أنموذجا). ومهما يكن من شأن عرضه لأرائه في الأدب والنقد، فإن المقامتين تنمان عن شيئين أساسيين: أولهما: اتباعيته، وثانيهما: بروز الغرض التعليمي بجلاء فيهما.

¹⁹⁵ - دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص 315.

فقد قلد المشاركة في موضوعاتهم النقدية متعرضا لشعراء الجاهلية والإسلام ، وكان الأجدر به التعرض لأدباء الأندلس.

وإلى جانب تصوير السرقسطي للمظاهر الاجتماعية فقد عالج النفسية منها أيضا، و هو ما تدلنا عليه المقامة الحادية عشرة، و التي صور فيها نموذجا من نماذج القصص الغرامية التي شاعت في العصر الأموي - و من ذلك مجنون ليلي - ممن يعشقون ابنة العم فينظمون فيها شعرا، فلا تكون من نصيبهم ،و إنما من نصيب غيرهم من الأبعاد .قال الراوي: "هذا ابن عمي لحا ، و لا يلام على البلاء و لا يلحى ، نشأ في عدد و عديد ، و ظل من العيش مديد، وكانت له ابنة عم يهواها وتهواه ... فأحس بذلك أهلها، فتساوى بالقطيعة حزنها وسهلها، فخالطه مس وجنون، وغالبه من الحب ضرروب وفنون وبقي - كما ترون - يتيه في البلاد."

لقد بدا السرقسطي محافظا على الأصول الفنية للمقامة المشرقية من حيث عناصر ديباجتها، إذ نجد فيها الراوي والبطل، والقصة، والصنعة اللفظية والتشابه في الموضوعات التي طرقها الحريري و البديع من قبله. بل إنه ذهب بعيدا في اتباعيته واتكائه عليها لحد طمس جل معالم الخصوصية إذ صور نفس الأمصار والمدن التي صورها المشاركة في مقاماتهم (الحجاز- اليمن - عدن - دمياط - عمان - سنجار - اليمامة - الأنبار - البحرين - مرو -أصبهان...). وقد لمح سامي يوسف أبو زيد إلى هذا الجانب الاتباعي حين قال: " وتكثر أسماء البلدان في مقاماته وتتعدد، فمن نواحي الجزيرة العربية يذكر اليمن، والشحر، وظفار، واليمامة، والبحرين، وغيرها. ومن نواحي العراق وإيران يذكر مدينة السلام، و سنجار، وحران، والأنبار، والرقة، وواسط ، والزاب، والأهواز، وأصبهان، ومرو، والرّي، ووصول. ومن نواحي مصر والشام يذكر الاسكندرية، ودمياط، وحب، وفلسطين. ومن نواحي المغرب والأندلس يذكر القيروان، ووطنجة، وطريف. وقد يخطئ في تصور بعض هذه الأماكن، وقد تنقصه الدقة في وصفها " ¹⁹⁶ . فمدن الغرب الإسلامي في المقامة لا تذكر مقارنة مع عدد المدن المشرقية العربية ، وهذا مظهر من المظاهر المفرطة في اتباعيته.

وإذا كان يوسف يتبنى نفس الطرح الذي قدمه إحسان عباس والمتعلق بتقصير السرقسطي في

¹⁹⁶ - الأدب الأندلسي. سامي يوسف أبو زيد. ص 327.

وينظر أيضا: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 255.

وصف بعض الأماكن، فإنني أرد تقصير السرقسطي إلى جانب آخر. فقد كان حريا به أن يصور لنا مدن البلاد الأندلسية التي يعرف جيدا عوض المدن المشرقية التي ربما لم يزر، فلو فعل لكانت مقاماته حقا مرآة صادقة تعكس لنا صورا حية عن الحياة الأندلسية، لكنه تمادى في اتباعيته وأطنب.

2- على مستوى الشكل:

إن أول ما يطالعنا في هذا الصدد، هو أن المقامات السرقسطية جرت على شكل المقامة المؤلف والمعتاد في المقامات المشرقية، وذلك خلافا لمن سبقه من المقاميين ممن أطالوا وأطنبوا وأسهبوا لحد الإسفاف، ولحد الملل الذي جعل ابن بسام يعمد إلى حذف عدة أجزاء من مقامات من أورد ذكرهم بذخيرته ومنهم مثلا: ابن شرف، وابن شهيد كما سبق وأن وضحنا. وأما ثاني ملاحظة فهي التزام السرقسطي بتسمية مقاماته بأسماء مختلفة منها ما يدل على المدن، ومنها ما يدل على أشخاص، ومنها ما يدل على أصناف طعام أو شراب، وذلك على غرار ما فعل الحريري ومن قبله الهمداني مع فروق مهمة تبرز تفرد السرقسطي، فقد سكت عن تسمية بعضها خلافا للرجلين¹⁹⁷، وسمى بعضها بأسماء مختلفة¹⁹⁸.

ومن اللزوم الذي تدلنا عليه بعض التسميات التي أطلقها على مقاماته (الثلاثية-المرصعة) أو التي جعلها المحقق حسن الوراكي ألقابا لمقاماته الخمسين، أن تنتهي مقاطع وجمل كل مقامة منها بحرف محدد أولها: الهمزية، وثانيها البائية (كل مقاطعها تنتهي بالباء) ، فالجيمية، فالدالية، فالنونية، فالسادسة (وهي على نسق الحروف العربية ترتيبا) فالسابعة (مثلا)، والثامنة (مثلا)، والتاسعة (على نسق حروف أبجد). فدلالات هذه التسميات هي مرد تسمية مقامات السرقسطي

¹⁹⁷ – سكت السرقسطي عن تسمية (32مقامة) من مقاماته وهي تباعا: المقامة 1-2-3-4-5-6-7-8-9-10-11-13-14-15-18-19-21-22-23-24-27-28-29-32-33-42-44-45-47-48-49-50).

¹⁹⁸ – سمى (18مقامة) وهي تباعا: المقامة الثانية عشرة (سماها بالفارسية)، والسادس عشرة (بالتلاثية) لأنها بنيت على ثلاث سجعات، والسابع عشرة (بالمرصعة) لتقابل عباراتها في سجتين. وأطلق على بعضها أسماء مختلفة كالخميرية (المقامة 20)، وكالقاضي (المقامة 25)، والحمقاء (26)، والشعراء (30)، و النجومية (31)، و الفرس (34)، و الدب (35)، و العنقاء (36)، و الحمامة (37)، و القردية (38)، و الأسد (39)، ومقامة في النظم و النثر (40)، و البربرية (41)، و الطريفية (43) و الجنية (46).

باللزامية، إذ التزم فيها ما لا يلزم¹⁹⁹، ذلك أنه اتبع طريقة الحريري الذي ألزم نفسه ما لا يلزم²⁰⁰. واللزام الذي اتبعه السرقطسي هو أنه التزم فيها قبل حرف السجع حروفاً أخرى تختلف عن حروف السجع، وتخضع للازدواج عادة حتى في المقامات الموحدة والمرصعة والمدبجة من غير الموحدة، ما عدا المقامة المثلثة التي تخضع فيها حروف اللزوم للتثليث²⁰¹. ومن ذلك استعماله السجع المزدوج بأن يجمع كل فقرتين بقافية مشتركة، كقوله يتحدث عن البحر: " وإن لهذا البحر لخبرا، وإن به لآيات وعبرا إلى مرافق ومنافع ومتالع من الرزق ومدافع، فمن لؤلؤ ومرجان وقاطف من ثمرة وجان... " ²⁰². وكقوله من المقامة المثلثة التي تتجمع فقراتها ثلاثا ثلاثا تجمع كل فقرة ثلاثية على حرف واحد قال: " أقمت في غزنة، فترشفت من مائها أي مزنة، وتوطأت من أكنافها كل سهلة. فأطلت في أرجائها عدنا، وعجمت عود الشيبية لدنا، وسحبت السماك ذيلا وردنا"²⁰³. وأما مثال المقامات التي بناها على الحروف، إذ سارت كل مقامة على الحرف الذي بنيت عليه (الهمزية – البائية – الجيمية – الدالية – النونية)، فمن الهمزية مثلا قال السائب: "فبينما أنا بقفرة بيداء لا أرى إلا ظبية جيداء، أو نعامة ربداء، وقد باعدت الظلال والأفياء، وفارقت الحل والأحياء... "²⁰⁴، بل وحتى نظمها بني على الحرف ذاته، وأوله:

الدهرُ مكرٌ وخدا عٌ وحيلةٌ ودهاءُ

199 - اللزومية نسبة إلى اللزوميات كما أتاه المعري، وفي هذا الصدد قال شوقي ضيف: لم يوفر أبو العلاء مجهودا واسعا في إحكام صياغته، إذ كان مشغولا عنها بعقد ولوازم غريبة في لزومياته، فهو يصعب على نفسه الممرات إلى شعره ويتقيد بلوازم دائمة يتبعها في صياغته. ولعل أهم هذه اللوازم ما أشار إليه في مقدمة ديوانه، إذ قال: " وقد تكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف: الأولى أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها، والثاني أنه يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك، والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيئا لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف... ". وهذه الطريقة طبقها على ديوانه "اللزوميات" وهو أول ديوان في اللغة العربية يؤلف على طريقة خاصة يذكرها الشاعر في مقدمته ويطبقها على أبياته بيتا بيتا... فقد اندفع الشعراء بعد أبي العلاء في هذه الممرات الضيقة كما نجد عند الحريري وعند غيره. (الفن ومذاهبه في الشعر العربي. الفصل الرابع: التعقيد في التصنع. ص 397-398-406).

200 - " أثبت الحريري خطبة للسروجي خالية من الإعجام في المقامة السمرقندية، كما أورد رسالة على لسان أبي زيد السروجي تأتي فيها الكلمات واحدة معجمة تليها مهملة." دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص 317.

201 - المرجع نفسه. ص 317.

202 - المقامات اللزومية. ص 87.

203 - المقامات اللزومية. ص 206.

204 - المقامات اللزومية. ص 397.

وقد بنى مقامتين على نسق الحروف²⁰⁵ فجاءت كل سجتين على حرف، ابتداء من الهمزة، ثم الباء، والتاء والثاء، والجيم، واللام، والميم، والنون، والصاد، والضاد، والعين، والغين، والفاء، والقاف، والسين، والشين، والهاء، ولام ألف، وأخيرا الياء²⁰⁶. وجاءت مقامتان مبنيتان على حروف أبجد²⁰⁷، أي على نسق الحروف بالترتيب الأبجدي (أبجد، هوز، حطي، كلمن...)، وقد كانتا أقصر المقامات لأن ضعف عدد حروف النسق المتبع تحكم في حجمها.

لقد سيطر السجع على جميع مقامات السرقسطي، وهو عنصر من عناصر المقامة المشرقية أخلص في تقفيهِ واحتدائه، فألف عملا إبداعيا لم يتفرغ له من الأندلسيين سواه. فهو الأندلسي الوحيد الذي كتب خمسين مقامة، اتبع فيها طريقة ما لا يلزم خلافا لغيره من الأندلسيين ممن اكتفوا بإنشاء مقامة أو مقامتين. وليس اللزوم قيذا محددًا للكتابة المقامية، وإنما هو إظهار لإمكانات السرقسطي الأدبية واللغوية، وقد كان (آدي ولد أدب) موفقا حين تنبه إلى أن ظاهرة لزوم ما لا يلزم لا تقتصر على مقامات السرقسطي بل تهم أيضا كتابه المسلسل، وهو ما يعني أنه التزام مطلق عنده، لم يقتصر عليه في أسلوب مقاماته وحدها، " وفي ذلك إشباع لنزعتة إلى الإغراب والإبداع اللذان سبق فيهما بخلفتين مشرقيتين هما: المعري في لزومياته، وأبي عمر المطرز في كتابه المداخل."²⁰⁸

إن إغراب السرقسطي إغراب في المنهجية والرؤية والبناء والمغزى، بحيث يكون الإغراب هنا رديفا للإبداع. وهو نزعة أندلسية طاغية بدأت تتفاقم مع تنامي استقلال وتحرر الذات الأندلسية من عقدة التقليد والتبعية للمشرق، وقد تضخم الشعور بهذه العقدة منذ كتابة ابن بسام - معاصر السرقسطي - لذخيرته.

205 - هما المقامتان: السابع والثلاثون، والثامن والثلاثون.

206 - دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص 319.

207 - هما المقامتان: التاسع والثلاثون، والأربعون.

208 - الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي. آدي ولد أدب. ص 96.

- المبحث الثاني: معالم التجديد و الخصوصية في المقامات الأندلسية

● المطلب الأول: في المقامات الأندلسية عموما

✓ الفرع الأول : التداخل مع الرسالة 209

تتداخل المقامات الأندلسية مع أدب الرسائل لحد الالتباس أحيانا، إذ تفقد العقدة والراويّة والبطل، وتصبح على لسان كاتبها، إضافة أيضا لافتقار بعضها للعناصر الدرامية. ذلك أن ابن بسام " يعرض علينا في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات "210. كما أن ابن شرف القيرواني في مقامته الطويلة ، " لم يعارض بديع الزمان الهمداني، لأنه لم يتقيد بالقوالب التي وضعها الهمداني في مقامته، ولا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية أيضا. وقد ركز على كتابة حديث أدبي، فهي بذلك ليست مقامة، وإنما هي رسالة نقدية "211، فمقامته تشبه "المقامة القريضية" لبديع الزمان الهمداني من حيث النقد والمفاضلة بين الشعراء، لكنه لم يلتزم بالخصائص العامة المحددة للمقامات 212. كما أن المقامة المدحية لابن مالك القرطبي في ابن صمادح صاحب ألمرية "لا يجمعها بالمقامة غير الاسم لخلوها من تقاليدها، ولذا فهي أقرب شبيها بالرسالة، وألفاظها لا تخلو من الغريب، ومعانيها منتزعة من الشعراء والكتاب السابقين ، ثم أعيد صياغتها في أسلوب لا يرقى إلى

209 – تعد الرسائل إحدى فنون النثر التي قد يتخللها شعر من نظم المترسل أو من نظم غيره. والرسائل متنوعة، وقد وضع النقاد أربعة أقسام لها:

- ✓ الرسائل الديوانية : أو هي أيضا السياسية والسلطانية والرسمية.
- ✓ الرسائل الإخوانية: وهي أيضا الرسائل الاجتماعية والمكاتبات والمراجعات والرسائل الشخصية الخاصة، فهي عدة أنواع منها: التهاني – التعازي – التهادي – التشوق – الاعتذار – الاستعطاف – العتاب...
- ✓ الرسائل الدينية: أو هي الرسائل الوعظية والتربوية والجدلية.
- ✓ الرسائل الأدبية: يدخل في هذا القسم جميع الرسائل التي عدّها النقاد أدبية وتسمى أيضا الإنشائية، ومنها تنفرع الرسائل الوصفية والهجائية والمدحية.

(للتوسع ينظر: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم. صالح بن رمضان. ص 63).

210 – تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، الأندلس. مرجع سابق. ص 517. (يقصد: مقامة ابن شهيد، ومقامة أبو الوليد بن عبد العزيز المعلم، ومقامة أبو محمد بن مالك القرطبي).

211 – المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص 80.

212 – تنتظم فن المقامة خصائص ملازمة وهي: وحدة الحدث والموضوع – وحدة البطل والرواية – وحدة المكان والزمان – وحدة الشكل اللغوي والأسلوبي – وحدة الغاية والوظيفة.

لقد اقتربت المقامة الأندلسية من الرسالة، وهي بذلك الاقتراب ابتعدت عن مقومات المقامة المشرقية (البطل - الراوي - العقدة - الكدية - الحيلة ...)، وقد تنبه إلى ذلك عدد مهم من الباحثين أبرزهم إحسان عباس، حيث رأى أن المقامة في الأندلس " قد انسلخت من قضية الكدية والحيلة التي واكبت المقامة منذ ظهورها وكانت إحدى مستلزماتها، وهو ما يشهد عليه النتاج المقامي الأندلسي، ما عدا ما وجدناه للسرقسطي " 214 . وتعليل ذلك أن المجتمع الأندلسي كان متشددا في تعامله مع ظاهرة التسول خلافا للمجتمع المشرقي، إذ لم يوجد سائل في الأندلس كما ذكر المقرئ 215 إلا وكان له عذر، أما السائل القادر على العمل فكان يسب ويشتم ويهان. فجاءت المقامة الأندلسية متماشية مع قيم المجتمع الأندلسي، ولأجل هذا انسلخت عن الكدية، وصارت أشبه بالرسالة " فقد أدى التباس المقامة بالرسالة أن أصبحت تؤدي مهمتها ففقدت العقدة و فقدت الشخصيتين الخياليتين فيها وأصبحت على لسان كاتبها 216، وإذا لم تكن قصة لرحلة فقدت العناصر الدرامية جملة " 217 .

لقد حدث تداخل بين فن المقامة وفن الرسالة الأندلسيين، لذا فقدت المقامة الشخصيتين الخياليتين "الراوي والبطل"، وفقدت العقدة ، فأدى ذلك إلى إسقاط العنصر الدرامي من المقامة. وهذا التداخل "يرجع في الأصل إلى الغاية الأدبية أو الاجتماعية التي كانت تهدف إلى تحقيقها المقامة، وذلك ما أفضى بالمقامة إلى أن تؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالممدح أو الغزل مثلا" 218 . ولعل الأصل فيه أيضا يعود إلى لامبالاة الأندلسيين بالقصة أو البناء الفني للمقامة، وانصرافهم إلى إظهار البراعة في التعبير اللفظي مع الحفاظ على عنصري الإقناع والإمتاع. ثم إن مرد التداخل راجع كذلك إلى طبيعة المقامة كجنس أدبي يحتوي ويختزل عدة أجناس أدبية، يتقاطع معها في جانب الوصف كخط عام (فن الرسالة بصفة خاصة).

213 - الأدب العربي في الأندلس. عبد العزيز عتيق. ص. 494.

214 - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص. 308.

215 - للتوسع ينظر: نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. أحمد بن محمد التلمساني. تحقيق: إحسان عباس. مجلد 3. ص. 150.

216 - مثال ذلك: مقامة العيد التي قام فيها الأزدي بدور البطولة والرواية معا.

217 - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص. 308.

218 - ابن بسام وكتابه الذخيرة. حسين يوسف خريوش. ص. 215.

تزرخ المقامات بالتعدد المكاني لمواقع الأحداث فيها، فالظاهر أن الانتقال والرحلة بين الأماكن دافعه الاستجداء، ولكن باطنه ينطوي على انتقاد الشتات الذي حصل للدولة الإسلامية، وعلى دعوة لرد الاعتبار للأدباء في زمن طغى فيه اللهاث في طلب المال على كل ما دونه. "مقامة ابن شهيد مجرد مشاهدات وملاحظات، وهي أقرب إلى وصف رحلة له وصفا أدبيا طريفا، إذ أن موضوعها يدور حول قصة رحلة قام بها"²²⁰، وملخصها بعد المقدمة عن صنعة الكتابة وقيمتها، تعريجه على منزل بدوي أراد إكرامه بذيح ديك. وفي فصل آخر نراه قد وصل إلى قرية جميلة وصف جمالها، "وهكذا يصف أبو حفص قصة رحلته، وما يشاهده في قالب النظم والنثر. ولا نرى أية رموز أرادها صاحبها، ولا نتبين خلال قراءتها مفهوما آخر إلا وصف الرحلة التي قام بها، ولا تتخذ مقامته شكل المقامة عند بديع الزمان الهمداني"²²¹.

وأما من برع في إدخال مقامته في باب أدب الرحلات فهو ابن الخطيب بمقاماته البلدانية، وهذا متأث من حب الأندلسيين للرحلة على اختلاف أغراضها ودوافعها (الحج، العلم،...)، فصورت تلك المقامات ما تمخض عن تلك الرحلات من أحداث ومفارقات²²²، فقد كتب في هذا اللون ثلاث مقامات سار فيها على نهج الرحلة في سرد أحداثها، وتتبع مساراتها، وقد طغى عليها الجانب الجغرافي الوصفي، بحيث صور جغرافية الأندلس والمغرب تصويرا دقيقا:

أ- مقامة خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف: رحلة تعود إلى سنة 748 هـ، تهتم المدن الأندلسية والعادات الاجتماعية لأهلها، "وقد كانت رحلة رسمية قام بها سلطان غرناطة

²¹⁹ - "الرحلة هي إحدى الأشكال الكبرى الأم للأدب...تمزج التسجيلات الوصفية والإنسانية والتعليمية بالحكاية والتسجيلية...فتحقق الرحلة نصا سرديا يتراوح بين قطبي الواقعي والخيالي بأسلوب يسجل ويصف رحلة انتقال السارد / المؤلف من فضاء إلى آخر داخلي أو خارجي على المستوى الفعلي، أو انتقال ذهني متخيل في الماضي أو المستقبل دنوبيا أو أخرويا... وهي في كل الحالات تجربة يحيها الرحالة من أجل هدف فردي أو جماعي لغاية تحقيق منفعة مادية أو روحية". (الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. شعيب حليفي. ص16)

²²⁰ - المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. مرجع سابق. ص. 78.

²²¹ - نفسه. ص. 79.

²²² - فن المقامات بالأندلس، نشأته، وتطوره وسماته. قصي عدنان سعيد الحسيني. ص139.

أبو الحجاج يوسف بن نصر (733-755 هـ) ومعه وزيره ابن الخطيب لتفقد أحوال الثغور الشرقية لمملكة غرناطة" ²²³.

ب- مقامة البلدان أو معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار: ²²⁴ أقامها على مجلسين، أولهما لمدن أندلسية، وثانيهما لمدن مغربية، وتخلل ذلك ذكر محاسن وعيوب كل مدينة.

ج- مقامة غير مسماة: وهي عبارة عن رحلة داخل عدوة المغرب وحسب، وصف مدنها وأماكنها، وسجل مخاطباته مع مشاهيرها وأعيانها ²²⁵. وقد وردت المقامة في كتابه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب)، وصف ابن الخطيب فيها رحلته مع أسرة محمد الخامس الغني بالله عائدين من المغرب إلى غرناطة، "وهي رحلة ناقصة غير كاملة إذ أنه يبدأ وبدون مقدمات بالصعود إلى جبل هنتاتة (فرع من قبائل مصمودة)، فلا شك أن بداية هذه الرحلة تقع في الجزء الأول المفقود من هذا الكتاب" ²²⁶.

✓ الفرع الثالث: خدمتها لأغراض شعرية

ومن ذلك مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي - سبق التعرض لها - في مدح ابن صمادح، إذ وجدناه فيها يمدح في مدحه، فيصفه بمختلف النعوت من: سماحة، وعلم، وندى، وكمال، وصفاء خلق، ووفاء بالوعد، ووقار، وطهر، وطيب أصل، ونقاء عرض... شافعا كل ذلك بالدعاء له، وبالاعتذار عن عدم خروجه معه للحرب. ولا توجد بالمقامة معالم بارزة للخصوصية، لأن صاحبها كما أشرنا سألنا استل معانيها من الأدباء السابقين ولم يقدم جديدا، "وإنما اكتفى بتقويم معاني من سبقه من الأدباء، كما أن موضوعها في المدح التهويلي ينقص حظها من طرافة الموضوعات فيه" ²²⁷.

ومن ذلك أيضا المقامة القرطبية المنسوبة للفتح بن خاقان فقد دارت كلها حول الذم كغرض

²²³ - مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. أحمد مختار العبادي. ص 7.
وينظر نص المقامة في "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب". لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: محمد عبد الله عنان. ص 248-270
²²⁴ - وقع يوسف نور عوض صاحب كتاب "فن المقامات بين المشرق والمغرب" في خلط عندما جعل مقامة (وصف البلدان) مقامة مستقلة عن مقامة (معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار)، والواقع أنهما معا مقامة واحدة ذات اسمين مختلفين. (قال: بين أيدينا ثلاث مقامات: السياسة - وصف البلدان - معيار الاختيار. ص 323) ونص المقامة مثبت بريحانة الكتاب. ص 279 - 316.

²²⁵ - للتوسع ينظر: النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. عبد الحليم حسين الهروط. ص 85 إلى 103.

²²⁶ - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. لسان الدين بن الخطيب. ص 10.

²²⁷ - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 249.

شعري تم توظيفه في النثر. ومن هذا الضرب أيضا- ودائما في إطار التمثيل لا الحصر- مقامة محارب بن محمد الوادي أشي في مدح القائد عبد الله بن ميمون، وقد سبقت الإشارة إليها كذلك. ومن المهم جدا التذكير بأن المقاميين الأندلسيين لم يحفلوا بإيراد أشعار غيرهم في مقاماتهم، وإنما أوردوا أشعار خاصة بهم من نظمهم وإبداعهم. وهنا مكن الفرق بين المقامة الأندلسية والمقامة المشرقية العربية .

✓ الفرع الرابع: الخلو من الكدية

من أبرز خصائص المقامة الأندلسية، خلوها من عنصر الكدية خلوا ملفتا للنظر، خلا ما وجدناه في مقامات السرقسطي (ثلاث عشرة مقامة منها: 3-4-5-6-30-31). ومن ذلك الخلو أن ذكرنا سابقا أن ابن بسام " يعرض علينا في ذخيرته ثلاث مقامات، غير أنها ليست مقامات بالمعنى الذي أراده بديع الزمان إذ لا تقوم على الكدية والشحاذاة الأدبية، وإنما تصف موضوعا أو موضوعات، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات "228، وأن ابن شرف القيرواني لم يقم مقامته – شبه الرسالة – على الكدية. والواقع أن جل المقامات الأندلسية لا تقوم على الكدية اللهم بعضها للسرقسطي. وهنا مكن الخصوصية والالتصاق بالواقع والتعبير عنه، " فقد نظر الأندلسي إلى عادة التسول المستشرية في المشرق واستجبها واستهجنها لأنها تؤدي بصاحبها للذل والمهانة، ومن تم كره الأندلسي التسول، والاستجداء حرصا على أنفته وسموه، وتوقا إلى تحقيق مثاله"229. فالأندلسيون يمتنعون عن التصدق على المحتاج القادر على العمل ويهينوه، ولذلك خلت الأندلس من ظاهرة التسول ، فأهل الأندلس لم يرضوا بتفشي التسول بينهم، خاصة وأنهم سعوا إلى تكوين شخصية مستقلة عن المشرق ومتميزة لا يعترتها نقص ولا ضياع.

والحق يقال إن الأندلس لم تخل من الفوارق الطبقيّة ومن الفقر ، فالمصادر التاريخية والأدبية الأندلسية لم تغفل التطرق للطبقيّة الاجتماعيّة والتي ربما كانت سببا من أسباب ضياع الأندلس. فالمجتمع الأندلسي لم يكن مثاليا لا مكان فيه لفقير أو معوز، "وقد تعرض المراكشي في بيانه المغرب إلى المجاعة العظيمة التي حلت بقرطبة سنة 353هـ/974م، وتكفل الحكم بضعفائها ومساكينها، وأجرى نفقاته عليهم... وكثير من الشعراء لم يبلغوا حد الشهرة لأنهم كانوا فقراء ،

228 – تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، الأندلس. مرجع سابق. ص 517.

229 – الإنسان الأندلسي بين واقعه العربي وما طمح إليه. ضاهر أبو غزالة. ص 202.

فلم يتسن لهم الاتصال بالبلاط ، ومن ذلك أن الشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح في "المرية"، كان في ثياب رثة أثار ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم²³⁰.

فالواقع الاجتماعي في العصر الأندلسي لا يختلف عن واقع مثيله المشرقي، حيث أن كلا من الغنى والفقير كانا متعايشان. إذ الترف في البيئات الحاكمة، والحرمان في البيئات الشعبية. بون شاسع بين معيشة معدمة ومعيشة مترفة، وهذا البون هو الذي يولد الثورة على الواقع المؤلم والمتفكك، وما المقامات إلا شكل من أشكال هذه الثورة الاجتماعية، تكشف المعضلات والآفات وعيوب الزمان، مشكلة سجلا تاريخيا حيا للعصر الذي كتبت فيه.

إن الأندلسيين عموما قد عرفوا بخوفهم من ذل السؤال والتعرض للإهانة بسببه، ولذلك عرفوا بأنهم أهل حسن تدبير، وهو ما جعل عنصر الكدية يقترب من الاختفاء "فقد حرص القوم وهم في بيئة ليست عربية أصلا، على أن يظهرُوا بكل ما يخلو من النقص والعيب، أو يحط من أقدارهم"²³¹.

✓ الفرع الخامس : طول الحجم والإطناب

وهذه ظاهرة لا تحتاج منا لكثير من التوقف عندها لتبيانها، فقد ألفنا خلال تعاملنا مع الذخيرة أن نلفي ابن بسام يعمل مقصه في غير ما مقامة عازيا ذلك لشدة الإسهاب والإطناب فيها، أملا أن يحظى بثقة القارئ في ما حذف، ومن تلك المقامات نذكر: مقامة ابن شرف (أعلام الكلام)، إذ وصفها ابن بسام بالطول لكنه لم يعبه عليها - مقامة معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب - مقامة شروط الوزارة لابن الخطيب - مقامة ابن شهيد - مقامة القرطبي - مقامة ابن المعلم...

وليست كل المقامات التي أطنب القول فيها مستحسنة الإطناب، فقد يصل حد الإسفاف الذي تضيع معه وحدة الموضوع وتركيز القارئ. وقد يرجع ذلك الإطناب الملحوظ في المقامات الأندلسية إلى تعدد أغراضها، ومن ذلك مثلا المقامة العاشرة من مقامات السرقسطي وهي غير

²³⁰ - الإنسان الأندلسي بين واقعه العربي وما طمح إليه. مرجع سابق. ص 162.
ختم أبو غزالة فصله بقوله: "ملاحظة أخيرة في هذا الصدد، وهي أن شعب الأندلس، والأموال الأندلسية، تبدو كأنها ملك لشخص واحد هو صاحب الدولة..." ص 164. وقد جاء ذلك في سياق حديثه عن الناصر الذي سخر الشعب في بناء منية "الزهراء"، وأنفق عليها الأموال الكثيرة من إيرادات الدولة التي لا تعود فائدتها إلا على شخصه، وهي رمز للطموح الفردي لا للطموح الجماعي.

²³¹ - الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. مرجع سابق. ص 344.

مسماة، "جاءت على شكل وحدات مستقلة يجمعها رباط المقامة، ففيها مصطلحات لغوية وأعلام لغة، ثم يأتي ذكر بني ساسان، ثم غزل بالمذكر، ثم قصيدة في وصف الصيف"²³². وكنموذج حي للمقامات التي شحت معلوماتها قياسا إلى مخزونها اللفظي نسوق المقامات البلدانية²³³، ذلك أن الإسفاف يضر بالمادة العلمية ويعرضها للاضطراب والتشويش.

✓ الفرع السادس: الارتباط بالبيئة المحلية

أورد ابن بسام في ذخيرته مقامة لعبد الرحمان بن فتوح بوصفها حديثا من أحاديثه، ولم يسمها مقامة. وهي تدور حول النقد الأدبي، وهو نقد يدور حول شعراء أندلسيين ولم تدر حول شعراء مشاركة. كذلك فعل قبله ابن شرف القيرواني في مقامته القائمة على النقد الأدبي أيضا، إذ ذكر فيها الشعراء ومراتبهم في الجاهلية والإسلام والعصر العباسي، وإن كانت له في مقامته بعض من ملامح الخصوصية، فلأنه تناول بعضا من شعراء الأندلس²³⁴.

وقد برز لدى الأندلسيين لون من المقامات تتميز بسيادة العنصر البحري، وذلك نظرا للطبيعة التي جُعلت عليها بلاد الأندلس، إذ حباها الله تعالى بالمياه من ثلاث جهات. وقد لاحظ بعض الدارسين أن " الطابع الاجتماعي في المقامة الأندلسية يبرز أكثر منه في المقامة المشرقية، للارتباط الوثيق بين المقامة والواقع الاجتماعي، فكانت صورة لذلك الواقع"²³⁵.

✓ الفرع السابع: الخلو من التعقيد اللغوي

يتفاوت أسلوب المقامة حسب الغرض الذي تؤديه، ويظهر هذا عند المقامي الواحد عند طرقة لأكثر من موضوع. فالسرقسطي مثلا – على اعتبار أنه المقامي الأندلسي الأول بحكم عدد مقاماته – اشتهر بأسلوبه الذي تأنى في صنعه، وألزم نفسه فيه ما لا يلزم في أغلب مقاماته، فألفاظه تبدو صعبة في حديثه مثلا عن الصحراء، لكنها ترق في حديثه حول الوعظ.

²³² - فن المقامة الأندلسية نشأته وتطوره وسماته. مرجع سابق. ص 141.
²³³ - ومنها كذلك مقامة ابن أبي الخصال، فهي طويلة جرب فيها منشؤها وصف عدة مقامات (بيت – منظر ريفي – حانة وصف اليوم...)، أي أنها نحت منحى تعدد الأغراض في المقامة الواحدة.
²³⁴ - ذكر ابن شرف في مقامته القريضية من الأندلسيين: ابن عبد ربه – ابن هاني الأندلسي – ابن دراج القسطلي .
²³⁵ - فن المقامات بالأندلس. نشأته وتطوره وسماته. مرجع سابق. ص 114.
ومما لاحظته هذا المؤلف أيضا على المقامة الأندلسية: "ضعف الباعث التعليمي فيها وقوته في المقامة المشرقية – اختفاء النفس القصصي في قسم من المقامات الأندلسية وظهوره في معظمها، فالنفس القصصي يختفي مثلا في مقامات ابن الخطيب السياسية والبلدانية. وذلك في مقابل مقامة العيد للأزدي أو مقامة ابن شرف القيرواني أو مقامات السرقسطي، إذ حافظت كلها على الطابع القصصي للمقامة حفاظا يكاد يكون تاما". ص 142-143 .

ومن المقامات التي أحسن مؤلفها اختيار الألفاظ التي يوحي جرسها بمعانيها مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي في مدح ابن صمادح، قال: "لا تسمع إلا همهمة وصهيلا، وقعقة وصليلًا، فَخَلْتُ الأرضَ تميل ممبلا والجبال تكون كتيبًا... مهيلًا، لاتعلم ... أزيير ليوث بأجام؟ أم قعقة رعد في ازدحام غمام؟" ²³⁶ ، "فأوحت الألفاظ القوية الجرس بجو المعركة المليء بالصدام والقراع، فكان البناء الصوتي لها موحيا بالمعنى... واستطاع أن يدعمه برسم الصور الفنية" ²³⁷.

وقد ذكر عبد العزيز عتيق في معرض حديثه عن المقامة السياسية للسان الدين بن الخطيب أن "أسلوبه كما نرى من هذا النموذج ²³⁸، يتميز بالسهولة والسلاسة، وقد اعتمد فيه على التزام نوعين من البديع هما: السجع والجناس الناقص" ²³⁹. وذكر قصي عدنان سعيد الحسيني في حديثه عن مقامة محمد الوادي آشي في مدح ابن ميمون أن "فيها صورًا جميلة أفاد الوادي آشي من القرآن الكريم كثيرًا، واستطاع أن يبديع بأسلوب رفيع ألوانًا من الأوصاف التي ترسم صورًا سمعية وبصرية تثير الإعجاب" ²⁴⁰.

وبشكل عام، عموماً فقد تميزت المقامة الأندلسية بسهولة ألفاظها ودقة معانيها ما عدا ما وجدناه في جزء من مقامات السرقسطي من وعورة ألفاظ وتعمق في اللغة.

✓ الفرع الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة

أ- المقامات السياسية: وهي نوع نشأ بالأندلس في القرن الثامن الهجري، ولا جذور له بالمشرق، ومبتكرها هو لسان الدين بن الخطيب، وله فيها مقامتان:
- المقامة السياسية: وهي حوار بين هارون الرشيد وحكيم فارسي (هو ابن الخطيب نفسه). وقد صنفها بعض الدارسين ضمن المقامات الوعظية، "فالمقامة إنما تكشف عن غاية وعظية شبيهة بتلك التي رأيناها من قبل في مقامات ابن قتيبة" ²⁴¹. وقد "ذكر فيها لسان الدين خلاصة تجربته

²³⁶ - الذخيرة. ج1. ابن بسام الشنتريني. ص 467 (نص المقامة : ص 463-470).

²³⁷ - فن المقامة بالأندلس نشأته وتطوره وسماته. مرجع سابق. ص 86.

²³⁸ - يقصد النموذج الذي ساقه من مقامة ابن الخطيب، ومنه: "فقال الملك: أجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فأوصل، وأنثر الحب لمن يحوصل، وأقسم السياسة فنونا، واجعل لكل لقب قانونا، وأبدأ بالرعية، وشروطها المرعية". (الأدب العربي في الأندلس. مرجع سابق. ص 497).

²³⁹ - المرجع السابق. ص 497.

²⁴⁰ - فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته. مرجع سابق. ص 88.

²⁴¹ - نفسه. ص 44.

وآرائه في السياسة والحكم وإدارة الدول... وتكاد تقترب وصاياه من المدينة الفاضلة" ²⁴².
وأما المقامة الثانية: فهي "الإشارة إلى أدب الوزارة في السياسة" ²⁴³، وقد تضمنت كل ما يتعلق بهذا المنصب من مسؤوليات، وواجبات، ومميزات، "وقد جعل الحوار فيها جاريا على السنة الحيوانات بادئا إياها بالدعاء لله تعالى وطلب العون لمن يأخذ برتبة وزير، ثم يقدم له جملة من النصائح والوصايا" ²⁴⁴. ولعل إيلاء ابن الخطيب الأهمية لمنصب الوزير راجع لكونه كان وزيرا للأمير أبو الحجاج يوسف بن نصر أمير غرناطة.

وأما غير ابن الخطيب ممن تناول السياسة وإدارة الحكم وسياسة القضاء، فنمثل بالسرقي في ثلاث مقامات:

- ✓ في المقامة الثالث عشرة: رسم فيها صورة القاضي العالم بأطوار البلاغة وألوان البديع.
- ✓ في المقامة السادس والثلاثين: وهي النونية، رسم فيها صورة قاض عادل يسمع للطرفين.
- ✓ في المقامة السابع والعشرين: وهي مقامة القاضي، رسم فيها صورة القضاة المرتشين ومساعدتهم الذين يعملون تحت أيديهم. وهي حادة في معانيها على المسامع، تنبو عنها الطباع لعدم مجاراتها للذوق العام والأخلاق الفاضلة ²⁴⁵.

ب-المقامات البلدانية: وهي نوع مقامي ثان غير مسبوق في المشرق، يصف فيه المقامي المدن وخصائصها وصفاتها المميزة لها عن باقي المدن ، "ورائد هذا اللون هو أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي (ت598هـ)، الذي أنشأ مقامة خاطب بها الأمير الموحيدي عبد الرحمان بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن ،حيث جعل راوي المقامة وبطلها مدن الأندلس نفسها وكان بهذا رائدا أيضا ومجددا" ²⁴⁶ ،والمدن التي وردت فيها هي: اشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، ومرسية، وكانت متفاخرة بما اشتهرت به وسادت على باقي حواضر الأندلس وحواضر المشرق.

242 – النثر الفني عن لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 99.

243 – ينظر نصها بريحانة الكتاب. ص 335 – 354. وتنتظر المقامة السياسية بالمصدر نفسه. ص 316 – 334.

244 – فن المقامات بالأندلس، نشأته، وتطوره، وسماته. مرجع سابق. ص 45.

245 – تنتظر: المقامات اللزومية: ص 174 – 175 – 176 – 177.

246 – فن المقامات بالأندلس، نشأته، وتطوره، وسماته. مرجع سابق. ص 49.

وقد توسع في هذا النوع بعد قرن ونصف ابن الخطيب الذي أعمل قلمه فيه وقدم لنا معلومات جغرافية تمزج بين التاريخ والسياسة والاجتماع، وله فيه أربع مقامات:

-الأولى: جعلها داخل حدود مدينة غرناطة، وهي "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف".

-الثانية: تدور أحداثها في المغرب، وهي غير مسماة.

-الثالثة: مفاخرة بين مدينتين، الأولى أندلسية وهي (مالقة)، والثانية مغربية وهي(سلا)²⁴⁷.

-الرابعة: وهي "معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار"، وتقوم هذه المقامة على مجلسين أحدهما يتعلق بمدن الأندلس جغرافيا واجتماعيا مقسمة على ثلاثين مدينة (مالقة - غرناطة - رندة - المرية...)، والآخر يتعلق بمدن المغرب، وقد أغرق في وصف تسع عشرة مدينة (فاس- مراكش- سجلماسة- سلا...) ، "فجعل الصغيرة كبيرة في نظر قارئها، ولربما فعل ذلك ليرد جميل ضيافته إلى أمراء المغرب فقد أنشأها وهو في بلاد المغرب"²⁴⁸، إذ يذكر أنه استقر في سلا سنة 760هـ²⁴⁹.

" لقد سار الأدب الأندلسي في تطوره على سنن تطوره في المشرق في تأثر بدأ كبيرا، ثم صار يضمحل مع مرور الزمن لتتكون للشخصية الأندلسية سماتها الخاصة ولا أدل على ذلك من قول ابن خلدون: إن أهل الأندلس يتشبهون بالمشاركة في عهد الأمويين والعباسيين، وليس بعد ذلك"²⁵⁰، فالمقامة الأندلسية في مراحلها المبكرة قد انحرفت عن تقاليد المقامة المشرقية العربية، وهو انحراف لا ينفي بعضا من ملامح اتباعية الأندلس للمشرق العربي، والتي لم تكن قط مطلقة بقدر ما كانت اتباعية نسبية، تحكمت فيها طبيعة الشخصية الأندلسية الميالة للإبداع والتميز والمعارضة والتحدي والتفوق، وذلك في علاقتها بالمشرق. إنها علاقة طبعها الحنين والاحتذاء مرة، وطبعها الصراع والمعارضة والمنافسة مرات أخرى، كما طبعها التفوق الأندلسي على المشرق لدرجة التأثير الذي لا تعترف به عادة الكتابات المشرقية، ولدرجة الأستاذة على أدب

247 - ورد نصها بـ: "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب". ص 355 وما بعدها، وينظر في نصها كذلك: "مشاهدات لسان الدين بن الخطيب". ص 57 - 66.

248 - فن المقامات بالأندلس، نشأته، وتطوره، وسماته. مرجع سابق. ص 52.

249 - ولربما فعل ذلك لأنه كان قد فضل مالقة في مقامته (مفاخرة بين مالقة وسلا)، فلربما قاده حرجه من نفسه إلى استدراك هفوته تجاه العودة المغربية، ذلك أنه تسرع لما صدر عن عرقية وعصبية إقليمية لا تليق ببلده المضيف (المغرب) ولا باسمه، لكنها عموما عصبية تتماشى وعصبية الأندلسيين وبخاصة السرقسطي في مقامته البربرية، والتي خصصتها بالدراسة في مقال لي بعنوان: (عداوة العدوتين: المقامة البربرية أنموذجا).

250 - النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. عبد الحليم حسين الهروط. ص 244.

أوروبا. فالأندلس في بداياتها احتاجت المشرق، وأوروبا احتاجت الأندلس وهو ما حقق لها النهضة، فالثقافات الإنسانية تعمل في حوار واحتكاك، في تأثر وتأثير، فتتولد حضارات إنسانية مشتركة منطوية على أدب كوني يطمس كل الحدود الإقليمية بين آداب الأمم والشعوب. لا أدب أفضل من أدب، فالفاعل هو قدر الآداب، والأدب الأندلسي بقدر ما تفاعل مع الأدب المشرقي العربي بقدر ما حافظ على خصوصيته واستقلالته وتأصيله. ولذلك فمن اليسير التمييز فيه بين ما هو محلي خاص يستقل فيه بذاته، وبين ما هو مشرقي عربي أي إنساني مشترك. فالمقامة الأندلسية شكلت ثورة أدبية حقيقية في النثر العربي شكلا ومضمونا، وهي ثورة تمخضت عن الثورات الاجتماعية أشعل ويشعل فتيلها صراع سرمدى بين الخير والشر.

● **المطلب الثاني: في المقامات السرقسطية خصوصا**

تحتل الخصوصية حيزا غير هين في المقامات اللزومية، ومن المظاهر المترجمة لها نذكر إجمالا ما يلي:

- أقل السرقسطي عموما من الالتصاق بالحديث عن الكدية والتسول، إذ تعرض للظاهرة في ثلاث عشرة مقامة منها المقامة الرابعة حيث يتحدث عن طبقة المتسولين و طلب الدينار، و هذا النوع من المقامات غالبا ما يكون الإطار العام هو الحكمة والموعظة، وأما الكدية فبروزها نابع عن غير تكلف²⁵¹. وبالتالي انفصل عنصر الحيلة عن عنصر الكدية وبرز وحده²⁵²، فعدد كبير من مقاماته يدور حول الاحتيال على الأبرياء، ومن ذلك أن يحصل على المال عن طريق الوعظ واستخدام طفليه (في المقامة 5)، وبترقيص الدب (في المقامة 41)، و بالدجل (في المقامة 16) إذ انتقد رجال الدين و القضاة، كما انتقد الأطباء (في المقامة 49).

- تغاضيه عن تسمية بعض مقاماته خلافا للحريري والهمذاني، إذ لم يتقيد بوضع أسماء لمقاماته إلا قليلا.

- أهمل ذكر الراوية تماما في بعض المقامات كالمقامة الحادية عشرة، والتي بدأها بقوله: " قل وردت سنجار وقد فارقت الوكن والوجار"، وكأنه عطفها على المقامة السابقة عليها.

²⁵¹ - فن المقامات بالأندلس. نشأته وتصوره وسماته. مرجع سابق. ص 57.

²⁵² - المقامات هي : 8-11-13-16-17-18-28-29-32-33-35.

- اتخذ لمقاماته راويتين عوض راوية واحد (عند الحريري والهمذاني)، وهما: المنذر بن حمام والسائب بن تمام، وجعل البطل أبا حبيب السدوسي.

- خالف الحريري في أسلوبه المعقد والملتبس، ونحا نحو التماس عبارات ومفردات أقل تكلفاً وتصنعاً، وأكثر جمالاً وسحراً في جل مقاماته، باستثناء التي بدا فيها التكلف واضحاً (المقامة المثلثة أنموذجاً).

- في باب الاحتيال على الراوي، عرض الهمذاني بطله للاحتيال في المقامة البلخية، وعرضه الحريري للنصب في المقامة الواسطية، في حين لم نجد الاحتيال عند السرقسطي يطال روايته، وإنما قصره على الأفراد (الاحتيال على القاضي – الاحتيال على القروي الساذج)، أو على الجماعات (مساجد- أسواق...).

- صور السرقسطي عدة مظاهر للتحلل الأخلاقي والاجتماعي، صادفنا ملامحها عند الهمذاني والحريري وقبلهما عند الجاحظ، ولم يكن في ذلك مقلداً لأنها صور اجتماعية تتواتر في كل مجتمع تنخره الطبقيّة ومظاهر الفقر والحاجة. ومن هنا صور لنا حياة العبث واللهو والمجون والترف التي انغمس فيها بعض الأندلسيين، كما صور بالمقابل النزعة الدينية لدى بعضهم للإقبال على الزهد، ومميز ما بين الواعظ النقي الورع الصادق، والواعظ المزيف الذي يلبس قناع الصلاح والتقوى لتحقيق مصالحه الذاتية.

- ما يميز السرقسطي عن الحريري هو خلو مقاماته من المقدمة والخاتمة، فهو قد خالف الحريري، لكنه اتفق مع الهمذاني في ذلك²⁵³.

- خالف السرقسطي الهمذاني والحريري في تسمية مقاماته بأسماء مدن ومأكولات، فجاءت مقاماته على ثلاثة أنواع من العناوين. فقد ورد بعضها بدون عناوين بل بأرقام، إذ يقول: المقامة

²⁵³- دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص304.

ذلك أن كل مقامة عند الحريري تتكون من مقدمة وموضوع وخاتمة. فالمقدمة تدور حول فكرة واحدة، وهي المطاردة بين البطل والراوي، إذ يظهر البطل فجأة وفي أماكن متباعدة، والراوي يتابعه ويلاحقه. وأما الموضوع فيتتبع من مقامة لأخرى (وعظ – جد – هزل...). وأما الخاتمة فهي تدور أيضاً مثلما المقدمة حول فكرة واحدة، فهي تشير إلى فكرة اختفاء البطل فجأة، كما بدا في المقدمة فجأة. فصفا المراوغة في الخاتمة تكمل صفا المطاردة في المقدمة، والمقدمة والخاتمة هما من صنع الراوي (الحارث بن همام)، وأما الموضوع فمن صنع البطل (أبو زيد السروجي)، والمؤلف (الحريري) يوزع الأدوار. (الأدب المقارن من منظور الأدب العربي – مقدمة وتطبيق – مرجع سابق. ص90).

الأولى أو الثانية ويدخل فيها مباشرة. والصنف الثاني اختار له عناوين دالة على موضوعاتها واحتفظ لها بالترقيم، كأن قال: المقامة السابعة وهي البحرية، وهكذا... وثالث نوع هو ما سماه على نسق الحروف وعلى حروف أبجد مع الاحتفاظ بتسلسل أرقامها.

- أعلن بطل الحريري في المقامة الأخيرة توبته²⁵⁴ وافترقه عن الراوية بلا رجعة، في حين لم يعلن بطل السرقسطي توبته لا في المقامة الأخيرة ولا التي قبلها.

- عاد بطل الحريري في نهاية مقاماته إلى بلده سروج بعد أن تحررت من المستعمرين الروم فوجد أن مشاكله قد حلت، وأما السدوسي فإن بلد المؤلف وهي سرقسطة سقطت ولم تعد في أيدي المسلمين، وأن مشاكل كثيرة لا زالت قائمة، وأن تساؤلات تطرح نفسها لا يجد لها إجابات، وبذلك يرى أن لا شيء تغير، ومن تم لا توبة إذن.²⁵⁵

- دارت أحداث بعض مقامات السرقسطي في أماكن وليست بلدانا: في طرق ومجالس ومساجد، وصحارى، وبواد، وأحياء، ولم يذكر من الأماكن الأندلسية سوى طريف²⁵⁶. وقد جاءت رحلاته عشوائية غير متسلسلة، وربما وقع في خطأ في ذكر الأماكن²⁵⁷.

وعلى الرغم من إصرار واتفاق مجموعة من الدارسين والباحثين على تصنيف المقامات السرقسطية ضمن الاتجاه التقليدي (الاتباعي)، إلا أنني ألفت السرقسطي مبدعا و مجددا - وبشكل بارز- في عدة مواطن من مقاماته التي ارتأيت أن أختص واحدة منها بالدرس والتحليل، وهو تجديد يمس المضمون دون الشكل. و أما ما يمكن اعتباره تجديدا على مستوى

²⁵⁴ - نقرأ في المقامة الخمسين أن أبا زيد يتوب إلى الله من صنعه ويندم على ما اقترف وينشد:

أستغفر الله من ذنوب أفرطت فيهن واعتديتُ
يا رب عفوا فأنت أهل للعفو عني وإن عصيتُ

وبذلك تنتهي المقامات خير نهاية بعدما بدأها خير افتتاح، ففي أولها يعرف البطل براويته، وفي خاتمها يفرق بينهما.
(المقامة. مرجع سابق. ص 54).

²⁵⁵ - دراسات في الأدب الأندلسي. مرجع سابق. ص 305.

²⁵⁶ - من منطقة الغرب الإسلامي ذكر القيروان وطنجة وطريف، ولم يكرر مكانا أكثر من مرة سوى بغداد: بغداد الواقع، وبغداد الحلم.

²⁵⁷ - حين ذكر أن عمان في أرض اليمن، وحين وضع أرض الحجار بين نجد وتهامة، ودليلنا على ذلك المقامتان الثالثة والرابعة.

البناء الفني لكل مقاماته اللزومية فلا يتعدى كونه خروجاً عن المؤلف، إذ نسجل إهمال السرقسطي لذكر الراوي تماماً في ثلاث مقامات، كما هو الحال في المقامة الثانية عشرة وهي الفارسية، و المقامة الحادي و الثلاثون و هي النجومية، و المقامة الحادي والأربعون وهي البربرية، التي ارتأيتها صورة من الصور الدالة على التجديد والخصوصية، والإلاح في دراستها مكمّنه أوجه التفاعل التي تتيحها مادام شكلها (مشرقي) ومؤلفها (أندلسي) وموضوعها (مغربي)، ومكمّنه أيضاً انفتاحها بأدب المقامة على لون جديد أفرزه الجوار الجغرافي بين الأندلس والمغرب، الذي ولد الصراع والسجال والتراشق القلمي بدلا من التآلف والتقارب وهو ما سنفصل فيه بكثير من العناية في الباب الثالث من هذه الدراسة.

• خاتمة الفصل الثاني/الباب الأول:

اقتضت دراسة مظاهر التقليد و الاتباعية في المقامات الأندلسية دراسة المقامات المشرقية بديعية وحريرية ، وذلك لتبين خيوط الاتباعية لدى المقامين الأندلسيين من خيوط الجدة والإبداع في نتاج مقامي ممتد من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجري ، وتوزع فيه المقاميون الأندلسيون إلى ثلاث فئات : المتأثرون بالهمذاني – المتأثرون بالحريري – المجددون ، فمن الأندلسيين من حاكى المشاركة لكن منهم من جدد وخرج بالمقامة الأندلسية لما يشبه الرسالة، وهو انحراف مبكر عن مسار المقامة عرفته الأندلس منذ عهدها الأول بالمقامات.

لقد قسمت هذا الفصل إلى قسمين أحدهما يعنى بدراسة المقامات الأندلسية منذ ظهورها وحتى سقوط الأندلس ويستقصي مظاهر الاتباع والابتداع فيها ، والآخر يهتم بدراسة المقامات السرقسطية بحكم عددها قياسا لكل النتاج المقامي الأندلسي ، الشيء الذي أتاح لي إعادة النظر في طبيعة التأثير الأندلسي بالأدب المشرقي من جهة ، وإعادة النظر في تصنيف جل الباحثين للمقامات اللزومية ضمن الاتجاه التقليدي، ذلك أنها لا تخلو من مظاهر التجديد و الاستقلالية والخصوصية .

إن النتاج المقامي الأندلسي زاخر بمظاهر التجديد والخصوصية والاستقلالية ، فقد انتهينا إلى أن ما يطبعه ويجعل منه فنا محليا مصطبغا بالصبغة الأندلسية هو ذلك التداخل مع أدب الرسائل ، والارتباط بأدب الرحلات، وخدمته لأغراض شعرية، وخلوه من الكدية(ماعدا ما تعرض له السرقسطي في مقاماته)، والتزامه طول الحجم والإطناب، وارتباطه ببيئته المحلية، وخلوه من التعقيد اللغوي، واستحداث الأندلسيين لموضوعات مقامية جديدة (سياسية و بلدانية) .

● مقدمة الفصل الثالث من الأطروحة/الفصل الأول – الباب الثاني:

ينطلق هذا الفصل النظري من الباب الثاني من هذه الدراسة من تحديد فضاء زمني لها، يرتبط بدراسة مظاهر التقليد والتجديد في المقامة المغربية ما قبل العصر العلوي ، كما وينطلق من ضرورة حتمية تصحيح تاريخ النشأة الفعلية للمقامة المغربية لدى بعض الباحثين المغاربة ممن ربطوه بالعصر المريني (1244-1456م) ، وينطلق من دراسة عوامل تأخر انبثاق أدب عربي في المغرب عن ظهوره في الأندلس قياسا إلى أن المغرب عرف الفتح الإسلامي قبل الأندلس، ومن خضوع الأدب المغربي الناشئ لتأثير مزدوج مارسه عليه الأدبان المشرقي العربي والأندلسي (مرحلة التلمذة) ، ومن ازدهار أدب المقامة في العصر المريني (مرحلة الندية)، وفي العصر السعدي (مرحلة الأستذة) ، ومن الثالوث المفاهيمي : " المقامة في المغرب - مغرب المقامة - مغربية المقامة " ؛ ينطلق هذا الفصل منها جميعا للقول بنشأة المقامة المغربية من جذور مغربية ، والقول بالتأصيل والخصوصية فيها ، وبملاح نسبية فيها غير مطلقة للاتباع و التقليد، إذ لم تخل مجاراتها للمقامات البديعية والحريرية من توسيع أو تقليص في بعض الموضوعات، أو تجاوز و قفز عليها ، وخاصة عنصر الكدية الذي شكل الخيط الناظم للمقامات المشرقية العربية.

- الفصل الأول: الإطار النظري -

- المبحث الأول: المقامة المغربية: النشأة والامتداد والخصوصية
 - المطلب الأول: المقامة في المغرب
 - المطلب الثاني: مغرب المقامة
 - المطلب الثالث: مغربية المقامة
- المبحث الثاني: دواعي انتشار أدب المقامة في الأدب المغربي
 - المطلب الأول: دواعي لغوية
 - المطلب الثاني: دواعي المحاكاة
 - المطلب الثالث: دواعي سيكوسوسيولوجية
- المبحث الثالث: عوامل تأثر النثر المغربي بالنثرين المشرقي والأندلسي
 - المطلب الأول: الرحلة إلى المشرق (التأثير المشرقي)
 - المطلب الثاني: الجوار والوحدة السياسية بين العدوتين (التأثير الأندلسي)

-المبحث الأول : المقامة المغربية: النشأة والامتداد والخصوصية

● المطلب الأول: المقامة في المغرب

ترتبط نشأة فن المقامة في المغرب – بإجماع العديد من الباحثين المغاربة¹ – بالعصر المريني² (1244 – 1456م) ، بل و إن منهم من تأخر بالنشأة ليجعلها سعديّة³ ، وفي ضوء هذا الطرح تتبثق إشكالية تبرير القفز الزمني على العصرين المرابطي (1055 – 1145 م) والموحدي (1147 – 1250م)، خاصة وأن العدوتين (الأندلس والمغرب) كانتا خلالهما تحت حكم دولة واحدة، وخاصة أيضا أن العصرين يشكلان أخصب فترات إنتاج المقامة في الأندلس، وأن ذلك الجوار والوحدة السياسية يفترضان تفاعلا بين الأدبين المغربي والأندلسي بشكل عام، وأدب المقامة بشكل خاص. وبتعبير آخر، يقودنا هذا الطرح إلى الإقرار بتأخر ظهور أدب المقامة في المغرب بأزيد من 200 عاما عن ظهوره بالأندلس، مادامت نشأته بالأندلس ترتبط بالقرن 5 هـ /11م وبالمغرب بالقرن 7 هـ/13م.

¹ - ينظر: - محمد السولامي. فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي – دراسة ونصوص-. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. إشراف: د. عباس الجراري. 86/85 (مكتبة كلية الآداب بالرباط ، عدد: 56437).

مما ورد في رسالته قوله: "ويظهر أن هذا الإعجاب لم يدفع المغاربة إلى إنشاء مقامات. فالبحث العلمي لم يكشف لحد الآن أن المغاربة كتبوا في هذا الفن في فترة ظهور المقامات الحريرية أو بعديها، وأول النصوص التي استطعنا أن نقف عليها يرجع تاريخها إلى العصر المريني". ص51 .

- حسن جلاب. الدولة المرابطية (قضايا وظواهر أدبية). يذهب فيه في ص 72 إلى أنه "ياخذنا العجب عندما نبحث عن الحصيصة الأدبية العربية لمغرب ما قبل المرابطين ذلك أنها هزيلة جدا. فهل فضل المغاربة التعبير بلهجاتهم، ولم يدفعهم حب الاستطلاع إلى التعبير باللغة العربية؟، أم أنهم عبروا بها وضاع جل ما خلفوه". وفي ص129 إلى القول بأن "الشخصية المغربية لن تبرز بكامل الوضوح في أدبنا المغربي إلا في الأدب الذي سيظهر ابتداء من العصر المريني خاصة " .

- محمد لخضر. الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية. يذهب فيه في معرض حديثه عن المميزات العامة للأدب المغربي إلى تبعيته الطويلة للمشرق العربي والأندلس، ويربط النشأة الفعلية للأدب المغربي بالعصر السعدي، وأما ما قبله من عصور فقد كانت الثقافة المغربية معتمدة على العلوم الشرعية مصطبغة بالصبغة الشرقية بسبب علاقات المغرب مع الأندلس وخاصة الأدبية، لأن الشرعية كان يستقيها من القيروان ، ولأن أبواب الشرق كانت مسدودة في وجهه بسبب

والواقع أن الحديث عن نشأة المقامة في المغرب هو حديث بشكل أو بآخر عن أولية الأدب المغربي وعن معيقات و مثبطات نشأته ، وما يرتبط به من قضايا وإشكالات تدور حول صورته الباهتة في بداياته وفي تاريخ الأدب العربي ، وحول عوائق نشأته أو دواعي تأخر

الأغلبية في إفريقيا، ولأن الأندلس صارت دار هجرة لأدباء المشرق. وفي عهد المرابطين حتى 1146م، والموحدين حتى 1268م، نمت الثقافة المغربية للارتباط بالأندلس بفضل الوحدة السياسية والهجرة بين العدويين. وأما في عصر المرينيين فقد ظهرت للنثر ثلاثة أنماط جديدة هي: النقد الأدبي- الرحلة- المقامة. كما ظهرت في الشعر الموشحات والأزجال، وهو نمو سيستمر مهما في عهد السعديين.

- محمد بن تاويط. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ج 2. ص 622. ذكر في معرض حديثه عن خصائص العهد المريني ما نصه: "...شاعت الموشحات... و قوي أدب الرحلات... كما ظهرت المقامات لأول وهلة في أدبنا...".

- علال معكول. النثر الأدبي في المغرب في ق 11 و 12 هـ. الفصل الخامس: المقامات. ص 113.

- محمد الجون. (أولية الأدب المغربي، عوائق النشأة). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات)، منشورات كلية الآداب بالرباط. سلسلة ندوات ومناظرات رقم 130. (ص 181-196). ص 196.

- عباس ارحيلة. (لماذا ظلت صورة الأدب المغربي باهتة في تاريخ الأدب العربي؟). نفسه. ص (197-204). ص 198.

- محمد الكتاني. (نظرات في علاقة الأدب المغربي بالأدب العربية). نفسه. (ص 275-289). ص 284.

- عبد الله كنون. النبوغ المغربي في الأدبي العربي. ج 2. ص 201.

- أمينة الدهري. الترسل الأدبي بالمغرب ، النص والخطاب. ص 367.

2- كُتبت في العصر المريني ثلاثة نصوص مقامية أولها لعبد العزيز الملزوزي (ت 667هـ)، وثانيها لمالك بن المرهل (ت 699هـ)، وثالثها لعبد المهيمن الحضرمي (ت 749هـ)، وكتبت في العصر السعدي أربع مقامات واحدة لمحمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت 990هـ)، وأخرى لمحمد بن أحمد المكلاطي (ت 1049هـ) ، زيادة على المقامة الأزاريفية (نسبة لمنشئها الأزاريفي) التي تغفل جل المصادر والمراجع ذكرها ، إضافة إلى مقامة لأبي عبد الله الفشتالي . وأما ما كتب بعد ذلك فيعود إلى العصر العلوي، وقد حاول محمد السولامي جمعه في دراسته الجامعية في جزئها الثاني المخصص للنصوص. ومن هنا، فكرة دراستي للمقامات المغربية ما قبل العصر العلوي.

3- "أما المغرب الأقصى فإننا لا نعرف له مقامات إلا في أواخر القرن العاشر مثل مقامات أحد كتاب المنصور السعدي، وهو الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى، ثم استمر إنشاء المقامات فيما بعد... ومن الحق والحقيقة أن نقول: إن كتابنا لم يوفقوا فيها إلى أبعد حد إذا استثنينا ابن عيسى الذي حذا فيها حذو ابن شرف... أما من أتى بعده من مثل ابن الطيب العلمي فمزلتهم تقصر عن منزلة غيرهم في هذا الباب". محمد بن تاويط التطواني. (أصل المقامات وتطورها). (دعوة الحق). منشورات وزارة عموم الأوقاف الرباط. العدد الأول. 1959. (ص 34-36). ص 36.

وينظر: - الحسن السائح. من تاريخ القصة والمسرحية في الأدب المغربي. ص 19.

ظهوره قياسا إلى الأدبين العربي المشرقي والأندلسي ، وحول تعلق صورة الأديب المغربي القديم بصورة الفقيه، وحول إبرازه و الكشف عنه ضمن النسق العام لتاريخ الأدب العربي عامة. وتأسيسا عليه، يبدو أن ربط المسار التطوري للمقامة المغربية خصوصا وللأدب المغربي عموما ، وفق المسار التطوري للعصور السياسية و الدول بالمغرب ، ربط تبرز موضوعيته في اعتماد هذا البحث على المنهج التاريخي ، وفي صعوبة الفصل بين التاريخي و الأدبي ، لأنه لن يكون سوى فصلا منهجيا يروم تسهيل الدراسة و البحث ، ذلك أن دراسة الأدب المغربي لا يمكن أن تتم إلا ضمن سياقاته التاريخية التي أفرزته ، أي الحكم على النتاج الأدبي المغربي من خلال ربطه بمرحلة ما من مراحل نشوئه وامتداده : مرحلة التلمذة على المشرق العربي و الأندلس – مرحلة الندية – مرحلة الأستاذة مقابل انحطاط في المشرق وسقوط الأندلس (بدءا من عصر المرينيين).

لقد تأخر الأدب المغربي في انطلاقته الأولى بالقياس إلى نشأة الأدب العربي بالمشرق والأندلس، مما قد يصعب معه الحديث عن أدب مغربي قبل القرن السابع الهجري حيث عصر المرينيين بالمغرب، وانحطاط للأدب العربي بالمشرق أواخر العصر العباسي، وسقوط آخر حواضر الأندلس "غرناطة" قرنين بعد ذلك (897هـ/1491م) ، "فلم يعرف الأدب العربي في المغرب تلك النشأة الخاصة التي تمنحه هويته الخاصة وشروطه المعرفية. فكل حضور للأدب في المغرب ، قبل هذه الفترة كان من آثار أندلسية بشكل خاص"⁴.

بيد أن استقراء المصادر والمراجع التي تُعنى بالأدب المغربي قادني إلى الاهتداء لعدة نصوص مقامية جديدة تغطي جل العصور السياسية بالمغرب باستثناء عصر الأدارسة. وبالتالي صارت نشأة المقامة المغربية مرابطية و موحدية ، ولم يعد مقبولا رد نشأة المقامة بالمغرب إلى العصر المريني، ولا مقبولا حصر النتاج المقامي السعدي في مقامتين وحسب كما هو متعارف عليه في أوساط الباحثين المهتمين بالشأن الأدبي المغربي.

4 - عباس ارحيلة. (لماذا ظلت صورة الأدب المغربي باهتة في تاريخ الأدب العربي؟). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات – دراسة مهداة للأستاذ عباس الجراري). الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. سلسلة ندوات ومناظرات رقم 130. سنة 1996. (ص 197-204) . ص 198.

فقد تأخر انبثاق أدب عربي في المغرب ، عن ظهور نظيره في الأندلس على الرغم من أن المغرب عرف الفتح الإسلامي قبل الأندلس ،ذلك أن " اللغة العربية الفصحى وما يتصل بها من ثقافة وأدب كانت محدودة الانتشار أمام اللغة الأمازيغية التي ظلت اللغة السائدة إلى نهاية القرن السادس الهجري ...ولذلك نقول مع الأستاذ الجراري إن ما يحفظ للعصر الأول عن الأدب المنسوب للمغرب في عهد الدولة الإدريسية (172هـ - 305 هـ) إنما كان يمثل أدبين ،أدبا وافدا صدر عن الوافدين من العرب الذين استقروا بالمغرب كأفراد الأسرة الإدريسية ... و أدبا مغربيا صدر عن شخصيات مغربية"⁵. فالمرحلة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى قيام دولة المرابطين (541- 454 هـ) - في حدود ما أعلم - لم تتحقق فيها لا الوحدة المركزية للدولة في المغرب ، ولا تحقق التعريب للمجتمع المغربي⁶، ولا الأمن وهو شرط ازدهار الأدب. "وقد كان المغاربة حتى في أيام ازدهار الأدب العربي على عهد الموحدين والمرينيين والسعديين...كانوا ولا شك يعتقدون أن المغرب كان في العصور الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي موطن بطولة و أبطال و مغامرين لا موطن أدب وأدباء و شعر و شعراء"⁷. فالمرحلة كانت شبه حكر على الدراسات الإسلامية، في مقابل تباشير أولى للأدب المغربي متأثرة بالأدب المشرقي العربي" لذلك كانت بواكير هذا الأدب أقرب في تصنيفها إلى ما يسمى بالأدب الوارد ، إذ لم تنتسم بعد بأي طابع يمكن أن يميزها عن الأدب المشرقي ، وكأن

⁵ - محمد الكتاني، (نظرات في علاقة الأدب المغربي بالأدب العربي). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات - دراسات مهداة للأستاذ عباس الجراري)، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. سلسلة ندوات ومناظرات: رقم130. سنة1996. (ص275-289). ص.280

⁶ - "بل لا نعد مبالغين، إذا نحن قررنا أن التعريب، بمعنى الكلمة تخلف عن انتشار الإسلام، في شمال كل من المغربين الأوسط والأقصى خاصة بعشرات السنين. أما في الجنوب، والمناطق النائية الأخرى، فقد تخلف عنه بقرون وليس أدل على ذلك مما يلاحظه الدارس للفترة التي سبقت عهد المرابطين من جهل سكان هذه المناطق جهلا يكاد يكون عاما".محمد الجون، (أولية الأدب المغربي، عوائق النشأة).مرجع سابق. ص194.

⁷ - عبد القادر زمامة. (نشأة الأدب العربي بالمغرب). (دعوة الحق). منشورات وزارة عموم الأوقاف. الرباط. العدد الأول. 1959. (ص43-45). ص45.

أصحابها أرادوا من إنشائها أن يثبتوا لأنفسهم خاصة أنهم قادرون على النظم، إذ كل هؤلاء الشعراء الأوائل كانوا في أصل نشأتهم فقهاء، ومحدثين، ودعاة مذاهب.⁸ ويذكر محمد الأخضر⁹ أن هيسبيريس " لم يجد في فاس شاعرا أيام المرابطين والموحدين إلا من بين الفقهاء والمتكلمين"¹⁰. فارتباط الأدبي بالفقهي ظاهرة همت العصر الإدريسي كما المرابطي والموحدي، والمريني والسعدي حيث حدود دراستنا، "لأن المغاربة وجدوا في الكتاب والسنة الشريعة المثلى التي نظمت حياتهم الاجتماعية في ظل الحرية التي كانوا يصبون إليها دائما ، لذلك سعوا لتحقيقها بكل الوسائل، وقصروا عليها كل دراساتهم... ولعل هذا ما يفسر وفرة البحوث الفقهية بكل فروعها وتشعباتها لديهم، إذا ما قيست بالأبواب الأدبية التي راجت سوقها في كل من المشرق و الأندلس في نفس الفترة"¹¹. فهذه سمة بارزة يكتشفها كل باحث في الأدب المغربي، ذلك أنه مطالب في كثير من الأحيان إلى الاحتكام إلى كتب فقهية أكثر ما هي أدبية في بحثه عن المتون الأدبية المتشذرة بين ثنايا كتب فقه أو تاريخ أو تراجم.

وأما المرحلة الثانية في مسار نشأة الأدب المغربي فمرابطية أولا ، ثم موحدية فيما بعد ، إذ أن العصرين رغم ارتباطهما بالجهاد لكنهما عرفا برعاية الأدب بالأندلس خصوصا، وهو ما يعني تأثر الأدب المغربي بالأدب الأندلسي وبروز عدة أعلام مرابطين وموحدين مضاهين لأعلام الأندلس.وسمة تلازم الأدبي بالفقهي ظلت مستمرة لصيقة بالأدب المغربي، فبقدر ما وجد المغاربة في الدين الإسلامي حريتهم وأسلوب حياتهم منذ الفتح الإسلامي الأول بالمغرب فهبوا لاعتناقه وفهمه،بقدر ما تمسكوا به وقيدوا له الزوايا لنشره ونشر الثقافة الإسلامية، وهو ما أقره المرينيون.

⁸- محمد الجون.(أولية الأدب المغربي، عوائق النشأة). مرجع سابق. ص194.

⁹- محمد الأخضر. (الأدب المغربي في القرون الإسلامية الأولى). (البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد22. السنة11: 1974. (ص79-86). ص79.

¹⁰- يحيل على : الدراسات الأخيرة في تاريخ الأدب المغربي. هيسبيريس. الفصل1. 1922. ص441. ويشير إلى أنه صدر بعده في نفس السياق كتاب " مؤرخو الشرفاء" يجيب المؤلف فيه بالنفي عن سؤال ما إذا كان يوجد أدب مغربي (ص6-7).

¹¹- محمد الجون، (أولية الأدب المغربي، عوائق النشأة). مرجع سابق. ص193. يقصد ب(الفترة) القرنين الأول و الثاني للهجرة.

ثم إن بعد المسافة بين الأدبي والفقهّي تحكمت في درجته مختلف مراحل التاريخ السياسي للمغرب، "فقد ازداد بعد الشقة بين العلوم الشرعية والأدب منذ أخذ البرتغاليون والاسبانيون والانجليزيون يحتلون بعض الشواطئ المغربية، إذ كان لهذا الاحتلال رد فعل ديني قوي لدى الشعب الذي أخذ يلتف بتحريض من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حول السعديين فالعلويين، حيث وجد فيهم لنسبهم الشريف سندا ماديا وتشجيعا معنويا لمحاربة العدو وصدّه"¹².

فهذه المرحلة السياسية فرضت اعتمادا قويا للتعليم على العلوم الشرعية لتقوية الكيان المغربي الإقليمي، " فبعد أن يتلقى الأديب المغربي ثقافة مبنية في أساسها على مبادئ الإيمان، يتخرج فقيها يصطبغ إنتاجه حتى الأدبي بالصبغة الدينية. فلقد كانت هذه الثقافة تتحكم في الثقافات الأخرى مهما كان نوعها حتى من أراد أن يصبح أديبا كان عليه أن يصير أولا فقيها بينما لم يكن يشترط في الفقيه أن يكون أديبا"¹³.

ولذلك فأكثر كتاب المقامات الذين نعتمز دراسة مقاماتهم في الفصل الثاني من هذا الباب هم فقهاء في نفس الوقت، لا تخلو مؤلفاتهم الأدبية من مسحة دينية. ومن تم فمن الطبيعي أن نجد أدباء مغاربة من بين المؤرخين والنحاة والفقهاء وحتى بين الفلكيين والأطباء في الفترة المدروسة (ما قبل العصر العلوي) وحتى التي تليها.

وهذا الارتباط العضوي بين الديني والأدبي في الحياة الأدبية المغربية ما قبل العصر العلوي سيكون له وقعه على النتاج الأدبي بحيث سيلتزم الأدب المغربي بالجانب الأخلاقي اللهم ما لمسناه في مقامة سعدية واحدة شكلت استثناء للقاعدة، وبداية جديدة للأدب المغربي في علاقته مع العلوم الشرعية من حيث التخلص من تبعيته لها (مقامة الحكمة للتملي).

فالقصد أن نقرر أن الأدب المغربي عرف تفاعلا حقيقيا متأثرا بالأدبين المشرقي والأندلسي، محتفظا ببصمته الفقهية بوصفها من خصوصياته المميزة له قبل أن يرتقي لمرحلة الأستاذة (العصر السعدي) حيث أفول شمس أدبي المشرق العربي والأندلس.

12 - محمد الأخضر. (الأدب المغربي في القرون الإسلامية الأولى). (البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. جامعة محمد الخامس. الرباط. العدد 22. السنة 11: 1974. (ص 79-86). ص 81.

13 - نفسه. ص 81.

كما أن نمو الثقافة المغربية في عصر المرابطين والموحدين بفضل الوحدة السياسية والهجرة بين العدوتين أفادت منه الأندلس أكثر – فيما أعتقد – باستقطابها للأدباء مشاركة و أندلسيين ومغاربة، وهو ما قد يفسر نسبياً يُتَمَّ المقامة مرابطية وموحدية (مقامة في كل عصر) ، " فمن المفروغ منه أن الأدب بالمغرب من الناحية التاريخية، آخر ما تنفست به العربية في أقطارها المفتوحة... وهذا التأخير كان لأسباب جغرافية وحضارية واجتماعية وسياسية عملت فيها الفتن والحروب، وعملت فيها أكثر من ذلك فتوحات الأندلس التي تسرب بها العنصر العربي من البلاد، بل تسربت منها عناصر مغربية كان يرجى منها أن تأتي بأكلها في بلادها، فأنت بذلك الأكل في البلاد التي نزحت أو آباؤها إليها" .¹⁴

وإذن، فقد تضافرت عدة عوامل متشعبة لجعل ميلاد المقامة المغربية محتشماً في العصرين المرابطي والموحدي. وإذا كان العصر السعدي عصر أستاذة للمقامة المغربية ومن بعده العلوي، فإن العصر المريني هو عصر الندية، والعصرين المرابطي والموحدي هما مرحلة التلمذة. فإذا كان العصر المريني هو مهد المقامة المغربية، فإن العصرين المرابطي والموحدي هما رحم المقامة المغربية.

¹⁴ – محمد بن تاويت. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ج.1. المقدمة. ص.9.

● المطلب الثاني: مغرب المقامة.

يرجع أول نص مقامي – حسب الشائع – إلى العصر المريني الذي يمكن اعتباره مهدا للمقامة المغربية باعتبار النضج الذي بلغته لحد الإبداع في العصر السعدي، فقد مهد العصران المرابطي والموحدي لميلاد المقامة المغربية مشكلين رحماً لها تكونت فيه في تأثر تام بالأدبين المشرقي والأندلسي قبل أن تستقل بشخصيتها الأساسية.

فالنتاج المقامي المغربي وإن وجد مكتملا مرينياً، فإنه ولا شك قد نضج مرابطياً و موحدياً في ظل الوحدة السياسية للعدوتين وما ولدته من تفاعل أدبي بدا فيه الأدب المغربي متأثراً. وهذا الإلحاح وراء جعل بداية المقامة مرابطية و موحدية قادني للتوصل إلى نصوص مقامية جديدة منها ما استدركته على محمد السولامي¹⁵ بالعصر العلوي وهو غير داخل في مجال هذه الدراسة، ومنها المخطوط غير المحقق، ومنها ما وجدته متشذرا. وهو ما يسمح بإعادة كتابة تاريخ جديد للمقامة المغربية بدايته تحديدا العصران المرابطي والموحدي، ونشأته مرينية، واكتماله سعدي، وامتداده علوي. فالمغرب له حضور أدبي في النثر كما في الشعر، سجل حضوره في عدة أجناس أدبية كشف النقاب عنها، وسجل حضوره في إغناء تراث أدبي طريف استغرقت فيه الكتابة عدة قرون تبدأ بالقرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي بالمشرق العربي لتمتد إلى القرن 14هـ/20م. فقد قدم المغرب للأدب العربي مقاميين متميزين أبانوا عن قدرة عالية على المحاكاة والتجديد والتميز في خصوصية واستقلالية تامين، وتأصيل وارتباط بالخصوصيات المحلية .

15 – محمد السولامي. "فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي- دراسة ونصوص-". رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. إشراف د.عباس الجراري.1986.(مرجع سابق).

دراسة جادة وجديدة في الأدب المغربي رامت الكشف عن فن المقامة بالمغرب، لكنها اقتصرت على العصر العلوي. وربما يعود ذلك لوفرة المتون المقامية بالعصر العلوي مقارنة مع العصور قبله، فشح النصوص مرابطية وموحدية ومرينية وسعدية ، مدعاة لصعوبة الدراسة فيما أعتقد. لكن السولامي بعمله يكون كمن سد جانبا وفتح الآخر فتحا رائقا جميلا يروق للدراسة ويغري بها. ومن هنا فكرة استكمال البحث في أدب المقامة في المغرب ما قبل عصر العلويين. فمما يحسب للباحث تفصيله في ما لم يسبقه أحد إلى التفصيل فيه، فالقسم الثاني من دراسته وثق فيه وضبط ستا وعشرين مقامة تعددت مصادرها ومطابقتها مابين المخطوط والمطبوع حجريا فقربها للقارئ ورقيا ويسر له ملكيتها.

وفيما يلي ثبت بما أنتجه المغاربة مما تمكنت من الوصول إليه ، وهو ثبت كرونولوجي يتتبع المقامة عبر العصور السياسية في المغرب ،ويدحض فكرة السولامي والساكتين عنها والقاضية بجعل نواة نشأة المقامة المغربية هي خمس مقامات لا غير، تعود ثلاث منها للمرينيين ،

وأما ما يحسب عليه :

أ- النصوص المقامية بالقسم الثاني من دراسته خلو من كل إشارة لمصدر المقامة المنقول عنه، خاصة وأن منها المطبوع حجريا والمخطوط المحتاج لتحقيق، ومن هنا صعب على الباحثين بعده الرجوع للمقامات في مصادرها ومطائنها الأصلية، وسد الباب أمام من شاء منهم تحقيقها، وصعب عليه سبل معرفة المخطوط منها من المطبوع، المصدر من المرجح، مما يفسح المجال لدخول نفس الرحلة الشاقة والمعاناة الطويلة التي تكبدها السولامي قبله في البحث عن مظان نفس النصوص المقامية.

ب- لم يعن الباحث بالترجمة لأصحاب المقامات العلوية باعتبارهم من الكتاب المغاربة المشهورين لدينا، فقد كان حريا به العناية بالترجمة لهم للتعريف بهم للأجيال القادمة، ولتبوينهم مكانتهم اللائقة في النهوض بأدب المقامة في المغرب خصوصا ، وبالنثر الفني و الأدب المغربي إجمالا.

ج- استدرك عليه علال معكول – في كتابه (النثر الأدبي في المغرب في ق11 و12هـ) ضمن الفصل الخامس (المقامات) – عدم دراسته لخمس نصوص مقامية، وعدم دراسته الجيدة لنصين (سعديين)، وإغفاله لمقامتين علويتين لم يشر إليهما وهما: مقامة لمحمد العربي الفاسي، ومقامة الحجام لابن الطيب العلمي. وأود ها هنا أن أضيف نصين آخرين لم ينتبه لهما كلا الباحثين وهما: المقامة الأزاريقية التي ترجع إلى العصر السعدي ولها ذكر في الجزء الثامن من المعسول، والمقامة الكنسوسية وترجع للعصر العلوي.

د- مؤاخذة علال معكول للسولامي بعدم دراسته الجيدة لنصين سعديين وعدم ربطهما بسياقهما، تثبت عدم رجوع السولامي إلى بعض المقامات في مطائنها ومن ذلك مقامة الحكمة لمحمد بن عيسى التملي فقد أحال على وجودها مخطوطة بالخرانة الحسنية بالرباط تحت عدد 5408. ص1، وعلى وجودها بفواصل الجمال في أبناء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريبط، ولكن بحثي الدؤوب عنها لحاجتي لها في البحث جعلني أكذبه في إحالته الثانية وأعدل له رقم المخطوط في إحالته الأولى. وهي ليست الإحالة المزعومة الأولى التي أقدم عليها السولامي، فإحالاته المجانية متناثرة بدراسته، فمن ذلك بالصفحة 56 من دراسته في معرض حديثه عن مقامة طرفة الظريف للملزوزي (المريني): "ومن غريب ما اتفق لي فيها حين كنت أوافيها أني مررت بإمام يصلي...، وتبدأ الرابعة بقوله: وجلست يوما عند القاضي ابن عذرة... وهكذا وبطريقة اعتباطية تتوالى المقطوعات تلو الأخرى في علاقة انضمام. والانضمام يسمح بالتضخيم كما يسمح بالإيجاز. ولذلك فإمكاننا أن ندرج في المقامة مثلا مجالس أخرى من غير أن يطرأ على هيكل النص تغيير كبير"21". وفي الهوامش نلني أمام الهامش 21 – "حسين الواد. البنية القصصية في رسالة الغفران. الدار العربية للكتاب ليبيا. تونس. 1977م ص46". والواقع أن لاشيء من هذا موجود على أرض الواقع ولا على صفحات المؤلف المذكور، فكله من محض خيال الباحث. وقد كان لكثرة مثل هذه الإحالات المشوشة مما أحتفظ به لنفسه وقع سيء على دراسة السولامي من حيث درجة جديتها وعلميتها في مقابل الجدية التي يتطلبها موضوعها غير المسبوق، والرامي لكشف النقاب عن أدب طريف برع فيه المغاربة مقلدين و مجددين و مبدعين متفوقين يتحدون أن يطالهم الإهمال أو النسيان.

واثنتان للسعديين. ذلك أن عددها تضخم، فقد توسع عدد مقاماته العلوية الست والعشرون ليصير باستدراك علال معكول عليه ثمان وعشرين مقامة ، وباستدراكي عليه اثني وثلاثين مقامة علوية¹⁶ ، وأربع مقامات سعديّة (بدل اثنتين)، وثلاث مقامات مرينية، ومقامة موحديّة ومقامة مرابطية (بدل لاشيء):

-مقامة الوزير الكاتب أبو عامر بن أرقم، أنشأها في الأمير تميم بن يوسف مثبتة بقلائد العقيان للفتح بن خاقان (ت 529 هـ)¹⁷ ، ولها ذكر بكتاب الدولة المرابطية – قضايا وظواهر أدبية - لحسن جلاب . أسهم به المؤلف في التعريف بأدب الدولة المرابطية¹⁸ بالمغرب والأندلس ،

¹⁶ – اقتضت ضرورة البحث تتبع مسار المقامة المغربية في تطورها حتى القرن 14هـ/20م، وهو ما أفاد في استكشاف مقامتين علويتين جديدتين، واثنين من المقاميين المقاربة العلويين استدركتهما على ثبت السولامي: - المقامة الكنسوسية، لأبي عبد الله الجعفري الكنسوسي (ت1294هـ). - مقامة في مدح صاحب زاوية المخفية، لأبي عبد الله بن مسعود المريني (ت1145هـ). - المقامي محمد بوعشرين. - المقامي محمد المعمرى الزواوي.

¹⁷ – نص المقامة بقلائد العقيان للفتح بن خاقان. ص140-141 ، ومثبت كذلك في " تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان" لابن زاكور الفاسي (ت 1120هـ) والذي حاول من خلاله شرح الإشارات البلاغية الخفية، والقضايا الأدبية الغامضة، والتلميحات التاريخية المقتضية الواردة في كتاب قلائد العقيان للأديب الأندلسي الفتح بن خاقان. فالمؤلف يعد قراءة نقدية وبلاغية في المغرب الأقصى خلال العصر العلوي الأول.

¹⁸ – العصر المرابطي (1055-1145م): القرن 5-6هـ/11-12م. وهو العصر الذي سبضم فيه المغرب الأندلس إليه على يد يوسف بن تاشفين ليوحد العدوتين سياسيا، ليديم حكم المرابطين بالأندلس ستين سنة، خلفهم الموحدون سنة1160م لما عبر عبد المؤمن بن علي إلى الأندلس وضمها إلى ملكه. (ينظر في ذلك: الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق. ص107).

وللتوسع في خصائص العصر ينظر كذلك:

- حسن علي حسن. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. ومما نقرأ فيه: " تبين لنا اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية باعتبارها الخلافة الشرعية، والتي استمدوا منها التأييد الروحي، وعلى العكس من ذلك كان موقف الموحدين الذين اعتبروا أنفسهم خلفاء، وهم أول من أنشأوا خلافة إسلامية بالمغرب...ولي الأمر بالمرابطين كان أمير المسلمين، أما عند الموحدين كان الخليفة". ص512.

بسط فيه - في فصل قضية رعاية المرابطين للأدب ومستوى الإبداع على عهدهم - مظاهر تشجيع المرابطين للأدب بالأندلس شعرا ونثرا، لينتهي لمظاهر ذلك بالمغرب "ومن فنون النثر المرابطي كذلك (تحدث قبله عن الرسالة) الخطابة والمقامة. أما الخطابة فتقتصر على بعض خطب القاضي عياض ... وهي... وعظية كتبت لتلقى في الجمع والأعياد... وأما المقامة فنمثل لها بالمقامة اليتيمة التي مدح بها أبو عامر بن أرقم تميم بن يوسف، وقد سلك فيها مسلك كتاب هذا الفن من حيث ذكر الراوي والبطل والتزام السجع والطباق وأضرب البلاغة. وبما أنها في المدح فإنها لم يحتج فيها للكدية والاحتيال، وقد نيلها بأبيات شعرية في مدح تميم" ¹⁹، وقد ترجم الفتح بن خاقان لأبي عامر بن أرقم بالقلائد. ²⁰

- المقامة الفاسية للوهراني (ت 575 هـ) وتمثل العصر الموحدى ²¹. وأبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني جزائري الأصل من مواليد وهران أوائل القرن السادس الهجري، لكن بحكم

- عباس الجراري. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها. ج1. فصل: التيار الفقهي ومدى تأثيره على الفكر و الأدب. ص83-104.

- محمد بن تاويت (أدب الدولة المرابطية والدولة الموحدية). (مجلة البحث العلمي). العدد2. ص134-149. نقرأ في المقال أن "الأدب الذي اتصل بهم (يقصد المرابطين) واردا عليهم أو صادرا عنهم، أدب لا معالم له ماثلة تماما، وهو أدب ترك لنفسه، فكان أدبا أندلسيا" ص134.

- عباس الجراري. صُباية أندلسية - دراسات مهداة إلى يوسف بن تاشفين-. فصل: تطور الأدب الأندلسي في عهد المرابطين. ص49-65.

- محمد بن تاويت. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ج1. الباب الثاني: العهد المرابطي. ص29-89.
- مصطفى الزباخ. بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس. الباب الأول: منعطفات التطور لقيام المرابطين بالمغرب والأندلس. ص19-58. يعالجه في فصلين: أصول المرابطين - أسس الدولة: تعليمي/اجتماعي/جهادي- الدور الحضاري بالأندلس- يذكر من المقاميين أبا عامر بن أرقم.

¹⁹-حسن جلاب. الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية-. ص136-137.

²⁰- القلائد. ص138.

²¹- العصر الموحدى: (1147-1250م): القرن 6-7هـ/12-13م.

للتوسع في الحياة الفكرية والأدبية للعصر ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر:

-حسن علي حسن. الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين والموحدين. مرجع سابق.

ذيوخ صيته بالمشرق دأب بعض الباحثين على اعتباره مشرقيا ولو أن أبا عبد الله الوهرائي " قد أقام بفاس مدة واتخذها - كما يقول - وطننا له ، والدولة الموحدية في أوج عزها وعظمتها، ومدينة فاس تعج بالعلماء و الأدباء ورجال الفكر وهي كعبة الوافدين من سائر الأقطار، اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، وصارت تدعى بغداد المغرب "22. وفي فاس أنشأ الوهرائي المقامة الفاسية كما يدلنا عليها اسمها.

- مقامة طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، لعبد العزيز الملزوزي (ت667 هـ). تمثل العصر المريني²³.

- محمد بن تاويت. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ج1. الباب الثالث: العهد الموحي. ص91 وما بعدها. ومما نقرأ فيه: "نحدد به خطوط الأدب المغربي فنجد فيه أدبا يشمل الشعر والنثر، كما يضم إليه حركة التأليف التي ظهرت فيه بمظهر قوي وبنشاط يصوره المغرب نفسه، بعدما كان عالة على غيره أو منتجا في غير أرضه أو متجليا في إنتاج غير المغاربة في قطره. وقد لاحظنا أن هذا الأدب بدأ يتخذ لنفسه كيانا يتميز به - بعض الشيء- عما كان عليه من تقليد محض للأندلسيين، وأنه صار يشق لنفسه طريقا وسطا على أحد جانبيه الأندلس وعلى الآخر المشرق الذي كان قد حمل منه - بعد الأندلس- كثيرا من ثقافته مباشرة وذلك بواسطة جماعة من الأدباء كان منهم محمد بن تومرت، إذا أننا في هذه المرحلة بالذات وجدنا الاتجاه إلى الشرق يقوى في رجال المغرب" ص356.

- محمد بن تاويت. أدب الدولة المرابطية والدولة الموحدية. مرجع سابق، جاء فيه: "بعد هذا نتعرض لنثر الموحدين فنجد في رسائلهم... وأما نثرهم في خطبهم فهو لا يختلف كثيرا عن رسائلهم" ص 147-148. ولم يذكر المؤلف شيئا عن المقامات عند الموحدين.

- عبد الله كنون. (عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت). (مجلة البحث العلمي). العدد9. ص175-185. كشف فيه عن الجانب العلمي من صاحب دعوة الموحدين من خلال فكره ومؤلفاته.

22- عبد الواحد المراكشي. المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ص 58 .

23- العصر المريني: (1244-1456م). القرن7-9هـ/13-15م.

"كانت الشخصية المغربية أكثر وضوحا في الأدب الموحي، ذلك أن تأثره بالأدبين الأندلسي والمشرقي لم يفقده شخصيته التي ميزته بالبساطة وشيوع الأدب الديني فيه... وكان الطابع الديني هو الحائل دون قبول الغزل المكشوف والشاذ والأدب الإباحي الذي كان الإقبال عليه كبيرا في المشرق والأندلس آنذاك... ومع كل هذا فإن الشخصية المغربية لن تبرز بكامل الوضوح في أدبنا المغربي إلا في الأدب الذي سيظهر ابتداء من العصر المريني خاصة. (ينظر: حسن جلاب. الدولة المرابطية. قضايا وظواهر أدبية. مرجع سابق. ص279). وينظر كذلك في خصائص هذا العصر:

- أحمد بن المقري التلمساني. نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب. المجلد 4. ففيه حديث عن الدولة المرينية وإغاثتها لأهل الأندلس. ص385-403.

- محمد بن تاويت. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. الجزء2. الباب الرابع: العهد المريني ص365-623. مما نقرأ فيه: "وقبل أن نودع هذا العصر (المريني) لابد وأن نجل خصائصه فيما يلي: أنه أدب علماء قبل أن يكون أدب أدباء...

- المقامة النجدية، لمالك بن المرحل (699هـ)، وتمثل بدورها العصر المريني.

فقلما يخلص أديب فيه لأدب دون أن يطعمه باصطلاحات فيها علوم الاشتقاق والنحو وفيها الصرف والعروض، وفيها الحديث والفقہ وفيها الميقات والمنطق وفيها البلاغة وضروب الفلسفة" ص621. ومنه نقرأ: "غير هذا فقد وجدنا الغزل الشاذ... كما وجدنا الخمریات... زيادة على هذا شاعت الموشحات... كما ظهرت المقامات لأول مرة وهلة في أدبنا" ص622.

- محمد بن شقرون، (النهضة الأدبية والفنية على عهد بني مرين). (مجلة البحث العلمي). العدد13. 1968. (ص33-37).
- الحسن الشاهدي. أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني. ج1. يتضمن مدخلا مهما عن الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية والحضارية للمرينيين. ص17-43.

- محمد بن أحمد بن شقرون. مظاهر الثقافة المغربية - دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني - . نقرأ منه: "هذا العصر امتاز على الخصوص بنهضة أدبية كبرى لم يسبق للمغرب أن عرفها من قبل، أي في أي عصر من عصوره الزاهرة". ص131.

- عبد الله كنون. النبوغ المغربي في الأدب العربي. فصل: عصر المرينيين. ص185-237. عالج فيه العصر المريني سياسيا وعلميا وأدبيا، وترجم لمالك بن المرحل وللملزوذي.

- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك. لأبي فارس عبد العزيز الملزوذي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط. 1963. وهي أرجوزة للشاعر المريني الملزوذي. ويهمنها فيه ترجمته للملزوذي وتعريفنا ببعض آثاره الأدبية.

- علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. دار المنصور للطباعة. الرباط. 1972. نشر أول مرة سنة 1920، و يضم ترجمة لعبد العزيز الملزوذي، وأخبارا عن الفتنة البربرية، والأخبار عن دخول المرينيين المغرب وظهور ملكهم (ص24)، وعن دخولهم الأندلس للجهاد (ص98)، وعدة مقتطفات أدبية للملزوذي، وأخرى للأديب الفقيه مالك بن المرحل.

- علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. المطبعة الملكية. الرباط. ط2: 1999.

وأسرة ابن أبي زرع عرفت بفاس أواخر العصر الموحي وأوائل العصر المريني. وأما شهرة الكتاب فهي (القرطاس) خصوصا بعدما ألف محمد بن الطيب العلمي كتابا سماه أيضا (الأنيس المطرب).

وموضوع القرطاس هو تاريخ المغرب عموما، وتاريخ مدينة فاس خصوصا كما يدل عليه اسمه، بداية من الدولة الإدريسية إلى سنة 726 من سنوات عهد السلطان المريني عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المشهور بكنية أبي سعيد.

- أحمد بن القاضي المكناسي (ت 1025هـ). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. 2 أقسام. دار المنصور للطباعة. الرباط. 1973. ألفه للمنصور الذهبي السعدي، يضم تعريفا بفاس على غرار القرطاس (ص10)، وترجمة وافية لمالك بن المرحل المصمودي السبتي (ص327)، وفي قسمه الثاني ترجمة لعبد المهيمن الحضرمي (ص385).

- مقامة الافتخار بين العشر الجوار، لعبد المهيمن الحضرمي (ت 749هـ)، وتمثل أيضا العصر المريني.
- مقامة الحكّة والإشارة إلى ما تحت التّكة، لمحمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت 990هـ)، وتمثل المقامة العصر السعودي.²⁴
- المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية، لمحمد المكلاطي (ت 1049هـ)، وتمثل بدورها العصر السعودي.
- مقامة سعدية لأبي عبد الله الفشتالي، لم يذكرها السولامي وذكرها عبد الله كنون في (رسائل سعدية) وسماها مقامة.
- المقامة الأزاريفية، لأبي محمد الأزاريفي الحامدي، شاهدة على العصر السعودي، لم يشر إليها السولامي لا من قريب ولا من بعيد في دراسته. وقد حصلت على نص المقامة خلال تقيميشي لمجلدات المعسول لمحمد المختار السوسي خلال بحثي عن الشذرات المقامية .

²⁴ - العصر السعودي: (1659-1554): ق 10-11 هـ/ 16-17 م.

- ومن المصادر و المراجع المساعدة على تعرف خصائص هذا العصر يمكن الاستئناس ب :
- ابراهيم حركات. (أوضاع المغرب ومشاكله قبيل قيام الدولة السعودية). (مجلة البحث العلمي). العدد 24. ص 82-91.
- محمد بن تاويط. الوافي. مرجع سابق. الباب السادس: العصر السعودي. ص 653-807. ومما جاء فيه أن لابن عيسى التملي مقامة " في نقد معاصريه من الأدباء والعلماء عامة " ص 206، والحال أنني لم أتوصل إليها رغم كثرة السفر في الأسفار المغربية.
- محمد حجي. (المراكز الثقافية المغربية أيام السعديين). (مجلة البحث العلمي). العدد 6. 1965. ص 35-67.
- محمد حجي. (المراكز الثقافية المغربية في العصر السعودي الثاني). (مجلة البحث العلمي). العدد 7. 1966. ص 12-44.
- عبد الله كنون. النبوغ. ج 1. مرجع سابق. فصل: عصر السعديين. ص 243-275 .
- محمد الصغير بن محمد بن عبد الله الإفرائي المراكشي. صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. نسخة حجرية. (م.خ) بالرباط. تهمنا به ترجمة الحضرمي من العصر المريني والمكلاطي من السعودي.
- محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. (م.خ) بالرباط. يترجم لمالك بن المرهل والمكلاطي.
- محمد بن الطيب القادري. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. مطبوعات دار المغرب. سلسلة التراجم رقم 3. الرباط. 1978. يضم ترجمة وافية للمؤلف، وترجمة مقتضبة للمكلاطي.

- المقامة الكنسوسية²⁵، لأبي عبد الله محمد بن مسعود الجعفري الكنسوسي (ت1294هـ) (ق13هـ / 19م). تمثل العصر العلوي، وكذا استدراكا على السولامي في عدد مقامات العصر العلوي (أكثر من 26 مقامة مما حصر).

- مقامة في مدح أبي العباس أحمد بن عبد الله معن صاحب زاوية المخفية بفاس ، لأبي عبد الله محمد الطيب بن مسعود المريني المتوفى سنة 1145هـ الموافق لسنة 1732م²⁶.نسبها له صاحب " نشر المثاني " بالجزء الثاني ، صحيفة 294 ، من نسخة خطية لعبد السلام بن عبد القادر بن سودة.

²⁵ - وهذه المقامة العلوية تشكل استدراكا من جملة الاستدراكات المسجلة على دراسة محمد السولامي للمقامة المغربية في العصر العلوي، إذ بلغ جماع ما استدرسته عليه ثلاث مقامات، ومقاميين اثنين لا أدري شيئا عن عدد ما خلفاه من مقامات. وهذه الاستدراكات ألهمتني فكرة الكتابة المستقبلية في تاريخ أدب المقامة المغربية من العصر المرابطي وحتى العصر العلوي، وذلك في اتجاه التعريف بها وإحلالها المكانة اللائقة بها في الدرس الأدبي المغربي.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يونس بن مسعود الجعفري الكنسوسي، نسبة إلى (إدا أكنسوس) من سوس الأقصى، ولد بقبيلة تنمرت سنة 1211هـ، تأثر بأحواله الناصريين الذين كانت لهم زاوية تعد من أهم مراكز الإشعاع الفكري، وعاش بفاس سبع سنوات يحصل العلم مما أهله لرتبة الكتابة فالوزارة أيام السلطان المولى سليمان، وأبعد عنها أيام المولى عبد الرحمان بسبب الوشاة، فرحل لمراكش سنة 1248 هـ حيث عاش بقية حياته عابدا زاهداً قطباً لمريدي الطريقة التجانية في الجنوب ومدافعاً عنها بقلمه وبيانه. توفي عام 1294هـ.

من آثاره الأدبية: المقامة الكنسوسية - ديوان شعره - رسائل - تحقيق القاموس المحيط - تأليف في علم الكيمياء... والمقامة الكنسوسية مقامة طويلة النفس تتخللها أشعار بلغ عددها 84 بيتاً، تُظهر تمكن الكنسوسي من اللغة وسعة ثقافته. أولها: "حدثنا بشر بن فرج، عن نسيم بن أرج، قال كنت يوم أظنني الشباب بظلاله الوارفة، وألحقتني مطارفه، وأقطعني من اللهو فنونه...". ، وأخرها جاء متصلاً بقصيدة شعر، ونصه: "...فهي للقصائد نعم التميمة، جعلتها تمام النسك فجاءت وختامها مسك. انتهت، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً". وقد سبق لأحمد متفكر أن نشرها مصححة محققة - على ضوء مخطوطتين لها - مع بعض الشرح لغريب ألفاظها، دون أن يبذل أدنى جهد في ربطها بسياقاتها التاريخية والأدبية والفكرية ليقربها للقارئ العادي. وهو ما يفسح المجال واسعا- كما أسلفت - لدراسة المقامة ضمن مشروع شخصي: التأريخ لأدب المقامة المغربية من المرابطين إلى العلويين.

ينظر في نص المقامة : أحمد متفكر. (المقامة الكنسوسية). (البحث العلمي). إصدارات المعهد الجامعي للبحث العلمي. جامعة محمد الخامس. الرباط. العدد39. السنة:24. (ص172-200).

²⁶ - ينظر: عبد السلام بن عبد القادر بن سودة. دليل مؤرخ المغرب الأقصى. ص226 .

وهذه المقامة بدورها تشكل استدرাকা على السولامي في دراسته، تمثل للعصر العلوي، ولذلك فهي غير داخلة في مجال بحثنا، وإنما الحرص على الاستدراك حرص على تجويد البحث وعلى تدقيقه وتبيان المواطن التي لازالت بحاجة لمزيد من الدرس لضمان تعريف شامل بأدب المقامة بالمغرب منذ نشأته الفعلية بالقرن 6هـ/10م وحتى استمراره إلى القرن 14هـ/20م ، حيث تفنن المغاربة في جعل المقامات جامعة لكل فنون الأدب حافلة بألوان الصنعة . "ويمثل الاتجاه المقامي في العقود الأولى من القرن العشرين عدة كتاب منهم محمد بو عشرين، ومحمد المعمري الزواوي، و (بو) ، ومحمد غريط : الأول بمقامته " نفحات العاصمة "، والثاني بمقامته "زهر الآس في وصف سيد الأعراس" ، والثالث ب "ذكرى ختم البخاري، والرابع بمقامته في وصف مكناس" ²⁷ . وقد آثرت إنهاء هذا المطلب بذكر أربعة أعلام آخرين من العصر العلوي لم يذكر منهم السولامي سوى محمد بو جندار(المعروف اختصارا ب: بو) (مقامة ذكرى ختم البخاري من 11 صفحة ،مقامة فضل العصا على السيف من 18صفحة) ، ومحمد غريط (ذَكَرَ لَهُ 3 مقامات غير مسماة، الأولى من 6 صفحات، والثانية من 7، والثالثة من 9 صفحات). وهذا ما يعني أن البحث في أدب المقامة حتى بالعصر العلوي لازال ناقصا مبتورا غير تام، وهو ما يجعل منه مشروعا مستقبليا شخصيا يغري بالبحث والدراسة، وذلك في أفق تكوين صورة شاملة عن المقامة المغربية على مر العصور.

27 - أحمد اليابوري. (تطور الفن القصصي بالمغرب: النقد القصصي). (مجلة الباحث). إصدارات وزارة الثقافة والتعليم العالي والثانوي والأصيل وتكوين الأطر. الرباط. المجلد 1. السنة 1: 1972. (ص273-293). ص284.

● المطلب الثالث: مغربية المقامة

كتب المقاميون المغاربة في فن المقامة دون أن يتمثلوه نظريا، أي دون الاستناد لجهاز نظري مفاهيمي يؤثث لفهم أدب المقامة (أركانها - غاية وهدفا - بناء ومعالجة فنية) ، بل استندوا على التقليد والمحاكاة للمقامات الأم وللمقامات النموذج وعلى الإبداع والتجديد، ولم يظهر ما يؤسس لفهم حقيقي لأدب المقامة إلا مع مطلع القرن العشرين على يد كتاب من أمثال محمد بوجندار والذي خص أعداد جريدة السعادة بسلسلة من المقالات ضمنها كتابه (أبداع المقالات في فن المقامات) رام بها التعريف بالمقامة وبأركانها وبالشروط المفترض توفرها في المقامي، وبالغاية منها²⁸ ، وكعبد القادر زمامة الذي حسم في أصل المقامات بفكرة بديعة مفادها أن

²⁸ - مما نطالعه في جريدة السعادة كفرش نظري للمقامة المغربية (وهو بقلم محمد بوجندار كما سبقت الإشارة لذلك):

أ- العدد 2063. السنة 16. رجب 1338 / أبريل 1920م:

" وبما أن هذا الفن هو بيت القصيد من طروقي لهذا الموضوع التاريخي الأدبي من حيث هو، فليس هناك ملام إذا أجريت جياذ الأرقام في ميدان الكلام، وتنزلت لتشخيص الفن في سلسلة مقالات ننشرها تباعا مقتطفة من كتابي الموسوم (أبداع المقالات في فن المقامات) وإليك اليوم النشرة الأولى: تعريف المقامات.

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف أنيقة التصنيف تشتمل على ملح أدبية ومنتخبات عربية، وقيل إنها عبارة عن حكايات تقديرية تخيلية موضوعة على لسان رجل خيالي تنتهي بعبارة أو عظة أو نحوها، ومنه قولهم فلان مقاماتي أي أنه ذو قوة على إنشاء الألفاظ المستحسنة وإبداع الأساليب التركيبية الفائقة المطابقة للمعاني التقديرية المتخيلة في ذهنه لا المعاني الواقعية، لأن المقامات في الغالب حكايات تقديرية كما علمت ". ص3.

ب - العدد 2084. السنة 16. رمضان 1338 / ماي 1920م:

" فن المقامات كغيره من العلوم اللسانية إنما يستمد من كلام العرب وأدبيات لغتهم، وهو معنى قولهم إنما الكلام من الكلام، ولا يفهم منه أن المحفوظات المحضة تكفي وحدها في هذا الباب بل لابد لمعاني هذه الصناعة من مزيد من الإلمام بعدة فنون وعلوم. أولا علم اللغة... ثانيا علم النحو... ثالثا علوم البلاغة (المعاني - البيان - البديع)... رابعا التاريخ وأمثال العرب وأيامهم ووقائعهم... خامسا سائر فنون الإنشاء... كل تلك العلوم مما لابد منه لصاحب هذه الصناعة فهو محتاج إليها خصوصا ولباقى العلوم عموما. وقصارى القول أن الأمر هنا على ما قاله عبيد الله بن قتيبة من أراد أن يكون عالما فليطلب علما واحدا، ومن أراد أن يكون أدبيا فليتنسج في العلوم ". ص 2-3.

ابن دريد يشكل الإطار العام للمقامة في حين يشكل الهمداني الإطار الخاص للمقامة²⁹، وكعلال معكول - في نثره الأدبي - الذي وافق السولامي في فكرتين: " تجاوز المغاربة لتقليد المشاركة إلى التأصيل، وغموض مصطلح المقامة لدى المغاربة لسببين: أولهما: غياب نقد مواز، وثانيهما: غياب تصور متكامل عند منشئها " ³⁰، وكأمنة الدهري في (الترسل الأدبي بالمغرب، النص والخطاب) والتي تنبعت إلى أن المغاربة كتبوا رسالة مقامية أكثر مما كتبوا مقامة.

من هنا، ومن هذه الحقائق مجتمعة يتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن للمقامة المغربية من الخصوصية والاستقلالية ما يجعلها متميزة عن المقامة المشرقية العربية وكذا المقامة الأندلسية، وهو ما يعطيها طابعها المحلي الإقليمي أي مغربيتها التي تجعلنا نميزها عن باقي المقامات العربية. فالتأصيل لها هنا نابع من التصاق المقامة المغربية ببيئتها وتعبيرها عن واقعها ودلالاتها عليه، ومن تداخلها مع الرسالة، ومن خلوها التام من الكدية، ومن استحداثها لموضوعات مقامية جديدة غير مسبوقة لا مشرقياً ولا أندلسياً، وهو ما سنعرض له في الفصل الثاني من هذا الباب بكثير من التفصيل والتحليل.

ج - العدد 2091. السنة 16. رمضان 1338 / يونيو 1920:

وهو في كتابة أو رواية المقامة: " فعلى صاحب هذا الفن أن يعتبر في مقاماته ما سيذكر: أولاً بطل المقامة أي راويها، وينبغي أن يستعار له اسم خاص غير اسمه الحقيقي، ثم يمثل كرجل ظريف النفس كثير الأسفار والتجول، حسن السيرة والسلوك، مغرم بالرواية، كلف بحب الأدب، جاد في طلبه، مُجد في تحصيل أربه. ثانياً صاحب النشأة أي المروي عنه.. ثالثاً أن تتألف المقامة من ثلاثة أجزاء وهي الصدر... والعقدة... والختام... رابعاً سلوك طريق الإيضاح... خامساً سلوك طريق الإيجاز... " ص2-3.

29- عبد القادر زمامة. (مدخل بحث عن أدب المقامات). (مجلة البيئة). إصدارات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية. الرباط. (ص69-73). ص71.

30 - وهي الملاحظة التي سبق وأن تنبعت إليها أمنة الدهري: "الإعجاب بالمقامة (ولا سيما الحريرية) نزع بالمترسلين إلى إنتاج ما اعتقدوه مقامة، وهو في واقع الأمر رسالة براو مذكور بدلا من المرسل في الكتابة الترسلية. لقد أرجع غموض مصطلح مقامة عند بعض الكتاب المغاربة إلى غياب تصور متكامل له عند المنشئين في ذلك النوع الأدبي، وإلى عدم وجود حركة نقدية مواكبة، ولعل جملة من المقامات المغربية أقرب إلى البناء الرسالي منه إلى المقامي أو لعلها لم تتخلص من الظلال الترسلية التي غمرت النثر المغربي، أو لعل أصحابها اتبعوا مرونة في تعاملهم مع الأنواع الأدبية". (الترسل الأدبي بالمغرب: النص والخطاب. ص367).

- المبحث الثاني: دواعي انتشار أدب المقامة في الأدب المغربي

● المطلب الأول: دواعي لغوية

عرف محمد بوجندار المقامة بكونها "كتابة حسنة التأليف أنيقة التصنيف"³¹، وعرف المقامي على أنه "ذو قوة على إنشاء الألفاظ المستحسنة وإبداع الأساليب التركيبية الفائقة المطابقة للمعاني التقديرية المتخيلة في ذهنه"³²، ذلك أن المعاني ليست واقعية مادامت المقامات في الغالب - في تصور بوجندار- حكايات تقديرية مخترعة وضعت لتسلياة النفوس وقت الفراغ كفن الروايات، والمراد من ذلك عند أهل اللسان غايته اللغوية، "فالغاية المقصودة من هذا الفن هي جمع درر الألفاظ وغرر البيان وشوارد اللغة ونوادر الكلام من منثور ومنظوم...، زيادة عن ذكر الفوائد العربية والفرائد الأدبية كالرسائل المبتكرة والخطب المحبرة والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية إلى ما في ذلك من العبارات المهذبة والإشعارات المستعذبة والقوافي الموشحة والفقر المستملحة، وليس الغرض من تأليف المقامات في الأكثر العبرة أو الموعظة لأنها غالبا تكون مبنية على المجون والهزل وانتحال أسباب الكسب بالحيل ونحوها"³³. والواقع أن تحديد بوجندار للأغراض اللغوية من وراء إنشاء فن المقامة لا يخرج في إطاره العام عن أهداف المقاميين من إنشاء مقاماتهم من حيث دلالتها على قدراتهم الفنية وإبراز ما لديهم من ثروة لغوية وسعة ثقافة، بيد أن ربطه بين المقامة والكدية والمجون يجعلنا ننتبه إلى أنه لم ينطلق من تعريفه للمقامة المغربية منها، وإنما انطلق في ذلك من تصوره للمقامة المشرقية التي تأسست على الكدية بوصفها ظاهرة واسعة الانتشار خلال القرن 4/10م خلال العصر العباسي، فجاءت المقامات البديعية انعكاسا للحالة الاجتماعية للمجتمع العباسي بكل تناقضاته،

³¹- محمد بوجندار. "أبداع المقالات في فن المقامات". النشرة 1. جريدة السعادة . العدد: 2063 . السنة: 1920. ص2.

³²- نفسه. ص.2.

³³- نفسه. ص.2.

وبالتالي لا تكون اللغة هاهنا الهدف الرئيس من إنشاء المقامة المشرقية، بقدر ما كان الهدف اجتماعيا لصيقا بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والسيكوسوسيولوجي لمجتمع الهمداني. ومن هنا القيمة الاجتماعية والتاريخية للمقامات، ومنه خروج بوجندار عن التحديد الدقيق لطبيعة الأهداف من وراء تأليف المقامات المغربية، وحضور النموذج المشرقي في تعريفه للمقامة. فالباحث مغربي لكنه لم يعرف فن المقامة من خلال واقعها وتاريخها وخصوصياتها المغربية وإنما من خلال المقامة المشرقية. ومهما يكن من شأن مشرقية تحديده من مغربيته، فقد جعل لفن المقامة هدفا لغويا صريحا يتمظهر في أغراض تعليمية وأخلاقية تتوسل بالرسائل والخطب والمواعظ والطرائف. ومن هنا تفاعل أدب المقامة مع عدة أجناس أدبية (الشعر - الرسالة - الخطابة - الرحلة...)، وسنتبين في حينه كيف لبست المقامة المغربية لباس الرسالة أو ما اصطلحت عليه أمانة الدهري "الرسالة المقامية"، وكيف أن المقامة المغربية ظلت مخصصة وفيه لكسر الحواجز بين المنظوم والمنثور، جاعلة إدراج الشعر بالمقامة من أركانها وثوابتها مشتركة في ذلك مع الرسالة. وقد سبق وأن أشرنا إلى أن جل المقاميين (مشاركة - أندلسيين - مغاربة) كانوا أدباء، أي شعراء وناثرين في نفس الآن، ولعل هذا يفسر بدوره حضور الشعر في فن المقامة. وإذا كان الهدف الرئيس من التأليف في فن المقامة لغويا أساسا، فإنه يتوجب على من يود إنشاء مقامات أن يكون ملما بعدة علوم "أولا علم اللغة، فلا بد لصاحب هذا الفن من التزود بقدر كبير من المواد اللغوية... لينفسح له مجال التعبير وينفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه من مقاماته كالمتنزهات... والمحاورات والمناظرات إلى غير هذا مما هو من مقاصد فن المقامات، ثانيا علم النحو ليصلح لسان قلمه من اللحن... ثالثا علوم البلاغة... حتى إذا قال قال عن علم وإذا انتقد انتقد بحجة... رابعا التاريخ وأمثال العرب وأيامهم... خامسا سائر فنون الإنشاء"³⁴. فقد ربط بوجندار المقامة بمجالس الوجهاء ومنتديات النبهاء، وجعلها سميروالنبغاء وأنيس الألباء، وجعل لإنشائها شرط التوسع في علوم اللغة العربية. ومن تمّ فالمقامة

³⁴ - جريدة السعادة. العدد: 2084. السنة: 1920. ص 3-4.

لغوية المنشأ والمرمى، " ففن المقامات كله كنايات وإشارات وتشبيهات واستعارات، فصاحبه لا جرم يكون أعرف الناس بأسرار البيان وأوعاهم لأساليب البلاغة التي بها تعرف دقائق العربية وأسرارها وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أstrarها"³⁵.

فإظهار القدرات اللغوية هدف سعى الأدباء على مختلف مشاربهم لتحقيقه في مقاماتهم، وهو هدف يضم هدفا تعليميا قصده المقاميون من كتابة مقاماتهم، وهما هدفان لا يقلان من شأن أهداف أخرى محورية تجعل المقامة في خدمتها: الإمتاع والتسلية - النقد والإصلاح - الموعدة والحكمة - أغراض سوسولوجية.

فالأهداف اللغوية / التعليمية كانت حاضرة في ذهن مختلف المقاميين مشاركة وأندلسيين ومغاربة، فقد ذكر الحريري أنه أنشأ " خمسين مقامة ، تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان، ومحاسن الكنايات"³⁶، وأنه لا حرج على "من أنشأ مُلحاً للتنبية لا للتمويه، ونحا بها منحى التهذيب لا الأكاذيب. وهل هو في ذلك إلا بمنزلة من انتدب لتعليم، أو هدى إلى صراط مستقيم"³⁷. وذكر أن البديع "سَبَّاقُ غَايَاتٍ وَصَاحِبُ آيَاتٍ، وَأَنْ الْمُتَصَدِّي بَعْدَهُ لِإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ ، وَلَوْ أُوتِيَ بِلَاغَةٍ قُدَامَةً، لَا يَغْتَرِفُ إِلَّا مِنْ فُضَالَتِهِ"³⁸. فقد التقى البديع مع الحريري في الهدف اللغوي التعليمي لأدب المقامة، والتقى معهما السرقسطي في مقاماته اللزومية بالأندلس : "خمسون مقامة أنشأها.. بقرطبة من مدن الأندلس عند وقوفه على ما أنشأه الرئيس أبو محمد الحريري بالبصرة، أتعبَ فيها خَاطِرَهُ وَأَسْهَرَ نَاطِرَهُ، وَلَزِمَ فِي نَثْرِهَا وَنَظْمِهَا مَا لَا يَلْزَمُ"³⁹ ، إذ التكلّف ولزوم ما لا يلزم منظوماً ومنثوراً هو من الصنعة اللفظية التي قصدها السرقسطي وأخلص فيها لحد الإبداع والإغراب في تأثر تام بالمعري في لزومياته.

³⁵- جريدة السعادة. العدد: 2063. ص.2

³⁶- الشريشي. شرح مقامات الحريري. ص.21

³⁷- المصدر نفسه. ص.46

³⁸- نفسه. ص.32

³⁹- السرقسطي. المقامات اللزومية . تحقيق حسن الوراكلي. ص.17.

ثم إننا سنلاحظ أن المقامات المغربية وبتأثير من المقامتين المشرقية والأندلسية - بسبب عامل السبق الزمني- ستحافظ على نفس الهدف الرئيس وتجعل منه مدارها⁴⁰ ، بل إن المنافسة بين أدباء العدوتين ستدفع المغاربة إلى معارضة المقامات الأندلسية وإبداع مقامات غير مسبوقة الموضوع في الأدب العربي (المفاخرة بين الجواري). والمقامات المغربية - التي وصلتنا - تجلي لنا حضور البعد/ الهدف اللغوي أكثر من الجوانب الفنية الأخرى التي تعطي للمقامة شكلها المتميز.

ومن هنا، فالمقامات المغربية صورة مصغرة لتطور النثر المغربي، ولتمكن المقاميين المغاربة من زمام اللغة العربية خاصة وأنهم نظروا لها - على مر العصور السياسية بالمغرب - على أنها مفتاح العلوم الشرعية التي نبغ فيها المغاربة، فكان التمكن من اللغة العربية تمكنا من الكتاب والسنة " تكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها " ⁴¹.

40 - يذكر محمد بوجندار أن المراد من المقامات " الفائدة اللغوية الأدبية لا العبرة كما علمت... ناهيك عن فائدتها بما يحتسيه الأديب عبر قراءته من سلاف المعارف والعلوم وما يتحلى به من در الأدب المنثور والمنظوم، ولا مرأ أنه بمثابرتة على درسه وتعاطيه، ومزاولته لأساليبه ومناحيه يتحمل من شوارد اللغة التي تنطبع في مرآة ذهنه، ويحفظ من أمثال العرب التي ترتسم في لوحة فكره ". جريدة السعادة. العدد:2063. ص2.

41 - نفسه. ص2.

● المطلب الثاني: دواعي المحاكاة

سمحت الرحلات والحركة الثقافية بين المشرق والأندلس والمغرب بوصول مقامات الحريري إلى المغرب في بداية القرن 6 هـ ، مما حرك في المغاربة الفضول المعرفي والرغبة في التقليد والمحاكاة والمعارضة، فتناولوها بالشرح والدرس . فمما ذكره القاضي عياض⁴² (ت544هـ): "لما وصل إلى بلدي كتاب المقامات الحريريّة، وكنت لم أرها من قبل، لم أنم ليلة طالعتها حتى أكملت جميعها بالمطالعة"⁴³، وذلك دليل إعجابه وانبهاره بها، ما جعلها تدرس بعدد من المساجد فقد " اشتهر بتدريسها بجامع القرويين بفاس محمد بن محمد بن داود الصنهاجي (ت723هـ)، وولده منديل بن أجروم (ت772هـ)، كما اشتهر بإقرائها في مسجد الأبارين أبو الحسن بن موسى المطغري (ت951هـ)"⁴⁴، وأما من جاوز اهتمامه مجال الإقراء إلى الشرح فقد "برز من بين شراحها علماء من المغرب الأقصى منهم يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت628هـ)، وأبو عمران موسى بن أبي علي الزناتي الزموري (ت708هـ)، ومحمد بن منصور بن حمّامة المغراوي"⁴⁵. فهذا الإعجاب بالمقامات الحريريّة دفع المغاربة إلى الكتابة في هذا الفن فترة ظهورها بالمغرب أو قبلها بقرن من الزمان أي القرن الخامس الهجري -عصر المرابطين- حيث أول مقامة في تاريخ المقامات المغربية المنتهي إلى عصر العلويين. وهو ما يعني أن المقامة المرابطية الوحيدة - بين أيدينا - كتبت بتأثير من

⁴²- "ولد القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأصل السبتي النشأة عام 476هـ وتوفي عام 544هـ . نشأ في بيت علم وصيانة ونبل وثقافة، فنلقى تعليمه ببلده سبتة... ولما كان سنه اثني وثلاثين سنة توجه إلى الأندلس فأخذ بقرطبة ومرسية وغيرها، ثم عاد إلى سبتة وولي قضاءها... طبق المغرب والمشرق واشتهر بأخباره وعلمه وأدبه وتأليفه فيهما حتى قيل: "لولا عياض لما عرف المغرب". يعد أعجوبة عصره، وموسوعة شاملة، فهو ناظم نائر، منشئ ومؤلف ناقد، وهو حافظ واعية، فقيه مجتهد كما يصفه بذلك ابن الخطيب في إحاطته". ينظر في أدبه المسجد لعصر المرابطين: محمد بن تاويت. الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. ج1. ص51-89. وفي ترجمته الوافية: الصلة 453/2، والقلائد255، والتعريف بالقاضي عياض لولده، وأزهار الرياض في أخبار عياض للمقري ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

⁴³- محمد بن عياض اليحصبي. التعريف بالقاضي عياض. ص109.

⁴⁴- محمد حجي. فهرس أحمد المنجور. ص40.

⁴⁵- محمد السولامي. فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي - دراسة ونصوص - مرجع سابق. ص51.

المقامات البديعية، وأما ما تلاها فأنشئ بتأثير من المقامات الحريرية⁴⁶ على وجه التخصيص، وبتأثير من المقامات المشرقية والأندلسية على وجه التعميم.

فإذا كان الإعجاب بالمقامات المشرقية داعيا من دواعي محاكاة المغاربة لها، فإن الرغبة في المعارضة تجد في إثبات الذات الأدبية المغربية أهم دواعيها. فمما لاشك فيه أن الأدب المغربي برز متأخرا زمنيا قياسا إلى ظهور الأدب الأندلسي والأدب العربي المشرقي من قبله، فكان من الطبيعي أن يلجأ إلى غيره من الآداب المجاورة ليفيد منها ما يغنيه ويجدده وينعشه. ومن هنا تأثر الأدب المغربي بالأدبين المشرقي العربي والأندلسي، وذلك قبل أن تتحقق للشخصية الأدبية المغربية استقلاليتها (مرحلة الأسندة السعدية) لترتقي لدرجة التأثير فيهما.

لقد نشأت مقامات الهمذاني في التصاق تام بالعصر العباسي، ما يجعلها وثيقة هامة تصور ذوق عصرها وثقافته وأخلاقه وأحواله الاجتماعية والاقتصادية، وهذا ما يجعلنا نتجاوز النظر إليها على أنها مجرد حديقة لغوية أدبية باعثة على المتعة البلاغية، إلى اعتبارها خطابا سرديا إدانيا. ومن هنا، ارتباط مضامين المقامات بالواقع، وتعريته لأجل التغيير والإصلاح. فإعادة النظر في المقامة كمضمون اجتماعي واقعي، يقتضي استبعاد النظر إليها على أنها مجرد شكل لفظي متكلف غايته الأولى والأخيرة تعليم اللغة. وهذا يقودنا بالضرورة إلى اعتبار المقامة ضمير عصرها، والشاهد على طبيعته. ولذلك لاغرو إذا قلنا إنه من دواعي المحاكاة الاستجابية لمؤثرات العصر ثقافية وفكرية وأدبية واجتماعية وسياسية، ذلك أن المقامات الهمذانية كانت استجابة طبيعية لمؤثرات العصر العباسي، وأن المقامات السرقسطية كانت مرآة عاكسة لمعالم عهد المرابطين بالأندلس، وأن المقامات المغربية - ومنها الفاسية العاكسة لمظاهر من عصر الموحدين بالمغرب - كانت نتاج العصر الذي ظهرت فيه بثتى مؤثراته. فأدب المقامة نتاج المجتمع الذي ظهر فيه، وهي تتعدى كونها شكلا لفظيا مرصوفا ومتحجرا، إلى اعتبارها وثيقة تاريخية وحضارية واجتماعية وأدبية صادقة عن عصرها. فإنشاء المقامات - مشرقية وأندلسية ومغربية - تصوير و رسم لصور شبه كاملة عن حياة المجتمع الذي أنشئت فيه، ليس لمجرد العرض في حد ذاته وإنما للنقد والإصلاح والتوجيه والتغيير الاجتماعي.

⁴⁶ - ممن كتبوا بعد ذلك متأثرين بالحريري نخص بالذكر الوهراني صاحب المقامة الفاسية، وهي المقامة الوحيدة التي تدلنا على العصر الموحي.

● المطلب الثالث: دواعي سيكوسوسولوجية

وتتدخل في دواعي انتشار أدب المقامة في الأدب المغربي دواعي يتداخل فيها النفسي بالاجتماعي، فمن النفسي رغبة المغربي في إثبات ذاته وإسماع صوته للمشاركة وللأندلسيين على حد سواء، ومن تم إبراز تفوقه ونبوغه الأدبي، ومن الاجتماعي احتكاك الإنسان المغربي بنظيره الأندلسي على أرض المغرب، واحتكاكه بمثيله المشرقي العربي على أرضه أو على أرض المغرب، وذلك نتيجة الهجرات بين الأقطار الثلاثة، وما ولدته من تفاعل أدبي برز فيه الأدب المغربي كامتداد طبيعي للأدب العربي المشرقي بالمشرق وبالأندلس، قبل أن يرتقي إلى درجة التأثير. فالتقليد سمة سيكوسوسولوجية في الإنسان تجعله يتخذ طريقا موازيا للذي كان قد سلكه مؤلف سابق، ويجدد التجربة، ليرتقي لمرحلة المحاكاة، إذ يحاول أن يصور التأليف من جديد، ويتفوق عليه. ومن هنا يدخل المتأثر (المقلد) في تنافس مع المؤثر (النموذج) ويسعى إلى التميز والتفوق عليه. وهذا الأمر قد تحقق للحريري حينما تفوق – في تواضع وكبرياء في نفس الآن – على أستاذه الهمذاني. وهو ما تحقق للأندلسيين حينما جددوا وأبدعوا في فن المقامة ببلاد الأندلس، وهو ما تحقق أيضا للمغاربة حينما أغربوا وابتدعوا واستحدثوا الجديد في مواضيع فن المقامة.

وإذن، فالسعي وراء إثبات الذات الأدبية المغربية والإقرار لها باستقلاليتها والتأكيد على خصوصياتها، كانا وراء التقليد المغلف بالمحاكاة والتجديد أولا، ثم وراء الرغبة في المنافسة ثانيا، والرغبة في التفوق والأستذة ثالثا، فهي دواعي مركبة يتداخل فيها النفسي بالاجتماعي، والمؤثر بالمتأثر، لتوليد أدب مقامة مغربي بلامح وجذور مغربية تنهل من الواقع وتصب فيه.

- المبحث الثالث: عوامل تأثر النثر المغربي بالثقافة الشرقية والأندلسي (بين المطلق والنسبي)

● المطلب الأول : الرحلة من وإلى المشرق (التأثير الشرقي)

شكلت الرحلة إلى المشرق منذ عصر الأدارسة عاملا من العوامل المساعدة على حركة التعريب، فقد توسعت الحركة لما أتيحت لها "جملة أسباب يمكن تلخيصها في...عروبة الأدارسة...وإنشاء جامع القرويين...وخروج المغاربة في رحلات علمية إلى المشرق والقيروان والأندلس وعودتهم إلى المغرب...وكثرة الوفود العربية التي قصدت مدينة فاس قادمة إليها من الأندلس والقيروان...وتقدير المغاربة للمسلمين للقرآن الكريم وإعجابهم بلغته وإعجازه... وتهجير أفواج من المغاربة في شكل سبي إلى المشرق وعودة بعضهم إلى المغرب وقد تعلموا اللغة العربية"⁴⁷.

فإذا كان الأدب المغربي - منظوماً ومنثوراً - قد خضع للتأثير الأندلسي - مما سنخوض فيه -، فإنه كذلك لم يسلم من التأثير الشرقي. فهو تأثير مزدوج نجم عن الروابط المتينة التي وجدت بين المشرق العربي بوصفه منبعاً للإسلام وبين المغرب والتي تجلت في تبادل الرحلات بين فقهاء القطرين وعلمائهم وطلبتهم، وإلى أخذ المغرب بطرق التدريس المشرقية، واعتماده على كتبه ودواوين شعرائه ومؤلفات أدبائه، مما خلف أثراً في ذوق المغاربة. " فقد كان بعض الشعراء المغاربة ينسجون في كثير من شعرهم على غرار شعراء المشرق: فعند الأستاذ ابن تاويت أن ابن حبوس الفاسي كان متأثراً بالمتبني، وعند الأستاذ كنون أن نفس ابن حبوس

⁴⁷- عباس الجراري. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها. ج1. ص50.

مشرقي... وقد شبه الأستاذ كنون الشاعر ابن خبازة بأبي تمام في كثير من شعره" 48 .
وقد كانت الرحلة إلى المشرق في العهد المرابطي على أشد ما تكون رحلات المغاربة إليه،
لأن الدولة نفسها - في تصور ابن تاويت بالوافي - كانت متعلقة بالمشرق تعلقا كلياً لدرجة
أنها كانت تعتبر خليفة بغداد هو الخليفة الشرعي للبلاد، فتتخذ العملة باسمه، وتذكره في الخطبة،
وتتخذ شعاره الأسود في أعلامها، وهذا مما زاد ولاشك في اتجاه المغاربة ورجال العلم منهم
خاصة نحو المشرق . و منهم مما تذكره التراجم المشرقية: أبو هارون موسى بن عبد الله بن
إبراهيم الأغماتي (ذكره ياقوت الحموي في معجم الأديباء) الذي قصد مصر والحجاز، وأبو
محمد عبد الله بن تاويت اللمتوني الذي قدم المشرق للحج وطلب العلم فأقام به طويلاً، كما قدم
إليه أخوه الفقيه أبو يعقوب ينتان المتوفى باليمن، وقد ذكرهما السلفي في معجم السفر، كما ذكر
العماد أولهما في خريدة القصر. ولأول مرة - حسب ابن تاويت - نجد المصادر المشرقية
العربية تعنتي برجال المغرب وعلمائه.

فتأثر النثر المغربي بالنثر المشرقي العربي مظهر من مظاهر علاقة المغرب بالمشرق التي
أفرزها التاريخ الوسيط، والمتأسسة في طورها الأول على التبعية لمركزية الأدب العربي
المشرقي، وفي طورها الثاني على الاستقلال عن تلك التبعية واستكمال مقومات الشخصية
للذات المغربية، وفي طورها الثالث - وهو غير داخل في مجال دراستنا - على التحديث الذي
عرفه الأدب المغربي عصر العلويين حينما انفتح على كل ما جاءت به الحضارة الغربية والفكر
الغربي من تطور اجتماعي وسياسي وحضاري انبثقت منه رؤية جديدة للأدب، "والملاحظ أن
الأدب المغربي أثبت في كل هذه السياقات التاريخية والأدبية انتماءه للأدب العربي، في لغته
الأساسية وأجناسه الأدبية وأساليبه الفنية، دون أن يمنع ذلك من إبراز الخصوصية الوطنية
والهوية المغربية" 49 .

ومعنى هذا، أن التأثير الأدبي المشرقي العربي في الأدب المغربي، تأثير نسبي غير مطلق،

48 - حسن جلاب. مرجع سابق. ص 277.

49 - محمد الكتاني. (نظرات في علاقة الأدب المغربي بالأدب العربية). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات). منشورات
كلية الآداب بالرباط. سلسلة رقم 130. (ص 275-289). ص 279.

ذلك أن الأدب المغربي كان محتاجا في نشأته الأولى للأدب المشرقي العربي كما للأدب الأندلسي ولكن ليس بعد ذلك." إن أدب كل أمة يتصف بالتعثر والضعف في مراحل نشأته، وقد عانى الأدب العربي في المغرب إلى جانب ظروف النشأة من ظلامية المرحلة وصراعاتها مما عكس في نفوس الشعراء المغاربة والعرب على السواء ملامح الاضطراب وعدم الاستقرار، فجاء أدبهم لذلك فاترا هزيلا على العموم، وبزوال هذه الظروف وتوفر المغاربة على الاستقرار والهدوء اللازمين لكل إبداع سجلوا أدبا يختلف في ملامحه العامة عن أدب النشأة⁵⁰. فالأدب الإدريسي شكل إرهاصات أولية لنشأة الأدب المغربي برغم هزالة النتاج الأدبي الذي عرفته الفترة كلها، وبالرغم من ضياع كثير من الآثار الأدبية بسبب الاضطرابات التي عرفتها الفترة، فجاء النتاج الأدبي موزعا بين مدح أمراء الأدارسة، وبين تجسيد للصراعات السياسية التي عرفتها البلاد (الهجاء أنموذجا). بيد أن العصر المرابطي سيشكل نشأة طبيعية لحياة أدبية مغربية قوامها التفاعل المزدوج مع المشرق والأندلس. فقد أصبحت الأندلس تابعة للدولة المرابطية وللموحدية من بعدها، مما جعل الأندلس - وقد نشأ أدبها قبل الأدب المغربي بنحو قرنين أو ثلاثة - تشكل مدرسة أدبية يفيد منها الأدب المغربي الناشئ، إفادته من الأدب الوافد من المشرق. وهذا ما مكن المغرب في العصر الموحي من ظهور عدد كبير من أعلام الأدب⁵¹ في الشعر والنثر الفني يضاهاون أعلام الأندلس. " فالبيئة الأدبية والعلمية التي استكملت مقوماتها في العصر الموحي لم يكن أعلامها يشعرون بأي خصوصية تميزهم عن البيئة العامة للأدب العربي، أو للثقافة الإسلامية الممتدة حدودها

⁵⁰ - حسن جلاب. مرجع سابق. ص 105.

⁵¹ - كابن حبوس شاعر الخلافة الموحدية المتأثر بالمتنبي، وكأبي جعفر ابن عطية مؤسس الترسل الديواني للموحدين. ينظر في العصر الموحي وشخصياته الأدبية : الوافي بالأدب العربي لمحمد بن تاويت . ج 1 . ص 91 وما بعدها.

إلى الشرق الأقصى ، بدليل حياة علم من أعلام التاريخ الأدبي هو عبد الواحد المراكشي⁵²، مؤلف كتاب "المعجب في تاريخ المغرب"، الذي ولد بمراكش ونشأ في فاس، وتلمذ لعلماء الأندلس بقرطبة وإشبيلية، ثم رحل إلى الحجاز فإلى بغداد حيث انقطع لخدمة أحد وزراء بني العباس، وله ألف كتاب المعجب سنة 621 هـ⁵³. ففي هذا العصر بدأت الشخصية الأدبية المغربية تأخذ سماتها الأساسية وذلك لعدة أسباب منها المرتبط بالاستقلال السياسي- الذي قام به الموحدون الأوائل - عن التبعية للخلافة العباسية، واعتبار أنفسهم خلفاء أندادا للخلفاء في المشرق من عباسيين وفاطميين، ومنها المتعلق بدخول قبائل بني هلال وبني سليم المضرية إلى تونس فإلى المغرب بعد أن حركهم لغزو المغرب الخليفة الفاطمي، وبما أنهم كانوا رحلا فقد خالطت قبائلهم القبائل البربرية بالمغرب ووجدت لديها نفس القيم البدوية في إقامة حياتها على الغزو والإغارة والترحال، وبذلك انتشرت في كل السهول و النجود المغربية ، فأدخلت لسانها

52- هو أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي، من مواليد مدينة مراكش عام 581 هـ الموافق ل 1185م، في عهد السلطان أبي يعقوب الموحي، انتقل إلى فاس وأخذ عن مشايخها، ثم عاد إلى مراكش وجالس علماء العصر ومنهم الوزير الطبيب أبو بكر بن زهر حين وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن يوسف عام 595هـ، وفي عام 603هـ عبر إلى الأندلس لمتابعة الدراسة والالتقاء بالعلماء، فقصداشبية وقرطبة، وهناك التقى بشيخه أبي جعفر أحمد بن محمد الحميري (ت610هـ). وانتقل المراكشي بين الأندلس والمغرب سنوات 610هـ و614هـ ، وفي عام 617هـ رحل إلى مصر ثم إلى مكة سنة 619هـ لقضاء فريضة الحج، وفي عام 621هـ ألف كتابه "المعجب" بمدينة بغداد استجابة لوزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله بن المستضيء، الذي طلب منه مؤلفا عن أخبار بلاده وأحوال سكانها وعلمائها. ينظر كذلك في ترجمته:

- أ- ترجمته بقلمه أثناء حديثه عن مراكش في آخر كتابه. ص223. تحقيق: محمد الفاسي. مطبعة الثقافة. سلا. ط 1. 1938.
- ب- الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى . محمد بن تاويت. ج 1. منشورات دار الثقافة. ط 1984. ص294.
- ج- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. ابن إبراهيم المراكشي. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. ج 8. المطبعة الملكية. 1974. ص509.
- د- مقدمة نفس المصدر السابق بتحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي . مطبعة الاستقامة. القاهرة. 1949. ص360.

⁵³ محمد الكتاني . نظرات في علاقة الأدب المغربي بالأدب العربية. مرجع سابق. ص283.

العربي إلى كل الجهات⁵⁴، وتلك كانت مرحلة توسيع نطاق بداية التعريب للمجتمع المغربي، بعد أن كان مقتصرًا على الحواضر الشمالية للمغرب لقربها من الأندلس.

وسيمضي الأدب المغربي قدما في تحرره من عقدة التبعية للمشرق مع استقرار الحكم للمرينيين، إذ مع هزيمة العقاب (عصر الموحدين) عرف المغرب انكماشًا سياسيًا وتمزقًا داخليًا أفرز ميل النفوس إلى التصوف وإعلان يأسها و إحباطها من كل قيادة سياسية قبل بداية العصر المريني، والذي استعلت فيه الدعوة إلى جهاد النصاري. وفي مقابل هذه النزعة الروحية المتعالية برزت نزعة إلى المجون كرد فعل على اهتزاز القيم، كما ظهر الأدب الشعبي والموشحات، فكانت البوادر الأولى لتحرر الأدب المغربي من تقاليد الأدب الرسمي. ويمضي تاريخ الأدب المغربي في سياق تحقيق الاستقلال عن مركزية الشرق الأدبية والمركزية الأندلسية في العهد السعدي خاصة بعد غروب شمس دولة الأندلس، إذ صارت الحياة الأدبية التي ازدهرت في عصر المنصور السعدي متمركزة في مراكش، "كما نلاحظ أن طابع الأدب المغربي أصبح يتجلى في الحفاظ على التقاليد الأدبية الموروثة، والتي تمكن من ناصيتها أدياء المغرب وشعراؤه ليس تقليدا واستنساخا، ولكن إغناء وترسيخا لها، في الترسل والشعر والنقد، فضلا عن الموشحات والأزجال"⁵⁵.

لقد ظهر استقلال الأدب المغربي عن المؤثرات المشرقية العربية بقوة، حينما حافظ على أساليبه القوية في الوقت الذي كانت الحياة الأدبية في المشرق قد ركبت أديبا أو جمدت تماما، وصار كتاب المشرق العربي وشعراؤه يرسغون في قيود البديعيات والأساليب المصنعة الركيكة. "ففي هذا الوقت عرف الأدب المغربي نبوغ شعراء نذكر منهم الكاتب الشاعر عبد العزيز الفشتالي الذي يذكرنا بشخصية ابن الخطيب الأندلسي، وكذا الشاعر الهوزالي الذي يذكرنا بثغريات المتنبي... فالأدب المغربي يبدو بالنسبة لعصر ما بعد القرن الثامن الهجري يتأثر بنزعة الحفاظ على متانة الأساليب، وعلى الأجناس الأدبية في الشعر والنثر، وعلى المحاكاة للنماذج العليا،

⁵⁴ - ينظر في ذلك: محمد بن تاويت. الوافي. ج3. ص653 وما بعدها.

⁵⁵ - نفسه. ص655.

وهو ما كان يطبع الأدب الأندلسي حتى في عصره الأخير" ⁵⁶. فقد تميز الأدب المغربي في هذه المرحلة - مرحلة الأستذة السعدية - بكونه أصبح يعكس خصوصيات مجتمعه، ولاسيما في مشاعره الدينية، أو في وصف الانتصارات التي كان يحققها المنصور الذهبي (معركة وادي المخازن الشهيرة)، أو في نمو الأدب الشعبي وازدهار الموشحات والأزجال المواكبة لفنون الغناء والموسيقى الأندلسية التي أخذت طابعا نهائيا في العصر السعدي بما أضاف إليها المغاربة من موازين وطبوع.

فهذا الميل المبكر نحو التأصيل والتجديد هو دليل أستذة أدبية سعدية واستقلال عن الأدب العربي المشرقي، ولا نعني بالاستقلال هنا القطيعة معه، وإنما التحرر من التبعية له، وتأصيل الذات الأدبية المغربية والإقرار لها باستقلاليتها وخصوصيتها. ومن هنا، نسبة التأثير المشرقي الذي مارسه النثر العربي المشرقي على النثر المغربي.

⁵⁶ - محمد الكتاني. مرجع سابق. ص 285.

• المطلب الثاني: الجوار والوحدة السياسية بين العدوتين (التأثير الأندلسي)

نشطت الحياة الأدبية والثقافية وتوسعت بالأندلس في عهد مبكر نستطيع أن نصعد به إلى أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة. وهو ما يدعو إلى التأمل في مدى استفادة المغرب من جواره بالأندلس من الناحية الأدبية. وبتعبير آخر، دراسة حدود وأبعاد التأثير الذي مارسه الأندلس أدبيا على المغرب. فانتقال السكان بين العدوتين أمر طبيعي بحكم الجوار الجغرافي، وهو جوار نجمت عنه علاقات إنسانية يومية بين عقليتين وثقافتين متباعدتين حضاريا متقاربتين جغرافيا. وهو تقارب جغرافي ولد تقاربا اجتماعيا واقتصاديا وفكريا وحضاريا برزت معالمه واضحة بشمال المغرب قوية ومباشرة بوجه خاص، وباقي المغرب بوجه عام، كما أنه تقارب ولد تبادلا وتعاوننا ثقافيا بين العدوتين كان له وقعه في تطور الحياة الأدبية والعلمية بالبلدين.

لقد سبقت الأندلس المغرب إلى احتضان الثقافة العربية الإسلامية، مضيئة إليها الجديد منظوما ومنثورا، وبذلك أمكنها أن تكون بالنسبة للمغرب بمثابة الأستاذ - الثاني بعد المشرق العربي - في فترة التاريخ الوسيط، قبل أن يصبح المغرب شريكا في الأستذة وفي مواصلة الإشعاع الفكري والأدبي بعد سقوط الأندلس (القرن 9هـ/15م). فمما لا شك فيه أن الأندلس والمغرب تعاونوا وثيقا في إيجاد ثقافة عربية إسلامية وحياة أدبية لها خصوصيتها ومميزاتها الدالة على منطقة الغرب الإسلامي.

لقد برز التأثير الأندلسي بوضوح بالأدب المغربي في العصرين المرابطي والموحدي - فترة الوحدة بين العدوتين -، وأما مع العصر المريني فقد تجاوز الأدب المغربي مرحلة التلمذة على يد الأندلس - والمشرق كذلك - إلى مرحلة الندية، إذ ظهر أدب مغربي محتفظ بشخصيته المغربية، تزداد ملامحها وضوحا وتميزا مع أدياء العصر السعدي حيث الارتقاء لمرحلة الأستذة في ظل ركود أدبي مشرقي وأقول للوجود الأندلسي. لقد وحد يوسف بن تاشفين العدوتين وجعلهما وطنا واحدا تنتفي بينهما الفروق السياسية، " فالمغرب يبذل حمايته للأندلس ويرد عنها غارات الأعداء، والأندلس تبذل ثقافتها ومعارفها للمغرب، وقد فعل الاحتكاك

بالأندلسيين الأفاعيل في تقدم الحياة الفكرية بالمغرب ونهضة العلوم والآداب" ⁵⁷. فقد تمخضت الوحدة بين العدوتين عن مدنية شكلت بطابعها الخاص فصلا من ألمع فصول التاريخ الفكري في القرون الوسطى، ونتيجة لذلك "اصطبغ الأدب بصبغة تكاد تكون أندلسية محضة. وهكذا فإن الوحدة التي بدأت سياسية وجغرافية صارت فيما بعد وحدة حضارية وعلمية" ⁵⁸. كما أنه من عوامل التأثير الذي مارسه الأندلس أدبيا على المغرب - غير الوحدة - نذكر الهجرة /الرحلة والتي كانت نشيطة في الاتجاهين (العودة الشمالية - العودة الجنوبية)، "فقد اجتاز المغاربة بأعداد كثيرة مضيق جبل طارق لأخذ العلوم من معاهد الأندلس كإشبيلية وقرطبة وقرطبة وغيرها. وارتفع عدد المهاجرين لطلب العلم - في العصر المرابطي خاصة - حتى اعتبروا من لم يأخذ من الأندلس ناقص تعليم. ولم تكن الهجرة وقفا على العامة، بل هاجر أمراء اللمتونيين والمصامدة لنفس الغاية. وكان هؤلاء الطلبة يعودون إلى المغرب وقد تشبعوا بالثقافة الأندلسية العربية" ⁵⁹. وأما الأندلسيون فقليل ما هاجروا إلى المغرب للتعلم، وإنما كانت هجرتهم لأسباب سياسية في الغالب ⁶⁰، أو طلبا للشهرة والتقرب من الحكام بمراكش أو التصدر للتدريس بمساجد المغرب. وقد نتج عن هذا امتزاج الحضارتين "حتى إن كثيرا من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين لو أردت تبينها لتعذر عليك واستحال رد كل منهم إلى ينبوعه في كثير من الأحيان" ⁶¹. فقد كان للوحدة بين العدوتين وللرحلة بين القطرين، ولجوارهما الجغرافي واحتكاكهما الثقافي والحضاري وقعه على علاقة الملاحاة والمنافسة لحد المنافرة والتراشق بين أدباء العدوتين، "فقد كانت المنافسة محتدمة بين العدوتين في عهد المرابطين، وازدادت امتدادا في عهد الموحيدين. وهذا راجع...إلى الظروف السياسية التي كانت تتمثل في تلك الحقبة، فإن المغاربة كانوا يشعرون بنوع من التعالي الحكمي على الأندلسيين

⁵⁷- النبوغ. ج.1. ص71.

⁵⁸- ينظر في ذلك: محمد الأخضر. مرجع سابق. ص43.

⁵⁹- حسن جلاب. مرجع سابق. ص268.

⁶⁰- كهجرات ملوك الطوائف المخلوعين في العصر المرابطي، وهجرات الأندلسيين عقب الفتنة القرطبية صدر المائة السادسة.

ينظر في ذلك نفع الطيب. ج.4. ص5.

⁶¹- حسن جلاب. مرجع سابق. ص269.

سواء عند تغلب يوسف على الطوائف أو تغلب الموحدين بعده، وكان هذا التعالي الحكمي يقابل بتعال ثقافي من قبل الأندلسيين⁶².

فقد دفعت هذه المنافسة الأدباء المغاربة إلى معارضة الأدباء الأندلسيين والرغبة في الارتقاء إلى مستواهم والوقوف في وجوههم للفوز برضا الخلفاء، خاصة مع ما عرف من استكتاب الخلفاء للكتاب الأندلسيين "فمن الذين استكتبهم يوسف: عبد الرحمان بن أسباط، وأبو بكر بن القصيرة، ومحمد بن عبد الغفور، وعبد المجيد بن عبدون، وأبو محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، واستكتب ابنه علي: ابن القبطرنة، وابن الأحذب⁶³". كما استكتب الأمراء جماعة من خيرة أدباء الأندلس نجدهم في القلائد والمغرب، ولم يقفوا عند حد الكتاب بل استقدموا العلماء والأدباء حتى أشبهت حضرتهم - كما ذكر المراكشي - حضرة بني العباس في صدر دولتهم⁶⁴. لقد تضافرت هذه العوامل الثلاثة - الوحدة، الجوار والرحلة، المنافسة - لتجعل من تأثير الأدب الأندلس في الأدب المرابطي حقيقة ثابتة يذهب إليها جل الباحثين، فالأدب المرابطي عند ابن تاويت "الأدب الذي اتصل بهم - يقصد المرابطين - واردا عليهم أو صادرا منهم، أدب لا معالم له ماثلة تماما، هو أدب ترك لنفسه، فكان أدبا أندلسيا إذا ما صدر عن هؤلاء الأندلسيين أو ممن كان من مشاربهم، لكنه مع ذلك يلتزم مظهر الحشمة والوقار لأن الدولة كذلك، وهو فيما يصدر عنها بالخصوص، يلتزم مظهر البساطة والإيجاز لأن الدولة بسيطة كذلك، ومازالت حديثة عهد بالبداءة التي لا تستسيغ هذا الإطناب"⁶⁵، وعنده كذلك أن المغرب قد اتصل اتصالا وثيقا بالأندلس من ناحية والقيروان من ناحية أخرى، فكان يأخذ بإحدى يديه أدبه من الأندلس خاصة، وبالأخرى من القيروان علوم الدين، إذ لم يظهر من الشعراء خلال العصر المرابطي

⁶² - حسن جلاب. مرجع سابق. ص269.

⁶³ - النبوغ. ج1. ص82.

⁶⁴ - المعجب. ص163.

⁶⁵ - محمد بن تاويت. (أدب الدولة المرابطية والموحدية). مجلة البحث العلمي. مرجع سابق. ص134.

سوى قلة معدودة على رأسهم ابن حبوس وابن بياح والقاضي عياض المتميز في النثر، وإذا استثنينا منهم ابن حبوس الذي لم يصلنا شيء مما قاله في هذا العصر- في حدود ما أعلم - لن يبقى بين أيدينا سوى ابن بياح وعياض. وكلاهما يبدو على أثره الطابع الأندلسي في صورة واضحة ، ولاغرو فابن بياح⁶⁶ تتقف بالثقافة الأندلسية لدرجة أن شخصيته كانت ماثرا للخلاف بين المغاربة والأندلسيين، والقاضي⁶⁷ قد أنفق من حياته وقتا طويلا في الأندلس أخذها عن العلماء وقاضيا بغرناطة وغيرها، ثم إن كلا الرجلين كذلك من شواطئ المغرب التي كانت على صلة قوية بالأندلس منذ فجر التاريخ الإسلامي، فهما معا من سبته.

وأما بالنسبة للنثر فإن أثر الأندلس عليه كان أكثر وضوحا لأن كتاب المرابطين كانوا كتابا لملوك الطوائف في أغلبهم، ولهذا فإنهم ظلوا يكتبون وهم في خدمة الدولة الجديدة كما كانوا يفعلون وهم في خدمة ملوك الطوائف بالأندلس، مع فارق واحد هو ميلهم إلى تقصير الرسائل، إذ أن المرابطين - كما ذكر ابن تاويت - كانوا بحكم بداوتهم ميالين إلى الاختصار والإيجاز⁶⁸. ولعل استكتاب المرابطين للنخبة الممتازة من كتاب الأندلس هو الذي يفسر المستوى الرائع لرسائلهم⁶⁹، وإذا كان أدباء الأندلس قد استبدوا بمناصب الكتابة المرابطية، فإن

⁶⁶- القاضي ابن بياح: أو هو كذلك المعروف بابن زنباع الصنهاجي قاضي طنجة، شاعر المرابطين على الإطلاق. ذكره ابن تاويت في الوافي متعرضا لشعره المغرق في الأندلسية (ص31-51). وورد ذكره في الخريدة بابن بياح، كما ورد كذلك في التعريف لابن القاضي عياض.

قال ابن تاويت : "أديبان عظيمان كان أحدهما قاضيا لطنجة وكان الآخر قاضيا لسبته هما ابن زنباع وعياض، والأول لا نعرف عنه إلا ما ذكره ابن خاقان في قلانده من ترجمة مركزة في فقرها وأسجاعها". الوافي. ص. 31

⁶⁷- نريد به القاضي عياض. سبقت ترجمته. وهو كاتب المرابطين وناثرهم على الإطلاق . درس أدبه ابن تاويت بالوافي (ص52-85) رابطا شعره وهو أضيّق ميادينه، ونثره (رسائل- خطب) بالروح الأدبية الأندلسية : "كما كانت أبيات عياض... أندلسية في روحها وتتفاساتها... ورسائله التي ألحقها برسالة أبي القاسم بن الجد، مفعمتين بالجو الأندلسي الخالص". الوافي. ص85.

⁶⁸- الاختصار والإيجاز سمتان برزتا في الرسائل المرابطية المغربية خلافا للرسائل المرابطية الأندلسية، وهما سمتان سنلاحظهما نسييا في بعض المقامات المغربية في مستقبل حديثنا عن معالم التجديد والاستقلالية فيها، ذلك أن الملاحظة الأساس هي التزامها بالإسهاب على غرار المقامة الأندلسية المعروفة بطول الحجم والإطناب لدرجة إعمال ابن بسام لمقصه فيها بالحذف والبتر في ذخيرته.

⁶⁹- يمكن تلمس الجوانب الجمالية والفنية المميزة لفن الرسالة الأندلسية، وأنماط الرسائل ، والأصول الجمالية والمعرفية، والبناء الفني للرسالة ، وذلك بكتاب "بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس - قراءة في المشروع الحضاري المغربي بالغرب الإسلامي"، لمصطفى الزباخ. دار النشر المغربية. البيضاء. ط: 1991.

ذلك لم يمنع من نبوغ بعض المغاربة في الكتابة، ولعل أشهرهم وأجودهم وأبلغهم هو القاضي عياض ، فقد جاء نثره كشعره متأثرا في أسلوبه بالكتابة الأندلسية في ميل ملحوظ إلى الابتكار والظرف. "ويظهر أثر النثر الأندلسي كذلك في رسالته التي ركبها على رسالة ابن الجدي التي بعثها إليه، فكان يورد جملا منها فيعارضها، ثم جملا أخرى فمعارضته لها، إلى الأخير، ويأخذ على نفسه أن يعارض الأسلوب فلا نكاد نميز بين الأسلوبين لتشابههما"⁷⁰.

وأما ما يهم الوحدة بين العدوتين في شقها الموحي، "فإن الأدب الموحي برغم تغير ذوق الدولة الموحدية الأدبي عما كان عليه مع المرابطين، فإن أثر الأدب الأندلسي بقي متجليا في أدبها، مع فارق هو ميل الشعراء إلى المبالغات والحديث عن المذهب الموحي في الشعر، وميل الكتاب إلى تطويل الرسائل، وتعظيم الدولة وتضخيم أعمالها في النثر"⁷¹. إذ بقي الأدب المغربي خاضعا للتأثير الأندلسي " فقد ارتبط المغرب الأقصى بالأندلس ارتباطا وثيقا، حيث لعب الموقع والظروف الجغرافية للمنطقتين دورهما في التقريب بينهما إذ أنهما يكونان معا وحدة جغرافية متماسكة الأطراف... والمسافة التي تفصل بين القطرين لا تتجاوز خمسة عشر كيلومترا في بعض نواحيها، وبذلك كان المضيق الذي يفصل بينهما له أهمية كبيرة ، حتى أصبح تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتم بفضله بعضا، وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين"⁷². لقد برزت البوادر الأولى للشخصية المغربية في الأدب المغربي باحتشام في العصر المرابطي، إذ ظل الأدب ملتزما بمظاهر الحشمة والوقار والبساطة والإيجاز – تبعا لخصوصيات الدولة المرابطية – متأثرا بالطابع الديني، لكن ملامح الشخصية المغربية بدت أكثر وضوحا في الأدب الموحي "ذلك أن تأثره بالأدبين الأندلسي والمشرقي لم يفقده شخصيته التي ميزته بالبساطة وشيوع الأدب الديني فيه"⁷³. وقد كان من مظاهر ذلك الاستقلال سعي الموحيين في "نشر حضارة مطبوعة بطابعهم الثلاثي : العظمة ، الدين ، التجديد . وكانوا يقصدون أن تكون هذه الحضارة لا شرقية ولا أندلسية محضة، ولكنها حضارة قائمة بنفسها

⁷⁰ - حسن جلاب. مرجع سابق. ص275.

⁷¹ - نفسه. ص276.

⁷² - حسن علي حسن. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. ص284.

⁷³ - حسن جلاب. مرجع سابق. ص279.

آخذة من هذه وتلك" ⁷⁴. فقد جاء الأدب الموحد محققا لذلك الطابع الثلاثي: فآثر العظمة بارز فيه، سواء في الأمداح التي قيلت في الخلفاء، أو في الآمال التي ترجمها الشعراء في السيطرة على العالم الإسلامي كله. وكان الطابع الديني هو الحائل دون قبول الغزل المكشوف والشاذ، والأدب الإباضي الذي كان الإقبال عليه كبيرا في المشرق والأندلس آنذاك. وأما طابع التجديد فيبدو في ظهور مدرسة جديدة للزجل نشأت بالمغرب وعملت على تطويره شكلا ومضمونا، وقد وضعت له اسما جديدا هو: عروض البلد. "ومع كل هذا فإن الشخصية المغربية لن تبرز بكامل الوضوح في أدبنا المغربي إلا في الأدب الذي سيظهر ابتداء من العصر المريني خاصة" ⁷⁵. وإلى العصر المريني في الأدب المغربي يمكن أن نرد - في تقديري المتواضع - الندية واحتدام المنافسة بين العدوتين أدبيا، قبل أن تصير الأستذة إلى الأدب المغربي على عهد السعديين. وإذن، ما يمكن اعتباره تأثيرا أندلسيا للأدب الأندلسي على الأدب المغربي هو تأثير نسبي غير مطلق ولا مستمر في الزمان. إذ أننا وجدنا الأدب المغربي متأثرا في العصر الإدريسي وفي العصرين المرابطي والموحدي بالأدب الأندلسي وليس بعد ذلك، ذلك أن سقوط الأندلس سيجعل الأدب المغربي يستقل بذاته في العصر السعدي والمريني من قبله (ركود الأدب المشرقي العربي) قبل أن يعود إلى تأثره الأصلي بالأدب العربي المشرقي لتتحقق له النهضة على عصر العلويين.

لقد تخلف المغرب زمنيا عن الأندلس في ولوج الثقافة العربية الإسلامية ولوجا كافيا بقرنين على الأقل، مما وضعه في الحاجة للأخذ عن الأندلس والاستفادة مما راکمت من نتاج أدبي وفكري وعلمي، وقد تحقق له ذلك الأخذ الأدبي خاصة عندما ارتبط المغرب ارتباطا عضويا بالأندلس ابتداء من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثالث عشر الميلادي/5-7هـ في ظل دولتي المرابطين والموحدين. "وعلى الرغم من استقلال الأندلس عن المغرب بعد ذلك، فإن عادة الاتصال بين العدوتين استحکمت على الأقل في المستوى البشري والفكري، وظلت على أشدها إلى نهاية الوجود العربي بالأندلس" ⁷⁶.

⁷⁴ - حسن جلاب. مرجع سابق. ص 279.

⁷⁵ - نفسه. ص 279.

⁷⁶ - محمد زنيبر. دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي. ص 377.

وإذن، فتبعية الأدب المغربي للأدب الأندلسي تقف عند الموحدين ولا تتعداهم إلى المرينيين، فالأدب الموحي " بعدما كان عالمة على غيره أو منتجاً في غير أرضه ، أو متجلباً في إنتاج غير المغاربة في قطره ... بدأ يتخذ لنفسه كياناً يتميز به - بعض الشيء - عما كان عليه من تقليد محض للأندلسيين، وأنه صار يشق لنفسه طريقاً وسطاً على أحد جانبيه الأندلس وعلى الآخر الشرق الذي كان قد حمل منه - بعد الأندلس - كثيراً من ثقافته مباشرة وذلك بواسطة جماعة من الأدباء كان منهم محمد بن تومرت، إذ أننا في هذه المرحلة وبالذات وجدنا الاتجاه إلى الشرق يقوى في رجال المغرب" ⁷⁷.

لقد بقي الأدب المغربي دهرًا طويلًا تابعًا للشرق والأندلس قبل أن تتكون شخصيته المستقلة، ومرد ذلك إلى مختلف الأحداث السياسية والاجتماعية التي عرفها المغرب على مر تاريخه الوسيط، بالإضافة إلى موقعه الجغرافي بين القطرين الشرقي العربي والأندلسي، وهو ما سمح بممارستهما للتأثير الأدبي المزدوج على الأدب المغربي، وهو تأثير لا يخلو قطعاً من تفاعل بين الآداب الثلاثة.

⁷⁷- الوافي. ج1. ص355-356 .

• خاتمة الفصل الأول/الباب الثاني:

من المؤسف حقا أن تندر الدراسات والأبحاث التي تعنى بالأدب المغربي عامة وبأدب المقامة المغربية، ليجد المتلقي نفسه تائها بين آراء - على قلتها - ترد نشأة المقامة المغربية إلى العصر المريني وأخرى ترده إلى العصر السعدي، وأخرى لا تحدثك إلا عن المقامة المغربية عهد العلويين لوفرة النتاج المقامي، فمن هنا هذا الفصل النظري الأول من الباب الثاني الخاص بدراسة مظاهر التقليد والتجديد في المقامة المغربية ما قبل العصر العلوي.

لقد افترضت الدراسة منذ البدء ضرورة حدوث تفاعل أدبي بين العدوتين في ظل الوحدة السياسية على عهدي الموحيدين والمرابطين، فكان أن أفرز البحث الدؤوب والمتأنى عن وجود مقامة مرابطية يتيمة تعد النواة الحقيقية لنشأة وظهور المقامة المغربية (مقامة عامر في مدح أميره المرابطي تميم)، كما وأفرز عن وجود مقامة موحدية تعرف بالمقامة الفاسية للوهراني - المعد مغربيا بحكم اعترافه بمغربيته في المعجب للمراكشي، أو لنقل على الأقل إنه شخصية مشتركة يتنازعها المشرق والغرب الإسلامي-، كما ووسع البحث من دائرة المقاميين المغاربة سواء الداخلين في مجال الدراسة أو الخارجين عنه - يؤطرهم العهد العلوي الزاهر - وذلك رغبة في إحلال المقامة المغربية المكانة التي تستحقها من الدرس والتحليل والعناية والالتفات.

وإذا كان الأدب المغربي قد كان خاضعا في بداياته (مرحلة التلمذة) إلى التأثير المزدوج الذي مارسه عليه الأدبان المشرقي العربي والأندلسي، فإن أدب المقامة عرف تطورا ملحوظا في العصر المريني (مرحلة الندية)، ازدادت أهميته في العصر السعدي (مرحلة الأستاذة). من هنا، مشروعية الثلاثية المفاهيمية: المقامة في المغرب، ومغرب المقامة، ومغربية المقامة، فلقد قدم المغرب للأدب العربي مقاميين متميزين أنشأوا مقامات متميزة شكلا ومضمونا لدرجة استحداث موضوعات مقامية جديدة تبين عن قدرة عالية على الإبداع والتجديد في ارتباط تام بالواقع المغربي مرابطيا وموحديا ومرينيا وسعديا، وفي خصوصية واستقلالية تامين وواضحين، وهو ما سنتطرق له في الفصل الموالي.

• مقدمة الفصل الرابع من الأطروحة/ الفصل الثاني - الباب الثاني:

يرتد هذا الفصل بنشأة المقامة المغربية إلى العصر المرابطي فالعصر الموحدوي، ثم المريني فالسعدي من بعدهما، كما يوسع كم المقامات - المتعارف عليه - ما قبل العصر العلوي، والتي عرفت منذ نشأتها الأولى انحرافا مبكرا عن تقاليد المقامة المشرقية، ما يجعلها زاخرة بمعالم التجديد والتأصيل والاستقلالية، ومن ذلك: ابتعاد المقامة المغربية عن أركان المقامة المشرقية (البطل - الراوي - العقدة...) - التداخل مع الرسالة واقترابها منها بما تضمنته من أساليبها (تحميد - ثناء... وغيرهما) - الارتباط بأدب الرحلة - الخلو من الكدية - طول الحجم و الإطناب - الارتباط بالبيئة المحلية - استحداث البطولة النسائية الجماعية - انتقال المراثيات القلمية بين العدوتين من فن الرسائل إلى فن المقامات، وذلك من خلال رد الملزوزي بمقامته (طرفة الظريف) على مقامة السرقسطي (المقامة البربرية)، ليقدم كل منهما صورة معاكسة لواقع الأندلس والمغرب إنسانا و مكانا .

-الفصل الثاني: الإطار العملي-

- المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة المغربية
- المطلب الأول: مقامي عصر المرابطين (ق5 - 6هـ)
- المطلب الثاني: مقامي عصر الموحدين (ق6 هـ/ 12م)
- المطلب الثالث: مقاميو عصر المرينيين (ق7 و8 هـ/ 13 و14م)
- ✓ الفرع الأول: عبد العزيز الملزوزي (ت667هـ)
- ✓ الفرع الثاني: مالك بن المرchl (ت699هـ)
- ✓ الفرع الثالث: عبد المهيمn الحضرمي (ت749هـ)
- المطلب الرابع: مقاميو عصر السعديين (ق10 - 11 هـ / 16م، وأوائل 17م)
- ✓ الفرع الأول: محمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت990هـ)
- ✓ الفرع الثاني: محمد بن أحمد المكلاطي (ت1041هـ)
- ✓ الفرع الثالث: الأزاريقي
- ✓ الفرع الرابع: أبو عبد الله بن علي الفشتالي (ت1021هـ)
- المطلب الخامس: مواطن تأثر المقامة المغربية بالمقامة العربية المشرقية
- المبحث الثاني: معالم التجديد والاستقلالية في المقامة المغربية
- المطلب الأول: التداخل مع الرسالة
- المطلب الثاني: الارتباط بأدب الرحلة
- المطلب الثالث: خدمتها لأغراض شعرية / الاستشهاد بأشعار الغير
- المطلب الرابع: الخلو من الكدية
- المطلب الخامس: طول الحجم والإطناب
- المطلب السادس: الارتباط بالبيئة المحلية
- المطلب السابع: الخلو من التعقيد اللغوي
- المطلب الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة

-المبحث الأول: معالم التقليد والاتباع في المقامة المغربية

• المطلب الأول: مقامي عصر المرابطين (ق 5-6هـ / 11-12م)

يبدو أن ما يطبع الحديث عن النتاج الأدبي لمغرب ما قبل المرابطين هو الاحتشام، ذلك أن الحصيلة الأدبية المغربية لعصر الأدارسة سمتها الهزالة لحد الركود الأدبي قياسا إلى ما وصلنا من أدب هذه الفترة محصورا ومحدودا في خطبة طارق بن زياد وبعض النثف الشعرية لبعض الشعراء وأفراد الأسرة الإدريسية، ذلك أن " المغرب فيما بين الوجود الإدريسي لإدريس الثاني وقيام دولة المرابطين، لم يشهد حركة علمية صحيحة، ولم يشارك في نهضة أدبية، ولم يسجل تاريخه الفكري سوى محاولات تجسدت في بعض البحوث الفقهية التقليدية " ⁷⁸. وهذا الركود جعل بعض الباحثين يعتقدون " أن المغرب كان في العصور الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي موطن بطولة وأبطال مغامرين، لا موطن أدب وأدباء وشعر وشعراء " ⁷⁹، ذلك أن انتشار الاضطرابات والحروب والمنازعات السياسية في البلاد آنذاك لم تتح لها فرصة الاستقرار والإنتاج الأدبي والعلمي، علما أن مثل هذه الاضطرابات معلوم وقعها على ضياع الكثير من الآثار الأدبية التي نسمع عنها بيد أن صورتها لم تصلنا ⁸⁰.

والحق يقال، إن أدب كل أمة إنما يتصف بالتعثر والضعف في مراحل نشأته الأولى، ولذلك فقد عانى الأدب المغربي الإدريسي من صراعات المرحلة - وما ترتب عنها من معالم الاضطراب وعدم الاستقرار- مما جعله فاترا هزيلا. ولعل توافر عاملي الأمن والاستقرار هو ما خول للأدب المغربي صورة مختلفة في العصر المرابطي تنأى تدريجيا عن ملامحها العامة المرتبطة بالنشأة الأدبية الإدريسية الخجولة والمحتشمة.

⁷⁸- الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية - . حسن جلاب. مرجع سابق. ص72.

⁷⁹- نشأة الأدب العربي بالمغرب. عبد القادر زمامة. مرجع سابق. ص45.

⁸⁰- يذكر حسن جلاب أنه في خلاله بحثه عن الشعر العربي الذي قيل في المغرب في عصوره الأولى وقف على حوالي مائة بيت قيلت على مدى ثلاثة قرون، ولم تخرج مواضيعها عن المدح (تسع مقطوعات) والهجاء والشكوى و الحنين والغزل والوصف والحماسة والاعتذار (لكل غرض مقطوعة). (الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية - . مرجع سابق. ص85.

لقد شجع الأمراء المرابطون الأدب في الأندلس كما شجعوه في المغرب، ذلك أنهم عملوا على "إنشاء المراكز الثقافية في مختلف أنحاء البلاد بمراكش وفاس وسبتة وطنجة ومليلية وتلمسان، وملحقاتها كمدرسة الصابرين بفاس لسكنى الطلبة... وإرسال بعثات علمية طلابية إلى الأندلس لاستكمال الدراسة بها"⁸¹، فأنتجت جهودهم شعراء مغاربة كالقاضي عياض، وابن زنباع، وابن القابلة، علما أن أغلب الشعراء الذين عرفهم العصر المرابطي يرجع أصلهم إلى الأندلس كابن خفاجة، وابن وهبون، وابن الجد، وابن سارة، وابن الصائغ، وابن الزقاق، وغيرهم ممن جاز المضيف إلى المغرب، أو ممن عبر عن رأيه من الأندلس فمدح المرابطين. إذ أن الملاحظ غلبة المدح على كافة أغراض الشعر المرابطي، فجدية الدولة وميولها الديني/الزهدي جعل الشعراء يقلعون عن تناول أشعار المجون والتهتك فغلب لذلك شعر المدح عليهم، والذي غلب عليه تركيزهم جميعا على جهاد المرابطين في سبيل نصرته الإسلام وحمايتهم للمسلمين بالأندلس. وتبعاً لهذه الوضعيات ترك الأندلسيون بصماتهم بارزة في الشعر المرابطي بل في الأدب عامة، إذ اتخذ الأمراء المرابطون الأندلسيين كتاباً لهم، وهو ما سيجعل النثر المغربي المرابطي امتداداً للنثر بالأندلس. "وحتى الذين برزوا من المغاربة في الكتابة لم يكونوا يبتعدون عن نهج هؤلاء من كتاب المرابطين: كابن القصيرة، وابن عبد الغفور، وعبد المجيد بن عبدون، وابن أبي الخصال... وظهر إلى جانبهم من المغاربة القاضي عياض الأديب الفقيه الذي خلف رسائل إخوانية وخطبا بليغة"⁸². فقد أفرز العصر المرابطي أدب الرسالة وكذا أدب الخطابة وأدب المقامة، "فأما الخطابة فتقتصر على بعض خطب القاضي عياض التي أوردها ابنه في التعريف، وهي خطب وعظية كتبت لتلقى في الجمع والأعياد..."⁸³، وأما المقامة فنمثل لها بالمقامة اليتيمة التي مدح بها أبو عامر بن أرقم تميم بن يوسف، وقد سلك فيها مسلك كتاب هذا الفن من حيث ذكر الراوي والبطل والتزام السجع والطباق وأضرب البلاغة، وبما أنها في المدح

⁸¹ - الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية. مرجع سابق. ص126.

⁸² - نفسه. ص134.

⁸³ - يذكر حسن جلاب أنه تنسب للقاضي عياض زهاء خمسين خطبة تقرأ في جمع السنة والأعياد، وأن ابنه مثل لها بنصين في كتابه "التعريف بالقاضي عياض"، وهو كتاب يضم أيضاً رسائل عياض. تنظر الصفحة 88 إلى 96 من "التعريف".

فإنها لم يحتج فيها للكدية والاحتفال، وقد ذيلها بأبيات شعرية في مدح تميم⁸⁴. وإذا شئنا الإلحاح في شأن تأثير الأدب الأندلسي في الأدب المغربي كما تبين لنا، فإننا لا محالة سنقر بتأثير الأدب العربي المشرقي في الأدب المغربي، ذلك أن الأدب الأندلسي في العصر المرابطي كان شديد التعلق والتأثر بالأدب العربي المشرقي، ومن هنا التفاعل الأدبي بين الأقطاب الأدبية الثلاثة : أدب المشرق العربي – أدب الأندلس – أدب المغرب.

أنشأ المقامة المغربية المرابطية الوحيدة⁸⁵ - في حدود ما أعلم - الوزير الكاتب أبو عامر بن أرقم⁸⁶ في مدح الأمير تميم بن يوسف⁸⁷، والواضح من خلال إخضاعها للدراسة أنها تصنف ضمن المقامات غير التقليدية، إذ يلاحظ عليها افتقارها للبطل والراوي بالمنظور الهمداني التقليدي الصارم، إذ شكل المدح الخالص العمود الفقري لموضوعها، ما جعلها أقرب إلى قصيدة مدحية منثورة، لا تحفل بعقدة أو حيلة أو بطل أو راو بالمفهوم أو التصور الهمداني/الحريري.

ذكر ابن خاقان في القلائد أخبار الكاتب أبي عامر بن أرقم ونبذنا من شعره ورسائله، ثم قال: "ومن كلامه في مقامة أنشأها في الأمير تميم بن يوسف أيده الله ووصلها بالقرطبية، أولها قال فلان بن فلان: ولما اجتيلت ما نصه، واستوفيت ما قصه، قلت: أحق منزل يبرك، فعجت إلى الرواحل لأطوي المراحل، أمل كعبة الآمال وقبلة الآمال. فبينما أنا أسير وقد لظى الهجير... وإذا فتى عليه بزة تشهد له بالعزة... قال: أين أمك وما همك، قلت: غرناطة، فقال: حيث اللمة المشفقة المحتاطة... قلت: وما علمك بها، قال: هي المطلع وإليها بحول الله المرجع... ومن شعره فيها...".

⁸⁴- الدولة المرابطية - قضايا وظواهر أدبية. مرجع سابق. ص 136 - 137.

⁸⁵- مثبت نصها بقلائد العقيان للفتح بن خاقان. ص 140-141.

⁸⁶- ترجم له ابن خاقان في القلائد بقوله: "فريد الوقت وابن فريده، وعميد الكلام وابن عميده. كان الوزير الكاتب أبو الأصبح أبوه قد أربى على أهل أوانه، واستقر بكتابة زمانه فنبت أبو عامر في تربة العلم ونشأ في حجره، وشدا بين سحر البيان ونحوه، ثم لم يزل على كد الطلب وتعبه أصبر من عود قد عضت جنباه بخلبه، حتى ارتوى من صافي الأدب وغيره، واحتجن من مصوحه ونضيره، فجمع بسعة باعه ورحب ذراعه، ويُشهد أنه يغرف من عجاج ويدع محاربه يعمه في عجاج". ص 139.

⁸⁷ - المراد : الأمير المرابطي تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم المرابطين. وأما الأمير المرابطي الذي ألف له ابن خاقان كتابه قلائد العقيان فهو أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين. (ينظر في ذلك: تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان لابن زاكور الفاسي (ت 1120هـ). تحقيق: بوشتي السكيوي. ص 55).

ولنلاحظ أولاً كيف استهل ابن خاقان المقامة (ومن كلامه في مقامة) وكيف أنهاها (ومن شعره فيها)، فالواضح أنه قد أعمل مقصده فيها بالحذف، فلم تردنا كاملة كما أنشأها صاحبها، فتصرف ابن خاقان فيها بالبتز لابد وأن يكون لطولها، فقد وردت في صفحة وربع الصفحة من مطبوع القلائد (حجم متوسط). ثم لنلاحظ ثانياً هذا الانحراف المبكر للمقامة المغربية عن مسار المقامة الهمدانية / الحريرية من حيث خلوها التام من الكدية كموضوع رئيسي ، بل ومن مبدأ الاحتيال والنصب لكسب الرزق. ثم نلاحظ ثالثاً قفز ابن أرقم عن تسمية البطل أو الراوي في مقامته ، ذلك أنه احتكر الدورين ، ولم يخلق الحوار بين البطل والأمير أي مؤشرات لظهور العقدة في المقامة ، ذلك أن قيامها على المدح أفقدها عنصري الجذب والتشويق المرتبطين عادة بالعقدة والحل. ثم إننا نلاحظ أخيراً في باب الخروج المبكر عن تقاليد المقامة المشرقية العربية طغيان الشعر على المقامة لحد تساوي المتن الشعري فيها بالمتن النثري ، وكذا قصر حجمها الشديد والذي أرده - فيما أعتقد - إلى تصرف ابن خاقان فيها بالبتز على غرار ما فعل ابن بسام بمعظم المقامات الأندلسية التي أوردها في ذخيرته ، مبرراً أعماله لمقصده فيها بالحذف بشدة طولها . ومن هنا تبرز ذاتية ابن خاقان في نقله للمقامة من حافظته ، وما قد يترتب عن ذلك من عدم فهمنا التام للمقامة.

وإذن ، فغير تقيد هذه المقامة المرابطية الوحيدة بتقاليد المقامة المشرقية العربية من حيث الشكل والإيقاع أو إعادة تناول موضوع المدح كغرض شعري ضمن فن نثري، فإن مقامة ابن الأرقم باعتبارها نواة المقامة المغربية تمثل انحرافاً مبكراً عن تقاليد المقامة المشرقية من حيث خلوها من عدة عناصر متجذرة في إنشاء المقامة المشرقية (كدية- احتيال - نصب - عقدة - راو...)، وهو ما يجعل المقامة المغربية تتخذ لها شكلاً خاصاً بها منذ نشأتها المرابطية الأولى، وهو شكل يجد تمظهراته ومعانيه في المجتمع المرابطي المتشعب بالتيار الفقهي، ولذلك لاغرو أن يتجه أدبه ذلك الاتجاه الأخلاقي الموعظ في البعد عن المجون أو السؤال.

● المطلب الثاني: مقامي عصر الموحدين (ق6هـ/12م)

أفرز العصر الموحي بدوره مقامة وحيدة حسب ما قادتني إليه المصادر والمراجع، وهي المعروفة بالفاسية لمنشئها الوهراني (ت 575هـ/1179م)⁸⁸. وإذا كان عامر بن أرقم المرابطي قد بدا أكثر تحررا من تقاليد المقامة البديعية فإن الوهراني بدا أكثر ارتباطا بها، محاكيا للهمذاني في مقامته القريضية تحديدا.

أشار إلى هذه المقامة الباحث المغربي سعيد أعراب ونشرها محققة⁸⁹ نقلا عن الزياتي في أنيسه مكتفيا بإصدار بعض الأحكام العامة في شأن نشأة المقامة بالمغرب، وارتباط المقامة الفاسية بواقعها الموحي وتعبيرها عنه وتصويرها له. فقد ذهب إلى أن " المقامة فن من فنون الأدب ، ظهر بالمغرب – أول ما ظهر بصورته الفنية البديعة – في العصر الموحي، وربما نجد له أصداء قبل هذا العصر. فقد ذكر مؤرخو الأدب، أن الحريري لما طلع على الناس بمقاماته، وبهرهم بفته اتهموه بأنه قد اختلسها من أديب مغربي ونسبها لنفسه"⁹⁰. ونحن نتفق تماما معه حين يربط نشأة المقامة المغربية بالعصر الموحي، معترفا بوجود بوادر سابقة على العصر الموحي للكتابة في فن المقامة، ويستدل على إمكانية حدوث ذلك – في العصر المرابطي – بما عبر عنه ضمنا بالنبوغ المغربي حين أحال علينا ما ذكره ابن خلكان في وفياته عن اتهام الحريري بسرقة مقاماته من أديب مغربي ونسبتها لنفسه.

وقد عرف أعراب الوهراني بقوله: " أبو عبد الله محمد بن محرز الوهراني، ولد بوهران أوائل القرن السادس الهجري، وتجول في بلاد المغرب،... ثم لحق بالمشرق... لكنه وجد من أقطاب الأدب لهذا العهد، القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وقد طبقت شهرتهما الآفاق... فشعربكساد سلعته... فاخترع أسلوبا فكاها... فأقبل عليه الناس... فألف رسائله أو مقاماته وتعرف بمنشآت الوهراني، وهو فن لم يسبق إليه، وله في هذا الصدد كتابات (المنامات) سلك فيه مسلك أبي

⁸⁸ - "محمد بن محرز بن محمد أبو عبد الله الوهراني، منشئ من أكابر الظرفاء، أصله من وهران، أقام زمنا في دمشق . له تصانيف منها: الرسائل – رفقة عن مساجد دمشق – المنامات". (ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج.1. ص518).

⁸⁹ - ينظر في ذلك : سعيد أعراب. (المقامة الفاسية لابن محرز الوهراني). (مجلة البحث العلمي). 1965. (ص195-204).

⁹⁰ - نفسه. ص195.

العلاء في رسالة الغفران"⁹¹ قال ابن خلكان: "ولو لم يكن له منها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلاوة"⁹². و تذكر المصادر أنه طوف بكثير من البلدان، واستقر به المقام في بلاد الشام، إذ تولى الخطابة ب "داريا" من قرى دمشق، وبها توفي سنة 575هـ/1179م.

وقد أقام أبو عبد الله الوهراني بفاس مدة، واتخذها - كما قال - وطنا له ، والدولة الموحدية في أوج عزها وعظمتها، ومدينة فاس تعج بالعلماء والأدباء ورجال الفكر، وهي كعبة الوافدين من سائر الأقطار، اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، وصارت تدعى بغداد المغرب.⁹³

وفي رحاب فاس - المدينة المغربية العلمية العريقة - وبين رياضها وبساتينها الفيحاء أنشأ الوهراني مقامته الفاسية، أو ربما خيل له أنه بها، وقد داعبت مشاهدتها مخيلته، إذ من المرجح أنه أنشأها ببلاد المشرق في بعض جهات الشام تحديدا، وإلا لما استطاع أن ينتقد في مقامته الدولة الموحدية وهو في عقر دارها، أو أن يهاجم الدولة المصرية وهو ضيف عليها.

لقد اتخذ الوهراني - فيما أعتقد ، وعلى غرار المتعارف عليه لدى جل كتاب المقامة - من شخصية وهمية تدعى أبا الوليد القرطبي بطل الرواية في المقامة الفاسية، مصبغا عليها سمات العلم والأدب والثقافة الواسعة ، و المعرفة بسلوك الناس وأحوالهم ، و منحاهم الفكرية والأدبية، وظروفهم السياسية والاجتماعية، استنتظها في شؤون الفكر والأدب والسياسة، وهو يرمي من وراء ذلك كله إلى نقد المجتمع المغربي الموحد في شخص طائفة من العلماء والأدباء ورجال الحكم ذكرهم بأسمائهم، أو ربما اخترع لهم أسماء من عنديته، وهم ست وثلاثون شخصية عمد إلى تحليل شخصياتهم، مضميا على بعضهم حلل المدح والثناء والإطراء، مستطردا لذكر مساوي الدولتين الصقلية والمصرية، منوها بشأن دولة بني حمدان.

ونحن نلمس في مقامة الوهراني تحولا ظاهرا في سياق المقامات المعتاد والمألوف، فقد مثلت المقامة الفاسية درسا أدبيا اجتماعيا، وبعبارة أدق فهي "تمثل اتجاهها نقديا، تعلم عزة النفس، ولا تهدف إلى احتيال أو كدية أو استجداء مع إظهار البراعة البلاغية، والقدرة اللغوية. وهي في أسلوبها نابضة بالحياة ، لا تخلو من متعة وروعة، وتُعنى بتضمين الشعر والاقتراس من القرآن

91- سعيد أعراب. المقامة الفاسية لابن محرز الوهراني. مرجع سابق. ص195-196.

92- ابن خلكان. وفيات الأعيان. ج4. ص19.

93- ينظر في ذلك : المعجب للمراكشي. ص58.

والحديث ، وضرب الأمثال، وتصيد الحكمة. تصطبغ باللون المحلي، وتتجلى فيها المزاياء التالية: سهولة المأخذ وعدم تكلف الغريب الوحشي- روعة الدعابة والظرف- مرارة التهكم والهجاء"⁹⁴. وهي فوق طرافتها - بوصفها قطعة أدبية - لها قيمة تاريخية كبرى، تصور لنا الحياة الفكرية والاجتماعية في العصر الموحد مما يجعلها في خدمة بيئتها الاجتماعية الخاصة منطلقاً منها، رامية إلى إعادة تشكيلها وإصلاحها عبر النقد البناء والهادف، والذي يمتطي أدب المقامة ويجعل منه لسانه.

وأما ما يبرز فيها من معالم الاتباع، فما نلمسه فيها من تشابه مع المقامة القريضية للهمذاني، وهو مظهر اتباعي مألوف لدى الوهراني لاحظته عليه عدة باحثين، فقد "عرف عنه اتكاؤه الشديد على تعابير الحريري، والأشد على تعابير الهمذاني. ولا ريب في أنه أدنى في الإنشاء طبقة من الهمذاني والحريري"⁹⁵. له ثلاث مقامات اثنتان منها في غرض التعليم، والثالثة ذات هدف أخلاقي صرف، وهذه المقامات "تنفر من التكلف والصنعة اللفظية...ترك فيها الكدية والاستجداء، بينما حافظ على عنصر القص والهزل، ويبدو أن غايته كانت تعليمية وأخلاقية لا أكثر"⁹⁶. فمقامات الغرب الإسلامي (أندلسية ومغربية) جنحت إلى تسهيل الوعورة التي اتسمت بها مقامات المشرق، وهذه سمة خاصة تميز المقامة المغربية عن مثيلتها المشرقية. أول المقامة⁹⁷: "دخلت مدينة فاس، في أيام أبي العباس"⁹⁸، فرأيتها تجاوز الأوصاف على طريق الإنصاف، فعشقها شيطاني فأقمتها مقام أوطاني، فحضرت يوماً في بعض بساتينها، مع قوم من أهل دينها، وفيهم أبو الوليد القرطبي، وسلطان الكلام يأمره فيوالفه، وينهاه فلا يخالفه"⁹⁹.

⁹⁴- سعيد أعراب. مرجع سابق. ص196-197.

⁹⁵- عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي. ج5. ص446.

⁹⁶- محمد عوض. فن المقامات بين المشرق والمغرب. ص290.

⁹⁷- تبدو متوسطة الحجم (4 صفحات ونصف الصفحة من الحجم المتوسط)، ويبدو أن قصر المقامة ليس سمة ملازمة للمقامة المغربية، فقد قادتنا الملاحظة لتبين التزامها بالإطناب في عصور مختلفة وذلك على غرار المقامة الأندلسية. ومن هنا، الخصوصية في مقامة الغرب الإسلامي.

⁹⁸- لعله أحد عمال مدينة فاس في العصر الموحد.

⁹⁹- اقترب كثيراً من عبارة الهمذاني في المقامة المضيرية: "حدثنا عيسى بن هشام، قال: كنت بالبصرة ومعني أبو الفتح الإسكندري، رجل الفصاحة يدعوها فتجييه، والبلاغة يأمرها فتطبعه".

...فقالوا يا أبا الوليد...ها نحن سائلوك...فقال: أنا أوضح إشكالكم فاسألوا عما بدا لكم. فقلنا ما تقول في القاضي أبي القاسم؟ فقال: علم الأعلام وشيخ الإسلام... قلنا: فما تقول في ولده علي؟...¹⁰⁰. ومنها: " قلنا فما تقول في الدولة الصقلية؟ فقال: دم مطلول ، وصارم مغلول ، وأنف مخزوم ، وعسكر مهزوم ، ودولة مائلة ، وسعادة زائلة... ولا بد أن يصير لهم ما صار لأهل الأندلس وتبقى معالمهم درسا"¹⁰¹. ومنها: " قلنا فما تقول في الدولة المصرية؟ قال: عجوز محتالة ، وروضة زاهرة ، وامرأة عاهرة ، رُبيت في السعود ، ونشأت بين الطبل والعود"¹⁰². وآخرها: " قلنا فما تقول في ابن الأبار؟ فقال: رجل عطار وبائع إبزار... وأنشد... قال : فدعونه وسائر القوم وخرجنا من المدينة في ذلك اليوم"¹⁰³. ولنلاحظ هذه النهاية غير المألوفة والتي لا يعمد فيها البطل إلى الهروب مخافة اكتشاف حيلته وألعيه، إذ نجد أهل مدينة فاس هاهنا يدعون البطل ويرحبون به عوض أن يودعوه، وهو مظهر من مظاهر الكرم المغربي الذي باحت أيضا به المقامة البربرية للسرقتي، وإن نَحَتْ جاهدة منحى الاستصغار والتحقير للعنصر المغربي البربري.

¹⁰⁰ - يبدو تأثر الوهراني بالهمذاني في المقامة القريضية واضحا في المقطع الآتي منها: "قال: سلوني أجبكم واسمعوا أعجبكم،

فقلنا: ما تقول في امرئ القيس؟ قال : هو أول من وقف الديار...قلنا فما تقول في النابغة؟...".

¹⁰¹ - سعيد أعراب. المقامة الفاسية. ص202 (نص المقامة) .

وقد تحققت فعلا نبوءة الكاتب ومحيت من خريطة دول الإسلام أواخر العصر الموحي.

¹⁰² - المقامة الفاسية. ص202.

¹⁰³ - نفسه. ص204.

● المطلب الثالث: مقاميو عصر المرينيين (ق7و8هـ/13 و14م)

✓ الفرع الأول: عبد العزيز الملزوزي (ت667هـ)

يكنى الشاعر أبا فارس، ويسمى عبد العزيز، ويعرف عند العامة بعزوز. وأما اسم أبيه فبعد الواحد بن محمد، كذا ورد في كتابه (نظم السلوك)¹⁰⁴. وهو (ملزوزي النجار) ينمى بنسبه إلى قبيلة ملزوزة الزناتية، وهذه النسبة التي كانت تصاحبها معرفة جيدة باللسان العربي هي التي يسرت له الحظوة فيما بعد. وشاعرنا أيضا (مكناسي الدار) أي أنه من سكان مدينة مكناس وقطانها، ولا تفيد هذه النسبة الدراية أنه ولد في تلك المدينة حتما. فكتب التاريخ تسكت عن مكان ولادته وتاريخها، وعن كل ما يتعلق بنشأته وطلبه للعلم والشيوخ الذين أخذ عنهم.¹⁰⁵

¹⁰⁴ - "نظم السلوك في ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك"، لأبي فارس عبد العزيز بن عبد الواحد الملزوزي. وهو عبارة عن أرجوزة يبلغ عدد أبياتها 1325 بيتا من بحر الرجز. وأما موضوعها فيدلنا عليه عنوانها. عرف في أولها بآدم وبنيه، وبنوح ومن تناسل منه، وبالأنبياء، ثم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وبخلفائه الراشدين، ثم بالدولتين الأموية والعباسية، ثم بالقائمين بالمغرب إلى المرابطين، فالموحدين ثم تخلص إلى بني مرين.

ومن الملاحظ أن بني مرين والسلطان يعقوب بن عبد الحق منهم على الخصوص كانوا هم المقصودين بالأرجوزة، فقد أوجز إيجازا فيمن عداهم، وأطنب إطنابا عظيما في ذكر أيام بني مرين، وذلك خلافا للأراجيز التي تبنى غالبا على الإشارات العابرة والاختصار والتقصير. وقد أنهى الملزوزي أرجوزته بحصار المنصور المريني لشريش سنة 684 للهجرة. وقد رفعها إلى مخدومه السلطان يوسف بن عبد الحق.

ظلت أرجوزته من بين الآثار التاريخية العديدة التي بقيت المغاربة يسمعون بها ولا يعرفون منها إلا القطع التي استشهد بها المؤرخون المرينيون في كتبهم التاريخية، ومن ذلك:

- كتاب: "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" لعلي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. ص19 (ست أبيات) // ص26 (بيتان).
- كتاب: "الأنيس المطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس". لعلي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. الصفحات: 367-370 - 391 - 395 .

فقد بقيت أرجوزته التاريخية مغمورة بل معدودة في حكم المفقود حتى تم العثور عليها ضمن مجموع أثناء ترتيب كتب الخزانة السلطانية بفاس بعد نقلها إلى الرباط. (ينظر في ذلك تصدير "نظم السلوك" وهو من مطبوعات القصر الملكي بالرباط. 1963.

ص10-11)

¹⁰⁵ - المصدر نفسه. ص6-7 (من تصدير كتابه).

إن أول ما يتحدث عنه التاريخ أنه "كان شاعرا مُكثرًا سيال القريحة منحط الطبقة"¹⁰⁶، متجنّداً، عظيم الكفاية والجرأة، جسورا على الأمراء، علق بخدمة الملوك من آل عبد الحق وأبنائهم، ووقف أشعاره عليهم، وأكثر النظم في وقائعهم وحروبهم، وخطب المعرب باللسان الزناتي في مخاطباتهم، فعُرف بهم، ونال عريضا من دنياهم، وجما من تقريبيهم."¹⁰⁷ وعن أرجوزته يخبرنا ابن الخطيب أنه "نظمها بالخضراء في شوال سنة أربع وثمانين وستمائة، ورفعها إلى السلطان أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق سماها بنظم السلوك...لم يقصر فيها عن إجادة"¹⁰⁸.

ومن المرجح أن اتصاله بالأمراء المرينيين كان في السنة التي تم لهم فيها الاستيلاء على مكناس وهي سنة 646هـ، ولكنه منذ اتصل بهم أصبح شاعرهم المفضل وطائرهم الغريد يقصر عليهم مدحه، وعلى أعدائهم هجاؤه، ويخلد وقائعهم وحروبهم بقصائد غر طوال¹⁰⁹. وقد بلغ من دالته عليهم وحظوته لديهم¹¹⁰ أنهم قتلوا الشاعر عبد المهيمن البلذوزي ترضية له لما هجاه. ثم تتحدث كتب التاريخ عن نكبته وقتله خنقا بسجن فاس بسبب سعاية سعيت به جناها تهوره في وسط عام 667هـ، وهي نفس السنة التي قتل فيها البلذوزي جبرا لخاطره (لما سعى به أو هجاه).¹¹¹

¹⁰⁶ - الإكثار وإطالة النفس جعلاً شعره يشتمل على الغث والسمين والرخيص والثمين، ولعل هذا هو ما عناه ابن الخطيب في إحاطته بـ "منحط الطبقة".

¹⁰⁷ - الإحاطة في أخبار غرناطة. لسان الدين بن الخطيب. تحقيق: محمد عبد الله عنان. ص20.

¹⁰⁸ - الإحاطة. ص.21

¹⁰⁹ - ينظر: الأنيس المطرب المشهور بالقرطاس لابن أبي زرع. الصفحات: 152- 367- 370- 391- 402- 476- 495. وينظر: الذخيرة السنوية لابن أبي زرع. الصفحات: 126- 127- 128. وهي من 51 بيتا رفعها إلى أمير المسلمين يعقوب بمدحه ويحرضه على غزو يغمراسن بن زيان أولها:

" أرى كل جبار بسيفك يصغر
وكلّ ملك عن فعالك يقصر"

¹¹⁰ - أبرزهم عبد الله يوسف أمير المسلمين بن يعقوب بن عبد الحق، وكنيته أبو يعقوب، ولقبه: الناصر لدين الله. ومن شعرائه: الفقيه البارع مالك بن المرحل، والفقيه الأديب أبو فارس المكناسي (المترجم له).

¹¹¹ - نظم السلوك. مصدر سابق. ص.7.

وإلى مثل ذلك يذهب ابن الخطيب في إحاطته. ص26.

تنسب إلى الملزوزي مقامة " طرفة الظريف في أهل الجزيرة وظيف "112، وهي من المقامات التي تدلنا على مظاهر العداوة بين العدوتين، ذلك أن فيها تجريح مغربي للأندلسيين يذكرنا بتجريح السرقسطي الأندلسي للمغاربة في مقامته المسماة بالبربرية، فمقامة الملزوزي دليل خصومة مجانية تذكر المصادر التاريخية أن الأندلسيين هم الذين بدأوها، إذ " يمكن أن نقرر منذ البداية أن الأندلسيين كانوا على العموم هم البادئين بالتجني على أهل العدو الذين كان لهم الحظ الأوفر في فتح الأندلس والإسهام في بناء حضارتها أولاً، ثم الذود عن حماها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانياً "113. كما أن الفتنة القرطبية كان لها وقعها على العلاقة بين العدوتين، ذلك أن جل المؤرخين الأندلسيين يصرون على تسميتها بالفتنة البربرية ناسبين إياها إلى المغاربة محملينهم مسؤوليتها، مستنكرين قضاء يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف وكذا خشونة المرابطين وجندهم. ثم إلى ما وصلت إليه الأندلس من حضارة وعمران منذ عهد الأمويين (138-414هـ) ترد خصومة الأندلسيين للمغاربة وتعاليمهم عليهم، "فقد جعلتهم هذه الحضارة يتبجحون على أهل العدو، وزادهم شعورا بالاستعلاء بسط نفوذهم على المغرب في عهد عبد الرحمان الناصر (299-350هـ) ومن جاء بعده"114. بيد أن المغرب ظل سمحا تجاه الجارة الأندلسية مستقبلا لجالياتها بحفاوة - من جالية الربض حتى جالية الموريسكيين- مستقطبا لكتابها ملحقا بهم مناصب القضاء والوزارة، محتضنا أبناءها ممن فضلوا الاستقرار بالمغرب.

إن نص "طرفة الظريف" يتأرجح بين جنسين أديين هما: الرحلة والمقامة، فعنوانه أشبه ما يكون بدعوة إلى رحلة شقها الأول يهم ارتسامات سلبية للملزوزي عن الإنسان والمكان الأندلسيين

112 - ينظر في نص المقامة محققا: محمد بن اشرفية. (من منافرات العدوتين). (مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية). الرباط. العدد الأول. 1977 (ص7-49). (ص25-43).

وأما مسألة نسبتها إلى الملزوزي فقد حسم فيها الأستاذ ابن شريفة بالإيجاب مستغربا عدم ذكر ابن الخطيب لمقامة طرفة الظريف في إحاطته: "فهل يكون ابن الخطيب أغفل ذكرها عن عمد وقصد لما تضمنته من هجاء لأهل الأندلس، أم أن الأمر لا يعدو أن يرجع إلى عدم وقوفه عليها؟". ص16.

113 - من منافرات العدوتين. مرجع سابق. ص8.

114 - نفسه. ص8.

بطريف، وشقها الثاني عن الإنسان و المكان الأندلسيين بالجزيرة الخضراء. ثم إنه مقامة من حيث اقترابه من طبيعة المقامة بخصائصها المعروفة، وحفاظه على أركانها التقليدية. ومما يؤسف له أن المقامة وصلتنا مبتورة المطلع¹¹⁵، أولها: "...قال عبد العزيز فكنتمته و لكبدي أزيز، فقالوا لأحدهم: خذ وَرَقْنَا أيها الرجل الظريف، وسق لنا بها من طرائف طريف، فكان رجوعه بالطرائف والطرّف قبل أن يرتدّ إليّ الطرفُ..."¹¹⁶ ومنها: "فقلت له: خبيكم الله وقبحكم ومساكم في الذل وصبحكم، مالي رأيتم قبل كالإخوان، ففرقكم ما سيق في الخوان... "117" ، ومنها : "فدخلت طريف ، فوجدتها بصد اسمها فدعوت الله بمحو رسمها، ورأيت القصة أضيق من أنبوب القصة "118" ، ومنها قوله: "فما يترجى من قوم تغيرت ألسنتهم وأقوالهم، وتبدلت سيرهم وأحوالهم، يرون الخطأ صوابا، والمأثم ثوابا، قد قرأوا الخيانة قبل الديانة، وتعلموا الوضاعة قبل الرضاعة... لا فرق عندهم بين الفلك والفلق، ولا بين الملك والملق، والحبك والحبق، والشرك والشرق "119" ، ومما ورد فيها تمهيدا للنهاية قوله: "ولما طال في الجزيرة المُقام المتوالي في صُحبة المقام العالي، خشيت أن تفسد الطباع وتستنعج السباع والجمر يخمد إن وضع في الرماد، ولؤم الجزيرة يؤثر حتى في الجماد "120" . وقد اختتمها الملزوزي بثلاثة أبيات شعرية قال: " فعندما تركت الجزيرة خلفي ، وطمعت في اجتماعي بالفي، نظرت إليها بعدما أبعدها، وأمسكتُ لحيّتي في يدي وأنشدتها:

إذا ما عُدتُ نحوكِ فاحلّقِيها بِموسى أو بِقارٍ فأنثِقِيها
وقلّ للجزيرة الخضراء مهما ركبْتُ الفلّكَ نحوكِ عرّقيها
فما أبصرتُ في الخضراء إلا وجوهاً يستبِينُ اللؤمُ فيها "121

¹¹⁵- النسخة الوحيدة التي وصلتنا بتحقيق محمد بن شريفة استعارها من المكتبة الخاصة لمحمد المنوني ووجد أنها مبتورة الأول.

¹¹⁶- نص المقامة. ص25.

¹¹⁷- مقامة طرفة الطريف. ص25.

¹¹⁸- مقامة طرفة. ص35.

¹¹⁹- مقامة طرفة. ص37.

¹²⁰- مقامة طرفة. ص42.

¹²¹- مقامة طرفة. ص43.

فالواضح أن المقامة هي في ذم الأندلس إنسانا ومكانا، أقامها الملزوزي على أربعة مجالس شكلت مقطوعات وهي: مجلس مع أهل طريفة - مجلس مع أهل الجدار - مجلس مع إمام يصلي بالناس - مجلس مع القاضي ابن عذرة، إذ رصد مساوئ الأندلسيين في أماكن متنوعة وأبرزها فيهم من جوانب متعددة:

- في المقطوعة الأولى: عاب عليهم طريقة أكلهم، قال: "بل أنتم ككلاب عند جيفتهم بعض ينال، وبعض خلفه يثب"، وعاب عليهم نسيانهم لوحدتهم وتفرقهم واعتدادهم بالماضي وفخرهم بأجدادهم .

- في المقطوعة الثانية لما دخل الجزيرة في يوم قانظ طالبا جرعة ماء: عاب عليهم البخل لما طالبه أحدهم بالثمن، "قال أحدهم: هات حقها، وتكون مستحقها".

- و في القسم الثاني من المقامة (المقطوعة الثالثة والرابعة): عاب عليهم تبدل ألسنتهم، وبالتالي تحريفهم للقرآن الكريم وتغييرهم لأحكام القضاء.

فقد تضافرت المقطوعات الأربع ضمن قسمي المقامة (طريف/الجزيرة) لتقدم الإنسان الأندلسي في أسوأ صورة إنسانية، ذلك أن العيب لا يكمن في أصوله المشرقية ولا في الأندلس كمكان جغرافي، وإنما مكمنه في سلوكات الأندلسيين وفي أخلاقهم. وقد أبرزت المقطوعة الأولى أصول أهل طريف العريقة (الأوس- الخزرج- غسان- حمير- لحم - فزار- طي...) وسلوكهم المشين، إذ وجد الملزوزي في هذا التناقض بين النسب والأفعال ما يبرر تعبيره لهم (وهو الراوي والبطل في نفس الآن)، وهو تعبير توصل فيه الملزوزي بالمنظوم قدر توصله بالمنثور مما جعل المقامة أقرب إلى قصيدة نثرية.

وقد احتفظت مقامة "طرفة الظريف" بعناصر المقامة المعروفة همذانية وحريرية غير أن الملزوزي تصرف في توظيف هذه العناصر: فالراوي في طرفة الظريف يجمع بين وظيفة الراوي ووظيفة البطولة، والجمهور يشارك بالحوار والرواية، وأما الحدث فقد ظل بسيطا غير أنه متعدد، ويرجع تعدده أساسا إلى أن الملزوزي استطاع أن يدمج بعض خصوصيات أدب الرحلة في بنية المقامة (رسم المشاهد - تسجيل الارتسامات - مزج التسجيلات الوصفية بالحكاية والواقع بالخيال). ولعل ارتباط المقامة بأدب الرحلة سمة بارزة في أدب المقامة بالغرب

الإسلامي، ذلك أنه سجلنا ارتباط هذه المقامة المرينية بفرن الرحلة، تسجيلنا السابق في الباب الأول من هذه الدراسة لارتباط المقامة الأندلسية بالرحلة (استحداث ابن الخطيب للمقامات البلدانية).

أما من حيث الشكل فنسجل على المقامة طولها - على غرار المقامات الأندلسية - إذ بلغت زهاء عشرين صفحة (من الحجم المتوسط)، و "يبدو أنه ضاعت منها ورقة على الأقل وهي تشتمل على اسم الكاتب وأول الرحلة أو المقامة، وأما اسمها فنجد في آخرها حيث نقرأ ما يلي : تمت طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف، ولا نجد فيها ما يشعر بتاريخ كتابتها أو نسخها أو ناسخها"¹²²، كما أن أسلوبها يتشابه مع ما وصل إلينا من شعر الأديب المريني الملزوزي شكلا ومضمونا، " فأما من حيث الشكل فيتمثل ذلك في سهولة النظم وسيولة القريحة وغلبة الطبع والارتجال على الصنعة و الاحتفال، وارتكاب بعض الضرائر الشعرية، وجميعها من مظاهر نظم الملزوزي ولاسيما في أرجوزته التاريخية"¹²³.

وإذن، فالمقامة تمثل جانبا من المراسقات القلمية التي كانت بين العدوتين - والتي ستشغل حيزا هاما في الباب الأخير من هذا البحث - والتي اتخذت من فن الرسالة و المناظرة و كذا المقامة لسانها ، بل انعكس التوتر في العلاقات الأندلسية المغربية على الحياة الأدبية برمتها فطال الشعر "و إذا كنا لا نعرف لهجة الملزوزي في قصيدته لأنها لم تقع إلينا فإن قصيدة ابن المرحل حافلة بالعتاب الرقيق حينا و الشديد حينا آخر، وقد خرج في آخرها إلى التقرير و التوبيخ و ذلك حين ينتقد أخلاق الأندلسيين و جيشهم فيقول : لولا رجال مرين قاتلوا عنكم لكنتم كالنساء الخرد"¹²⁴ .ولا يهمنها هنا الاستطراد في الخصومات الشعرية بين العدوتين، و إنما مالك بن المرحل - صاحب المقامة الزهدية أو النجدية - ثاني مقامي من مقامي العصر المريني.

¹²²- من منافرات العدوتين. مرجع سابق. ص14.

¹²³- نفسه. ص16.

¹²⁴- نفسه. ص19.

✓ الفرع الثاني: مالك بن المرحل (ت699هـ)

ذكره ادريس الكتاني في باب من اشتهر في عصره ووقف على التعريف به من صلحاء وعلماء خارج باب الجيسة، قال: "منهم الشيخ الإمام العالم الهمام النحوي الأديب اللغوي الأريب الشاعر المغلق أبو الحكم وأبو المجد مالك بن عبد الرحمان بن علي بن عبد الرحمان بن فرج بن أزرق بن منير بن سالم بن فرج...المصمودي مولى بني مخزوم المعروف بابن المرحل...سبتي الدار مالقي النجار مولده بمالقة في سابع عشر المحرم فاتح أربعة وستمئة.سكن بسبته طويلا ثم رحل إلى مدينة فاس ثم عاد إلى سبته مرة أخرى ثم رجع إلى فاس حتى توفي بها...عام تسعة وتسعين وستمئة" ¹²⁵ . "كان شاعرا رقيقا مطبوعا سريع البديهة رشيق الألفاظ ، ذاكرا للآداب واللغة، وكان ربما تحرف بصناعة التوثيق ببلده، وولي القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها، وكان حسن الكتابة، والشعر أغلب عليه، أنهضه أدبه وشعره، وكان شاعر المغرب" ¹²⁶ . وما يؤكد نبوغه الشعري أنه في سنة 662هـ نظم قصيدة من 51 بيتا حرض فيها بني مرين وسائر المسلمين على جهاد النصارى بالأندلس لنصرة المسلمين المستضعفين، فقرئت بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة فبكى الناس عند سماعها وانتدب كثير منهم للجهاد، ومطلع القصيدة :

استنصر الدين بكم فأقدموا
فإنه إن تُسلموه يُسلم ¹²⁷

ومما ذكره لسان الدين بن الخطيب في معرض ترجمته له : "ويعرف بابن المرحل، وصف جرى على جده علي بن عبد الرحمان لما رُحِّلَ من شنتمرية... وقد ذكر طائفة من مترجميه، أنه مصمودي بربري ينتمي إلى عائلة مغربية مصمودية وأن جده الأعلى قد انتقل من الأندلس، ولكنه رجع إلى وطنه الأول، واستوطن فيه" ¹²⁸ .

¹²⁵- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس.محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني.نسخة حجرية. ص99.

¹²⁶- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. أحمد بن القاضي. ص327.

¹²⁷ - الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية. علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي. ص98.

¹²⁸- الإحاطة. ج:3. ص304.

وقد غادر ابن المرحل العدو الأندلسية إلى العدو المغربية لأسباب عديدة ربما كان أهمها:

- الوضع السياسي والعسكري القلق والمنهار الذي طرأ على الأندلس نتيجة ضعف المسلمين وحكامهم، واشتداد قبضة الحملة الصليبية الضاربة التي صارت تطال الكثير من مدائنها ومن بينها اشبيلية التي قضى بها ابن المرحل فترة من شبابه.

- الوضع المالي والاقتصادي السيء الذي كان عليه ابن المرحل، إذ على الرغم من توليه خطة صناعة التوثيق أولاً والقضاء فيما بعد، فقد كان ضيق العيش رفيق أيامه.

- ما كان يشهده من الاستقرار السياسي في العدو المغربية، وبخاصة مدينة سبتة، وازدهار الحركة الفكرية فيها برعاية من حكام سبتة أمثال ابن خلاص وأبي القاسم الغرفي - كما تؤكد المصادر والمراجع - وتشجيعهم العلماء الأندلسيين الوافدين على الإقامة برُبوع سبتة.¹²⁹

ومن الإشارات الدالة على مكانته لدى الحاكم في البلاط المريني ما استقل بذكره علي بن أبي زرع، حيث ذكر أن دولة أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني " قد اختص جماعة من الفقهاء لمجالسته ومنادمته، منهم... الفقيه الأديب القدوة مالك بن المرحل..."¹³⁰، فقد كان ينعم بحظوة ومنزلة لدى البلاط المريني، وكان يحيا بفضل مكانته العلمية حياة منعمة مع كبار رجال الدولة المرينية في فاس مستقره التي أنفق في ربوعها السنوات الأخيرة من عمره (عاش خمسا وتسعين سنة).

لقد تعرض محمد السولامي للمقامة النجدية لمالك بن المرحل في دراسته¹³¹ دون أن يشير إلى النسخة التي اعتمدها في بحثه، بل وأورد مقاطع محددة منها دون أن يحيل على المصدر الذي اقتبس منه مقاطع المقامة التي أورد. كذلك وجدت الباحث محمد مسعود جبران يخصصها بالدراسة¹³² مكتفيا بالإشارة بتلميح إلى مظانها، إذ ذكر: " نشرت هذه المقامة بمجلة البحث العلمي. ع س."¹³³. ولم يكن من اليسير تصفح كل أعداد المجلة المحال عليها للتوصل إلى نص المقامة،

¹²⁹ - مالك بن المرحل أديب العدوتين. محمد مسعود جبران. - بتصريف - ص 67.

¹³⁰ - الذخيرة السنوية. مرجع سابق. ص 98.

¹³¹ - المراد: رسالته الجامعية "فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي". مرجع سابق.

¹³² - المراد: رسالته الجامعية "مالك بن المرحل أديب العدوتين 604هـ - 699هـ - دراسة تحليلية في أخباره وأثاره وتحقيق نصوصه الأدبية الباقية". كلية الآداب بالرباط. إشراف د. محمد بنشريفية بتاريخ: 13/01/1997.

¹³³ - مالك بن المرحل أديب العدوتين. محمد مسعود جبران. هامش 2. ص 252 (لم يسم مسعود جبران عدد المجلة ولا سنتها مما فرض علي الرجوع إلى كل أعداد المجلة بدءا من العدد الأول، وانتهاء بالعدد 41).

لكنه بفضل الله تعالى أتيح لي الوقوف على متنها منشورا بتحقيق من الباحث نفسه (محمد مسعود جبران) بالمجلة المذكورة، إذ نشر المبحث الثاني الذي خصه لدراسة المقامة النجدية من رسالته الجامعية مرفقا بمتن المقامة محققا جاعلا العملين مقالة أسماها: " المقامة النجدية لمالك بن المرحل - نص أندلسي مغربي جديد - ".

وردت المقامة النجدية - بتحقيق الباحث - في خمس صفحات¹³⁴ تتأى عن طول الحجم والإطناب، لكنها خلافا لحجمها المتوسط تكتنز حمولات معرفية مغرقة في العمق والأبعاد النفسية - لبطل المقامة الذي ما هو إلا مالك بن المرحل - والاجتماعية للمعيش المغربي المريني، " فابن المرحل يبدو من فاتحة مقامته أدبيا ذكيا في اعتماد أسلوب التلويح دون التصريح، وتوظيف الرمز الهامس مكان التعبير الصريح الصارخ، بحيث لا يهتدي إلى مكن قصده إلا من ألمّ إماما كاملا بأطوار حياته وأبعاد نفسيته، وهو ما يليق بنسق الأدب والفن¹³⁵ " ، كما أن المقامة مغرقة في اتباعيتها للمقامة الأم و/أو الأنموذج، ذلك أن راويها (أبو عوف النجدي)، من نجد وأحداثها تدور في المشرق، ودلالاتها الصريحة قصة احتيال، لكنه احتيال غير مألوف يمارسه في المقامة الثري على المعدم الفقير، وهذه نهاية لم نعهدها في المقامات المشرقية ولا الأندلسية.

وأما ميل بعض الباحثين لتسميتها بالمقامة الزهدية فمرده إلى ذلك البعد الديني الذي بدا فيها بوضوح عندما حدث الشخص الواعظ - بحقيقة الحياة الدنيا - الأشرار لما ضربوا الراوي المعدم المعسر، وعندما بين لهم أن الإنسان زاهد بفطرته، وكل ما يحتاجه هو المرشد الذي يوقد فيه شعلة الزهد حتى ولو كان هذا المرشد شخصا منافقا مثل بطل هذه المقامة.

أول المقامة: "حدث أبو عوف النجدي قال: كان مولدي بنجد، ومنبتي بين شيخ وزبد، أسكن البيد، وأكل الهبيد، وأحترش الضباب، وأقترش التراب، لا عهد لي بطيب ولا بعيش رطيب، فأنحدرت مع الساعة وأنا في زي الرعاة... فلما حضرت سوق الحاضرة ونظرت إلى تلك

134- محمد مسعود جبران. (المقامة النجدية لمالك بن المرحل- نص أندلسي مغربي جديد). (مجلة البحث العلمي). الرباط.

العدد 41. السنة 26: 1993م. نص المقالة (ص80-92). نص المقامة (ص88-92).

وأما الأصل في المتن فيربطه الباحث بمخطوط للمقامة أعاره إياه الأستاذ المنوني من مكتبته الخاصة.

135- المقامة النجدية لمالك بن المرحل. نص أندلسي مغربي جديد. ص83.

الوجوه الناظرة"¹³⁶ ، ومنها: "فلا أدري متى سقطت لققاي وسلمت إلى الهواء ساقاي... فأوسعتهم طعنا وضربا وأوسعوني بعرا وتربا... وبينما نحن في لكاك وزحام ووطيس حام إذ طلع علينا رجل حسن الشارة مليح الإشارة... وصاح بأعلى صوته... المرء بسيرته لا بصورته وبطينته لا بزينته... أيها الناس ألهاكم النعيم والترف وأطغاكم الغنى والشرف... كل حسن في التراب يبلى... أيها الناس لا تغتروا بالجمال ولا بالمال... فجعل الناس يبكون... فقال لهم: ارفعوا رؤوسكم واخلعوا لبوسكم وأعطوه ما لديكم"¹³⁷. وأما آخرها فقوله: "فما استيقظت إلا والشمس تنتشر مداد الظلال، فنظرت فرأيت البيت صفرا وقمت فوجدت الخان قفرا... ورقة فيها مكتوبة: الصيدُ للصائدِ لكنه يطرح للكلبِ من الحاصل... قال أبو عوف: فقلتُ في نفسي: صدق لا فُضَّ فوه وأحسن لله أبوه"¹³⁸.

فمضمون المقامة لا يخرج عن تعرية المجتمع المريني انطلاقا من كشف معاناة أبي عوف النجدي النفسية والاجتماعية جراء فقره وعوزه الشديدين، والمقامة موعظة في اتباعيتها للمقامة المشرقية العربية ذلك أنها حافظت على عنصري الكدية والاحتيال من حيث المضمون، كما حافظت على البناء الفني التقليدي المتعارف عليه، فجاءت مثقلة بالسجع والازدواج والمحسنات اللفظية والمعنوية متحفة بـ "التصوير التشبيهي والتصوير الاستعاري، موشاة بتداخل النصوص والاحتشاد لذلك كله بما يظهر براعة الكاتب وضخامة رصيده في البيان"¹³⁹ ، فقد زواج ابن المرحل في أسلوب المقامة بين الإغراب والسهولة، الإغراب الذي يحوج القارئ/ المتلقي إلى مراجعة المعاجم اللغوية، والسهولة القريبة التي لا تضطره إلى شيء من ذلك. فمن أمثلة الضرب الأول فيها ما جاء في فاتحتها "أكل الهبيد"¹⁴⁰ وأحترش الضباب¹⁴¹ ، وقوله: "متوشح بعباءة منحصر بإبائة"¹⁴² ، مغبر الشعر مصفو العثنون¹⁴³ من دخان البعر، في كلامي تعبير

¹³⁶ - نص المقامة النجدية. ص88.

¹³⁷ - نص المقامة النجدية. ص88-89-90-91.

¹³⁸ - نص المقامة النجدية. ص92.

¹³⁹ - المقامة النجدية لمالك بن المرحل. نص أندلسي مغربي جديد. مرجع سابق. ص85.

¹⁴⁰ - الحنظل أو حُبُّه، وواحدته هبيدة، وهو نوع من أطعمة العرب يؤكل في الشدائد.

¹⁴¹ - احترشَ الصيدَ أي هيجه ليصيده، والضباب جمع ضب: حيوان من جنس الزواحف.

¹⁴² - إبائة وإبَاء بمعنى واحد.

¹⁴³ - العثنون: ما نبت على الذقن وتحتة سفلا.

وفي خدي تصغير¹⁴⁴، كما يمثله كلامه الموزع فيها. ومن أمثلة ما جاء فيها من الضرب الثاني قوله في مقام اللوم والتقريع للأشرار من القوم: "أيها الناس أهاكم النعيم والترف وأطغاكم الغنى والشرف، فأكلتم اللين ولبستم الناعم حتى سمنت الأبدان وهزلت الأديان"، ولهذا الأسلوب اليسير نظائر في عدة مواضع من المقامة.

ومن مظاهر المحسنات اللفظية الأخرى التي كان لها تأثيرها في البناء الفني للمقامة التضمينات والاقتراسات التي تمثلها الشواهد القرآنية والحديثية¹⁴⁵. "وأثرى مقامته ببعض الشواهد الشعرية منها الشعر الذي نرجح نسبه إلى ابن المرحل، وقد ورد في ثلاثة مواضع، ومنها من شعر غيره ولم يورد منه إلا قول الشاعر عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحُجُولِ إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر¹⁴⁶.

تذكر المقامة أن أبا عوف النجدي - وهو الراوي - البدوي حضر ذات يوما سوقا بالمدينة، فاعتدى عليه جماعة من الأشرار أنقذه منهم شخص أربهم بقوته وموعظته، مما جعلهم يتأسفون لصنيعهم بالراوي الجائع الذي توسم فيهم خيرا، فأعطوه أموالهم وثيابهم فوضعها الواعظ على ظهر الراوي وقصدا خانا فادعى الواعظ النوم. وفي صباح اليوم التالي، استيقظ الراوي الفقير ليجد البيت خاليا إلا من رقعة سبه فيها الواعظ، ناعتا إياه بالكلب تاركا له بعض الفتات من الرغيف والدريهمات (الصيد للصادك لكنه يطرح للكلب من الحاصل). فالجديد في هذه المقامة المرينية المغربية أن صورة الراوي المألوفة استحالت إلى صورة رجل معسر معدم فقير صعلوك، وأن صورة البطل المعروف بالخبث والمكر والدهاء والحيلة اكتست ها هنا طابع الوعظ والزهد المغلفان بالنفاق والاحتيال للوصول إلى المال، كما أن صورة الجمهور المعتادة على أنه الضحية التي يسلب مالها بالحيلة والخداع قد انقلبت ها هنا - في هذه المقامة - لتتحول من البراءة إلى الشر والطغيان، إذ أن جمهور المقامة النجدية لا يدعو أن يكون جماعة من الأشرار اعترضت سبيل الراوي الفقير واعتدت عليه بالضرب. فالمهتم بأدب المقامات يتوقع أن

¹⁴⁴ - التصغير: إمالة العنق كبيرا وعجبا. قال تعالى: "ولا تصعر خدك للناس".

¹⁴⁵ - من ذلك الآية المتعلقة بالتحذير من السخرية من الناس والاستهزاء بهم، والآية المشيرة إلى ما يلقاه الإنسان مما يقدمه في دنياه. ومن ذلك أمثلة الشواهد القرآنية المقتبسة، المعنى الذي ساقه ليؤكد على أن التقى عند الله هو الأكرم، ويشابهه الحديث النبوي "رب أشعت مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره". المقامة. ص 89-90-91.

¹⁴⁶ - المقامة النجدية لمالك بن المرحل. ص 86-87.

تقدم المقامة النجدية من خلال شخصياتها احتيالي الراوي (الصعلوك) على البطل (الواعظ الثري صاحب الخدم)، أو ربما يتوقع احتيال الجمهور على الراوي والبطل معا ، لكن النص يقدم عكس هذه التوقعات رؤية جديدة احتال فيها البطل (الثري) على الراوي (الفقير) ولم يكتف بذلك بل سبه ونعته بالكذب.

وإذا جاز لنا ربط النص بصاحبه تبين لنا أن أبا عوف النجدي ما هو إلا مالك بن المرحل، و أن " مَرَبَاهُ القريب من شطف العيش، وقساوة الحياة البعيدة كل البعد عن أسباب النعيم، وهو ما كان عليه الأديب في أوائل حياته بمالقة واشبيلية وفي نزوله الأول بسبتة"¹⁴⁷، وأنه لم يبتغ من وراء ما ساقه من مواضع بليغة في مقام الزهد إلا النقد والإصلاح، أي نقد المجتمع المريني وإصلاحه، فقد أنب الأشرار لحد بكائهم والتماسهم منه أن يدلهم على وسائل التكفير عما بدر منهم من ظلم . لقد ارتكزت المقامة على سائر وسائل الإبلاغ المعروفة في المقامة الأم /الأنموذج من محسنات لفظية ومعنوية، كما راعت أركان المقامة المعروفة (بطل- راو- شخصيات – عقدة - حل)، كما حافظت على عنصري الكدية والاحتيال وهو ما يجعلها على قلة سمات التجديد فيها أنموذجا صارخا للاتباع والتقليد في المقامة المغربية.

¹⁴⁷ - مالك بن المرحل أديب العدوتين. مرجع سابق. ص 255، وينظر: المقامة النجدية لمالك بن المرحل. مرجع سابق. ص 83.

✓ الفرع الثالث: عبد المهيمن الحضرمي (ت749هـ)

"عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الحضرمي... كان خاتمة الصدور، وصاحب القلم الأعلى بفاس... له القدم المعلى في علم العربية... والإمامة في الحديث والتبريز في الأدب والتاريخ واللغة والعروض، متصل الاجتهاد لا يفتر له قلم، نشأ بسبته وبها ولد عام ستة وسبعين وستمئة مقصورا على الإجابة والإفادة والاستفادة إلى أن ولي كتابة الإنشاء لأبي الحسن المريني" ¹⁴⁸.

وعن نسبه واستقدمه للكتابة والعلامة ذكر ابن خلدون ما نصه: "كان بنو عبد المهيمن من بيوتات سبته، ونسبهم في حضرموت. وكانوا أهل تجلّة ووقار، منتحلين للعلم. وكان أبوه محمد قاضيا بسبته... نشأ ابنه عبد المهيمن هذا... وقرأ صنعة العربية على الأستاذ الغافقي وحذق فيها... ولما استولى السلطان أبو سعيد على المغرب... وكانت دولته خلوا من صناعة الترسيل... رفع مجلسه وخطبه للكتابة... استمر ذلك أيام السلطان وابنه أبي الحسن من بعده" ¹⁴⁹، وإلى مثل ذلك ذهب ابن الأحمر، إذ ذكر أن: "منهم الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى عبد المهيمن بن الفقيه القاضي محمد بن الفقيه عبد المهيمن الحضرمي السبتي كاتب علامة عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني وكاتب علامة ابنه أمير المسلمين أبي الحسن ملك المغرب، بيته بيت علم، سحب من التحصيل ذيلًا... وطوقته المفاخر طوقًا، وأذاقه الفهم من حلاوة العلوم ذوقًا" ¹⁵⁰. ولقد ولد ببلده سبته في عام ستة وسبعين وستمئة (676هـ) ¹⁵¹،

¹⁴⁸- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. أحمد بن القاضي المكناسي. ص444.

- وقد وردت نفس الترجمة حرفيا بكتاب: صفوة من انتشار من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. لمحمد الصغير بن محمد بن عبد الله الإفرائي المراكشي. نسخة حجرية. ص279.

¹⁴⁹- تاريخ ابن خلدون المسمى "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. عبد الرحمان بن خلدون. المجلد السابع. ص294-295.

¹⁵⁰- مستودع العلامة ومستبدع العلامة. أبو الوليد بن الأحمر. ص50.

¹⁵¹- الإحاطة. المجلد الرابع. ص18.

وتوفي بتونس في الطاعون الجارف في الثاني عشر لشوال من عام تسعة وأربعين وسبعمائة وهو في صحبة مخدومه أبي الحسن المريني¹⁵²، ودفن بالزلاج من جبانات تونس المحروسة، وكانت جنازته مشهورة.¹⁵³

إنه محدث المغرب وكاتبه، ولد بسبته وبها نشأ مستفيدا من مجالسها العلمية، فأدرك ابن أبي الربيع وأخذ عنه، وابن عبيدة الإشبيلي، وأبي إسحاق الغافقي... وغيرهم كثير. وانتقل مع أسرته إلى غرناطة فآتم أخذه عن علمائها، واشتغل بالكتابة، وعاد إلى المغرب فأسندت إليه مهمة كتابة العلامة. توزع اهتمامه بين عمله كاتبا وبين تدريس النحو وإسماع الحديث، فأخذ عنه عالم لا يحصى من رجال المغرب والأندلس. للحضرمي كتابات أدبية وقصائد شعرية ومؤلفات منها فهرسة حافلة ذكر فيها ألف شيخ¹⁵⁴، كما أن له مقامة الافتخارين العشر الجوار¹⁵⁵، " وهي من المقامات الاجتماعية التي تنطلق من الواقع فتذكر من المجتمع قبائله و طوائفه وأنساب أهله

¹⁵² - هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق. تولى عرش المغرب سنة 731 هـ وتوفي سنة 752 هـ. وكان من أعظم ملوك بني مرين همة وعزما وصيتا وجهادا في الأندلس. وقد أشار المقري في نفع الطيب إلى ذلك الحادث الذي أساء فيه السلطان أبو الحسن مخاطبة كاتبه عبد المهيم الحضرمي (ج3 ص243)، وذلك قبل وفاته بأيام. وإلى مثل ذلك يذهب ابن الخطيب: "وتوفي...بعد أن أصابته نبوة من مخدومه السلطان أبي الحسن" ص18.

¹⁵³ - جذوة الاقتباس. مصدر سابق. ص445.

¹⁵⁴ - فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة - منهجيتها - تطورها - قيمتها العلمية. عبد الله المرابط الترغي. ص614 (ضمنه ترجمة أبي محمد عبد المهيم الحضرمي السبتي (ت749 هـ)).

¹⁵⁵ - يذكر محمد السولامي أنه اعتمد في دراسة مقامة الافتخار بين العشر الجوار على نسخة مخطوطة أمده بها محمد المنوني، وهي ضمن مجموع، وتقع بين صفحتي 16 و24. كما أشار إلى أن عبد الله كنون نشر هذه المقامة في (النبوغ المغربي- الجزء الثاني-) غير أنه تصرف فيها، وذكر بأن ما بالمقامة من تصحيف وتحريف هو الذي دعاه إلى تصحيحها. ولست أدري بما أفادنا السولامي لما أورد نقفا غثا من المقامة على سبيل الاستشهاد، علما أن ما لحقها من تصرف يبقى الحكم على مدى موضوعيته مشروطا بمطابقته مع مخطوط المنوني.

- ينظر نص المقامة محققا بالجزء الثاني من النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون. ص195 إلى 207، وقد وردت دون تحليل.

- وينظر كذلك: عبد الله كنون (من أدبنا الشعبي). (مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية). العدد5. سنة1960. (ص35-56). (ص29-46).

- وينظر في نصها كذلك: من تاريخ القصة والمسرحية في الأدب المغربي. الحسن السائح. فصل: مقامة الافتخار في مخاصمة العشرة من الجوار. ص38-45. (عن مخطوط من خزانة الأستاذ محمد التطواني بسلا). وتوفرها منشورة يتيح التفكير في تحقيقها قياسا إلى منطوق المقامة كما نشرها عبد الله كنون بنبوغه اعتمادا على نسختين شديديتي التصحيف بذل الجهد في تصحيحها وسبكها بما يقربها من صنع كاتبها البليغ.

ومهنيهم ، كما تبحث في سمات المدن وطبائع أهلها و ما يجري فيها من معاملات وأحداث يومية كافتخار النساء في بعض المناسبات الاجتماعية بأنفسهن وجمالهن ، وما إلى ذلك من أنواع المفاخرات الأخرى، فهذه المقامات وغيرها تعطي صورة واضحة عن الحياة العامة واليومية، وهذه الصورة تكون واقعية لكل ما يقع الحديث عنه" ¹⁵⁶. وفي مقامة الحضرمي من الصور الاجتماعية العاكسة للمجتمع المغربي المريني ما يجعل منها بحق وثيقة تاريخية واجتماعية مؤرخة للحظة من عمر الدولة المرينية بالمغرب، فقد أنشأها الحضرمي على لسان عشر جوار: بيضاء، وسمراء، وطويلة، وقصيرة، وسمينة، ونحيفة، وحضرية، وبدوية، وشابة، وعجوز، تفاخر كل واحدة منهن نظيرتها بأن الحسن هو وصفها، والجمال هو حيلتها ، في نثر مسجوع متضمن لقطع شعرية. وهذه هي النتيجة التي انتهت إليها المقامة، فالدلالة الأساسية لنص المقامة لا يحيد عن اعتبار قيمة المرأة في جمالها، وأن هذا الجمال هو وسيلتها الوحيدة للفت نظر الرجل إليها. وهكذا نفهم لما حاولت كل متفاخرة الدفاع عن صفاتها التي هي دليل جمالها ووسيلتها لاقتناص قلوب الرجال وأسرها. "وقد أضافت هذه المقامة إلى ما هو معروف في مقامات الرواد عنصرين مهمين: أولهما هو البطولة النسائية الجماعية، وثانيهما هو إيراد الكاتب لشخصيات المقامة إيرادا مفصلا، فقد تتبع حركاتهن وطريقة كلامهن وإشارتهن، فالجارية البيضاء تتقدم متعجرفة بدون لثام، وتسلم بالبنان، وتقف وقوف الخطيب متعالية، وعندما تنتهي من قولها تظهر الجارية السمراء متواضعة متحجبة تبالغ في السلام وتقف حائرة كالغلام، والطويلة تتخطى الرقاب وهي قادمة..." ¹⁵⁷ ، و فكرة المفاخرة بين الجوارى موجودة

¹⁵⁶ - للمغرب عالم حافل من التقاليد والأعراف والعادات الضاربة في التاريخ والممتدة إلى أيامنا، ومن ذلك موسم حب الملوك بصفرو نواحي فاس، حيث تتبارى فتيات المنطقة بجمالهن لاختيار ملكة جمال الموسم. كما وأن النساء المغربيات معروفات بالتأنق حليا وملبسا وجمالا، فتكون الأعراس والمناسبات مدعاة للتباهي والتفاخر بينهن.

- فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته، قصي عدنان الحسيني. مرجع سابق. ص 57.

¹⁵⁷ - إبراهيم حسين أبو سريع إسماعيل. (فن المقامة في العصر المريني - دراسة تحليلية -). (مجلة كلية دار العلوم). القاهرة. العدد 67. سنة 2013. (267-305). ص 290.

في (ألف ليلة وليلة)¹⁵⁸ إلا أنها تقع بين ست جوار، وليس هناك كما يقول عبد الله كنون " تماثل في العرض ولا في التصميم بين الإثنين ، مما يدعو إلى القول بأنه ليس هناك استيحاء مطلقاً من أحد الجانبين، ولعلها فكرة شعبية كانت شائعة في القصص العامي، فاستوحى منها الكاتب فكرته كما استوحى قاص ألف ليلة وليلة فكرته"¹⁵⁹ ، " ذلك أن قصة البصري صاحب الجواري الست تنتهي ببيعهن إلى الملك ، ثم منه عليه بردهن...، بينما مقامة الحضرمي تنتهي

158- تناول عبد الله كنون هذه المسألة بكثير من التفصيل في مقالته (من أدبنا الشعبي) مستبعداً أن يكون الحضرمي قد حاكى إحدى ليالي ألف ليلة وليلة، أو الزجل بوصفه أدباً شعبياً يمكن أن تستمد منه المقامة موضوعاتها. ذلك أن النهاية في الزجل ليست طبيعية لأن الجواري العشر بعد أن ينتهين من المفاخرة ويعرفن أن الأديب المغربي الزجال ابن داود كان حاضراً يعتذرن إليه ويطلبن حكمه بينهن. وهذا أمر يخالف فيه الزجل المقامة، لأن العجوز حكمت في المقامة، أما ابن داود فختم زجله ولم يعرج على الحكم المطلوب وكأنه احتفظ بالحكم لنفسه حتى تبقى علاقته طيبة معهن (الريام) كلهن. وقدّم عبد الله كنون نص المقامة الحضرمية بتهذيبه - كما أسلفنا - ثم قدم نص زجل ابن داود خالصاً إلى أن "عبد المهيم كتب القصة في شكل مقامة، وابن داود نظمها في شكل زجل، كما كانت الجماهير تقصها بألفاظها وتصويرها إلا ما تقتضيه صياغة المقامة من السجع وقانون الزجل من أعاريض وأوزان. مع ذلك لم تخل المقامة في حوكها من بعض الأساليب العامية، وهي المفروض فيها أن تبتعد كل البعد عن ذلك الابتذال حتى ظننا أولاً أن بها تحريفاً من النساخ... وهذا النوع من استيحاء الأدب الشعبي والاستمداد منه وخاصة في المقامة معروف معهود ولاسيما عندنا في المغرب " . من أدبنا الشعبي. عبد الله كنون. ص37.

وكتاب ألف ليلة وليلة - أو الليالي كما تسميه بعض الدراسات - هو مجموعة حكايات وقصص مجهولة المؤلف، بدأها صاحبها بقصة أخوين من ملوك ساسان (شهرباز وشاه زمان) اللذين تركا الملك بسبب خيانة زوجاتهما ، ثم رجعا بعد فترة إلى مدينة الملك شهریار، وبدأ هذه الملك ظلمه لبنات الرعية الذي استمر ما يقارب ثلاث سنوات حتى تزوج المنقذة لبنات جنسها شهرزاد. ظهر الكتاب في عصر المماليك ، أي بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد عام 656هـ/1258م بقرنين من الزمان . ولغة الليالي لغة فصحة تشوبها العامية وأحياناً اللحن وأسلوبه بسيط مفهوم لدى العامة. كما أن فكرة المفاخرة من هذا النوع بين الجواري موجودة في قصة من قصص ألف ليلة وليلة إلا أنها تقع بين ست جوار فقط: بيضاء، وسمراء، وسمينة وهزيمة، وصفراء وسوداء. خليل إبراهيم صالح السامراني (الأندلس من خلال كتاب ألف ليلة وليلة). ص59. وينظر: (من أدبنا الشعبي). ص35.

159- عبد الله كنون .من أدبنا الشعبي. مرجع سابق.ص35.

بحكم العجوز بين الجواري بما يرضي غرور كل واحدة¹⁶⁰. "يروى هذه المقامة شخص نعت ب (المؤلف) ويخبر هذا المؤلف - وهو يتحدث بضمير المتكلم - بما شاهده وعائنه: إني أقص عليكم ما رأيت من العجائب."¹⁶¹. وأول المقامة¹⁶²: "برزت (يوما)¹⁶³ لخارج بلد فاس الأشهر، وانتهيت إلى واديه المعروف بوادي الجوهر، فلم يكن غير بعيد، وإذا بمحفل يَرْتَجُّ بالغيد وقد دار بينهن عتاب بألفاظ تعجز عنها ألسنة الكتاب، بيضاء وسمراء في مفاتنة كبرى، وكاملة وقصيرة في معاطاة كثيرة، وسمينة ورقيقة في معاتبة خفيفة، وعربية وحضرية في مجادلة قوية، وعجوز وصبية في مخاصمة بذية...".

وتتركب المقامة الحضرية من تمهيد وخمس مقطوعات وخاتمة، إذ اهتم التمهيد بتحديد المكان الذي كان مسرحا للأحداث (وادي الجوهر بفاس)، وبتقديم الشخصيات (وإذا بمحفل يرتج بالغيد...بيضاء وسمراء...وكاملة وقصيرة...) وفق خمس مجموعات كل مجموعة تضم متفاخرتين تتصفان بصفتين متناقضتين، ووفق بيان نوع التفاخر عند كل مجموعة: (مفاتنة كبرى - معاطاة - معاتبة - مجادلة - مخاصمة).

وتنقلنا عبارة (قال المؤلف) إلى المقطوعة الأولى وهي تبدأ " فبينما أنا أنظر في تلك الوجوه المشرقة و القدود المرونقة، وإذا بجارية يغلب ضياء وجهها ضياء الشمس ، فوقفت بين

¹⁶⁰ - فن المقامة في العصر المريني .مرجع سابق. ص291 ، وينظر (من أدبنا الشعبي). ص36.

¹⁶¹ - فن المقامة في العصر المريني. مرجع سابق. ص283.

وقد وجدت نفس الإحالة لدى السولامي حرقيا وهو ما يعني أن أحدهما نقل عن الآخر، بحكم الفارق الزمني بين العملين (1986-2013) ، أو إن كلاهما اختلس الاقتباس من مرجع لم تطله يداي، وأرجح أنه كتاب الأدب المغربي لابن تاويت ومحمد عفيفي، وذلك لعلمي التام بتناوله للمقامة الحضرية بالدرس.

¹⁶² - النبوغ المغربي في الأدب العربي. مرجع سابق. الجزء 2. ص195.

والكاتب نفسه يبدأ المقامة في مقالته (من أدبنا الشعبي) بقوله: " برزت لخارج بلد فاس الأشهر".

¹⁶³ - محذوفة من نص المقامة الوارد بمقالة كنون (من أدبنا الشعبي) وقد جاءت المقامة في 13 صفحة من مطبوع النبوغ (حجم متوسط)، وما مجموعه سبع صفحات من مطبوع مجلة تطوان (حجم الخط صغير). وهو ما يعطينا فكرة عن طول حجمها وإطناب صاحبها فيها، وما إطنابه إلا دليل على سعة تمكنه من الإنشاء في فن المقامة ومجاراة الأندلسيين والمشرقيين في الإبداع فيها. وقد تحقق له ذلك الخلق والابتكار في البطولة كأهم أركان المقامة إذ جعلها نسانية جماعية خلافا لما عهدناه في أدب المقامات.

الصفوف وسلمت بنانها الخمس، ثم تقدمت وقالت : الحمد لله الذي جعل البياض طراز كل جمال، وشرف أهله بالحياء والكمال"¹⁶⁴، وعندما تنتهي من الكلام تجلس في مكانها وتقف الجارية السمراء لترد عليها، وعند تقديم الجارية السوداء يتدخل الراوي من جديد ليعبر عن إحساسه ومشاعره تجاهها، بعدما حكى لنا عن البيضاء، فالراوي هنا مشاهد دقيق لا يكتفي فقط بالإخبار بما رأى، ولكنه يضيف إليه الإخبار بما أحس، وقد قال على لسان السمراء : "ثم... حطت اللثام عن وجه شهّي الالتئام وأبلغت في السلام، وأقبلت تواضعا على رؤوس الأقدام، فوقفت كالغلام وأفصحت في الكلام وقالت: الحمد لله..."¹⁶⁵، وتزواج الجارية السمراء في فخرها بجمالها - هي الأخرى - بين النثر والشعر، وبعد انتهائها تسلم وتجلس، وبجلوسها تنتهي أول مفاخرة، وتقبل بانتهائها المقطوعة الأولى لتتوالى المقطوعات الأربع المتبقية مشكلة مجالس متنوعة، ختمها الحضرمي بتدخل العجوز للحكم بين الجوازي العشر منتصرة للسمينة والنحيفة، منصفة البدوية والحضرية كل في بيئتها، معيبة على القصيرة قصرها رابطة إياه بالمذلة ، منتصرة للطويلة و للصبية لأنها أبرع في الجمال وأنفع للرجال، والحضرمي مع هذا لم ينفذ في مفاخرات جواريه إلى أعماقهن يحلل نفسياتهن وأزماتهن وحالاتهن النفسية ، وإنما "اكتفى بمظهرهن الخارجي يصفه ويرسمه بريشتين: ريشة إحساسه بهن، وريشة الطرافة والظرف المرفهة عن القارئ المتلقي للمقامة، ولعل هذين العاملين هما ما أكسب مقامته حُلَّتْها المسرحية، إذ جاءت في خمسة فصول تعج بالحيوية والحركة والطرافة التي قتلت رتابة المفاخرة " ¹⁶⁶.

¹⁶⁴ - نص المقامة. النبوغ. ج.2. ص195.

¹⁶⁵ - نص المقامة. المرجع نفسه. ص196.

¹⁶⁶ - وجدتني متفقا في تشبيه أبو سريع إسماعيل في (فن المقامة في العصر المريني) المقامة الحضرمي بالعمل المسرحي، لكنني استغربت نظره للمقامة بوصفها نواة المقامة المغربية لا سابق لها، قال : "وهذه المقامة هي أول مقامة مغربية كتبها أدباء المغرب بعدما عرفت في الأندلس، لأن أدباء المغرب لم يستجيبوا لهذا النحو من الأدب إلا متأخرا، وقد سبقهم إليه أهل القيروان مثل ابن شرف وغيره". ينسب بدوره الفكرة في إحالته على محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي في كتابهما الأدب المغربي، بيروت. ط1. 1960. ص436. وهو ما يعني أنه يتبنى رأيهما اللامقبول في ضوء ظهور مقامة الملزوزي قبل الحضرمي، وظهر مقامة موحدية لدى الوهراني كشخصية مشتركة، وظهر مقامة مرابطية لعامر بن أرقم في مدح الأمير تميم المرابطي.

وأما المقامة الحضرية من حيث بناؤها الفني، فالملاحظ افتتاحها بفاتحة جديدة غير ما عهدناه لدى الرواد المشاركة، تشبه إلى حد كبير افتتاح القصص من حيث إيراد الخبر والتشويق، قال: "برزت يوما لخارج بلد فاس الأشهر، وانتهيت إلى واديه المعروف بوادي الجوهر... وإذا بمحفل يرتج بالغيد... وإذا بجارية يغلب ضياء وجهها ضياء الشمس..."¹⁶⁷. ومطلع المقامة إلى جانب هذا يحدد الإطار المكاني (فاس- وادي الجوهر) والزمني (نهارا- ضوء الشمس)، كما يحدد طبيعة المجلس أو المحفل الذي اجتمع فيه الراوية بالبطل (محفل يرتج بالجواري). كما أن أسلوب المقامة قد طغت عليه السهولة والوضوح البعيد عن التعقيد والإغراب وهو جانب واضح في كل مقاطع المقامة، إلا أن الملاحظ أن كل جارية كانت تستهل حديثها بالحمدلة والثناء على الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على غرار افتتاحيات الرسائل. وهذا جانب كنا قد سجلناه على المقامة الأندلسية من حيث تداخل فن المقامة الأندلسية مع فن الرسالة، كما وسجله - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - عدة باحثين مغاربة على المقامة المغربية، وهو ما يدعو للقول بأن التداخل بين أدب المقامة وأدب الرسالة سمة من سمات أدب الغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب تحديدا). كما وأن اقتراب المقامة الحضرية من فن الرسالة في بعد التحميد والثناء ربما راجع لطبيعة العصر المريني المتمسم بسمة التدين التي طغت على جميع الفنون الأدبية وضمنها فن المقامة.

ثم إن وصف أسلوب المقامة بالسهل لا يعفيها من ورود جمل طابعها الإغراب، ومن ذلك قول الراوي على لسان الجارية البيضاء: "جيني نو ابتهاج وذوائبي كقطع الزاج"¹⁶⁸، ورشح عرفي كمسك أذفر يرشح من تحت البرد والمغفر"¹⁶⁹، وقوله على لسان الجارية القصيرة تخاطب الطويلة: "يا ناقة العشير"¹⁷⁰، وقصبة النشير"¹⁷¹، ويا كاملة الصاد"¹⁷²، وقليلة القصاد"¹⁷³.

¹⁶⁷ - نص المقامة. النبوغ. ج.2. ص195.

¹⁶⁸ - عقار يصنع منه المداد.

¹⁶⁹ - نص المقامة. ص.196

¹⁷⁰ - العشير: الزوج، والمقصود: تشبيهها بالناقة في الطول.

¹⁷¹ - لعله يريد القصبة التي يرفع بها حبل الغسيل من وسطه، وكذلك تعرف عند العامة.

¹⁷² - داء يصيب الإبل فتسيل أنوفها فتسمو برؤوسها.

¹⁷³ - نص المقامة. النبوغ. ج.2. ص198.

والمقامة الحضرية كسائر المقامات المشرقية العربية والأندلسية مؤسدة على السجع ومراعاة الفواصل بين الجمل، وعلى التضمينات والاقتراسات القرآنية المقتبسة باللفظ والمعنى¹⁷⁴، وعلى الشواهد الشعرية¹⁷⁵.

إن المقامة الحضرية صورة اجتماعية حافلة بالعديد من الصور المعبرة عن عدة نواح من المجتمع المريني، كالعروس في زيتها، وارتداء المرأة المغربية للنقاب والبرقع، وسكنى نساء الحضر للقصور والدُّور والتزين بالذهب والحلي، والزواج بوساطة من امرأة مسنة تجمع بين الرجل والمرأة، وما إلى ذلك من المظاهر الاجتماعية التي حفلت بها المقامة. ومن هنا، قيمتها السوسيولوجية والأدبية.

¹⁷⁴ - مثال الشواهد القرآنية المقتبسة بالمعنى قول الراوي على لسان الجارية البدوية: "الحمد لله الذي أمره بين الكاف والنون، الحاضر الناظرُ القاهرُ الذي بيده ملكوتُ كل شيءٍ وإليه تُرجعون" (المقامة ص202)، وهو من قوله عز وجل: "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون" (الآية 82-83. سورة يس). وأما الاقتباس باللفظ والمعنى معاً، فقول الراوي على لسان الجارية السمراء: "الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعله أفضل من الحيوان، وفرق بين الصور والألسنة والألوان" (المقامة ص196)، وهو من قوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (الآية 4 من سورة التين)، ومن قوله عز وجل: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم" (الآية 22. سورة الروم).

¹⁷⁵ - بلغ عدد الأبيات الشعرية بالمقامة 54 بيتاً، ذلك أن كل جارية كانت تختتم مفاخرتها بثلاثة أو أربعة أبيات.

● المطلب الرابع: مقاميو عصر السعديين (ق10 وأوائل 11هـ)

✓ الفرع الأول: محمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت990هـ)

محمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي، الفقيه الكاتب الأديب، كان له نثر فائق ونظم لا بأس به، وخطوط متنوعة في الحسن. توفي في سجن مخدومه أحمد المنصور الشريف بمدينة فاس بقصبتها سنة تسعين وتسعمائة¹⁷⁶. وقد ذكره أحمد المنجور في فهرسه بما نصه: "والفقيه الأديب الماهر الكاتب البليغ الناظم النائر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى"¹⁷⁷.

وهو يعد من أدياء العصر السعدي اللامعين، كان يحذر من الاطمئنان إلى أصحاب الرئاسة والجاه، وله شعر في ذلك. وهو صاحب كتاب (الممدود والمقصور من سنا السلطان أبي العباس المنصور)، وقد توفي سنة 990هـ/1582م¹⁷⁸.

خلف التملي مقامة مسماة ب (الحكة والإشارة إلى ما تحت التكة) لم يسبق – في حدود ما أعلم – لأحد من الباحثين أن حققها أو أن تم نشرها بمجلة ما¹⁷⁹. وهي مقامة سياسية سعى من ورائها

¹⁷⁶ - جذوة الاقتباس. ص326 (نقلا عن درة الحجال. ج2. ص226).

¹⁷⁷ - فهرس أحمد المنجور. ص80.

¹⁷⁸ - النثر الأدبي في المغرب في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني. مرجع سابق. ص159 (يحيل في ترجمته على نزهة الحادي للفرنسي. ص253-268).

- ترجم له عبد الله كنون في نبوغه، قال: "هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي، كاتب سر المنصور، وأحد أعيان أدياء دولته، له تضلع بعلوم العربية ومعرفة كبيرة بالتواريخ وأيام الناس وسير الملوك، وقلمه في الكتابة بارع، وعارضته في الترسل قوية، وله شعر قليل... توفي في سجن مخدومه بفاس سنة 990هـ". النبوغ. ج1. ص274-275.

¹⁷⁹ - يشير إليها: فهارس الخزانة الحسنية. فهرس مخطوطات الأدب. الجزء الثاني. إنجاز: محمد سعيد حنشي وعبد العالي لمدير. ومراجعة: أحمد شوقي بنين. المطبعة الملكية. الرباط. 2001م. ص606. تحت عدد: 5408/مجموع.

سماها: مقامة في الحكمة والإشارة إلى ما تحت التكة لمحمد بن أحمد بن عيسى الصنهاجي (ت990هـ). وقد كتبت بخط مغربي، وتقع في خمس صفحات، بها تعقيبه وبعض الخروم، وهي عارية من تاريخ النسخ واسم الناسخ. وقد ورد بالفهرس أن للتملي بعض المداعبات مع قاضي الجماعة بمراكش سيدي قاسم الشاطبي، والمغني سيدي عبد الواحد الشريف، وبعض أشعاره في مدينة فاس وفي وصف الفرس (ص606).

- ذكر محمد السولامي أنها مثبتة ب "فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان" لمحمد غريط، بالخزانة الحسنية. رقم 1320. ص138. والواقع أن البحث لم يقدي إليها بالمكتبة الملكية بالرباط، كما أن تصفح كتاب فواصل الجمان بطبعة المطبعة الجديدة بفاس. ط1: 1367هـ، قادني إلى الإقرار بعدم وجود متن المقامة به، وتبقى الصورة الوحيدة لها هي المخطوط رقم 5408/مج بالخزانة الحسنية بالرباط، والتي حاولت جاهدا فك رموزها (خط مغربي قديم) للإفادة من مضمونها في دراستي هاته.

التملي إلى كشف سلوكيات مشيئة لأمير سعدي¹⁸⁰ عرف بالفسق والفجور، كما عرف بالجور، وهو جور طال التملي، ومن هنا مقامته الإباحية التي تفتقد ركنا هاما من أركان المقامة وهو الجمهور. إن ظاهر المقامة يحمل مرضا نفسيا وانحرافا جنسيا لدى الراوي الذي فشل في إيجاد علاج لحكته، لكن باطنها يُضمِرُ حقدا دفينا تجاه الأمير السعدي الخليع والماجن¹⁸¹.

أول المقامة كما نقلته منها مخطوطة¹⁸²: مقامة في الحجّة والإشارة إلى ما تحت التّكّة، للكاتب البارع الناظم الناثر محمد بن أحمد بن عيسى رحمه الله تعالى: "بسم الله العفوّ الغفور، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أخذ نارَ كل جبارٍ كفور، عافى الله مولانا وسلمة، ولازالت المداعبة تترقي...¹⁸³ وسلمة، هذه الحجّة لم تزل يَدبُ بين الجلد واللحم مني نارها، ويكسو سطحَ الجسم قتامها الأشهبُ غبارها، وأنا أطلب لها العلاج وأستعمل في ارتياده كل فارة وهملاج¹⁸⁴، فبينما أنا ذات يوم في أرض عفار ومرخ، إذ لقيني ذو شباب شرخ، يختال في حُلّ الهصب، ولا عليه في سلب العقول بين الحلال والغصب، فسلمت عليه سلام المفتون، وسألته عن نسبه وبلده فقال النسب روميّ والليل قرونٌ ومتونٌ، ومستقري اليومَ مراکش بلد المتون...¹⁸⁵. فقد أوضح مطلع المقامة طابعها الإباحي الذي ما فتى يبرز بوضوح لما سأل الراوي الشاب الرومي عن حاله فأجابه: "إني أسرت في أسطول البندقية، واشتراني صاحب اللاذقية بألف أوقيه، وكساني الحرير وقصرني على السرير، ثم أخذ...". ويستمر الراوي في إخبارنا بحكاية الرومي الذي

¹⁸⁰ - تذكر المصادر أن منشئ مقامة الحكمة هو ابن عيسى، وأنه كتبها للسلطان المنصور السعدي (986-1012هـ)، وأن ولي عهد هذا السلطان وهو المامون - الأمير أبو عبد الله محمد المامون بن السلطان أحمد المنصور الذهبي - ، كان "فؤيبيقاً خبيث الطوية، مولعا بالعبث بالصبيان، مدمنا للخمر، سفاكا للدماء، غير مكترث بأمر الدين من صلاة وشرايطها". نزهة الحادي الإفرائي. ص. 179.

¹⁸¹ - أشار محمد السولامي في دراسته إلى السبب الذي دعا التملي لإنشاء مقامته لكنه لم يربطه بسياقه، إذ قدم ملخصا مقتضبا لموضوع المقامة قافزا على ما ترمز إليه الحكمة من موقف سياسي مناهض لسياسة المامون بفاس ولفسقه وفجوره. ¹⁸² - ستكون المقامة موضوع تحقيق شخصي لي على شكل مقالة، ولو أنني أتصوره منذ الآن مبتورا بحكم قفزي على ضبط وشرح الألفاظ الساقطة والعبارات العارية التي تعج بها المقامة. وقد كنت التمسست القفز عن تناول هذه المقامة بدراستي لولا تغليبي في النهاية للجانب العلمي على الجانب الأخلاقي.

¹⁸³ - حذف ثلاث كلمات غير مقروءة.

¹⁸⁴ - الفاره: الحاذق بالشيء (اللسان - فره)، والهملاج: الحسن السير في سرعة وبختره (اللسان - هملج).

¹⁸⁵ - مخطوط المقامة. الخزانة الحسنية بالرباط. عدد: 5408/مجموع. ورقة 1.

والمثبت من النص في المتن أعلاه يعادل صفحة سوى خمسة أسطر من الورقة الأولى من مخطوط المقامة، وهو ما يعطينا فكرة واضحة عن حجم المقامة المتوسط (أربع صفحات ونصف).

تعرف على المهدي بن عبد الجليل الذي كان يقصد مراكش للبحث عن صاحب له يقال له محمد بن عمر الكاتب " يفضل البنين على البنات ويوثر السيئات على الحسنات ويشترى السرور بالأجور ويقول إن الله عفو غفور"¹⁸⁶. ولثني الراوي الشاب الرومي عن رغبته المنحرفة بادره بالسؤال عن أهله الروم وما عندها من العلوم: " فقلت الطب و ...¹⁸⁷ علمهم به أكثر وأحكم من علمكم بالدين والشرائع.....فقلت: نعم في علة الحكمة لاسيما فيما تحت التكة، فقال: عندي لها الشفا...¹⁸⁸ ، فقال: إن لي أخت بربُّ تُنالُ انتقلت في درج الحسن والظرافة أي انتقل إن...¹⁸⁹ أهديتها لك جارية وزدتك ابنة عمي ماريه، وعالجت حكتك وأبريت علتك"¹⁹⁰.
وآخر المقامة: " فكان ما كان مما لست أذكره، فَظُنَّ خيرا ولا تَسَلْ عن الخير، فوفى بما واعد أحسن الوفا، وعالجني علاجا ضمن لي معه الشفا، وها آثار الدواء قطيئُ الدار، منتفخُ ما تحت الإزار، أتوجع بالليل والنهار"¹⁹¹.

وقد قدم علال معكول¹⁹² ملخص المقامة كما يلي: "بطلا المقامة راو مصاب بداء الحكمة وشاب رومي أسر في أسطول البندقية واشتراه صاحب اللاذقية لخدمة سريره، ثم بعث به بعد ذلك إلى مراكش هدية لصديق فاسق سماه محمد بن عمر الكاتب، وحاول الشاب تقديم أخته وابنة عمه للراوي ليتخلص منه"، والحال أن الشاب الرومي - وفق السياق الحرفي لمخطوط المقامة - هو من أغرى الراوي بتقديمه أخته له جارية وكذا ابنة عمه مارية، وذلك لما تبين للرومي أن الراوي لا يميل إلى معاشره الغلمان، قال: "تغير حاله حتى كأنه فارق نفسه، فزجرته ودفعته، وشتمته وصفعته، فقال قبح الله المصامدُ ذوي الأقلام الجامدة والشهواتِ الخامدُ، لأي شيء غضبتَ، ومن أي شيء اشْرأبتَ، فقلت له: لستُ أحسن ذلك العمل، ولا ناقة لي في قطيعه

¹⁸⁶ - مخطوط المقامة. الورقتان: 2- 3.

¹⁸⁷ - كلمة غير مقروءة.

¹⁸⁸ - المقامة. الورقة 4، حيث تزيين الرومي للراوي علاقة شاذة وإهداؤه له أخته وابنة عمه مارية حالة قبوله.

¹⁸⁹ - حذف كلام ساقط.

¹⁹⁰ - المقامة. الورقة 4.

¹⁹¹ - المقامة. الورقة 5.

¹⁹² - ينظر: النثر الأدبي في المغرب في القرنين الحادي عشر والثاني. مرجع سابق. ص160.

ولاجمل، فقال ولعمرك أصحاب الفروج وفائض المروج، فقلت نعم هنالك تجدني، وبذلك الحبال يقتصني ويصيديني. فقال: إن لي أخت ببر تتال... إن... أهديتها لك جارية، وزدتك ابنة عمي ماريه¹⁹³. وبذلك تكون قراءة علال معكول للمقامة مجانية للصواب، ذلك أن الملخص الذي قدمه للقارئ لا يتطابق و منطوق مخطوط المقامة.

تروى مقامة الحكمة بضمير المتكلم، يقتسم فيها المتكلم الرواية مع الشاب الرومي، كما يقتسم الرومي البطولة مع الراوي. فالشاب يروي قصة حياته وكيف صار شادا جنسيا، والراوي يروي قصته مع الشاب الرومي وما خبره معه من متعة شاذة. فمدار مقامة الحكمة هو التلذذ بالمذكر عبر استحضار صور فاسقة من ماضي الرومي، ومن خلال تصوير صور إباحية عارية من الحاضر أثت فضاءها الراوي والرومي. وقد ذكر السولامي أن الإباحية المكشوفة ظاهرة لم يسلم منها فن المقامة لا مشرقيا ولا أندلسيا، قال: "اتجاه واحد يبرز الدلالة الأساسية للمقامة وهو التلذذ باستذكار لحظات الفسق والفجور... فقد أثاره الهمذاني في بعض مقاماته، ولعله غالى في إحداها وهي المقامة الشامية مما جعل الناشرين يسقطونها من مجموعته، وانتقلت العدوى إلى الحريري، بل إلى المنشئين في المقامة من كتاب الغرب الإسلامي كابن شرف الذي جعل الشذوذ الجنسي يودي بحياة بطل مقامته الرابعة"¹⁹⁴. والحق يقال، إن ظاهرة المجون والإباحية وإن كانت قد وجدت لها صدى في المقامات المشرقية العربية و الأندلسية، فإن المقامات المغربية قد خلت منها خلوا يكاد يكون شبه تام - باستثناء مقامة وحيدة (الحكمة) - نظرا للطابع الديني الذي تحكم في النتاجات الأدبية المغربية بحكم التوجهات السياسية العامة للدول المتعاقبة على حكم المغرب، وبحكم أنه لا نجد أدبيا - في الفترة ما قبل العلويين - إلا وكان فقيها كما و سبقت الإشارة إلى ذلك في غير ما مقام من هذه الدراسة.

وليس في المقامة - كما أشرت - سوى شخصي الراوي والشاب، وكلاهما راو وموضوع رواية، وكما أن كليهما بطل، يتقاسمان الرواية والبطولة في غياب الجمهور. فليس في المقامة

¹⁹³ - مخطوط المقامة. الورقة: 4.

¹⁹⁴ - فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي. مرجع سابق. ص 66.

باستثناء شخصي الراوي والشاب شخصيات أخرى إلا واحدا أشار إليه الراوي في بداية المقامة قائلا: "عافى الله مولانا"، إذ الكلام موجه إلى مخاطب عام ومعلوم وهو السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، وأما إشارته للجبروت والكفر في قوله: "بسم الله العفو الغفور وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أخدم نار كل جبار كفور، عافى الله مولانا وسلمه" ¹⁹⁵، فالمقصود منها - فيما أتصور - مخاطب خاص و معروف وهو الأمير السعدي محمد المأمون بن السلطان المنصور، وسيرته تشهد على مجونه وجبروته وولعه بالغلمان، وهو ما جر عليه حقد رعيته بفاس. فقد ذكر محمد الإفراني في نزته أن الأمير المستهدف بمقامة التلمي " كان خليفة لأبيه على فاس إلا أنه أساء السيرة وأضر بالرعية، فكان فويسقا خبيث الطوية مولعا بالعبث بالصبيان مدمنا للخمر سفاكا للدماء" ¹⁹⁶. ولم يتردد هذا الأمير في معاقبة كل من يتقدم إليه بنصيحة أو موعظة أو تنبيه، ومنهم قائد أبيه ووزيره إبراهيم السفيناني، سقاه السم ¹⁹⁷ بعد الإكثار من توجيه النصح إليه، كما قام بسجن كاتب أبيه ووزيره محمد بن عيسى التلمي، " ووظف عليه مالا وبزه نخائره وأخذ ماله حتى كان مما أخذ فيه ثمانين حسكة ¹⁹⁸ مذهبة، ومائة تخت ¹⁹⁹ من الملف المختلف الألوان" ²⁰⁰. ويذكر الإفراني في نزته أن المنصور أمر بالأمير المأمون أن يسجن بمكناس فسجن بها، ودخل - المنصور - لدار الملك من فاس الجديد واستخلف ولده زيدان على فاس.

إن تعرض محمد بن عيسى التلمي - وزير السلطان أحمد المنصور السعدي - لأذى الأمير المأمون بن المنصور جعله يحقد عليه وينشئ مقامته فيه، فقد قابل الأمير نصح التلمي بالاستيلاء على ممتلكاته من أموال وأثاث، وبالإمعان في احتقاره وإهانته بسجنه. وفي اعتقادي الشخصي أنه من الممكن أن يكون التلمي قد كتب مقامته من سجنه انتقاما لنفسه من طغيان

¹⁹⁵ - مخطوط المقامة. الورقة 1.

¹⁹⁶ - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. محمد الإفراني. ص 179.

¹⁹⁷ - نفسه. ص 179.

¹⁹⁸ - آلة نحاسية يثبت فيها الشمع للإضاءة (شمعدان).

¹⁹⁹ - التخت: وعاء تصان فيه الثياب. لفظ فارسي معرب (اللسان - تخت).

²⁰⁰ - النزهة. مرجع سابق. ص 180.

الأمير الذي طال البلاد والعباد زمن ولايته على فاس. فقد وجد التلمي في أدب المقامة وسيلته للانتقام لكرامته، فركب التلعب اللفظي ليعبر عن سخطه واحتقاره للأمير المامون السعدي بدءاً من عنوان المقامة الذي بين فيه طبيعة وموضع الحكمة وانتهاءً بالمقطع الأخير منها "وهو منتفخ ما تحت الإزار، يتوجع بالليل والنهار". فالأمير الماجن منشغل بنفسه وبجلده يحكه، وبالقروح تعلوه، وبسعيه الدائم وراء الغلمان المنحرفين يقضي حاجته الشاذة منهم، " فلم يكن في فضاء النص وعالمه إلا ذلك الراوي المصاب بداء الحكمة، تركه المؤلف يعاني منها ويفشل في إيجاد علاج لها، ليعبر من خلال عذابه بها عما يضطرب في صدره من حقد على الأمير السعدي الخليع"²⁰¹. فالحكم على الأمير السعدي بالمعاناة من الحكمة والفشل في علاجها، وسعيه المجنون وراء الغلمان صورة يتقاطع فيه البعد الواقعي بالبعد النفسي، فمن تجليات البعد النفسي ما يغص به صدر التلمي من ضغينة وحقد تجاه الأمير المامون الذي حرمه ماله وحريته، مما جعله يثار لنفسه ممتظياً الألفاظ مسخراً فن المقامة للتعبير عن رأيه في الأمير الطاغية، كما أنه من تجليات البعد الواقعي في الصورة التي رسمها التلمي للأمير كونها صادقة تنطبق تماماً على سيرة المامون وسلوكاته تجاه رعيته بفاس زمن السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي. ومما نسجله عموماً على المقامة جنوحها للسهولة أكثر من جنوحها للوعورة من حيث ألفاظها وعباراتها، و نسجل كذلك من حيث بناؤها الفني غياباً كلياً لتضمين الشعر عدا بيتاً واحداً، وغياب الاقتباسات قرآناً كريماً وأحاديث نبوية و أمثالاً، وهو ما لم نعهده في فن المقامات زيادة على حذف ركن الجمهور .

²⁰¹- النثر الأدبي في المغرب. مرجع سابق. ص160.

✓ الفرع الثاني: محمد بن أحمد المكلاطي (ت 1041هـ)

قال عنه الكتاني في سلوته : "ومنهم الشيخ الفقيه الأديب الناظم الناثر الأريب: أبو عبد الله سيدي محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد المكلاطي الأكبر صاحب تزييل نظم الوفيات للفقيه الأديب الكاتب أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي، كان رحمه الله أديبا مؤرخا ناظما ناثرا، سمع من العارف الفاسي وحضر مجالسه وتوفي سنة 1041هـ... والمكلاطيون بينهم شهير وكان منهم كتاب و"عدول"²⁰². وله ذكر مقتضب في باب العشرة الخامسة من القرن الحادي عشر من نشر المثاني: "ومنهم الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاطي المرقع (كذا)، قال في أزهار البستان: سمع من الشيخ أبي محمد عبد الرحمان وحضر مجالسه وتوفي سنة إحدى وأربعين وألف"²⁰³. وقد أشار إليه فهرس مخطوطات الأدب ضمن فهرس الخزانة الحسنية مسميا مقامته: "المقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية"، لأبي عبد الله محمد بن أحمد المكلاطي (ت 1041هـ / 1631م).²⁰⁴

²⁰² - سلوة الأنفاس. مصدر سابق. ص 351.

²⁰³ - نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. محمد بن الطيب القادري. ص 305.

- له ذكر في: - صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. لمحمد الصغير بن محمد بن عبد الله الإفرائي المراكشي. نسخة حجرية. ص 137.

- فهرس الخزانة الحسنية. فهرس مخطوطات الأدب. ج 2. مرجع سابق. ص 606.

²⁰⁴ - ذكر السولامي أن نص المقامة يوجد مخطوطا في البذور الضاوية لسليمان الحوات بالخزانة العامة بالرباط (المكتبة الوطنية للمملكة المغربية حاليا). د 261. ص 163-169. وهذا ما يعني أن المقامة وردت في سبع صفحات، والحال أن المقامة وردت منشورة بتحقيق عبد الله كنون في نبوغه في اثنتا عشرة ونصف الصفحة. وهو ما يعني أن السولامي لم يكن دقيقا في إحالته ، فقد عدت فعلا لكتاب "البذور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلانية" لسليمان بن محمد الحوات الحسني ، وتبين أن المصدر يضم ثمانية أبواب في أصل الدلائيين وما يتصل بنسبهم الشريف، وفي مركز زاويتهم وفي أولاد الشيخ أبي بكر الجليل، وأولاد الشيخ محمد بن أبي بكر ومن تناسل منهم من الأئمة الأعيان إلى عصر الحوات. ولا لوجود لأية مقامة بهذا المصدر. ومن هنا التساؤل الاستنكاري حول طبيعة المخطوط الذي اعتمده السولامي للبذور الضاوية.

ينظر نصها ب: النبوغ المغربي. عبد الله كنون. الجزء 2. ص 208-220. وردت بنصها دون تحليل عدا بعض الشروحات الطفيفة.

أول المقامة: "حدثنا بشر بن سرور، عن سهل بن ميسور، عن الضحاك بسنده عن بسام، قال: تراءت لي من الأمانى الوجوه الوسام، وأنا من نشاط الشبيبة وافر الحظوظ والأقسام، لم يفتني من قواعد اللهو إلا الحج، فأقمت من قول القائل وظائف العج والثج²⁰⁵ (بيتان شعريان) فلبيت داعيه" 206 .

وعلى غرار ما عهدناه في الأدب الأندلسي من وصف للطبيعة و مفاخرة بين الأزاهير تمضي مقامة محمد المكلاطي في الإمعان في المفاضلة بين الزهور والورد وعناصر أخرى من الطبيعة (حمامة - غمامة - الشمس)، إلى أن يتضح لنا في نهايتها أن المقامة الزهرية هي في غرضي الوصف والمدح، فالمكلاطي وظف الطبيعة وأنطقها ليعبر عن مدحه للشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي واقفا عند محاسنه وفضائله تاركا الحرية لعناصر الطبيعة تتباهى بنفسها بخيلاء وإعجاب، مقلدا من شأن بعض عناصرها مبديا عجزها وضعفها. قال الراوي: " ألم تعلموا أن جامع هذه الفضائل وإمامها، ومالكها الذي أحكم انتظامها، عالم المسلمين محيي سنة الفضل في العالمين الماجد الفاضل، السحاب الهائل، السنِّي ، السنِّي ، فخر المغرب الأكبر، محمد بن أبي بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد، الكثير الرماد... فاعترفت الأزهار بأن شذاها من نسماته، وأقرت الشمس بأنها من قسماته.. قال الراوي: فلما وقع التسليم لمعجزاته المحمدية، ومناقب أبيه البكرية، قضيتُ المناسك وودعت المسالك" 207 .

وأما آخر المقامة الزهرية فقول المكلاطي: "نادتني الأزهار من كمامها، والثمار من أغصانها، سمعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعاً، وأحبيته أنت عياناً ونحن سماعاً، ونحن نقسم عليك بمواهبه التي كاثرت النجوم عدداً، وطالت البحر مدأ، إلا ما خدمت بهذه الفكاهة جنابه الفسيخ ، وأغنيت بها المساكين يعملون له في كل بحر²⁰⁸ من أشعار المديخ ، فقلت: أجبته هذا

²⁰⁵- العج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إسالة دم الهدى، وذلك في الحج.

²⁰⁶- نص المقامة. النبوغ. ص 208.

²⁰⁷- نص المقامة نفس المرجع. ص. 219.

²⁰⁸- تلميح أو هو اقتباس بالمعنى من قوله تعالى في سورة الكهف: "أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر". الآية: 78.

القسم الكريم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، فيا له من حج مبرور، وعمل متقبل مشكور، فرائد الفوائد في سلكه منظومة، وصحائف أذاته بالمسك مختومة" 209.

إن أول ما يطالعنا في بداية المقامة الزهرية أن الراوي أشار إلى وجود الجمهور حين ذكر في بداية المقامة خروجه إلى الرياض وهو يتحدث بصيغة الجمع: " ومازلنا بين تلك المنازل نرمي جمارَ الفوايد ، ونرُدُّ من ذلك أحلى المصادر وأعذب الموارد " 210 ، كما نفهم ذلك من أسلوب روايته من حيث اعتماده العنونة لتأكيد صدق روايته للجمهور الذي بدا في المقامة غير مشارك (حدثنا... عن بشر... عن سهل... عن الضحاك... عن بسام قال...).

تتألف المقامة من تمهيد وأربع مقطوعات وخاتمة، ففي المقدمة روى ابن بسام أنه خرج إلى أحد الرياض في وقت السحر، وقضى يوماً ممتعاً بين الأزهار، حتى إذا أفلت الشمس برزت زهرة شقائق النعمان تصيح مفتخرة بفضلها وجمالها. ومع هذا الافتخار تبدأ المقطوعة الأولى بتقديم مفاخرة الأزهار والورد²¹¹، قال الراوي: " سمعنا من بين جَلْبَةِ الطيرِ والأزهارِ... قال الراوي: فأوجست²¹² خيفةً في نفسي، واعتضتُ الخيفةً بدل أنسي، وقيمتُ مذعوراً لفرط الدهش... فتوهمتُه من بقايا الشفقِ أسفر عنها ضوء الفلق، فإذا هو ينادي بلسان طليقٍ: أنا أخو الرياض الشقيق... من وجهي تُعرفُ نضرةُ النعيم²¹³ ومزاجُ كأسِي من تسنيم²¹⁴ فدعُ قولَ عياض²¹⁵

²⁰⁹ - نص المقامة. النبوغ. 2. ص 220.

²¹⁰ - نص المقامة نفسه. ص 209.

²¹¹ - الأزهار التي ساقها للمفاخرة هي: شقائق النعمان - النمام - البان - البهار - النرجس - البنفسج.

²¹² - أوجس القلب فرعا: أحس به (اللسان - وجس). والعبارة اقتبسها المكلاطي من القرآن الكريم في قوله تعالى: "فأوجس في نفسه خيفة موسى". الآية 67. سورة طه.

²¹³ - اقتباس حرفي من قوله عز وجل: "تعرف في وجوههم نضرة النعيم". سورة المطففين. الآية 24.

²¹⁴ - اقتبسه من قوله تعالى: "ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون". سورة المطففين. الآية 27-28.

والتسنيم: ماء في الجنة سمي كذلك لأنه يجري فوق الغرف والقصور (اللسان- سنم).

²¹⁵ - يشير إلى بيتين للقاضي عياض في الشقيق وهما يردان عقب مفاخرة زهرة شقائق النعمان. قال الراوي على لسان الشقيق: "فحسبي ما قال علماء الشعر الأعلام:

وَكَأَنَّ مُحَمَّرَ الشَّقِيقِ إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدَ

أَعْلَامُ يَاقُوتِ نُشَيْرِنَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ "

والبيتان للصنوبري الشاعر أحمد بن محمد (ت 334هـ/945م). ينظر ديوانه ص 477. تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1970.

- ينظر نص المقامة ب: النبوغ. 2. ص 212. الورقة 5 من المقامة.

ووصفَهُ إِيَّايَ بَيْنَ الرِّيَاضِ " 216 ، وبمجرد ما تنهي شقائق النعمان فخرها واعتدادها بنفسها ولونها الأحمر، تتدخل زهرة النمام²¹⁷ دون مقدمات: " فصاح به النمامُ أَقْصِرْ فلي بحضرتكما إمامٌ متى جَمَلَتِ الرِّيَاضَ ومتى أَغْنَيْتِ الحِياضَ... أما ذَكَرْتَ سوادَ قلبِكِ وقضاءَ ربكِ، وقد جرح القاضي²¹⁸ شهادتك... لي وجوه الرِّياضِ تتقَبُ دما " 219 ، وتتوالى الافتخارات على هذا النحو فيظهر بعد النمام البان " فناداه البانُ وقد ظهر عليه وبانٌ " 220 ، فالْبَهَارُ" البَهَارُ البادي فضله على فضل النهار"²²¹ ، فالنرجس " غذاء الروح لمن يغدو عنه ويروح " 222 ، فالبنفسج " ريحانةُ الجيوب، المحببةُ للقلوب " 223 . ثم الورد " مُشَرَّفُ الربيعِ ومُظْهِرُ ماله من البديع، منعشُ الأرواحِ عروسُ الأفراحِ، نوافحُ ذكيه وروايحُ شذيه " 224 . وأما المقطوعة الثانية فتتدخل في المفاخرة فيها حمامة مقللة من شأن الزهور، " قال الراوي: فبينما هما في مطارحةٍ وجوابٍ، ومفاخرةٍ وإعجابٍ، إذ أقبلت مطوقةُ الرِّياضِ، ولها من الجو انصبابٌ وانقضاءٌ... وقالت... وأنتم لنا أعشاشٌ وأوكار"²²⁵ . ويبدأ المقطع الثالث من المقامة بظهور غمامة ، " قال الراوي : فبينما أَعْجَبُ مما سمعت، وأهْمُ بتقييد ما رَوَيْتُ ، إذ نشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض، وتسد الآفاق على الطول والعرض... ثم قالت : يا ذواتِ الأطواقِ البائحاتِ بالأشواق... بكاؤكن كذب

²¹⁶ - نص المقامة. النبوغ² . مرجع سابق.ص.212.

²¹⁷ - النمام: نبت طيب الرائحة، من نم الشيء إذا سطعت رائحته (اللسان- نمم)، ويعرف بالخيري وهي كلمة معربة، كما يعرف بمسك الليل.

²¹⁸ - يقصد القاضي عياض في البيتين الشعريين السابقين في شقائق النعمان.

²¹⁹ - سيلاحظ القارئ أن هنالك خطأ مطبعيا ورد في نص المقامة الزهرية بتحقيق من عبد الله كنون في نبوغه ، ذلك أنه كرر حرفيا على لسان النمام نفس الفقرة التي اعتد فيها الشقيق بنفسه من (لي وجوه الرِّياضِ تتقَبُ دما...) إلى (فدع قول عياض ووصفه إِيَّايَ بَيْنَ الرِّيَاضِ وخلّ من الألوان) ، وهنا يظهر بيت شعري يتيم:

إِنْ كَانَ نَمَامٌ فَمَعْكُوسُهُ مِنْ غَيْرِ تَأْدِيبٍ لَهُمْ مَأْمُ

متبوعا بمتن المقامة من غير حذف ولا بتر واضحين غير الذي نبهتُ إليه.

²²⁰ - نص المقامة.مرجع سابق. ص.213.

²²¹ -المرجع نفسه. ص.213.

²²² - نفسه. ص.214.

²²³ - نفسه. ص.214.

²²⁴ - نفسه. ص.215.

²²⁵ - المرجع نفسه. ص.216-217.

ونوحن لعب²²⁶. فالغمامة تفند فخر الحمامة بنفسها وتذكر فضلها على الزرع والنبات قائلة على لسان الراوي: "ما الفضل إلا لمن أحيا الأرض بعد أن كان زرعها يهيج، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج... قال الراوي: فبينما هي تطلق اللسان تعد ما لها من الحسن والإحسان، إذ طلعت الغزاة، وهي في مشيها مختالة"²²⁷، وهذا هو المقطع الرابع الذي تظهر فيه الشمس مفتخرة بنفسها قبل أن يتدخل الراوي في الحسم في المفاخرة بين الأزاهير الست والورد، وبينها وبين الحمامة، وبينها وبين الغمامة، وبينهما أخيرا وبين الشمس التي قالت: "أعدو في مصالح العالم وأروخ، فلولاي ما جرت الأنهار ولا تفتقت الأزهار"²²⁸، قال الراوي: فلما رأيت إفراط اللجاج والتماذي على الحجاج، قلت: الحق أبلج والبطل لجلج²²⁹، هلا أعطيتم القوس باريها، وأسكنتم الدار بانيها... ألم تعلموا أن جامع هذه الفضائل وإمامها... محمد بن أبي بكر صاحب الدلاء الكريم"²³⁰. فبتدخل الراوي في خاتمة المقامة حسم الخلاف بين عناصر الطبيعة المتفاخرة وجمع كل محاسنها ليجعلها وقفا على مدح الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، فتكون هاته هي الدلالة الأساسية للمقامة الزهرية، وهي مقامة عجيبة أحداثها خارقة تنطق الحيوان والنبات، جعلت الطبيعة تحاور الراوي وهذا ضرب من ضروب الأدب الخارق والذي سبق وأن لمسناه في الأدب الأندلسي في رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي (ت426هـ) والتي اعتمدت الخيال، ذلك أن أحداثها تدور في عالم الجن. وكنا قد أشرنا لتأثرها بالمقامة الإبلية للهذاني وكذا برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وهو ما يفيد التفاعل بين الأداب. ذلك أنه لا يخفى في المقامة الزهرية ذلك النفس الأندلسي المشبع بوصف الطبيعة والأزاهير، فعناصر الطبيعة (أزهار وورد - حمامة - غمامة - الشمس) المتصارعة فخرا في المقامة الزهرية تثير الإعجاب بقدره المكلاطي على أنسنة الطبيعة ومعرفته الواسعة بخصائصها وكأنه عالم نباتي متخصص في مجاله أو كأنه ابن خفاجة الأندلسي في شعر الطبيعة.

²²⁶- نص المقامة. مرجع سابق. ص. 217.

²²⁷- نص المقامة. نفسه. ص. 218.

²²⁸- نفسه. ص. 218.

²²⁹- اللجج: الذي يردد ولا ينفذ، والمختلط الذي ليس بمستقيم (اللسان - لجج).

²³⁰- نص المقامة. مرجع سابق. ص. 218-219.

وكما أن المكلاطي كان متأثرا بشعر الطبيعة في مقامته فقد كان مؤثرا فيمن جاء بعد عصره من المقاميين من أمثال : محمد بن أحمد المسناوي صاحب المقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية²³¹، وهذا الاتجاه لدى المقاميين نحو تخليد ذكر الزاوية الدلائية يجد دلالاته التاريخية والعلمية عندما نجده يتكرر عبر مدح نفس الشيخ المذكور، " والشيخ الممدوح بهذه المقامة هو نفسه المشار إليه في خاتمة مقامة أخرى لا تحمل عنوانا محددا لها، ومشيرا إلى موضوعها...وصاحبها هو الشيخ أبو حامد محمد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي الذي تحدث فيها عن نفسه، وعن التقلبات التي...دفعته إلى الانتقال من مدينة فاس ناجيا بنفسه... إلى أن حط الرحال بزاوية أهل الدلاء فذهب عنه الروع والفرع "232، وبنائها مختلف عما عهدناه في المقامات المشرقية، مما يؤكد عدم تقيد المقاميين المغاربة بمفهومها العام وتجاوزهم لأهداف الكدية والاحتيال إلى أغراض تختلف من مقامي لآخر، حسب تكوين كل واحد منهم علميا وأديبا ونفسيا واجتماعيا. وإذا كانت هذه المقامة تتحدث عن الزاوية الدلائية وهي عامرة، فإن المقامة الفكرية تناولتها وهي خراب على شكل رحلة فكرية خيالية لكاتب بارع "لم ينس أرض الدلاء التي ولد فيها، وشاهد مفاتها، ولعب في مراجعها وحقولها... فلم يترك زهرا ولا نبئا ولا نبعا ولا مشهدا فيها إلا تناوله ولونه بنفسه ومشاعره "233. فالمقامة الزهرية تمثل ذلك النفوذ الروحي الذي لعبته الزاوية الدلائية بالمغرب في استقطاب رجال الفكر والأدب حماية لأنفسهم من التقلبات السياسية والاجتماعية - لما كانت الدولة السعدية في لحظات أنفاسها الأخيرة - وفرصة للقاء شيوخ التصوف والعلم كما هو واضح من نهاية المقامة التي أدارها المكلاطي على مدح الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، وهو هدف روحي وسياسي في نفس الآن

²³¹- تهم العصر العلوي، ذكرها محمد السولامي في الجزء الخاص بالنصوص من رسالته الجامعية المذكورة سابقا.

²³²- النثر الأدبي في المغرب. مرجع سابق. ص165.

²³³- المرجع نفسه. ص171.

والمقامة الفكرية في محاسن الزاوية البكرية من إنشاء محمد بن أحمد المسناوي الدلائي ، أولها: "حكى النسيم بن سحر عن الروض بن مطر قال: لما تراكمت على الفؤاد أعباء الأشجان". والأديب من مواليد الزاوية الدلائية عام 1072هـ/1661م.

غير خاف علينا ما كان للزاوية الدلائية من إشعاع صوفي في المغرب والمشرق²³⁴. وعلى الرغم من تتبع المكلاطي لأصول شعرية²³⁵ ونثرية أنطقت الطبيعة وأجرت المفاضلة بينها فإن شخصيته المغربية واضحة في النأي بالمقامة عن موضوعات الكدية والاحتيال والمغامرة كما عهدناه في المقامات المشرقية، وبالنأي كذلك عن مدح الوزراء كما في بعض المقامات الأندلسية، وهي أوضح في انتقاله إلى مدح شيوخ التصوف والعلم بالمغرب دون أن يكون المال

²³⁴ - "ظهرت الزاوية الدلائية في العصر السعدي الثاني، وهناك عدة عوامل جغرافية وسياسية واقتصادية جعلت من الزاوية المركز العلمي الأول في هذا العصر. فموقعها في الحدود الغربية للأطلس المتوسط المطلة على سهول تادلة في نقطة بعيدة عن مناطق الاضطرابات في الشمال والجنوب، جعل منها منطقة آمنة يجد فيها المشتغلون بالعلم ما يتطلبونه من الطمأنينة وراحة البال. وقد جعلت العصبية الصنهاجية قبائل البربر في بلاد ملوية العليا يخضعون لهيمنة محمد بن أبي بكر الدلائي الروحية. فإذا كانت السلطة المركزية قد انقسمت على نفسها فتمزقت وضعفت حتى انعدمت أو كادت، وعمت الفوضى وانتشر النهب والخوف والقتل داخل الحواضر وحواليها، فإن الأمر بخلاف ذلك تحت قيادة فرسان الدلاء أمثال المسناوي محمد بن أبي بكر، وأخويه عبد الخالق ومحمد الحاج... يضاف إلى ذلك ما عرفت به هذه الزاوية من رخاء شامل وثروة طائلة، وما اشتهر به أهلها من كرم مفرط... فكان من الطبيعي أن تجذب إلى رحابها جموع العلماء الذين لم يجدوا فيها الأمن والطمأنينة فحسب، ولكن أيضا مظاهر الإجلال والتقدير وإمكانيات الشهرة والجاه. على أن التفوق العلمي للدلائيين في القرن الهجري الحادي عشر - 17م - لم يكن أصيلا ولا دائما، وإنما كان نتيجة ظروف مواتية عابرة. وخلافا لما توهمه بعض المؤرخين فإن الدراسة في الدلاء لم تقتصر على الجوانب الدينية والصوفية، وإنما شملت كل المواد التي كانت تدرس في فاس ومراكش وسجلماسة وسواها من المراكز العلمية من قراءات وتفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، ومنطق، وحساب، وتوقيت، ونحو، وبلاغة، وأدب... ومن أشهر العلماء الدلائيين الذين اشتغلوا بالتدريس في زاويتهم: محمد بن أبي بكر (خاتمة مشايخ المغرب، عالم حافظ دارك متوسع في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام، كان درسه يستغرق نصف يوم دون أن يشعر المستمعون بالملل، حضر دروسه: أحمد المقرئ، والعربي الفاسي، ومحمد البوعناني وغيرهم من أعلام العلماء وأكابر المؤلفين). ينظر في ذلك: محمد حجي. (المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني). (مجلة البحث العلمي). العدد 7. السنة 3: 1966. (ص12-44). ص14-15-16.

²³⁵ - ينظر في ذلك:

(أ) - قول الشاعر الصنوبري أحمد بن محمد:

يَخْجَلُ الْوَرْدُ حِينَ عَارَضَهُ النَّزُّ جِسُّ مِنْ حُسْنِهِ وَغَارَ الْبَهَارُ

ديوانه ص78.

(ب) - المحاورات بين الورد والنواوير للوزير أبي حفص أحمد بن برد في تفضيل الورد.

(ج) - البيت الذي أورده لصفي الدين الحلبي:

أَيَّارَبِّ حَتَّى فِي الْحَدَائِقِ أَعْيُنٌ عَلَيْنَا؟ وَحَتَّى فِي الرِّيَّاحِينَ نَمَامٌ؟

(د) - إيراده بيتا لأحمد بن يونس الكاتب ينقض تفضيل ابن الرومي النرجس على الورد:

فَأَنْظُرُ إِلَى الْمُصَفَّرِ لَوْنَا مِنْهُمَا وَافْهَمُ فَمَا يَصْفَرُ إِلَّا الْحَاسِدُ

فهي كلها أبيات شعرية ليست من نظم المكلاطي وإنما أخذها عن غيره من الأندلسيين والمشاركة ممن قالوا قبله في شعر الطبيعة.

دافعه للمدح، وإنما مشاعر إنسانية نبيلة " تأبى إلا أن تظهر في قصيدة شعرية أو مقامة يتعاون فيها المنظوم والمنثور من الكلام لإظهارها في أحلى حلة وأجمل بيان، وخاصة إذا أعار الإنسان تلك المشاعر إلى الزهور والرياحين والورود والغمام... لتضفي عليها من ألوانها وأطاييبها وأنغامها ما يزيد الكلام سحرا وجمالا، كما فعل المكلاطي في هذه المقامة التي جعلت منه أديبا أندلسيا خارج عصره وزمانه"²³⁶.

²³⁶- النثر الأدبي في المغرب. مرجع سابق. ص165.

✓ الفرع الثالث: الأزاريفي (ق12هـ/18م)

يعرف هذا المقامي السعدي بأبي محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الأزاريفي الحامدي²³⁷، نسبة إلى أزاريف²³⁸، ومقامته الأزاريفية²³⁹ نسبة إلى منشئها رسم فيها صورة من مجتمعه الصحراوي، حيث معالم الفوضى التي تعيشها الصحراء المغربية والأخطار التي تهدد قوافل التجار، والتي عزاها إلى أئمة المساجد وخفراء القوافل. وقد قدم مقامته إلى خليفة السلطان بتارودانت المولى عبد الملك²⁴⁰ في شكل دعوة للإصلاح على ما يبدو. ومن هنا، ارتباط المقامة ببيتها المحلية وتعبيرها عن واقعها وهو ملمح من ملامح مقامة الغرب الإسلامي (أندلسية ومغربية). وإذا كان هذا مؤشر مبكر على التجديد والأصالة والخصوصية في المقامة

²³⁷- تسكت المصادر عن تاريخ ولادته ووفاته، ولذلك لا ندري شيئا عن حياة الأزاريفي عدا أنه كان من أهل القرن الثاني عشر للهجرة - 18م، وأن أكثر معاصريه توفوا في الطاعون الجارف بسوس سنة 1214هـ.

ينظر في ذلك: سعيد أحمد أعراب. (نص جديد في تاريخ المقامة المغربية: المقامة الأزاريفية لأبي محمد الأزاريفي الحامدي). (مجلة البحث العلمي). العدد 26. السنة 13: 1976. (ص163-173). ص 164.

²³⁸- " إن لفظة (أزاريف) تعرب إلى (الشب)، فالشبي والأزاريفي لهما مدلول واحد، ونحن نوثر دائما أن نتلفظ بالكلمات المعتادة لأنها هي التي تفهم بادئ ذي بدء. وقبل أن ندخل في تراجم رجالات هذه الأسرة المباركة نعلن أنها من أقدم الأسر العلمية مثل... (الكرسيين) و (الركراكيين) المنبثين في (سوس) من قبل العاشر. ثم إن مدرسة (أزاريف) يقال إنها أسست منذ القرن الثامن، وذلك غير مستبعد فإن نظائرها موجودة في (جزولة) بل هناك ما ذكر من القرن الخامس". محمد مختار السوسي. المعسول. الجزء الثامن. ص7.

²³⁹- ينظر نصها في:

- محمد المختار السوسي. المعسول. الجزء 8. ص33-49 (وردت في 17 صفحة استغرقت الهوامش نصفها).

- سعيد أحمد أعراب. (نص جديد في تاريخ المقامة المغربية: المقامة الأزاريفية لأبي محمد الأزاريفي الحامدي). مرجع

سابق. (وردت المقامة في ثمان صفحات مضغوطة بخط صغير دون شروح وهو ما يعطينا فكرة عن طول حجمها).

²⁴⁰- يذكر ذلك سعيد أحمد أعراب في مقالته (المقامة الأزاريفية) ص165. واسمه كاملا هو: "عبد الملك بن المولى إسماعيل

(ت 1141هـ)" ، ذكر ذلك محمد المختار السوسي في (سوس العالمية). مطبعة فضالة. 1960م. ص80.

الأزاريقية ، فإنه على ما يبدو من حضور لمنظوم الحريري في مقامته²⁴¹ أن المغاربة على خلاف الأندلسيين يوردون أشعار غيرهم، وهو ما لاحظناه على المكلاطي في الفرع السابق من اقتباس من الشعراء المشاركة و الأندلسيين. ولعل هذا مؤشر مبكر أيضا على إغراق المقامة الأزايقية في اتباعيتها للمقامة الأنموذج (المقامات الحريريّة خاصة).

يرجع الباحث سعيد أحمد أعراب في مقالته (نص جديد في تاريخ المقامة المغربية : المقامة الأزاريقية لأبي محمد الأزاريقي الحامدي) عدم انتباه الباحثين المغاربة إلى هذه المقامة²⁴² إلى " وقوف مؤرخي الأدب بالمقامة المغربية عند ابن الطيب العلمي، ولا يكادون يتجاوزونه - فإذا تجاوزوه فالى ابن ادريس العمراوي ، وكلاهما من أبناء حاضرة فاس - ، و بعبارة أدق، فإن المقامة - عندهم - لم تخرج عن دائرة الحاضرة، ولا تعكس أي لون من حياة

²⁴¹- ذكر للحريري: - فرافقت صحبا قد شقوا عصا الشقاق (المقامات الحريريّة. ص33).

- أطمعة اليد واليدين (المقامات الحريريّة. ص170).

- وكيف عجره وبجره (المقامات الحريريّة. ص274).

كما أن بالمقامة كثيرا من الإشارات إلى شعراء مشاركة - سنعرضها في وقتها - ومن ذلك: اقتباسه (وقلما يخطئ ذلك إن كيسا وإن حمقا) من قول الشاعر:

وإنَّما الشَّعْرُ عقلُ المرءِ يعرضُهُ
على المسامحِ إنْ كَيْسًا وإنْ حَمَقًا

²⁴²- لم يذكرها علال معكول في نثره الأدبي وهو يستدرك على محمد السولامي ما لم يذكره من نصوص مقامية علوية، أو ما لم يخصه بدراسة جادة من المقامات المرينية والسعدية (من ذلك مقامة الحكمة). كما أن محمد السولامي أصدر أحكاما قطعية بعدم وجود نصوص مقامية مغربية عدا خمسة نصوص لثلاثة مقاميين مرينيين هم: الملزوزي - ابن المرحل - الحضرمي، ولمقاميين سعيديين هما: التملي والمكلاطي.

وعلى غرار ما عهدناه من استخفاف علمي في دراسة السولامي فإني أسجل - عليه هذه المرة- ادعاءه حين نشر مقالة له بمجلة بحوث عن كلية الآداب بالمحمدية في عددها الأول الصادر عام 1988 تحت عنوان "خطاب الإصلاح في المقامة المغربية، مقامة الأزاريقي نموذجا¹"، وفي الهامش نقراً: ¹- هذا مبحث من رسالة في موضوع " فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي - دراسة نصوص "، تقدم بها الكاتب لنيل دبلوم الدراسات العليا خلال السنة الجامعية 1986/85. فرسالته الورقية بين يدي ولا ذكر للمقامة الأزاريقية فيها ولو حتى إشارة من بعيد، ولعل جملة الاستدراكات والمؤاخذات التي كانت لي على الباحث ليس الداعي إليها انتقاد الشخص لذاته وبيان سبل البحث اللاعلمية واللامسؤولة التي سلكها، وإنما كشف المغالطات وتعريفها لذاتها لتصحيح المعرفة وكشف حقيقتها خدمة للعلم والأدب، وغيره على التراث الوطني.

البادية"²⁴³ . وبذلك تكون هذه المقامة البدوية المنشأ بعضا من العالم البدوي الصحراوي السوسي المغربي، تقدم صورا واضحة عن عادات أهله وطباعهم وأخلاقهم، وهو ما يعطي للمقامة الأزاريفية بعدها المحلي والإقليمي والوطني في شقة الأدبي، وكذا في شقه الاجتماعي والأخلاقي الإصلاحي.

لقد عرفت سوس حركة فكرية وأدبية واسعة في العصر السعدي على عهد محمد العالم ثم على عهد أخيه عبد الملك، وكلاهما كان خليفة عن والده السلطان المولى إسماعيل بإقليم سوس. وقد امتاز محمد العالم بشغفه بالعلم حتى لقب بـ "العالم"، إذ " كان شغوفا بالأدب منذ نعومة أظفاره مشجعا لأهله، يقارضهم الشعر ويساجلهم في كثير من فنونه وأغراضه، ويجزل العطايا للمجيدين فيه "²⁴⁴ ، كما وأنه " أقام سوقا نافقة بالعلم والأدب، وجمع عليه من أهل الفضل والنباهة كل عالم تحرير وأديب شهير، قصدته الوفود من شتى النواحي النائية الضاربة في جنوب المغرب وصحرائه، فمدحه شعراؤه بما طال العهد بمثله من الشعر الفحل، واطلع بسبب ذلك على ما كان بجنوب المغرب من نهضة علمية مباركة، وخاصة في علوم اللغة والأدب"²⁴⁵ . " ونشأت بتارودانت - عاصمة سوس- مدرسة أدبية خلقانية المنحى تناهض مدرسة ابن الطيب العلمي بفاس وتباريها "²⁴⁶، " فكانت هناك مساجلات أدبية ومسامرات شعرية، ومجالس أنس ومرح تذكرنا بأيام بني عباد في عاصمتهم اشبيلية الفيحاء "²⁴⁷ . وبموت الأمير العالم ، وفي عهد أخيه عبد الملك ظهر أدباء أفذاذ في مقدمتهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن يحيى الأزاريفي، نسبة إلى أزاريف وهي قرية على قمة جبل بآيت حامد، اشتهر أهلها بالعلم والأدب منذ القرن التاسع الهجري.

²⁴³- سعيد أحمد أعراب. المقامة الأزاريفية. مرجع سابق. ص163.

²⁴⁴- سوس العالمية. مصدر سابق. ص75-77.

²⁴⁵- النبوغ 2. مرجع سابق. ص275.

²⁴⁶- سوس العالمية. مصدر سابق. ص65.

²⁴⁷- المصدر نفسه. ص65.

وقد كان والد المترجم له عالما كبيرا ومربيا مصلحا، له مؤلفات في الفقه والتصوف والطب، وكان إخوته الثلاثة: محمد، وأحمد، وأبو القاسم علماء أفاضل. كما أن من أبناء المترجم: أبو العباس أحمد بن عبد الله، وهو عالم أديب له منظوم في التصريف²⁴⁸.

لقد أخذ أبو محمد الأزاريقي عن والده، ولا نعرف له شيئا غيره، وأجازته في جملة إخوته محمد بن إبراهيم التاكسدلي في حدود 1165 هـ²⁴⁹. ومما يؤسف له سكوت المصادر عن ذكر تاريخ ولادته أو وفاته عدا أنه من أهل القرن 12 هـ وأن جل معاصريه توفوا جراء طاعون جارف بسوس عام 1214 هـ. بيد أنها - المصادر - تذكر له أشعارا بدا فيها أديبا مجيدا، والمقامة الأزاريقية²⁵⁰ تعد من أهم آثاره الأدبية.

أول المقامة: "حكى هيان بن بيان قال: كنت مغرما بالتجارة من صغري، إلى أن ابيض شعري، أجوب بها الآفاق من المغرب إلى العراق، وأميل بها بعض الأحيان إلى أسواق السودان، ... وقد اتخذت لي رفقة تأتمر بأمرى، ولا تخالفني إذا أكلت تمرى، وقد اطلع أفرادها على عجري وبجري²⁵¹، فيكونون سمارى، من مسائي إلى سحري، وكنا عدد إخوة يوسف عليه

²⁴⁸- سوس العالمية. مصدر سابق. ص51-52.

²⁴⁹- المعسول. الجزء 18. ص50-51.

²⁵⁰- تردد محمد المختار السوسي في نسبتها للأزاريقي عندما قدمها في بداية ترجمة أحد الأعلام من أبناء العلامة محمد بن يحيى وهو العلم الخمسون: عبد الله بن محمد بن يحيى بن الحسن بن محمد، قال: "رأيناه مجازا في الذي سيأتي من التاكسدلي وغيره، وقد وقفنا على مقامة منسوبة لعبد الله الأزاريقي، ربما كان المترجم هو صاحبها لأنها قدمت لأحد خلفاء الملوك في تارودانت، فلنزين بها ترجمته: المقامة: حكى هيان بن بيان...". المعسول ص32. لكنه سرعان ما يعدل عن رأيه حين يقر بنسبتها للأزاريقية، إذ نقرأ في الهامش إحالة على آخر كلمة بمتن المقامة: "هذه المقامة التي كنت رأيتها في مبدأ الطلب في أوراق عند سيدي إبراهيم بن صالح التازاروالتي، ثم ضرب الدهر بضرباته إلى أن وقفت عليها أيضا في آخر كناشة الخياطي، فسألت عن الأولى فأخبرت أنها ليست اليوم بين كتب المذكور، وقد كنت سمعت في المدرسة (التانكرتية) من الحامدي الأديب أن في (أزاريق) مقامات. ولعله يقصد هذه أو سواها". المعسول. ص49.

²⁵¹- اقتباس حرفي من قول الحريري: "وكيف عجره وبجره". المقامات الحريرية. مصدر سابق. ص274.

السلام²⁵²، ولم ينقصنا إلا واحد لنكون كعدة شهور العام²⁵³. ومنها قول الراوي: " فألفتنا
غربة النوى إلى بلد مجتوى²⁵⁴...دخلنا البلد...فابتدر إلينا من جلوس تحت ظل ظليل رجل
طوال²⁵⁵ يعرض علينا أن يكون لكل ما نريده أعرفَ دليل فقلت له نريد مسكنا...فبادر
إلينا...أبو الغيداق المشهور عند كل الرفاق...قال: أرى لك أن لا تنزل عندي...حتى تسأل
أميرنا...حكيت له أنني سأنزل عند أبي الغيداق فقال: إنه أمين هذه البلدة...ثم قال...علي بأبي
الغيداق أحضره بين فتحة العين والإغلاق...فليكن عندك ضيف حاتم... وبعد أن يستريح ثلاثة
أيام يأتي إلي بسلعه حتى أحضر له من التجارة من بسومها من غير أن يغض لها ختام...²⁵⁶ ،
وبعد خلود الراوي ورفقته للنوم واستيقاظهم مع انتصاف الليل وجدوا أبا الغيداق ينتظرهم قال:
"فقلت له مداعبا: قد عرفت الآن سبب كنيته، وقلما يخطئ ذلك إن كيسا وإن
حمقا²⁵⁷...قال...وما يدريك ما أكنه وراء هذا الكرم المنهمر...فالناس ذئاب في ثياب وثعاليب
في جلابيب وفهود في برود...²⁵⁸ ، ولما انقضى المجلس مع طلوع الفجر حاول الراوي تقديم
صرة من المال لمضيفه ، لكنه رفض بشدة لأنه كريم والكريم لا يأخذ عن كرم ضيافته ، وقد
عذره لأنه تاجر وأخبره أن " من يكرم ضيفه ثم يتقاضى منه فإنما هو محتال لاحتجان أموال
الناس بالمرأوغة...يتظاهر بالكرم الفياض من وراء حجاب،...أحد الذين يريدون أن يحمدا بما
لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب"²⁵⁹. ثم اقترح أبو الغيداق على الراوي أن يلبي
إلى المسجد داعي الفلاح "فدخلنا المسجد والفجر قد انبثق في المشرق، كأنه تاج فضة على هامة

252- أحد عشر.

253- نص المقامة. المعسول. الجزء الثامن. مصدر سابق. ص33.

254- اجتويت البلد إذا كان جوه لا يوافقك.

255- طوال بضم الطاء أي طويل.

256- نص المقامة. المعسول. ج. 8. ص 33 - 34 - 38.

257- اقتباس حرفي من قول الحريري. سبقت الإحالة عليه .

258- نص المقامة الأزاريبية. المعسول. ص 40- 41.

259- نص المقامة. المصدر السابق. ص43.

أحد العباسيين يشرق²⁶⁰... فتعجبت حين كان أبو الغيداق هو الإمام بالمسجد، وقد صلى بنا صلاة خشوع عابد متهدج²⁶¹ " ، وفي طريق العودة من المسجد ذكر أبو الغيداق للراوي أنه اختار مسكنا بعيدا عن زحام المدينة هربا من كيد الناس " فإن في الناس من يعادون إنسانا، ثم لا يكيدون له إلا مجانا²⁶². وبعد مرور ثلاثة أيام من الحياة المطمئنة بالنزل غادره الراوي ورففته في حضرة جهينة الأمير الذي وفى بوعده وباع سلعهم، فوفد عليهم دليلهم الأول مهنا بروج السلعة وحذرهم من مخاطر السفر صحبة المال وعرض عليهم تأمين سفرهم حتى تم الاتفاق، وبعودتهم للنزل حذرهم أبو الغيداق من الدليل واسمه ابن عبله الذي أراد بهم شرا رغم أنه إمام بدوره، قال الراوي " فهل تضامنتم معه إمام أحد... حفظتم من شر الناس... سأنظر لكم الخفير الدليل بشرط أن لا تعلموا أحدا بسفركم الليلة "263. وتقترب المقامة من نهايتها وقد حضر الدليل ليحرق بهم المسافات "حتى أصبحنا على مدينة كنا نحسب أن بيننا وبينها مسيرة يومين كاملين، فإذا به قطع بنا إليها في مسيرة ليلة واحدة كأنها غمضة من عين، وكنت أتعجب من دليلنا الذي يسبقنا كثيرا... وهو يتغذى عني عمدا، حتى استغفلته وقد سقط بعض لثامه، فشاهدت أبا الغيداق هو الذي يوليني كل الليلة صدا²⁶⁴. ولما بادره الراوي عن قدر الخفارة قال: "من تمام الكرم صيانة الضيف حتى يصل الحرم"²⁶⁵ ، ومضى مقفلا فقال الراوي مختتما مقامته قبل أن يوجه كلامه للأمير كما سماه بمقامته: " إلى أن غاب عن بصر كل واحد منا وإن لم يرغب عن باصرته فقلت لأصحابي: مثل أبي الغيداق من يحمي الرفاق، ومثله من كنا نفتش عنه، ولكن كيف التمكن منه، فإن مثله أعز من بيض الانوق، ومن الأبيض العقوق، وقد أقسمت لأصحابي: إنه لو أصحب ليدي وانتظم في عددي، لقاسمته مالي، هو كما تلمسون منه من كنوز،

²⁶⁰- ذكر الأزاريقي العباسيين ولو ذكر الملوك السعديين لكان أفضل خاصة وأن مقامته اتجهت اتجاها جادا في تكريس الخصوصية والاستقلالية والارتباط بالواقع المحلي في المقامة المغربية ، وهذا مظهر من مظاهر إغراق الأزاريقي في اتباعيته للمقامة المشرقية شكلا ومضمونا.

²⁶¹- نص المقامة. مصدر سابق. ص 43-44.

²⁶²- نص المقامة. ص 45.

²⁶³- نص المقامة. ص 47.

²⁶⁴- نص المقامة. ص 48.

²⁶⁵- نفسه. ص 48.

ولكن لا ينفاد إلا أرباب الشره لا أرباب الأنفة والفتوة "266. ثم يعقب روايته بخطاب مباشر للأمير عبد الملك وكأنها رسالة عقب مقامة: " فيا أيها الكريم، هذا مثل ضربته وأتيت به في مقامة ملفقة واستجلبته، ليرى سيدنا كيف يكون الناس- إذ الناس ناس، والنساس نساس؟! - فأما اليوم وقد اختلط الحابل بالنابل²⁶⁷ وضاعت المروءة من أئمة المساجد وخفراء القوافل، فالموت خير من الحياة، وكيف تبصر عين فيها قذاة؟ فغالب الناس عريضو الأقفية²⁶⁸، وكثير من المتصدرين - حاشا أمثال الأمير- في السفاسيف سواسية، فقد أكلت الناس وشربتهم تجربة²⁶⁹، فلم ألف إلا قليلا ممن يحمده من جربه، فليتعرز الأمير²⁷⁰ بذلك، وليتخذ غيره أسوة في تلك المسالك، على أن الحر من لا يعول على أحد، ولا يتكل إلا على الله الصمد، فحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم على أعظم دليل، ومعز كل دليل، بسنته المأمونة وسيرته الميمونة، وعلى آله وصحبه وعلى كل من انتظم في حزبه، وعليه أفضل السلام يكون مسك الختام."271

فالأزاريفي أنهى مقامته الرحلية بمقطع كما فن الرسالة، بل وتضمن المقطع الملحق بالمقامة أسلوب التحميد والثناء والتسليم على خير الخلق وهو من ثوابت الكتابة في فن الرسالة.

لقد انتهت المقامة بنداء وجهه الأزاريفي للأمير عبد الملك يعظه فيه مبينا له أن الأمراض الاجتماعية التي بسطها في مقامته دواؤها بيد الأمير بوصفه العين الساهرة على مصالح الرعية وراعي شؤونها وحافظ دماؤها وأموالها وأعراضها، كما أن ابن الغيداق نموذج للمواطن السعدي المرغوب فيه "ولكن كيف التمكن منه؟ فإن مثله أعز من بيض الأنوق ومن الأبيض العفوق"²⁷². إنه نموذج للأمانة والمروءة والصدق والوفاء في زمن تبدد فيه الأمن وسكن الخوف قلوب العباد ودروب البلاد. وبذلك تكون المقامة الأزاريفية شاهدة على عصرها:

²⁶⁶- نص المقامة. مصدر سابق. ص48-49.

²⁶⁷- الحابل: سدى الصوف، والنابل: لحمته. يقال ذلك في اختلاط المتباينين.

²⁶⁸- جمع قفا، كناية عن البلادة واللامبالاة.

²⁶⁹- أخال ذلك نفسا مشرقيا من بيت شعري لا أستحضره.

²⁷⁰- يذكر المختر السوسي أن الأمير لقي عنتا ممن يستنيم إليه فعزاه الأزاريفي بهذه المقامة، كما أن سياق المقامة وما يحمله من صور عن الفساد لدى أئمة المساجد وخفراء القوافل التجارية فيه نوع من العزاء للأمير عن غياب الناس الأخيار وتصدر الأشرار لمناصب المسؤولية، وأن الأمير لا يجب عليه أن يعول إلا على الله فلا يثق في أحد.

²⁷¹- نص المقامة. ص49.

²⁷²- نص المقامة. إحالة سابقة. ص48.

العصر السعدي الثاني بكل تقلباته وسمات التقهقر فيه سياسيا واجتماعيا، ذلك أن الأزاريفي قدم من خلال مقامته الوعظية (بحكم مخاطبة الأمير عبد الملك بها ورفعها إليه) ، والرحلية (بحكم اشتغال الراوي بالتجارة ورحلته لبيع سلعه)، والرسالة (من حيث خاتمها) "درسا أدبيا اجتماعيا وأخلاقيا، صور فيها حال المجتمع الصحراوي في القرن الثاني عشر الهجري، وانتقد العناصر الفاسدة فيه. وقد ضمنها الكثير من الأمثال والأبيات الشعرية وغرائب اللغة. وهو متأثر بالحريري في مقامته يحذو حذوه في بعض عباراته" ²⁷³.

لقد اتخذ الأزاريفي هيان بن بيان راوية لمقامته مقدا لنا الأحداث في قالبين:

- تلخيص مجموعة من الأحداث وروايتها من حيث هي وقائع مضت وانتهت، وهو ما نقف عليه في مطلع المقامة.

- تتبع وقائع انتهت ويعيشها الراوي مرة ثانية على مستوى تلفظه بها.

والمقامة عموما تتألف من ثلاثة أجزاء هي: المقدمة حيث يتحدث الراوي عن ماضيه، وجسم المقامة حيث لقاء الراوي بالبطل أبو الغيداق بما يحمله اسمه من حمولات الكرم والنبل والمروءة، وهي معاني افتقدها الراوي على عصره - السعدي الثاني -، وخاتمة على شكل نداء أو رسالة صريحة أفصح من ورائها الأزاريفي عن سبب إنشاء مقامته الأخلاقية الوعظية. فقد شكل البطل أبو الغيداق محور المقامة، إذ أن قسمها الأول تحدث عن وصول الراوي إلى بلد أبي الغيداق، والثاني عن الضيافة، والثالث عن سفر الراوي وصحبه إلى غايتهم وأبو الغيداق دليلهم.

والملاحظ أن العبارات المسجوعة للمقامة على لسان الراوي أو البطل جاءت مباشرة مطعمة أحيانا بالأمثال العربية كقوله: " وأرى لك ألا تنزل عندي...حتى تسأل أميرنا هذا...فعند جهينة الخبر اليقين" ²⁷⁴ ، أو قوله : "فليكن عندك ضيف حاتم" ²⁷⁵، ومنه قوله في المقامة : "فقلنا له لقد وافق شن طبقة" ²⁷⁶. كما وطعم الأزاريفي مقامته بخبرته الذاتية في الحياة عبر ما قدمه من

²⁷³- سعيد أحمد أعراب. المقامة الأزاريفية. مرجع سابق. ص172-173.

²⁷⁴- مثل يضرب في معرفة الخبر.

²⁷⁵- يضرب به المثل في الكرم.

²⁷⁶- مثل يضرب في اتفاق الشئيين، أصله رجل عاقل تزوج بعاقلة، وقيل غير ذلك .

مواظب ونصائح مقتبسة من القرآن الكريم كقوله: " فمن عارض يظن رائيه أنه غيث رحمة، فإذا هو عذاب مدمر"²⁷⁷، وقوله: "يتظاهر بالكرم الفياض من وراء حجاب"²⁷⁸. وإلى جانب ذلك ضمن الأزاريقي مقامته بعضاً من نتف الشعر العربي المشرقى، ومن ذلك قوله: "فأعيد نظرتك أن تستسمن ذا ورم وأن تنفخ في غير ضرم"²⁷⁹، وقوله: " كأنه وجه خليفة كريم حين يمتدح"²⁸⁰، وقوله: "وعن قريب غير مبتعد يأتيك بالأخبار من تزود"²⁸¹. وهو على الرغم من كثرة تضمينه للاقتباسات الشعرية بالمعنى لشعراء مشاركة لم يكلف نفسه عناء تضمين مقامته إلا بسبعة أبيات شعرية لا تقاس بالنظر لطول حجم المقامة يعتقد أنها من نظمه لما يبدو عليها من بساطة لغوية ووضوح ونأي عن الإغراب، وهي سمة من سمات شعراء المغرب عامة.

لقد كان الأزاريقي موقفاً في اتباعيته للمقامة المشرقية مخلصاً لها في ذلك، كما برز مجدداً في تقيدته بواقعه وتعبيره عنه ونقل الصورة الاجتماعية لأمير تارودانت ليقوم بالإصلاح اللازم لضمان أفراد في المجتمع من طينة أبي الغيداق كرماً ومروءة وشهامة يغطون على فئة الوصوليين واللصوص من مدعي الإيمان من بعض أئمة المساجد المتواطئين مع قطاع طرق القوافل التجارية، أو بعض المتصدرين ممن أسندت لهم مناصب مسؤولية لا تليق بتدنيهم الأخلاقي. فالمقامة – كما ذكر الأزاريقي – "ملفقة" تضمنت "مثلاً" يقدمه المقامي للأمير ليبين له كيف يكون الناس الحقيقيون، والذين يختلفون عما هو في الواقع.

²⁷⁷ - اقتباس من قوله تعالى: "فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها

عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها". سورة الأحقاف. الآيتان 23-24.

²⁷⁸ - نظر في قوله تعالى: " وإذ سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب". سورة الأحزاب. الآية 53.

²⁷⁹ - نثر لبيبتين أحدهما للمتنبى وهو: أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شحمه ورم

ديوان المتنبى. تصحيح: عبد الوهاب عزام. لجنة التأليف والنشر. القاهرة. 1944. ص 323.

والبيت الثاني لغيره وهو: ولو في النارِ تنفخُ لاستنارتُ ولكن أنتَ تنفخُ في الرماد

²⁸⁰ - قال الشاعر: وبدا الصبايحُ كأن غرتهُ وجهُ الخليفة حين يُمتدحُ

²⁸¹ - من قول الشاعر: سنُبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزود

ترجم لهذا المقامي السعدي عبد الله كنون في نبوغه ، واعتمدت ترجمته الحرفية لما لم تسعفني المصادر في الترجمة للفشتالي. إنه: " أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الفشتالي، أحد وزراء المنصور، ومن صدور الأدباء في عصره، كان كاتباً مجوداً ماهراً في الصناعة، شاعراً بارعاً متقناً في ضروب النظم. قال صاحب الريحانة في حقه: وزير مولاي أحمد، أديب فاس وريحانة فضلائها الأكياس. تقدم فيها متقلداً قلادة إنشائها، فائقاً برسائله عبر سائر أدبائها، وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماك، ورياض منثور تغرد حمام قوافيه بمطرب الأسجاع" 283.

من مآثره الأدبية اللامية التي نظم فيها ما تضمنه تأليف ابن قنفذ في وفيات الأعيان من زمن

282- كان من المفترض أن يندرج الفشتالي (ت 1021 هـ) ضمن الفرع الثاني، بين التلمي (ت 990 هـ) والمكلاطي (ت 1041 هـ)، وذلك مراعاة مني للتسلسل الكرونولوجي الذي حرصت عليه منذ الباب الأول في التعرض للمقامين تصاعدياً وفق العصور السياسية ووفق تواريخ وفياتهم، غير أن الحسم النهائي في مسألة نسبة المقامة للفشتالي من نسبتها للتلمي اضطرني للقفز على قرن من الزمان لما تعرضت للأزاريقي (ق 12 هـ) ثم عدت للحديث عن الفشتالي (ق 11 هـ)، وذلك تسريعاً مني لاستكمال البحث في المقامين السعديين ممن اهتديت إلى تراجمهم وأعمالهم الأدبية، و تأجيلاً مني للحسم في نسبة المقامة لمنشئها الحقيقي على ما في المسألة من خلاف و من شح الدراسات المشيرة إليها. علماً أن التصور العام بأسبقية الفشتالي في تناول علي الأزاريقي وعلي المكلاطي ظل قائماً لدي منذ البدء في هذه الدراسة.

ولقد كان لدراسة السولامي ولمغالطاتها التي لا تنقضي أن نسب مقامة الفشتالي لمحمد بن عيسى التلمي لما قال في هامش الصفحة 70 من رسالته الجامعية (فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي) : "لمحمد بن عيسى عمل لا أول له ولا آخر نشره ذ. عبد الله كنون واعتبره مقامة". والواقع أن الباحث وقع في خلط بين محمد بن عيسى الذي أحال عليه (وهو التلمي) ومحمد بن علي (وهو الفشتالي) نسيب عبد العزيز الفشتالي رائد عصر المرينيين. وهو عامل كان له وقعه في تأخير البحث في مقامة الفشتالي لحين قطع الشك باليقين في مسألة ادعاء السولامي بثبوت نسبتها لمحمد بن عيسى التلمي، ولست أدري شيئاً عن خلفيات الباحث من وراء ادعائه وتحويره للحقائق سوى عدم جديته وعدم تحريه للدقة في رسالته الجامعية، خاصة وأنها الدراسة الأولى من نوعها التي نحت التخصص في دراسة أدب المقامة المغربية ولو أنها اقتصررت على العصر العلوي لخصوبة نتاجه المقامي قياساً لما قبله من عصور. وقد حسم عبد الله كنون في (رسائل سعديّة) في ادعاء السولامي قائلاً بعد تحدّثه عن رسالة من إنشاء محمد بن علي عن الخليفة الناصر إلى إحدى القبائل (ص 198)، إذ ذكر ما نصه: " مقامة من إنشائه تتحدث عن أدباء هذا العصر. ونقلت من خطه أيضاً رحمه الله هذه المقامة ولم أعثر لها على فاتحة ولا خاتمة " ص 219 .

283- كذلك ورد نصه في النبوغ. ج 1. مرجع سابق. ص 275.

البعثة إلى تمام المائة، وزاد عليه إلى تمام ألف سنة رامزا إلى التواريخ بِنَقْطِ الحروف الأبجدية على ما شاع عند أدباء العصور المتأخرة، وقد ذَيَّلَ على هذه القصيدة الأديب المكلاطي وأشار إلى وفاة المترجم بقوله:

شكا الدُرُّ فَفَدَّ ناظِمٍ وبكى له بُكاءَ محبِّ بانٍ عن مترحِّلٍ

وذلك في سنة 1021هـ²⁸⁴. وكان من دواعي شهرته إلى جانب أنه كان أديبا مجيدا كونه نسيب عبد العزيز الفشتالي²⁸⁵ (952هـ - 1032هـ) الوزير والمؤرخ والأديب المعد مفخرة الدولة السعدية. وقد تعرض عبد الله كنون في رسائله السعدية لهذا الأديب ذاكرا أن أكثرية الرسائل السعدية كانت تصدر عن السلطان أبي العباس أحمد المنصور المعروف بالذهبي (986 هـ - 1012هـ)، والباقي من إنشاء عبد العزيز الفشتالي والذي تضم مجموعته 33 رسالة وظهيرا من إنشائه وإنشاء نسيبه محمد بن علي والذي له فيها 18 فصلا ومكتوبا²⁸⁶. وقد ذكر له رسالة عن الخليفة الناصر إلى إحدى القبائل منه أي من إنشاء الوزير محمد بن علي، ومقامة من

284 - النبوغ. ج1. مرجع سابق. ص275.

285 - هو الوزير صاحب القلم الأعلى، أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي الفاسي، ولد سنة 952هـ ودرس بفاس على العلامة المنجور... وبرع في فنون الأدب والتاريخ والسياسة، فعلت رتبته عند المنصور وزهت به دولته. قال في شأنه المنصور: "نفتخر به على ملوك الأرض، ونباري لسان الدين بن الخطيب"، وفي الحقيقة إنه من حسنات العصر السعدي ومن أفضل أدباء المغرب الذين برزوا في الصناعتين، وكان متوليا في دولة المنصور رئاسة ديوان الإنشاء، فكان الكل يعترف برياسته ويقر بفضله.

له تصانيف عديدة منها: (الصفا في تاريخ دولة الشرفاء)، أي السعديين، مشتمل على تاريخ هذه الدولة منذ نشأتها إلى وقته، وعلى نبذة من محاسن المنصور في عدة مجلدات، ومنها (مدد الجيش) ذَيَّلَ به جيش التوشيح لابن الخطيب... وأتى فيه بكثير من موشحات أهل العصر من المغاربة وضمنه من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسنا ورونقا، ومنها (مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم)، ومنها (شرح مقصورة المكودي)، وبالجملة فهو من مفاخر هذه الدولة كما قال عنه المنصور، وكانت وفاته سنة 1032هـ. (النبوغ. الجزء 1. ص 271 - 273 - 274).

286 - رسائل سعدية. عبد الله كنون. المقدمة. ص11.

إنشائه تتحدث عن أدباء العصر السعودي قائلا: "ونقلت من خطه أيضا رحمه الله هذه المقامة ولم أعر لها على فاتحة عدا ما نصه: قلت وأين العلامة المفتي أبو مالك... " ، "وأخرها: قلت وأين فلان؟ فقال: شجرة الزقوم في الفم والحلقوم"²⁸⁷ .

كما وأن المترجم له ذكر في النزهة للإفراني لما تعرض لمشاهير كتاب ووزراء وولاة مظالم وقضاة المنصور الذهبي قائلا: "ومنهم الكاتب الشهير الصدر أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي، وهو صاحب الوفيات نظما على روي اللام، وله شعر حسن"²⁸⁸ . ذكر من نظمه خمسة أبيات، وروى أنه كان ملازما للمنصور، "وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلا في أوقات مخصوصة. قال الفشتالي: ولقد كنا بالباب يوما - يعني معشر الكتاب - قبل أن يخرج علينا المنصور، فورد النذير على الكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي الفشتالي بأن ولدا له في النزاع فلم يملك نفسه أن ذهب لداره"²⁸⁹، وهو ما يعني حظوته لدى المنصور.

ذكر عبد الله كنون أنه نقل من خطه هذه المقامة ولم يعثر لها على فاتحة ولا خاتمة عدا ما نصه: " قلت وأين العلامة المفتي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحسني فقال: الحسب الباهر، والشرف الطاهر، وبحر العلوم الزاخر، ومنسئ الأوائل ومعجز الأواخر، لو فاخر لم يجد من مفاخر...قلت وأين العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الشريف، فقال: البحر الذي لا يخاض لجه، والطود الذي لا يسلك فجؤه، والموسم الذي لا يخف ثجؤه وعجه..."²⁹⁰ . وتمضي المقامة على امتداد ست صفحات على هذا المنوال، إذ الراوي المجهول يسأل والبطل المجهول يجيب على غرار ما عهدناه في المقامات المشرقية والأندلسية، ومن ذلك ابن شرف في مسائل الانتقاد. قال: " قلت وأين الفقيه أبو الحسن علي بن سليمان؟ فقال: رجل الدين واليقين، وحامل راية

²⁸⁷- رسائل سعديّة. مرجع سابق. ص 219- 225.

²⁸⁸- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الإفراني النجار المراكشي الوجار. مصدر سابق. ص 168 .

²⁸⁹- نزهة الحادي. ص 119.

²⁹⁰- نص المقامة. رسائل سعديّة. 219- 220 .

المتقين...قلت فأين الكاتب الأديب أبو الفضل يونس بن سليمان، فقال: بيدق الصفرة، والكريم الواضح الغرة...قلت: وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس فقال: الدر النفيس الغالي الرخيص... قلت: وأين الكاتب الأديب أبو العباس أحمد بن يحيى، فقال: البداوة والحلاوة، والحضارة والطلاوة...قلت: وأين الأديب أبو عبد الله محمد بن علي"291.

ولقد كان سؤال الراوي البطل عن نفسه آخر من سمي من أدباء عصره، أو كذلك وصلتنا مقامته مبتورة من أسماء أعلامها. قال الراوي: " قلت وأين الأديب أبو عبد الله محمد بن علي، فقال: أخو علقمة وليبيد، وذو المقول المحيي المبيد، يوتر المدق والبيد على الرياض والنبيد...جزالته في وصف المهامة والفقار، وذكر المرخ والعفرار وعلى ذلك فرمحه في المدح مقوم الأنايب، لا يقصر فيه عن ابن الحسين وحبیب. قلت وأين فلان؟ ، فقال: كاتب مطبوع ليس بتابع ولا متبوع...قلت وأين فلان فقال: ريحانة النذمان وحاتم الزمان... "292، كذلك يسترسل الراوي في سؤاله عن أربعة أشخاص آخرين لتنتهي المقامة دون مقدمات، ودون أن يكون قد اتضح لنا ما إذا كان غياب أسماء الأعلام التي وردت بعد ذكر اسم الفشتالي مقصودا لديه، حتى إذا ما برز اسمه غابت باقي أسماء الأعلام، أو أنه من باب الإلغاز لديه فيما تبقى من أجزاء المقامة، ولو أن الإلغاز مستبعد مادامت المقامة قد ذكرت أسماء الأعلام قبل الترجمة للفشتالي من خلال مقامته نفسها. قال الراوي: "قلت وأين فلان؟ فقال: الطويل المديد...قلت وأين فلان؟ فقال: العالم العلم...قلت وأين فلان؟ فقال: اللباب المنتقى...قلت وأين فلان؟ فقال: شجرة الزقوم في الفم والحلقوم."293. وهكذا، تنتهي المقامة بهذا المقطع الذي يشكل استثناء في المقامة، ذلك أن جل العبارات والمقاطع اتخذت طابع المدح والثناء والإجلال والتقدير، عدا المقطع الأخير الذي يحمل معاني الهجاء والذم.

291- من الغريب الجديد أن يسأل الراوي البطل عن رأيه فيه. فكانت مقامته حقا ترجمة شخصية له، وذلك غرار ترجمة الكتاب لأنفسهم بكتبهم (كصنيع ابن الخطيب في إحاطته).

- ينظر: نص المقامة. رسائل سعدية. مرجع سابق. ص 221- 222- 223.

292- نص المقامة. المرجع نفسه. ص 223-224.

293- نص المقامة. نفسه. ص 224- 225.

وقد ذكر ابن تاويت في (الوافي) هذه المقامة لكنه جانب الصواب بنسبتها على غرار السولامي لمحمد بن عيسى التملي . ومما لا شك فيه، وبحكم السبق الزمني بين الباحثين أن السولامي ورث المغالطة عن ابن تاويت لما لم يكلف نفسه عناء الرجوع لمصدر المقامة. وقد تبين لي أن ابن تاويت لم يكن دقيقا في حكمه ، ذلك أنه لم يذيل رأيه بدليل واضح أو إحالة على مصدر يؤكد صدق ما ذهب إليه، وإنما اكتفى بإصدار أحكام عامة وردت مقتضبة فضفاضة لا إحالات لها ولا تفصيل فيها ولا تحديد ولا حتى ذكر لكل المقاميين، وهو ما يدعو للقول بأنه تطرق لموضوع المقامات آنذاك دون أن يكون قد خبر أهله بالمغرب على مر العصور، قال: "والمقامات عرفت في الأندلس والقيروان بعدما عرفت في الشرق، ثم اهتم بها المغرب، وكان من شراح مقامات الحريري ابن الزيات، قبل أن يشرحها الشريشي في الأندلس. وكان هذا في العهد الموحي ثم أقرأها ابن آجروم منديل في العهد المريني وكانت مجالس إقراءها وشرحها بسبته حافلة. وفي هذا العهد المريني وجدنا عبد المهيمن الحضرمي (لا يذكر غيره)...وفي العهد السعودي وجدنا ابن عيسى ينشئ مقامة في نقد معاصريه من الأدباء والعلماء عامة، وكان فيها بصيرا يُجلي ما لهم من صفات حتى ولو لم تكن أدبية أو علمية، بأن كانت خلقية صرفا في بعضها. وبعده كان الكاتب المكلاطي... أما في العهد الإسماعيلي...²⁹⁴ .

والمقامة الفشتالية لاشك وأنها طويلة ولو أنها وصلتنا مبتورة، وذلك راجع لطبيعة موضوعها (المفاضلة بين الأدباء)، والفشتالي في ذلك يبدو متأثرا بالهمذاني في مقامته القريضية من حيث قيامها على النقد الأدبي، كما يبدو متأثرا بابن شرف في مقامته النقدية الطويلة المثبتة بالذخيرة والتي عارض بها البديع عارضا أسماء الشعراء وأخبارهم منذ العصر الجاهلي وحتى عصره (القرن 5هـ / 11م).

وفي غياب بعض الأركان الأساسية للمقامة (وحدة الحدث والموضوع أي أن تكون للمقامة مقدمة وعقدة وخاتمة – وحدة المكان والزمان – الجمهور) نظرا لعدم وصول نصها كاملا إلينا، ربما جاز لنا وصفها بالمقامة النقدية / الرسالة. ولقد راعى الفشتالي في نص مقامته الكثير من

²⁹⁴ - الوافي. ابن تاويت. الجزء 3. ص 806.

الأصول المقررة في البناء الفني للمقامة، إذ يبدو ذلك من طريقة اختياره الألفاظ واعتماده السجع وسائر المحسنات اللفظية والمعنوية وإتحافها بالتشبيهات، ولعل توافر كل ذلك في المقامة يدل على مقدرة الكاتب اللغوية وضخامة رصيده في البيان. وعموما فأسلوب المقامة لا إغراب فيه، بل فيه من السهولة القريبة ما يجعل معانيها مباشرة واضحة. وأما الاقتباس والتضمين، فهذا الجانب لم يحفل من الفشتالي بأهمية تذكر، ذلك أنه لم يورد من الشواهد الشعرية سوى بيتين شعريين لا غير. ولم أفهم من سياقها ما يمكن أن أرده إلى الشواهد القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة أو الأمثال العربية. كما أن مقامته ليست في المفاخرة تحديدا ولكنها في الترجمة لبعض أعلام العصر السعدي من أهل القرن 11هـ، إذ لا يظهر من وصفه لكل علم أنه يفاضل بينه وبين سابقه أو لاحقه ممن ذكر، ولكنه اكتفى بإصدار أحكام وأوصاف زاوجت بين الخلقى (بضم الخاء) والخلقى (بفتحها) والعلمي في شخصية كل علم سعدي ممن ذكر. فقد سمى منهم سبعة ضمنهم ترجمته لنفسه، ولم يسم من جاء بعد ترجمته إلا بفلان وعددهم سبعة أيضا.

ومهما يكن من شأن هذه المقامة / الرسالة فإنها قد أعطتنا فكرة واضحة عن قدرة الفشتالي على المحاكاة في تأثر تام بالمقامات المشرقية والأندلسية التي تناولت موضوع النقد الأدبي، وكذا فكرة أوضح عن الخصوصية في مقامته، ذلك أنه لم يتجه لوصف أدباء مشاركة كما فعل بعض الأندلسيين، ولكنه اتجه إلى أدباء عصره يثني عليهم ويمدحهم خلافا لما لمسناه من تجريح وقذف طال أدباء الأندلس عبر أقلام مقاميين أندلسيين منهم من اعترف بنسبتها إليه، ومنهم من تبرأ منها وظلت منسوبة لمجهول.²⁹⁵

²⁹⁵ - مثال ذلك المقامة القرطبية التي نسبت لأبي الخصال وتصل منها فظلت منسوبة لمجهول، وكان قد نقضها برسالة الوزير أبو جعفر بن أحمد سماها "رسالة الانتصار في الرد على صاحب المقامة القرطبية" متهما كاتبها بالكذب والبهتان وتزييف الحقائق والتطاول على العلماء والفقهاء. والمقامة القرطبية عنوانها "ميزان الأعيان بحكم الزمان" اكتفى صاحبها بأن وقعها بعبارة "إنشاء فلان بن فلان"، وأحداثها تدور في قرطبة في القرن السادس الهجري، وتتناول قضاتها وعلماءها وأدباءها بالسب والطعن والتجريح في أخلاقهم وسيرتهم.

ومثال ذلك أيضا المقامة الشلمية منسوبة لأبي الوليد بن سيد أمير اللخمي، وقد سار في مقامته على نهج صاحب المقامة القرطبية فوقها على هجاء أعيان شلب وقضاتها وأدبائها، وأشار في مقدمتها إلى عنوان المقامة القرطبية فقال: "حدث سمان بن زمان، أو أبان بن شيبان، عن حيان بن عيان، وليس يُعرف ابن من كان، صاحب فلان بن فلان، الذي أنشأ (ميزان الأعيان بحكم الزمان)...". وأما أول المقامة القرطبية: "قال فلان بن فلان: لما اختللت في سفرتي هذه مدينة كُدَيِّ" (ينظر في ذلك: رسائل ومقامات أندلسية. فوزي سعد عيسى. ص 33 - 34 - 35 - 139).

● المطلب الخامس: مواطن تأثر المقامة المغربية بالمقامة المشرقية العربية (شكلا ومضمونا)

تأثر الإبداع المقامي المغربي تأثره النسبي بالمقامات المشرقية العربية همذانية وحريرية على شكل محاكاة أكثر منها تقليدا اجتراريا، ذلك أن المقاميين المغاربة - ما قبل العصر العلوي - تمثلوا أدب المقامة فحاكوا نماذجه العليا في خصوصية بدت معالمها مبكرة، تعكس تقيد الأدباء المغاربة بواقعهم المعيش. وهذا يعني أنهم أخضعوا فن المقامة لخصوصياتهم المحلية (اجتماعية وفكرية وسياسية وسوسيوثقافية) على غرار ما سجلناه على المقامة الأندلسية، وهو ما يعني بدوره أن للمقامة المشرقية طابعها ولمقامة الغرب الإسلامي طابعها الخاص. ثم إن مجارة الأدباء المغاربة للمشاركة في الموضوعات المقامية التقليدية، لم يخل بدوره من توسع في بعض الموضوعات أو تقليص لبعضها أو قفز على بعضها الآخر في تجاوز تام له، وبخاصة ظاهرة الكدية والاستجداء التي شكلت العمود الفقري للمقامة المشرقية العربية. وتأسيسا عليه، يكون القول باتباعية المقامة المغربية مكتنفا لخصوصية واستقلالية لا مجال لإنكارهما، و به نفهم التأثير في المقامة المغربية على أنه محاكاة وليس تقليدا. تبدو معالم الاتباع في المقامات المغربية بارزة بشكل واضح لدى كل من أبي عامر بن أرقم في إقامة مقامته على موضوع مقامي تقليدي هو المدح، وتقيده التام بتقاليد المقامة المشرقية العربية من حيث شكلها وبنائها الفني (الإيقاع) وحسب²⁹⁶. وأما المقامة الموحدية - وهي لشخصية

²⁹⁶ - وهذا يعني أن المقامة المرابطية الوحيدة - بوصفها نواة المقامة المغربية - عرفت انحرافا مبكرا عن أصول المقامة المشرقية، ولذلك فهي حافلة بمظاهر الإبداع والتجديد أكثر من احتفائها بمظاهر التقليد و الاتباع مما سنعرض له في المبحث التالي.

مقامية مشتركة²⁹⁷ - فإن الملامح المشرقية تبرز فيها بوضوح، إذ بدا الوهراني شديد التعلق في مقامته بالمقامة القريضية للهمذاني، شديد الارتباط بواقعه المحلي حين انتقد فيها الموحديين، فالمقامة اتخذت منحى نقديا مألوفاً لدينا عهدناه في المقامة المشرقية. وأما الملزوزي المريني صاحب مقامة "طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف" فقد زواج نصه بين المقامة والرحلة في حفاظ شبه تام على العناصر المعروفة في المقامات الأم والمقامات الأنموذج (همذانية وحريرية)، ذلك أنه تصرف في توظيفها. وأما مالك بن المرحل صاحب المقامة النجدية فقد تناول موضوعاً مسبوقة في المقامات المشرقية وهو الزهد²⁹⁸، كما أنه بدأ مغرقاً في اتباعيته لما جعل راويها (أبو عوف النجدي) من نجد، فأدار أحداثها في المشرق وليس ببلاد المغرب، كما أن دلالتها الأساسية تدور حول الاحتيال وهو مظهر من مظاهر المقامة المشرقية. كما وأن المقامة حافظت على سائر وسائل الإبلاغ المعروفة في المقامات المشرقية من محسنات لفظية ومعنوية مما يجعل منها أنموذجاً للاتباع في المقامة المغربية بامتياز. وأما آخر ما تنفس به العصر المريني من مقاميين فهو عبد المهيمن الحضرمي صاحب مقامة "الافتخار بين العشر الجوار"²⁹⁹، وهي مقامة اجتماعية تدور دلالتها الأساسية حول اعتبار قيمة المرأة في جمالها، وتحمل من معالم التجديد ما يطمس فيها كل أثر مشرقى، ما عدا التزامها بالعناصر الفنية في بناء

²⁹⁷ - شخصية مشتركة بين المغرب والأندلس والمشرق، ولو أنني ملئت لاعتباره مغربياً أكثر من كونه أندلسياً أو مشرقياً بحكم ترحاله أولاً، وثانياً بحكم اعتباره للمغرب وطناً له على حد تعبيره بالمعجب للمراكشي كما سبقت الإشارة إليه.

²⁹⁸ - ومنه تسميتها أيضاً بالمقامة الزهدية لدورانها في فلك الوعظ والإرشاد. ولئن كان من أبرز خصائص المقامة المشرقية العربية تأسيسها على محورين أساسيين هما الكدية والاحتيال من حيث المضمون، وعلى المحور الفني الإبداعي الذي يبرز القدرة اللغوية للأديب، فإن ابن المرحل استطاع أن يثري مقامته النجدية بمعطيات المحورين باستثناء عنصر الكدية. وقد ارتكز ابن المرحل على نفس العناصر التي ارتكزت عليها المقامة النموذج كما هو واضح من تحليلنا السابق لها، ولذا يمكن اعتبار المقامة النجدية أنموذجاً صارخاً للمحاكاة والاتباع والتقليد.

²⁹⁹ - ذكرنا أن لها أصولاً - أو ربما هي امتدادات - في كتاب (ألف ليلة وليلة)، وكذا جذوراً في الثقافة الشعبية المغربية من خلال فن الزجل. وهي من المقامات المغربية المفعمة بروح التجديد والاستقلالية ما يجعل من القبض على معالم الاتباعية فيها كالقبض على الماء.

المقامة ، وهو التزام نسبي كما سنعرض له لاحقاً. وإذا ما انتقلنا إلى العصر السعدي ألفينا محمد بن عيسى التملي صاحب مقامة الحكمة الإباحية³⁰⁰، وهو في إباحيته قد سار على نهج المشاركة في طرق موضوع التلذذ بالمذكر، لكنه خالف النهج المشرقي العربي في إسقاطه لركن الجمهور بل وفي غياب كلي لتضمين الشواهد الشعرية باستثناء بيت وحيد يتيم. وأما المكلاطي صاحب المقامة الزهرية فقد برز كاستثناء في اتباعيته، إذ بدا أندلسي العمامة والعباءة لما اتكأ على الطبيعة وعلى موضوع المفاخرة بين الأزاهير لبلوغ غرضه الوصفي والمدحي لأبي بكر الدلائي، وهو مدح بريء خال من المطامع المالية. في حين تمادى الفشتالي في اتباعيته وأفرط فيها، لما بنى مقامته على غرار ما تبنى مقامات النقد الأدبي المشرقية صياغة وأسلوباً وحواراً. فالمفاضلة بين الأدباء موضوع مطروق تعرض له الهمذاني في مقامته القريضية وبعده ابن شرف الأندلسي في مسائل الانتقاد. وهو على غرار الأزاريقي أورد شواهد شعرية من نظم شعراء مشاركة، بيد أن الأزاريقي بدأ أكثر التصاقاً بتعابير الحريري من حيث تضمينه لشعره، وكذا جعل راويه على صيغة (هيان بن بيان). وهذا ما يجعل من الأزاريقي السعدي إلى جانب سابقه ابن المرحل المريني أكثر نموذجين مغربيين مخلصين في اتباعيتهما للمقامة المشرقية العربية.

وعليه، فقد تناولت المقامات المغربية نفس الموضوعات التي تناولتها المقامات المشرقية باستثناء الكدية (مقامات المدح – مقامات الوعظ – المقامات الماجنة – المقامات الاجتماعية – المقامات الأدبية النقدية)، بل وابتدعت مواضيع أخرى، وزادت ووسعت في أخرى مما سنفصل فيه في المبحث التالي حيث معالم الخصوصية والاستقلالية والتجديد والخلق والإبداع في المقامة المغربية.

³⁰⁰ - كان الفقه بضاعة القوم على العصر المريني، إذ لا نجد شاعراً مرينياً إلا وله مشاركة في الفقه وكان لذلك أثره على الشعر المريني، وهو ما يعني أن ثقافة المريني محمد بن عيسى التملي الفقيه كانت لتحده من نأيه عن الجانب الأخلاقي في مقامته عوض أن يصرف جل طاقته فيها لرسم صور عارية مكشوفة يندى لها الجبين. فالمجون والأدب المكشوف سمة يتبرأ منها أدب المقامة في المغرب، وتبقى مقامة الحكمة استثناء في تاريخه لا يبررها حتى الحقد الشديد الذي يُكنه التملي للأمير المامون سالب ماله وحرينه.

- المبحث الثاني: معالم التجديد والاستقلالية في المقامة المغربية

● المطلب الأول: التداخل مع الرسالة

يعد تداخل فن المقامة المغربية مع فن الرسالة ملمحا من ملامح الخصوصية في أدب المقامة المغربية، فإعجاب المغاربة بالمقامات ولاسيما الحريرية جعلهم يميلون بها في محاكاتهم لها إلى أدب الرسالة، فقد " نزع الإعجاب بالمترسلين إلى إنتاج ما اعتقده مقامة، وهو في واقع الأمر رسالة براو مذكور بدلا من المرسل في الكتابة الترسلية... ولعل جملة من المقامات المغربية أقرب إلى البناء الرسالي منه إلى المقامي، أو لعلها لم تتخلص من الظلال الترسلية التي غمرت النثر المغربي، أو لعل أصحابها اتبعوا مرونة في تعاملهم مع الأنواع الأدبية"³⁰¹، وكنا قد عرضنا لهذا الجانب في معرض حديثنا عن مغربية المقامة لما وافق علال معكول أمانة الدهري ومحمد السولامي في غموض مصطلح المقامة لدى الكتاب المغاربة لسببين: - أولهما غياب نقد أو حركة نقدية مواكبة وموازية للنتاجات المقامية في حينها لتوجيهها الوجهة الصحيحة، وثانيهما غياب تصور متكامل عند منشئي فن المقامة بالمغرب.

فالتداخل مع الرسالة على غرار ما لمسناه في المقامة الأندلسية ملمح من ملامح أدب الغرب الإسلامي، ومظهر من مظاهر التأصيل والخصوصية في المقامة المغربية ألفيناه يبرز في احتشام لدى الحضرمي في مقامة الافتخار بين الجواري العشر، لما وجدنا كل جارية تستهل حديثها أو مفاخرتها بنفسها بالحمدلة والثناء على الله عز وجل وعلى نبيه المصطفى وذلك على غرار ما تستفتح به الرسائل. كما وبرز التداخل بين الأدبين (المقامة والرسالة) لدى الأزاريقي لما أنهى مقامته بمقطع من فن الرسالة، إذ تضمن المقطع أسلوب التحميد والثناء والتسليم على خير الخلق، وهو ما يعد أحد ثوابت الكتابة في أدب الرسالة. ولعل هذا ما يدعو للقول بأن الكتابة الترسلية كانت سمة من سمات العصر برز لدى المغاربة كما لدى الأندلسيين، ما يجعل من مسألة التأثير بين الأدبين المغربي والأندلسي مسألة بديهية مادام التأثير هنا غير

³⁰¹ - الترسل الأدبي بالمغرب: النص والخطاب. مرجع سابق. ص 367.

مشرقي بحكم غياب التداخل بين المقامة والرسالة لدى الرواد المشاركة.

إن ما يقترب بالمقامة المغربية إلى الرسالة هو ابتعادها عن أركان المقامة المشرقية (بطل - راو - عقدة - كدية واحتيال)، وهو ما تنبه له العديد من الباحثين المهتمين بأدب المقامة بالمغرب³⁰²، انتباههم لانسلاخ المقامة المغربية عن قضية الكدية التي أظرت ظهور فن المقامة في العصر العباسي، بل وانتقلت عدواها إلى المقامة الأندلسية لدى السرقسطي استثناء. وبتجرد المقامة المغربية من بعض هذه الأركان، ومن موضوع الكدية، صارت أشبه بالرسالة. وقد لاحظنا كيف أسقط أبو عامر بن أرقم البطل والراوي من مقامته مقيما إياها على المدح في ما يشبه قصيدة منثورة، لم يحفل فيها بعقدة ولا حيلة ولا بطل ولا راو، الشيء الذي يدعو للقول بأن نتاجه هو رسالة أكثر ما هو مقامة. كما ولاحظنا أن حجم المنظوم فيها مساو لحجم المنثور، وهو خروج مبكر للمقامة المغربية عن نهج المقامة المشرقية، كذلك ولاحظنا نأي الوهراني عن موضوع الكدية والاستجداء في مقامته الفاسية التي أقامها على النقد المصطبغ باللون المحلي من حيث تناولها لأعلام مغاربة. ثم إن الملزوزي في مقامته في ذم الأندلسيين زواج بين الرواية والبطولة معا، وأشرك الجمهور في الرواية، واتجه بمقامته نحو أدب الرحلة مدمجا بنياتها فيها على غرار ما لمسناه لدى الأندلسيين (ابن الخطيب أنموذجا)، ونحو التأريخ للمراشقات القلمية التي كانت بين العدوتين والتي توسلت بفن الرسالة أكثر من توسلها بأدب المقامة، كما وأنه لاحظنا اختلافا بينا في وظيفة ركن هام من أركان المقامة المشرقية، وهو الجمهور الذي عهدناه بريئا عطوفا يدر المال شفقة وعطفا على حال المكدي، غير أنه هنا بالمقامة يشكل جماعة من الأشرار الذين اعتدوا على الراوي، والبطل في هذه المقامة له غلمان وأتباع، وهذا خلاف ما هو معروف لدى مقامات الرواد المشاركة، إضافة إلى عدم تسمية

³⁰² - ذكرنا منهم: علال معكول، ومحمد السولامي، وأمنة الدهري. وهي الأقسام المغربية الثلاثة التي تناولت فن المقامة في بعدها الإقليمي المغربي، زيادة على عبد القادر ازمامة، وسعيد أعراب، وعبد الله كنون، وذلك بخلاف أقلام أخرى تناولتها في بعدها المشرقي أو باعتبارها نواة للقصة المغربية ومن ذلك: عبد الفتاح كيليطو، والحسن السائح، الأول في (المقامات السرد والأنساق الثقافية) والثاني في (من تاريخ القصة والمسرحية في الأدب المغربي)، وغيرهما.

الملزوزي لبطل المقامة باسم معين . كما أن مالك بن مرهل في مقامته الزهدية وبالرغم من شدة اتباعيته من حيث اعتماده عنصر الكدية والحيلة في إنشاء مقامته، إلا أنه قدم رؤية جديدة للاحتيال غير مسبوقه ولا مألوفة، لما جعل البطل الثري يحتال على الراوي الفقير ويمعن في سبه وتحقيره ، وهي نهاية غير معهودة في المقامات المشرقية، كذلك كان الحضرمي مجددا لما انحرف بالبطولة في مقامته وجعلها نسائية جماعية، ولما مال بمقامته إلى ما يشبه الرسالة في تحميدها وتسليمها وثنائها. ثم إن مقامة الحكمة للتلمي خلت من كل الشخصيات عدا الراوي والشاب الرومي، إذ كلاهما راو وموضوع رواية يتقاسمان البطولة والرواية في غياب الجمهور. وأما المكلاطي فقد أقام مقامته الزهرية على مدح شيخ من شيوخ الزاوية الدلائية، في ارتباط تام بواقعه المحلي وفي تأثر تام بشعر الطبيعة في الأدب الأندلسي جعلته يصنف " أدبيا أندلسيا خارج عصره وزمانه" ³⁰³. وأما الأزاريقي فقد بدت مقامته شديدة التأثر بأدب الرسالة في مقاطع عدة وبخاصة الأخير منها، وبدا أيضا مقصيا لظاهرة الكدية وعنصر الحيلة مقدما صورة عن واقعه الصحراوي على شكل كشف وربط ووعظ، ما جعل المقامة أشبه بدرس أدبي اجتماعي وأخلاقي. كذلك مالت مقامة الفشتالي مبتورة الأول والآخر إلى فن الرسالة لما نأت عن المفاخرة بين الأعلام السعديين وأخذت طابع الترجمة لهم، وأسلوبها دليل تأثرها كما رأينا.

● المطلب الثاني: الارتباط بأدب الرحلة

يظهر ذلك جليا في ثلاث مقامات مغربية:

- الأولى: مقامة "طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف" لعبد العزيز الملزوزي المريني (ق7هـ)، إذ "جاءت هذه المقامة في وصف رحلة قام بها الكاتب عبد العزيز الملزوزي العمراني" ³⁰⁴. وتنقسم هذه المقامة باعتبار موضوعها أو طبيعتها (مقامة رحلية) إلى قسمين: الأول في وصف أهل طريف، والثاني في وصف أهل الجزيرة، وقد تقدم بيان ذلك .

³⁰³ - النثر الأدبي في المغرب. مرجع سابق. ص165.

³⁰⁴ - فن المقامة في العصر المريني. مرجع سابق. ص298.

- الثانية: "المقامة النجدية" لمالك بن المرحل (ق7هـ)، وهي تمثل رحلة ذهنية لابن المرحل لما كتب مقامته عن المشرق (نجد) وهو في المغرب ، ناشدا تعرية المجتمع المريني عبر الرحلة بالأحداث إلى مكان مشرقى في كثير من التلميح والإيحاء الواضحين.

-الثالثة: "المقامة الأزاريفية" لأبي محمد الأزاريفي (ق12هـ)، وهي عبارة عن رحلة في الصحراء المغربية (صحراء تارودانت) كشف من خلالها مواطن الفساد فيها رافعا إياها للأمير تارودانت للقيام بالمتعين من الإصلاحات.

● المطلب الثالث: خدمتها لأغراض شعرية/الاستشهاد بأشعار الغير

فمن ذلك أول مقامة في تاريخ المقامات المغربية : وهي المقامة المرابطية التي أدارها منشئها على مدح الأمير المرابطي تميم، والشاهد على ذلك منثورها ومنظومها. وبحكم طابع المقامة القائم على غرض شعري وهو المدح فإنها لم تحفل بعقدة أو حيلة، أو راو أو بطل لهما تسمية محددة، وهو ما أفقد المقامة عنصر الجذب والتشويق خاصة وأن شعرها ساوى نثرها.

ثم إن قيام المقامة النجدية على الزهد كغرض شعري معروف يجعل منها أنموذجا ثانيا للمقامات المغربية التي توسلت بالأغراض الشعرية (مدحا وزهدا وفخرا...) لخدمة دلالات وغايات سعى إليها منشئ المقامة من وراء إنشائها (وعظ - نقد) ، كذلك لاحظنا قيام مقامة الحضرمي على الفخر بين الجوارى، وقيام مقامة المكلاطي الزهرية على شعر الطبيعة أو ما يعرف بالمفاضلة بين الأزاهير والمستحدث بالأندلس.

وإلى جانب اتجاه المقامة المغربية منذ نشأتها الأولى إلى التوسل بأغراض الشعر، واتخاذها مواضيع لها، وإلى جانب شغل المنظوم لحيز هام من حجم المقامة، فإننا نسجل - وعلى خلاف ما لمسناه لدى الأندلسيين - الاتجاه العام لدى المقاميين المغاربة للاستشهاد بأشعار الغير، ذلك أن المقامي الأندلسي لا يضمن مقامته إلا شعره، بينما لاحظنا أن المقامي المغربي يورد شعر غيره بمقامته. وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام ، ذلك أنها تشكل فارقا في نقاط التقاء الأدبين

الأندلسي والمغربي (أدب المقامة خصوصا)، بحكم انتمائهما لمنطقة واحدة موحدة وهي: الغرب الإسلامي.

وقد كنا قد لاحظنا - في هذا الصدد - على الأزاريفي اقتباسه من شعر المتنبي ومن شعر الحريري³⁰⁵، كما لاحظنا على المكلاطي اقتباسه من الشاعر الصنوبري، واستفادته من المحاورات بين الورد والأزهير لأبي حفص بن برد في تفضيل الورد، واقتباسه من صفي الدين الحلي³⁰⁶، فكلها أبيات شعرية ليست من نظم المكلاطي، وإنما أخذها عن سابقه من المشاركة والأندلسيين، كما وأخذها عن أدباء مغاربة من أمثال القاضي عياض إذ اقتبس بيتيه في شقائق النعمان اقتباسا حرفيا.³⁰⁷

● المطلب الرابع: الخلو من الكدية

فقد خلت المقامات المغربية خلوا يكاد يكون شبه تام من ظاهرة الكدية التي تأسست عليها المقامات المشرقية العربية، وذلك باستثناء مقامة مغربية واحدة أقامها منشئها مالك بن المرحل على الكدية والاحتيال مصورا أحداثها بمكان مشرق (نجد) فكان بحق أنموذجا للتقليد، ولقد كنا قد لاحظنا - في الباب الأول من هذه الدراسة - على المقامة الأندلسية خلوها كذلك من عنصر الكدية خلوا ملفتا للانتباه لم يشذ عنه سوى السرقسطي.

وهذا لا يعني أن المجتمع المغربي كان خلوا من الفقر والعوز، فقد كشف مالك بن المرحل في مقامته الزهدية من خلال معاناة أبي عوف النجدي النفسية والاجتماعية - جراء عوزه وإملاقه الشديدين - حجم معاناته الشخصية من البعد عن أسباب النعيم "وهو ما كان عليه الأديب في أوائل حياته... وفي نزوله الأول بسببة"³⁰⁸. كما أن مدح أبا عامر بن أرقم للأمير المرابطي لا يخلو من تزلف وتملق لنيل عطايه، ومن هنا يكون الداعي إلى المدح هو الفاقة والحاجة ولقمة

³⁰⁵ - تُنظر في هذه الدراسة الهوامش السابقة : 241 - 289 - 290 - 291.

³⁰⁶ - إحالة سابقة. ينظر الهامش: 235.

³⁰⁷ - إحالة سابقة. ينظر الهامش 215 من هذه الدراسة.

³⁰⁸ - مالك بن المرحل أديب العدوتين. مرجع سابق. ص 255.

وينظر كذلك: المقامة النجدية لمالك بن المرحل. مرجع سابق. ص 83.

العيش، ثم إن الأزاريقي صور ما جرى من نهب في صحراء تارودانت ومن اعتراض لسبيل القوافل التجارية، فكله بعض من ملامح الفقر بالمجتمع المغربي على مر عصوره السياسية، بل إن التلمي في مقامته الإباحية لم يرم من ورائها إلى المجون في حد ذاته ، وإنما رمى إلى كشف حقه تجاه الأمير السعدي الماجن الذي سلبه ماله وحرمه من حريته، فكان الفقر- ها هنا - وتبدل الحال من حال إلى حال الباعث على إنشاء المقامة لتعرية الوقائع.

إن ظاهرة الكدية من الظواهر الاجتماعية التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات الناشئة، لما تعرفه من تدنٍ في حياتها الاجتماعية والاقتصادية، "والتي تضطر كثيرا من الناس ممن ضاقت بهم سبل العيش، وامتألت نفوسهم سخطا إلى البحث عن وسيلة للارتزاق تسد رمقهم، فذهبوا يجوبون البلاد ويقرعون الأبواب طلبا للمال والطعام، فكان منهم المشعوذون والدجالون، كما منهم نوو المروءات ممن أذهب ماء وجهه طلبا للمال، وأطلق المجتمع على هؤلاء جميعا مصطلح (المكدين) وعلى مهنتهم مصطلح (الكدية) " ³⁰⁹.

والكدية تتقارب من حيث الاصطلاح مع اللصوية، لأن الكدية تتضمن معنى الاحتيال من أجل الوصول إلى المال ولو كانت الأساليب غير مشروعة. فهي ظاهرة اجتماعية مترتبة عن الفقر³¹⁰، والمجتمع المغربي لم يكن خلوا منها - يتعاش فيه الغنى والفقر - ، بيد أن المغاربة على غرار الأندلسيين معروفون بخوفهم من مهانة السؤال حريصون على حسن التدبير، ملتصقون بواقعهم المعيش. ومن هنا، جاءت كل المقامات المغربية منطلقة من واقعها معبرة عنه، مؤسسة لفهم مختلف لفن المقامة يخرجها من قيود الكدية والاحتيال والنصب إلى مرآة عاكسة لواقع مجتمعها كاشفة عن خصوصية واستقلالية فريدين.

³⁰⁹ - نماذج إنسانية في السرد العربي. سيف محمد سعيد المحروقي. ص 99.

³¹⁰ - برز الترابط العضوي بين الكدية واللصوية في مقامة مالك بن المرحل، حيث احتيال غير مألوف للغني على الفقير وسرقتة وهو نائم.

● المطلب الخامس: طول الحجم والإطناب

إنها ظاهرة تشترك فيها المقامة المغربية مع نظيرتها الأندلسية، فقد ألفينا ابن بسام يعمل مقصه بالحذف في كثير من المقامات الأندلسية عازيا تصرفه فيها بالنقصان لشدة الإطناب فيها (مقامة ابن شرف (أعلام الكلام)، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب، ومقامة ابن شهيد... وغيرها). كذلك ألفينا ابن خاقان يتصرف بالحذف في مقامة أبي عامر بن أرقم³¹¹ ليجعلها في صفحة وربع الصفحة، دون مبرر معقول، خاصة وأنه يبدو عليها القصر أصلا. وأما المقامة التي تشكل الشاهد هاهنا فهي المقامة الزهدية لابن مالك إذ بلغت زهاء عشرين صفحة "ويبدو أنه ضاعت منها ورقة على الأقل"³¹² ، كذلك جاءت مقامة الملزوزي في ثمانية عشر صفحة، وكذلك ألفينا عبد الله كنون يتصرف في مقامة الحضرمي ذاكرة بأن ما بالمقامة من تصحيف وتحريف هو الذي دعاه إلى تصحيحها، وقد حققها في مقالة له بعنوان (من أدبنا الشعبي) فجاءت المقامة في ثلاث عشرة صفحة من مطبوع النبوغ، وما مجموعه سبع صفحات من مطبوع مجلة تطوان (خط من الحجم الصغير).

فما الإطناب في المقامات المغربية إلا دليل على سعة تمكن منشئها من فنون اللغة ومن فنون الإنشاء في فن المقامة ومجارات المشاركة والأندلسيين في إطنابهم وإبداعهم على حد سواء.

● المطلب السادس: الارتباط بالبيئة المحلية

أجرى أبو عامر بن أرقم مقامته على مدح الأمير المرابطي تميم فكان حقا مرتبطا بواقعه المجتمعي غير مستورد لشخصية مشرقية يطالها مدحه وثنائه، وإنما اختار أن يتقرب إلى الأمير بمقامته لنيل الحظوة لديه، فكان راميا لتحقيق منزلة اجتماعية ينشدها من وراء تملقه وتزلفه بغرض شعري، أو ساعيا للحفاظ على منزلة مكتسبة لدى المرابطين. كما أدار الوهراني

³¹¹- ذكر ابن خاقان: "ومن كلامه في مقامة أنشأها في الأمير تميم بن يوسف أيده الله" ما يعني أنه أوردتها ناقصة، فلم تردنا كاملة كما أنشأها صاحبها.

³¹²- من منافرات العدوتين. محمد بن اشرفية. مرجع سابق. ص 14.

مقامته في رحاب مدينة فاس متعرضا بالنقد لعدد من أدباء وعلماء عصره من الموحدين، فكان ملتصقا كذلك بواقعه غير آبه بكدية أو احتيال في مقامته الفاسية. ثم إن الملزوزي في مقامة طرفة كان لصيقا بواقعه معبرا عن علاقة التوتر التي طبعت الأندلس والمغرب مفحما السرقسطي الذي كان قد سبقه إلى التراشق القلمي بمقامته البربرية، فكان الملزوزي بهذا منخرطا في قضايا عصره، منتصبا للدفاع عن وطنه وعن أبناء وطنه إزاء الحقد الأندلسي المجاني. كما أن مالك بن المرحل في مقامته الزهدية عبر عن حاله في بداية شبابه وما كان عليه من إملاق ناظلا للجمهور خبرته في الحياة على شكل مواعظ ونصائح طابعها الزهد، فجاء مضمون المقامة متطابقا مع سيرته الذاتية ومع وقائع المجتمع المريني من خلال الكشف عن معاناة أبي عوف النجدي السيكوسوسولوجية. وهل كان الحضرمي غير مرتبط بواقعه حين استلهم - كما هو مرجح - موضوع مقامته من الزجل المغربي؟، أم كان التلمي غير مرتبط به وهو يصب جام غضبه على مغتصب ماله وحرسته (الأمير السعدي المامون) من خلال نقل صورة ماجنة شاذة له، تشكل جزءا من ممارساته وسلوكاته اليومية المشينة؟، أم كان المكلاطي غير مرتبط بواقعه وهو يسخر الطبيعة لمدح شيخه الدلائي؟، أم كان الأزاريقي وهو ينقل لأمير تارودانت صور الفساد في صحراء تارودانت؟، أم كان الفشتالي وهو لم يذكر في مقامته إلا أدباء عصره السعديين؟

إن الارتباط بالواقع سمة أندلسية ومغربية في فن المقامة لم تخل منها أية مقامة مغربية حتى النجدية حيث المكان المشرقي في المقامة ما هو إلا رمز للمكان المغربي أريد له التلميح لا التصريح.

● المطلب السابع: الخلو من التعقيد اللغوي

يتراوح عادة أسلوب المقامة الواحدة ما بين الإغراب والسهولة بحسب الغرض الذي تؤديه، ولذلك لاغرو أن ألفينا أسلوب المقامة النجدية مزاجا ما بين الإغراب الذي يغري الملتقي بالعودة للقواميس والمعاجم اللغوية، والسهولة التي لا تستدعي منه شيئا من ذلك، وقد

مثلنا لذلك في حينه ³¹³. فبتحليلنا للمقامات المغربية – موضوع الدراسة – تبين لنا جنوحها نحو السهولة ونأيها عن الوعورة اللفظية، وعدم سعيها وراء الغريب من الألفاظ على غرار المقامات المشرقية. وهي تشترك في هذا مع المقامات الأندلسية المعروفة بالسهولة والسلاسة، فقد تميزت المقامات المغربية بسهولة الألفاظ ودقة معانيها، ونفورها من التكلف والصنعة، وهو ما لمسناه في المقامة الفاسية للوهراني، كما في مقامة طرفة للملزوزي حيث "سيولة القريحة وغلبة الطبع والارتجال على الصنعة والاحتفال"³¹⁴، وذلك على غرار ما لمسناه في مقامة الافتخار بين الجواري العشر للحضرمي حيث طغى على أسلوبها السهولة والوضوح البعيد عن التعقيد اللغوي والإغراب، وهو مظهر يغطي كل مقاطع المقامة، كما أنه مظهر تشترك فيه معها مقامة الحكمة للتملي إذ ملموس جنوحها للسهولة من حيث ألفاظها وعباراتها، ونأيها عن الاقتباس. كذلك ألفينا مقامة الأزاريقي بعيدة عن التعقيد والإغراب قريبة من البساطة اللغوية.

● المطلب الثامن: استحداث موضوعات مقامية جديدة

أ- المقامة الرسالية: وهي كل مقامة مغربية أغفلت ركنا من أركان المقامة المعروفة (بطل – راو – عقدة – شخصيات ثانوية – جمهور) فصارت بما احتفظت به من شكل فني مسجع أقرب للرسالة منها إلى المقامة، ونموذج ذلك: مقامة أبي عامر في مدح تميم إذ لا عقدة ولا حيلة فيها، ولا بطل ولا راوي ولا جمهور لها، فليس لها من المقامة سوى الاسم والإيقاع، وذلك راجع لقيامها على المدح الخالص دونما أحداث تستوجب عقدة أو حلا أو بطلا أو راوية. كما أنه من نماذج ذلك - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - مقامة الافتخار بين الجواري العشر للحضرمي والتي اتخذت لبوس الرسائل من حيث استهلال كل مفاخرة بالحمدلة والثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم وآله، ومنه اختتام الأزاريقي لمقامته بأسلوب التحميد والتسليم على المصطفى. وهذا الاتجاه بالمقامة إلى أدب الرسالة ملمح من ملامح أدب الغرب الإسلامي تشترك فيه مقامات العدوتين، إلا أنه يبدو أكثر إلحاحا وحضورا في مقامات العدو المغربية.

³¹³- ينظر تحليلنا للمقامة الزهدية، حيث الهامش 138 إلى 144 من ص 161 و 162 من دراستنا هاته حيث نماذج تمثيلية

من نص المقامة للأسلوبين: المغرب والسهل.

³¹⁴- من منافرات العدوتين. مرجع سابق. ص16.

ب-البطولة النسائية الجماعية: إذ شكلت مقامة "المفاخرة النسائية الجماعية" حدثا غير مسبوق في تاريخ المقامة في الأدب العربي، لا جذور مشرقية ولا أندلسية له ، فهو موضوع جديد لم يسبق طريقه أو تناوله من ذي قبل في أية مقامة. كما وأن افتتاح المقامة جديد غير مألوف لدى الرواد المشاركة ، ذلك أن فاتحتها تشابه فاتحات القصص، إذ قال الحضرمي دون مقدمات نمطية مقامية متحجرة: "برزت يوما لخارج بلد فاس الأشهر، وانتهيت إلى... " (مطلع المقامة).

ج-المراشقات القلمية: وتمثل مجالها أساسا الرسائل³¹⁵، لكنها طالت أدب المقامة لما أشعل فتيلها السرقسطي بمقامته البربرية (ق5هـ) فجاء رد الملزوزي عليه بعد قرنين من الزمان، يقدح كقدحه، ويسخر مثلما سخريته، ويحط من قدر الأندلسيين ويمعن في ذم سلوكياتهم، ويعيب عليهم تقاعسهم وتعويلهم الدائم على نجدة المغاربة لهم. وقد كانت المفاخرات بين العدوتين التي بدأت أساسا في عصر الموحدين³¹⁶ امتدادا لهذه المراسقات القلمية التي برزت في الأدب المغربي في العصر المريني خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (مقامة طرفة – كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول – مقامة المفاخرة بين سلا ومالقة لابن الخطيب)³¹⁷.

³¹⁵- أول المفاخرات أو المفاضلات المدونة التي وصلت إلينا تلك التي جرت بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي. وما يلفت النظر في هذه المفاخرة أنها كانت بانتداب من أحد أمراء الموحدين وأن الطرف المفاخر بالأندلس فيها كان قاضيا في خدمة الموحدين... كما أن القاضي الأندلسي كان ذكيا في استغلال المس بيوسف بن تاشفين انتصارا لبلده وتزلفا للموحدين ببعض كلمات المجاملة... ويبدو أن الشقندي كان البادئ بتدوين رسالته... ولسنا ندري لماذا حفظت رسالة الشقندي وضاعت رسالة الطنجي (ينظر: من منافرات العدوتين. ص10).

ومنه نقرأ: " نجد أن الشعور الإقليمي كان عند الأندلسيين أقوى منه لدى المغاربة، فهم كانوا يتجنون غالبا على أهل العدو...حتى بعد توحيد البلدين في عهد المرابطين والموحدين " (ص11).

³¹⁶- ينظر في ذلك: من منافرات العدوتين. ص10.

³¹⁷- سنخص جانب المراسقات القلمية بوسع الدراسة في الباب الثالث لنستشف من خلالها كيف تم تصور الإنسان والمكان الأندلسيين والمغربيين من خلال مقامتين: " طرفة الظريف " و " المقامة البربرية " أساسا.

● خاتمة الفصل الثاني/الباب الثاني:

شكل هذا الفصل رد اعتبار للمقامة المغربية من عدة نواح أبرزها:

- يعاني البحث في المقامة المغربية من النقص الشديد ومن العزوف والتهميش والإقصاء، إذ لا يعقل أن تخلو الساحة الأدبية المغربية إلا من مرجع واحد متخصص في دراسة المقامة المغربية العلوية لصاحبه محمد السولامي على كثرة مغالطاته العلمية. ومن هنا، يكون استكمال البحث في المقامة المغربية ما قبل عهد العلويين من باب رد الاعتبار لها.
- هنالك شبه إجماع أو هو فعلا إجماع حقيقي من الباحثين والدارسين والكتاب المغاربة على أن نشأة المقامة المغربية مرينية أو هي ساعدية، وأن المقاميين المغاربة ما قبل العصر العلوي لا يتجاوزون خمسة أعلام منها ثلاثة أسماء تمثل العصر المريني (عبد العزيز الملزوزي (ت667هـ) - عبد المهيم الحضرمي (ت749هـ) - بن المرحل (ت699هـ))، وعلمان يمثلان العصر السعدي (محمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت990هـ)، محمد بن أحمد المكلاطي (ت1041هـ))، غير أن البحث أثبت أن نواة المقامة المغربية مرابطية، وأن عدد المقاميين ما قبل العصر العلوي - في حدود ما أعلم - تسعة وليس خمسة مقاميين. وهذا الضرب من تصحيح تاريخ نشأة المغربية، ومن توسيع عدد المقاميين المغاربة ما قبل عصر العلويين - بل والعلويين أيضا - لضرب من ضروب إنصاف المقامة المغربية وإنزالها المنزلة التي تليق بها من الانشغال والاشتغال.
- تناولت في هذا الفصل بالنقد والتصويب عدة دراسات مشرقية ومغربية أشارت من قريب أو بعيد إلى المقامة المغربية بنوع ما من المغالطات المتعلقة بتاريخها أو بفحواها أو بماهيتها، وقد حرصت على تضمينها بهوامش متن هذه الأطروحة انتصارا مني بحكم الانتماء للمقامة المغربية أولا، وإنصافا مني ثانيا لها وهي التي إما لم تدرس مشرقيا بحكم العصبية أو درست ولم تفهم، وهي أيضا التي إما لم تدرس مغربيا بما يكفي بحكم التهاون العلمي أو درست لكن دراسات استنسخت بعضها بعضا. فما تعرية تلك المراجع بالنقد

سوى ملمح آخر من ملامح إنصاف المقامة المغربية برد الاعتبار لها عن طريق الانخراط الفعلي في البحث فيها وفي الدعوة إليه.

كما ومثل هذا الباب أيضا مجالا عمليا للاحتكاك بالمتون المقامية المغربية مخطوطة ومطبوعة عبر دراسة مضامينها وخلفياتها وسياقاتها التاريخية والأدبية للخلوص منها لرصد مظاهر التقليد والتجديد في النتاج المقامي المغربي - ما قبل عصر العلويين - والذي لم يسلم من مظاهر للتأثر و الاتباع النسبي لا المطلق للمقامتين المشرقية العربية والأندلسية ، فتأثره المزدوج لم ينل من روح تأصيله ونزوعه نحو التجديد والخصوصية،ومن معالم ذلك كما ذكرنا:التداخل مع الرسالة - الارتباط بأدب الرحلة - الخلو من الكدية - طول الحجم و الإطناب- الارتباط بالبيئة المحلية - استحداث البطولة النسائية الجماعية - توسيع دائرة المراسقات القلمية بين العدوتين من فن الرسائل إلى فن المقامات.

● مقدمة الفصل الخامس من الأطروحة/الفصل الأول - الباب الثالث:

يشكل هذا الفصل الأول - من الباب الثالث من هذه الدراسة - توطئة نظرية لدراسة التأصيل في مقامات العدوتين في الفصل الموالي، ولدراسة التفاعل بين الأدب الأندلسي والأدب المغربي، ذلك أن اللون المحلي المغلف لمقامات العدوتين هو ما منحهما استقلاليتهما وتأصيلهما. وقد اقتضى الحديث عن التفاعل بين العدوتين وما يرسخه من سمات التأصيل في أدبهما التوسل بعدة مفاهيم شكلت ثنائية "الإنسان والمكان" مرتكزا الأساس، ومن ذلك: التفاعل - التأصيل - التأثير والتأثير - الخصوصية والاتباعية- الاتباع الابتداع - التقليد والتجديد .

كما واقتضت دراسة مفهوم التفاعل استحضار شروطه التاريخية والجغرافية والأدبية والسيكوسوسولوجية، من حيث استحضار ربط الدراسة لحتمية التفاعل الأدبي بين العدوتين بالمشترك الجغرافي والسياسي بينهما فترة المرابطين والموحدين خصوصا . فقد ولد الجوار بين الجارتين تفاعلا أدبيا مارست الأندلس فيه في البداية دور المؤثر قبل أن تتحقق للشخصية المغربية استقلاليتها في العهدين المريني والسعدي. وقد كان الأدب المغربي في تأثره بالأدبين الأندلسي والمشرقي العربي محافظا على ملامحه الخاصة المنبثقة من بيئته وواقعه المحلي. واقتضت أخيرا دراسة مفهوم التفاعل إبراز ما بين المفهومين المركزيين " الإنسان و المكان" من تجاور وارتباط وتعالق جعل المقامين المغاربة والأندلسيين مرتبطين بمنطقة الغرب الإسلامي عاكسين خصوصياتها الإقليمية في مقاماتهم . ولعل دراسة التفاعل بين الجارتين ستفضي إلى إبراز صور مشوهة للإنسان والمكان في العدوتين، كما سيتضح في الفصل الموالي، لكنها صور دالة على واقع حقيقي يثبته تاريخ العدوتين. و من هنا، التأصيل في أدب الغرب الإسلامي .

- الفصل الأول: الإطار النظري -

- المبحث الأول: التفاعل والتأصيل ومفاهيم مجاورة
- المبحث الثاني: المشترك الجغرافي والسياسي بين العدوتين وحتمية التفاعل الأدبي

-المبحث الأول: التفاعل والتأصيل ومفاهيم مجاورة.

اقتضى القول بالتأصيل في أدب المقامة بالغرب الإسلامي تعرف خصائص المقامة الأندلسية في الباب الأول، وخصائص المقامة المغربية في الباب الثاني، للخلوص في الباب الثالث لدراسة التفاعل في أدب مقامة العدوتين، والانتهاه منه لمعالم التأصيل في مقامة الغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب أنموذجين) بوصفها غاية هذا البحث.

لعل الحديث عن التفاعل بين العدوتين وما يرسخه من سمات التأصيل في أدبهما (فن المقامة تحديدا) يستدعي منا الوقوف عند عدة مفاهيم تدور في فلكهما (التفاعل و التأصيل) ، ومن ذلك ما يقتضيه التفاعل من "تأثر" و "تأثير"، وما يفرضه التأصيل من "خصوصية" و "استقلالية". وهي مفاهيم تفتح بدورها على مفاهيم مجاورة لها من قبيل: "الاتباع" و "الابتداع" ، و"التقليد" و "التجديد" ،و"المحاكاة" و "الإبداع"، و"الاتباعية" و"الخصوصية". فهذه المفاهيم ستشكل محور دراستي للتفاعل بين المقامة المغربية و المقامة الأندلسية ، عبر اقتفاء سمات "الإنسان" و"المكان" المغربيين في المقامة الأندلسية، وعبر رصد سمات "الإنسان" و "المكان" الأندلسيين من خلال المقامة المغربية. فأوجه التفاعل هاته، هي ما سيقودنا لتتبع معالم الائتلاف والاختلاف في مقامات العدوتين، وللوقوف على معالم التأصيل فيها، وهو الهدف الأسمى من وراء هذه الدراسة ، ذلك أن الهمداني - مبدع فن المقامة - كان مرتبطا بعصره سوسولوجيا وأدبيا (نقل معضلات عصره الاجتماعية ، و أنشأ مقاماته في إطار تقاليد موروثة موضوعا (نواذر البخلاء والطفيليين وحكايات المكدين) وأسلوبا (التصنع البديعي المهيمن على الخطاب الأدبي آنذاك والقائم على السجع والازدواج))، وكذلك كان المقاميون الأندلسيون والمغاربة مرتبطين بواقعهم لا يحددون عنه في مقاماتهم إلا لماما لدى المقلدين الأوائل حيث مرحلة التلمذة بالنسبة لمقامة الغرب الإسلامي، قبل الارتقاء لمرحلة الندية، فالأستذة لما تحققت لها عناصر استقلاليتها وخصوصيتها وتأصيلها.إن الخصوصية في أدب الغرب الإسلامي هي ما يجعل الذات الأدبية للعدوتين تختلف وتتميز عن أي ذات أدبية أخرى، أي أنها هي ما يميز الهوية الأدبية المغربية والأندلسية عن الآخر العربي المشرقي الذي له مجتمع مغاير يحكم أدبه، وهو ما يقودنا للإقليمية. فأدب الغرب الإسلامي مرتبط برقعة جغرافية محددة هي الأندلس

والمغرب¹، فهو أدب خاص وليد بيئته بخصوصياتها المميزة لها عن باقي الأقطار العربية الإسلامية الأخرى. ذلك أنه لكل قطر عربي أدب متميز بخصائصه، ومن تم تسمية أدب بلاد المغرب بالأدب المغربي، وبلاد الأندلس بالأدب الأندلسي. وقد أفرد شكري فيصل قسما خاصا من كتابه (مناهج الدراسة الأدبية) للنظرية الإقليمية التي تطمح لدراسة الأدب لا موزعا بين الأنواع و الأجناس الأدبية، بل موزعا بين الأقاليم الإسلامية المختلفة، فندرس الأدب العربي في مصر وفي تونس وفي المغرب وفي غيرها من الأقطار التي لكل منها أدب متميز له خصائصه وسماته الخاصة، إذ " ليس هنالك من ينكر الأثر الإقليمي في الأدب، ومن العبث أن ينكر ذلك باحث يدرس الأدب ويحاول أن ينهج تاريخه ... إن كل نتاج أدبي أو فني يصعب بهذه الألوان التي تتيحها له البيئة ويساعد عليها الزمن ويتسلل فيها أثر الجنس"². فقد نشأت فكرة الإقليمية مع نشأة الأدب العربي نفسه، فتولد لدينا أدب جاهلي هو ابن بيئته وإقليمه الصحراوي، وأدب إسلامي، وأدب عباسي، وغيرها من الآداب الخاصة بكل عصر أو قوم. فلكل بيئة مزاياها وخصائصها المميزة لها عن باقي البيئات و الأقاليم، وتلك المميزات والخصوصيات هي التي توجه الحياة الأدبية فيها وتمنحها خصوصياتها وتأصيلها³.

فالأدب بوجه عام ابن بيئته، والمقامة أكثر أجناس الأدب التصاقا بالبيئة وصدورا عنها وانغراسا في تربتها، وذلك بحكم طبيعتها وغايتها الإصلاحية، فهي ترصد سيولة المعيش اليومي للإنسان الذي ما هو إلا بعض من مكانه وزمانه. ومن هنا، تنبثق خصوصية ومحلية وتأصيل فن المقامة، وانطلاقا من هذه الخصوصية المحلية وعلى أساس التأصيل تتحدد وتتحرك المقامة المغربية والأندلسية لتكتسبا بدورهما خصوصياتهما الفنية وسماتهما الخاصة.

¹ - محددة لا يتعداهما في حدود دراستنا هاته فقط، أما جغرافيا فيضم الجزائر وتونس وليبيا و موريتانيا. ولعل دراسة أدب المقامة في هذه الرقعة الجغرافية الشاسعة لا يتحملها حجم هذه الدراسة التي اقتصرنا على الأندلس والمغرب أنموذجين لمنطقة الغرب الإسلامي في دراستنا للتأصيل في أدبهما من خلال فن المقامة.

² - مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي. شكري فيصل. ص 158.

³ - غير خاف علينا ما كان لتأثير الحياة الاجتماعية والسياسية من بالغ أثر على الحياة الأدبية في المشرق وفي الأندلس وفي المغرب، إذ برزت في المقامة المشرقية ملامح البؤس والتسول والكدية في مجتمع الهمذاني (ق4 هـ)، كما برزت في المقامة الأندلسية ملامح التعفف فغابت الكدية عنها وارتبطت بواقعها ارتباطا المقامة المغربية بواقعها كذلك. فالمقامة المشرقية انطلقت من واقعها تكشفه وتصوره لمعالجته، وهو دأب مقامة الغرب الإسلامي مغربية وأندلسية. ومن هنا القيمة الحقيقية لفن المقامة بوصفه مرآة اجتماعية أكثر مما هو مخزون وثروة لغوية.

وإذا كان الإبداع عموماً لا وطن له ولا حدود كما هو معروف، فإن الإبداع الأصيل ينبثق من أصغر مكان في الوطن ليصل إلى أبعد مكان في العالم حاملاً معه بصمة مكانه وزمانه وإنسانه. وقد سُقَّتْ هاته الإشارات لأخلص منها إلى نتيجتين أساسيتين هما :

- الأولى : أن التأصيل سمة أساسية ملازمة ومميزة للمقامة في الغرب الإسلامي، فهو ما يعطيها هويتها ودلالاتها وقيمتها الإبداعية.

- الثانية : أن مقامة الغرب الإسلامي كانت وفيه لخصوصياتها المحلية غاية الوفاء، فكانت طوال مراحل نشأتها وتطورها مشدودة إلى بيئتها تعكس ملامحها الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية .

وقد ورد في لسان العرب : "خَصَهُ بِالشَّيْءِ يَخْصُهُ خِصًا وَخِصُوصًا وَخِصُوصِيَّةً وَخِصُوصِيَّةً وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ ، وَخِصِّيصِي وَخِصَّصَهُ وَاخْتَصَّه: أَفْرَدَهُ بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: اخْتَصَّ فُلَانٌ بِالْأَمْرِ وَتَخَصَّصَ لَهُ إِذَا أَنْفَرَدَ، وَخَصَّ غَيْرَهُ وَاخْتَصَّهُ بِهِ. وَيُقَالُ: خَاصَّ بَيْنَ الْخِصُوصِيَّةِ وَالْخَاصَّةِ: خِلَافَ الْعَامَّةِ، وَالْخَاصَّةُ: مَنْ تَخَصَّصَ لِنَفْسِكَ."⁴

وورد فيه أيضاً: "تَبَعَ الشَّيْءُ تَبَعًا وَتَبَاعًا فِي الْأَفْعَالِ ، وَتَبَعْتَ الشَّيْءَ تُبَوِّعُهُ : سَرْتُ فِي إِثْرِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَأَتْبَعَهُ وَتَتَّبَعَهُ قَفَاهُ وَتَطَلَّبَهُ مَتَّبَعًا لَهُ، وَكَذَلِكَ تَتَّبَعُهُ وَتَتَّبَعْتَهُ تَتَّبَعًا ، قَالَ الْقَطَامِيُّ: " وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ ، وَلَيْسَ أَنْ تَتَّبَعَهُ اتِّبَاعًا ، وَضَعُ الْإِتِّبَاعِ مَوْضِعُ التَّتَبُّعِ مَجَازًا. قَالَ سَيَّبِيُّهُ : تَتَّبَعَهُ اتِّبَاعًا لِأَنَّ تَتَّبَعْتَ فِي مَعْنَى اتَّبَعْتَ. وَتَبَعْتَ الْقَوْمَ تَبَعًا وَتَبَاعَةً بِالْفَتْحِ ، إِذَا مَشَيْتَ خَلْفَهُمْ أَوْ مَرَوْا بِكَ فَمَضَيْتَ مَعَهُمْ . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)، يَكُونُ اسْمًا لِمَجْمَعِ تَابِعٍ وَيَكُونُ مَصْدَرًا أَيُّ ذَوِي تَبَعٍ ، وَيَجْمَعُ عَلَى اتِّبَاعٍ."⁵

وإزاء هذين المفهومين تحضر عدة ثنائيات متضادة تشاطرهما جزءاً من المعنى، إذ يمكن أن نفهم - إلى حد ما لا يصل إلى درجة الترادف - الاتباعية على أنها تقليد، وخصوصية على أنها نوع من التجديد الذاتي النابع من الخصائص المحلية للأمة وثوابتها ومميزاتها. كما يمكن أن نفهم الاتباعية على أنها تأثر، والخصوصية على أنها تأثير.

⁴ - لسان العرب. مادة (خصص). .

⁵ - نفسه. مادة (تبع). .

ثم إن الخصوصية أو الاستقلالية تحضر في تجاور مع مصطلح الابتداع ، وفي مقابل مصطلح الاتباع. " فالابتداع هو اختراع وسبق وخلق و إبداع و ابتكار وابتداء من عدم أو من موجود (توليد) . والابتداع من ابتدع معنى، أي أوجد صورة مخصوصة لمعنى ، فهو سبق إلى مختص المعاني و أبقارها "6 . يتمخص عن فطنة و مكابدة لا عن إلهام وتلق ، " ومن أصول العرب في باب الابتداع قولهم : إن الابتداع معين لا ينضب ، وعين لا تغور ، وأنه مفتوح أبدا ما بقيت في الحياة أسرار، وفي النفس ذخائر، وفي القلب دفائن "7 . فمن الواضح أن العرب لم يلتزموا لفظا بعينه للدلالة على الابتداع ، إذ قالوا: ابتدع المعنى ، وأبدعه ، وسبق إليه ، وابتكره ، وابتدأه . " وكذلك جرى الأمر في مصطلح الاتباع ، إذ لم يلتزموا لفظا واحدا للدلالة على متابعة أديب لآخر في معنى ابتكره، ومزاحمته له فيه ، فقالوا: تبع، واتبع، وأخذ واحتذى ، واشتق، وزاحم ، وتناول ، وشارك ، وولد ، و اقتفى ، و استمد، واستعان ، و توكلأ... فكما أن ألفاظهم الدالة على معنى الابتداع لم تكن على درجة واحدة من حيث دورانها في كلامهم (درجة الشيوخ) ، فكذلك كان الأمر في معنى الاتباع "8 ، وأصل الاتباع في اللغة " الاقتفاء ، وأخذ الأثر، تقول: اتبعت الرجل أو الشيء، وتتبعته إذا قفوته، وأخذت في أثره ، والتابع : التالي ، ومنه سمي الظل تبعا ، لأنه يتبع صاحبه "9 .

⁶ - الابتداع والاتباع، دراسة في النقد العربي القديم. كمال عبد الباقي لاشين. ص63 .

⁷ - المرجع نفسه. ص77 .

⁸ - نفسه. ص124 .

ويميز لاشين بين الاتباع المشروع، والاتباع المذموم(السرقه - الغصب - الإغارة - الاختلاس) ، ويميز بين الاقتداء والمشاركة. إذ جعل المقندي من يأخذ المعنى على وجهه ولا يزيد فيه فهو مختلس سارق. والمشارك من يأخذ المعنى ويصير شريكا فيه بما يزيده وهو محتذ تابع. ويميز في الاتباع بين: الجلي المنكشف الذي يصرح به المتبع، والخفي المحتجب الذي ستره المتبع وأخفاه بوجه من وجوه إخفاء المعنى. ويميز بين الاتباع بوصفه اقتدارا وصنعة، وبين السرقه بوصفها بلاغة وعجزا. ويجعل التقليد محاكاة، فالمقلد هو المحاكي، والمحاكي يفعل مثل فعل من يحاكيه أو مثل قوله سواء بسواء. وأصل التقليد في اللغة يرجع إلى معاني الجمع والضم. قال: قلد الماء في الحوض، إذا جمعه فيه. والقلد: لي الشيء على الشيء، ومنه قلد الحبل: أي قتله. وقلده الولاية: عهد إليه بها ، وتقلد الأمر: احتمله، وتقلد السيف: حمله وألزم نفسه به. والمقلد - في الفقه الإسلامي- الذي يفرع إلى رأي المجتهد الثقة ويلزم نفسه به لضعف استنباطه أو عجزه، في حين يتكئء المجتهد على نفسه في استنباط الحكم. ويختم حديثه عن الوجوه التي يقع فيها الاتباع وعن الفرق بينه وبين الاحتذاء، إذ الاتباع يقع في المعنى أو في شيء يتعلق بصنعة العبارة، أما الاتباع في الأسلوب فهو الاحتذاء.

⁹ - المرجع السابق. ص124 .

لسنا هنا بصدد حديث معجمي، بقدر ما يهمننا أن نشير إلى أن هذه الثنائيات وغيرها كثير¹⁰، داخلية في فلك مفهومين أوسع و أعمق وأشمل هما : التفاعل والتأصيل .
إن مادة (تفاعل) تتحدد كالاتي : " تفاعل شيئان : أثر كل منهما في الآخر . ومتفاعل : يحدث تفاعلا، وتفاعل : تأثير متبادل ، إذ نقول : تفاعل النظرية والتطبيق . وانفعل : تأثر، ومنفعل : من يقع عليه فعلٌ مؤثر فيه، كقولنا : نحن فعالون و منفعلون معا " ¹¹ . ويعتبر مفهوم التفاعل مفهوما بعيدا عن مجال الدراسات الأدبية منقطعا عنها ، فقد تبلور واتضحت أسسه من ظهوره متصلا بنوع من أنواع المباحث الاجتماعية، إذ التفاعل مفهوم اجتماعي صرف . " وعلى الرغم من ذلك يعد العمل الأدبي المجال الأمثل لفحص مظاهر التفاعل ، ذلك أن ترابط العناصر وتلاحمها يكشف عن نهوض كل منها بوظيفة مخصوصة ، و ليس تفاعلها تكاملا ، وإنما يعني كون تلك العناصر ليست مظاهر جوفاء بل مواد حيوية مهياة للتفاعل وقابلة له . و يسمح لنا ذلك باعتبار هذه العناصر- بما انطوت عليه من خصائص تفاعلية هي ذاتها - مجالات للتفاعل و موضوعاته " ¹² .

و إذن، عندما نتحدث عن التفاعل، نكون إزاء علاقة قوامها التأثير و التأثر، فالتفاعل في الأدب يقتضي مؤثرا ومثأثرا . وعلاقة التأثير تتخذ عادة ثلاثة أشكال وهي :

- 1) التأثير والتأثر .
- 2) التأثير وعدم التأثر .
- 3) التأثر وعدم التأثير .

¹⁰ - من ذلك: الأصالة والمعاصرة - التأثر والتأثير- الائتلاف والاختلاف - التقليد والتجديد -...

¹¹ - مادة (تفاعل). المنجد في اللغة العربية المعاصرة. ط 2000. ص 1102.

¹² - التفاعل في الأجناس الأدبية. مرجع سابق. ص 33 .

كما وأن ثنائية "التأثر و التأثير " في الأدب ، تتخذ ثلاثة أبعاد :

● **البعد الأول:** عن طريق الاحتذاء والمحاكاة كما في المعارضات الشعرية ، فهناك نص أصل يحاكيه المبدع أو يحتذيه ، وينسج على منواله ، وهو في ذلك لا ينقل نقلا حرفيا من النص الآخر ، بل يُخضع ما ينقله إلى آلية التأثير والتأثر ، من الإعجاب فالمحاكاة ، فالاختيار والحذف من خلال مصفاة مزاج المبدع المتأثر وتكوينه النفسي والفكري والثقافي .

● **البعد الثاني:** هو مفهوم النص المضاد (المتأثر) بالنص الأصل (المؤثر) ، حيث يمتزج الوعي باللاوعي ، و يفرز المبدع تميزه الفكري والفني من خلال نصه ، رغم تحريض النص الأصلي له على الإبداع والكتابة . فالرؤية مختلفة ، والفكر مختلف .

● **البعد الثالث:** تبرز فيه عوامل أخرى كمنظرية الوهج ، أي أن الروائع والأعمال الإبداعية الفنية لها وهجها الذي يؤثر في الآخر المبدع ، ليس من خلال النص وعناصره فحسب ، بل من خلال سمعته والهالة التي تكونت حوله ، كآف ليلة وليلة مثلا¹³ .

ولا ينبغي بأي حال من الأحوال فهم " التأثير والتأثر " كتعبير عن حكم يثمن أو يبخس أحد طرفي المعادلة في تبادل المعارف والفنون والآداب ، وإنما يتوجب فهمه كقناة للاتصال وهجرة الأفكار والأجناس من ثقافة إلى ثقافة أخرى. فما التأثير والتأثر سوى وسيط ندرس من خلاله كيفية انتقال مادة ما - سواء أكانت نوعا أدبيا أو شكلا فنيا أو أسلوبا أو صورة أو أسطورة... - لنكون بذلك إزاء دراسة المؤثر (المرسل) ، و التأثير الذي أحدثه في بلد معين ، والتقاليد التي أرساها ، كما نكون إزاء دراسة المتأثر (المتلقي) ، فندرس المصادر التي استمد منها كتابه - مثلا - وقد تكون عديدة غير محصورة ولا محدودة.

وإذن ، فالتفاعل في أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية هو بحث يهدف إلى الكشف عن معالم التأسيس فيهما ، والكشف عن إمكانات التفاعل بينهما ، وإمكانات التبادل الفكري ، وعن أوجه القرابة الأدبية و التلاقح الفكري بين ثقفتي العدوتين ، و هي أوجه تنشأ عادة من الاحتكاك السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي ، كما هو الحال بالنسبة لما حدث بين الأدب العربي والآداب الأوروبية على أرض الأندلس ، ولما حدث بين الأدب الأندلسي والأدب المشرقي العربي ، أو الذي

¹³ - فضاءات الأدب المقارن. نذير العظمة. يتصرف. ص28.

حدث بين الأدب الأندلسي والأدب المغربي، وكذا بين الأدب المغربي و الأدب المشرقي.فالتفاعل قدر الشعوب وقدر آدابها، لكن التأصيل إبداع وقدرة وميزة خاصة تتدخل فيها جدلية الإنسان والمكان والزمان .

لقد تحققت للشخصية الأدبية الأندلسية وللشخصية الأدبية المغربية استقلاليتهما الذاتية عن الشخصية الأدبية المشرقية العربية لما أتيح لهما الارتقاء من مرحلة التلمذة إلى الندية فالأستذة ، إذ أن تأثرهما بها لم يتعد في مطلق الأحوال المرحلتين الأوليتين من مسار نشأة فن المقامة بالغرب الإسلامي، لتمارس بعد ذلك العدوتان تأثيرهما المباشر؛ ذلك أن الأندلس شكلت قناة لمرور التأثيرات الأدبية المشرقية والأندلسية إلى آداب أوربا إبان ما يعرف بعصور الظلام، كما وأن المغرب و بحكم موقعه الجغرافي بين الشرق والغرب شكل حلقة وصل بين الأدبين والثقافتين المشرقية والغربية لحد وصفه بمعبر الثقافات . والثابت تاريخيا أن الصلة بيننا وبين المشرقيين كانت مستمرة ومنظمة، وكانت ذات أثر في حياة المغرب الأدبية والفكرية والسياسية والاقتصادية . بيد أن هذا لا يعني أننا جزء من العالم المشرقي العربي فاقد لشخصيته وكيانه ، وأن كل ما نملك من علم وثقافة هو من باب " هذه بضاعتنا ردت إلينا" ¹⁴ . فقد تأثرت الأندلس و تأثر المغرب بالمشرق العربي، لكنهما لم يفقدا مقومات شخصيتيهما غرب الإسلامية، وظلت شخصيتاهما المستقلتان بارزتين في أدبهما توضحهما بجلاء طبائع تميز الإنسان الأندلسي المعروف بعزته وأفته المشرقية وعزوفه عن التسول ،وهي ملامح ترجمتها مقاماته التي صدرت عنه منذ ظهورها بالأندلس في القرن الخامس الهجري وإلى غاية سقوط غرناطة سنة 897 للهجرة؛ وكذلك للإنسان المغربي طبائع مميزة ، منها الكرم والشجاعة والحرية وعزة النفس وهو ما يعكسه نتاجه المقامي . ولذلك فالإنسان في تفاعله مع الإنسان الآخر، وفي تفاعله مع المكان، يشكل مفهوما محوريا في بحثنا، إذ أننا سندرس الإنسان المغربي من خلال نظرة الإنسان الأندلسي إليه ،وننظر إلى الإنسان الأندلسي نظرة الإنسان المغربي له، وذلك من خلال أدب بالمقامة بوصفها مرآة للمجتمع، نرصد من خلاله التفاعل بين الثالوث المفاهيمي : الإنسان الأندلسي - الإنسان المغربي - المكان .

¹⁴ - القولة للصاحب بن عباد قالها مستخفا لما تصفح كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي : "هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا هو يشتمل على أخبار بلادنا...ولا حاجة لنا به". تجديدات الأندلسيين في النثر العربي. مرجع سابق. ص27.

وإذن، فمدار الفصل الثاني من الباب الثالث من هذه الأطروحة سيكون هو تبيان التفاعل بين فني المقامة المغربية والمقامة الأندلسية ، وذلك من خلال دراسة العلاقات بين الإنسان الأندلسي والإنسان المغربي، وعلاقة كل منهما ببيئته وبيئته الآخر . فأوجه التأثير والتأثير بين العدوتين انطلاقاً من فن المقامة متعددة ، سنرصدها في حينها للخلوص لمعالم التأصيل فيها .

إن الإنسان ابن بيئته، يؤثر فيها وتؤثر فيه، فأحوال البيئة هي التي تسن لساكنيها نظام اجتماعهم وسمات طباعهم وأذواقهم ،ولذلك وجدنا الأندلسيين متأثرين ببيئتهم الطبيعية الخلابة مفتونين بأزاهيرها، مستحدثين فن شعريا جديدا غير مسبوق لدى المشاركة الذين وجدناهم كذلك متأثرين ببيئتهم متخذين من مكونات الخيمة مفردات لعلم العروض . فالشعر الجاهلي صورة صادقة لطبيعة البادية ولحياة البدو والرحل بألفاظه الصحراوية الخشنة ومعانيه الجافة وأخيلته المجذبة المقفرة.والأدب في العصر العباسي يعطينا فكرة واضحة عن الطبيعة الحافلة بالأنهار والبساتين، وعن حياة اللهو والرخاء، وعن الحضارة والعمران. فقد استعمل الإنسان في علاقته مع المكان ، وفي صراعه الدائم مع الطبيعة خطتان : الأولى ،الانسجام والتكيف معها ومسايرة خواصها، والثانية المقاومة وإخضاعها لإرادته وتسخيرها لتحقيق رغباته. ولعل جدلية الإنسان والمكان تجرنا لعلاقة الأديب/الفنان بالبيئة، لنقارب من خلالها علاقة المقامي الأندلسي والمغربي كل بمكانه وبمكان الآخر. فالمقامي ها هنا نعه مقياسا لمعنى الإنسان، ذلك الإنسان - المغربي والأندلسي - طمح من خلال فن المقامة للتعبير عن بيئته وعن واقعه المعيش في طموح وتطلع إنسانيين لتغييره وتقويم اعوجاجاته الاجتماعية المختلفة. فالأدب عموما وأدب المقامة خصوصا ظاهرة اجتماعية تعبيرية جمالية لازمت وجود الانسان المغربي والإنسان الأندلسي مشكلة دافعا مهما في عملية التفاعل بين الطرفين في تفاعلها مع بعضهما البعض ، وفي تفاعلها مع بيئتهما (المكان). فالأدب منفعل بانفعال الإنسان وبما يحيط به، فاعل في تصوير وفي تطوير المجتمع، ولذلك فالعلاقة بين الأدب والمجتمع (البيئة) علاقة أخذ وعطاء على الدوام ، يستقي الأدب من مجتمعه مواضيعه أو من تأثيرها في نفس الأديب (المقامي). فالمقامي يصور الواقع الذي يعيش فيه ويتطور معه بتطور الزمان ليكون بذلك مشاركا في صنع حياته الاجتماعية والتاريخية على حد سواء.

يتحدد المكان في لسان العرب بوصفه: "موضع لكيونة الشيء فيه... والمكان: الموضع... مصدر من كان أو موضع منه... تقول العرب: كن مكانك وقم مكانك واقعد مكانك" ¹⁵. فالمكان هو مكان الشيء، والبحث فيه هو بحث في التمكن فيه وتمحيص للأشياء الحالة به، والمكان والموضع والمحل بمعنى واحد. وإذا ما تطرقت إلى مسألة تعريف المكان فليس لإغراق البحث بتعريفات متعددة أغلبها من باب الواضح الجلي، إذ أن المكان يكاد من باب المعروف الذي ليس فيه حاجة ماسة إلى الخوض في حده، "فهو إطار يتضمن أو يحتوي موجودا ما أو يكون خاليا منه، له أبعاد معلومة يخضع لتأثير الزمن وهو يؤثر في الإنسان كما يؤثر الإنسان فيه، وهو الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الآثار و العالم" ¹⁶. ونجد مصطلح الفضاء الذي يختلط كثيرا بمصطلح المكان خاصة في اللغة الفرنسية، إذ كثيرا ما يوظف لفظ "Espace" للدلالة على المكان ذاته، كما يوظف اللفظ نفسه في سياقات أخرى للدلالة على الفضاء. ويمكن أن نقول "إن الفضاء أشمل من المكان وأوسع، ويمكن أن يكون ماديا محسوسا كما يمكن أن يكون مطلقا مجردا كحديثنا عن فضاء النص، في حين أن المكان أكثر تجسدا وتكون له حدود معلومة. فكل مكان هو فضاء و لكن ليس كل فضاء مكانا بالضرورة، فالبادية مكان لأن لها حدودا معلومة وهي إطار محسوس، في حين أن البداوة فضاء لأنها نمط عيش يشمل المكان والقيم وغيرها" ¹⁷.
وإذن، فقد اخترت في تعريف المكان ما يخدم غرضي في هذا البحث، إذ ركزت على الصلة أو الصلات التي تربط المكان بالإنسان، وهي صلات تفاعلية كما أسلفنا وكما سنؤكد من خلال دراسة بعض مقامات العدوتين التي تخدم محور التفاعل بين الإنسان مغربيا وأندلسيا، وبين المكان مغربيا وأندلسيا، غير ملتفتين في البحث في المكان (المغربي و الأندلسي) إلى المنحى التصنيفي التعدادي القائم على استعراض مختلف الأمكنة الواردة في النصوص المقامية وتبويبها ضمن خصائص بعينها، وإنما مشدودين إلى منحى في التحليل قائم على البحث في شبكة العلاقات السيكولوجية التي تربط المقامي بعدوته و بالعودة الأخرى عبر مقامات متفرقة زمنيا نتبع من خلالها الإنسان المحكوم بالزمان وبالمكان: المكان المغترب عنه والمكان المغترب فيه، والمكان المحبوب والمكان المذموم. (ابن الخطيب والسرقسطي والملزوزي نماذج للدراسة).

¹⁵ - مادة "مكن". لسان العرب. ابن منظور. ج13. ص163.

¹⁶ - المكان في الرواية الجديدة. خالد حسن. ص20.

¹⁷ - الإنسان والمكان في الشعر العربي القديم. منجي القلظ. ص12.

إن المكان الذي يعيننا هاهنا هو بلاد المغرب و الأندلس، وما يهمننا في المكان خطابه لا جغرافيته، أي كيف ساقه ووصفه المقامي وكيف أحسه وتجاوب معه إن بالقبول أو بالنفور، وإن ذاتيا أو موضوعيا محضا مساهما في الجدل السياسي والحضاري داخل الغرب الإسلامي، ليصبح خطابا حمائيا يدافع عن مركزية المكان أولا، ومركزية الثقافة ثانيا في مواجهتها لثقافة الآخرين وفي تفاعلها معها، لدرجة التعصب الملحوظ على الأندلسيين خلافا للمغاربة. وقد لعب أدب الرحلة دورا جغرافيا هاما في استيعاب المكان المغربي الأندلسي، كما وساهمت المقامة في لعب هذا الدور الجغرافي الوصفي مما سنعرض له في حينه في إطار طريف من التراشق القلمي والانتصار للوطن) جحود ابن الخطيب لفضل المغرب عليه لما فضل مالقة على سلا)، بوصفه المكان والهوية والانتماء، بل الماء والهواء اللذان لا غنى للإنسان الأندلسي أو المغربي عنهما، إذ " لما كان الإنسان كائنا حيا حركيا، فإنه لا حركة خارج المكان، كما لا وجود لحركة خارج الزمان، وبذلك نظفر بثالوث: الإنسان و المكان و الزمان، و لعل تلك المجاورة الصوتية بين الثلاثة تذكير بتلازم الثلاثة وتعالقهم"¹⁸.

¹⁸ - الإنسان والمكان في الشعر العربي القديم. مرجع سابق. ص 17.

- المبحث الثاني:المشترك الجغرافي والسياسي بين العدوتين وحتمية التفاعل الأدبي .

ينتمي المغرب كما تنتمي الأندلس إلى منطقة الغرب الإسلامي، كما وأنهما كانتا تحت حكم دولتين موحدتين هما الدولة المرابطية والدولة الموحدية، وهذا الجوار الجغرافي بين العدوتين يقتضي تفاعلا بينهما على شتى مناحي الحياة الأدبية والفكرية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. ففضية التأثير والتأثر بين الأدبين الأندلسي والمغربي ثابتة يعنينا فيها مسك مظاهرها على مستوى أدب المقامة¹⁹ منذ الفترة التي تتلمذ فيها الأدب المغربي على الأدبين المشرقي و الأندلسي (فترة المرابطين و الموحدين) ،وانتهاء باستقلالية الشخصية المغربية (بدءا من العصر المريني)، وبسقوط غرناطة (القرن التاسع الهجري)، فهذه الفترة والتي قبلها ولا شك عرفت تفاعلا بين الأدبين المغربي و الأندلسي أخذ شكل صراع نجم عن الجوار بين العدوتين، وهو صراع اتخذ عدة أشكال وقنوات كان فن الرسالة قناة أولى للمفاخرة والمراشقة قبل أن تنتقل عدواهما إلى فن المقامة مجسدة في المقامات البلدانية لابن الخطيب ومفاخرته بالأندلس على حساب المغرب البلد الذي احتضنه وقت منفاه به، ومجسدة في مقامة طرفة الظريف للملوزي وهو يرد بها على المقامة البربرية للسرقسطي. فهذه النصوص المقامية تختزل كثيرا من معالم ذلك الصراع الناجم عن الجوار بين العدوتين والممتد إلى حد الوحدة بينهما فترة المرابطين والموحدين.

إن الملاحظ تاريخيا سبق الأندلس زمنيا على المغرب من حيث ميلاد الأدب ، ولذلك لا غرو

¹⁹- ينظر مطلب " الجوار والوحدة السياسية بين العدوتين " من الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا البحث، والذي خصصته لبسط مظاهر التأثير الأدبي الأندلسي في الأدب المغربي. وهو ما يمكن اعتباره مدخلا لهذا المبحث الرامي لرصد معالم التفاعل في كليتها (تأثر وتأثير).

أن يتأثر الأدب المغربي بالأدب الأندلسي في بداياته، لكن ما يدعو للتأمل هو سر خلود الآثار الأدبية الأندلسية وضياع كثير من الآثار الأدبية و العلمية المغربية، بل و اتجاه بعض الكتاب المغاربة لتخليد الأندلس و الأندلسيين خلافا لما عهدناه في مؤلفات الأندلسيين من تحامل على المغاربة و من تجاهل لهم و تعال عليهم. ومثال ذلك عبد الواحد المراكشي في (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) إذ غلبت على المؤلف أخبار الأدباء الأندلسيين شعراء وكتاب، وقد اعتذر المراكشي عن ذلك، وهو ما نعهه إيثارا مغربيا من الكاتب، خاصة إذ علمنا أنه لم يكن المؤرخ الرسمي للدولة، وأنه التزم طلب من أشار عليه من رجال الدولة بكتابة المعجب إذ ذكر في مقدمته ما نصه: "من سيد توالى علي نعمه وقضى إحسانه... بأن ألتزم من بره وطاعته... فإنك سألتني بوأك الله أعلى الرتب... إملأ أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهياته، وحدود أقطاره، وشيء من سير ملوكه، وخصوصا ملوك المصامدة بني عبد المؤمن"²⁰، فقد استغرقه الحديث عن الأندلس أكثر من المغرب، إذ خصص الجزء الأول من كتابه لذكر أحوال الأندلس وأخبار ملوكها و شعرائها و كتابها، وخصص الجزء الثاني من المؤلف لأخبار المصامدة وأحوالهم، و ما مدحوا به من الأشعار سواء من الأندلسيين الوافدين أو من المغاربة المقيمين، خاصة وأن الأندلس كانت تخضع لسلطتهم. و غير الإيثار المشهود به للمغاربة، عرفوا أيضا باعتبار الأندلس جزءا من المغرب، ولأجل ذلك وجدنا المراكشي يخص شعراء الأندلس بعنايته ويترجم لهم ويورد أخبارهم و نتقا من أشعارهم، لأنه يعتبر طائفة منهم من علماء وشعراء المغرب لأنهم من خاصة الخليفة الموحي و من علماء بلاطه، فقد "اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب (يعني أبا يعقوب يوسف)، وكان ممن صحبه من العلماء المتفنيين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين"²¹. وأما شعراء المغرب فلا

²⁰ - المعجب. مصدر سابق. ص3.

²¹ - نفس المصدر. ص239.

نجد ذكرا لغير واحد وهو ابن حبوس الفاسي " من أهل مدينة فاس، وكانت طريقته في الشعر على نحو طريقة ابن هانيء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة... "22، ومن الكتاب أبو جعفر أحمد بن عطية " وهو معدود في الكتاب و الوزراء " 23، وابن القصيرة " أحد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة " 24. ولا شك في أن المراكشي كان لا يفصل بين العدوتين في كتابه المعجب، فهما بلاد واحدة لا يمكن التفرقة بينهما ولا تفضيل إحدهما على الأخرى، فطالب العلم لابد أن يتنقل بين مدن المغرب و الأندلس للدرس والتحصيل وملازمة كبار العلماء والأخذ عنهم . فالأندلس " هي حاضرة المغرب الأقصى وأم قراه، و معدن الفضائل منه " 25. ويبرر المراكشي تقصيره في ذكر أخبار المغرب بقوله: " دولة المصامدة خصوصا لم يقع إلي لأحد فيها تأليف أصلا، خلا أنني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها، وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعا " 26. فعنايته بالأندلس وأخبارها راجع لكونها كانت منطقة نفوذ مغربية " فالأندلس آخر المعمور في المغرب " 27، ولكون أخبار الأندلس من أخبار المغرب " فهذا التأليف يضم أوراقا تشتمل على بعض أخبار المغرب " 28، كما أن " أول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها " 29، معتذرا في آخر الكتاب عما يقع فيه من التقصير " مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به " 30.

22- المعجب. مصدر سابق. ص 213.

23- المعجب. ص 198.

24- المعجب. ص 163.

25- المصدر نفسه. ص 163.

26- نفسه. ص 4.

27- نفسه. ص 7.

28- نفسه. ص 3.

29- نفسه. ص 5.

30- نفسه. ص 289.

إن اهتمام المغاربة بالأدب الأندلسي أكبر بكثير من اهتمامهم بالتاريخ الأندلسي، فهناك تصور مغربي عام للتاريخ الأندلسي حيث تطرق عدد من المؤرخين القدماء للأندلس في إطار التاريخ المغربي، كما أن هناك تقليدا شفويا حول الأندلس والأندلسيين في عدد من المجتمعات الحضرية المغربية التي يرجع أصل جزء من سكانها إلى المهاجرين الأندلسيين إلى المغرب. ومن جهة أخرى، هناك فكرة منتشرة في جميع الكتابات المغربية القديمة و الحديثة حول الأندلس هي ارتباط الأندلس بالمغرب ثقافيا و تاريخيا، ولذلك فاهتمام المغاربة بالأندلس يجب وضعه في إطار الاهتمام بالتاريخ المغربي.

إن هنالك ارتباطا تاريخي وسياسي واقتصادي بين المغرب و الأندلس، ذلك أن المغاربة فرضوا سيطرتهم على الأندلس فترة المرابطين والموحدين. فبعد معركة الزلاقة فرض يوسف بن تاشفين حكمه على ملوك الطوائف بعد الانتصار المغربي الأندلسي على الجيش المسيحي الذي ترأسه "ألفونسو السادس" ملك ليون وقشتالة³¹، كما فرض المغاربة سيطرتهم على الأندلس خلال عهد الموحدين، وقدم حكام بني مرين مساعدات هامة لبني الأحمر خلال مواجهتهم لحملات استرجاع الأندلس من طرف المسيحيين الإسبان.

لقد قاد الارتباط السياسي العدوتين إلى ارتباط اجتماعي وثقافي، فعلى المستوى الاجتماعي كانت العلاقات المغربية الأندلسية متينة تعززها العلاقات التجارية، وهو ما سهل تنقل السكان من المغرب إلى الأندلس و من الأندلس إلى المغرب "فهناك عدد من الفقهاء و الأدباء و الفلاسفة و الجغرافيين و المثقفين جمع تكوينهم وازدهارهم الفكري و الثقافي ونشأتهم بين الأندلس والمغرب. فعلى سبيل المثال إذا كان ابن رشد أندلسيا فلقد قضى فترة هامة من حياته في المغرب، وإذا كان القاضي عياض مغربيا فقد كان للأندلس دور لا يستحق الإغفال في

³¹- هناك عدة مصادر ومراجع تطرقت للمعركة مؤرخة إياها بسنة 479هـ/ 1086م، وكان من نتائجها القضاء على ملوك الطوائف وبداية كره الأندلسيين للمغاربة الذي عمقته الفتنة القرطبية بعد ذلك، ليتعمق النفور بين العدوتين وبخاصة من العودة الأندلسية البادئة بالعداوة و بالمراشقات القلمية.

تكوينه الفقهي و الثقافي، كما كانت للسان الدين بن الخطيب علاقة متينة بالحركة الثقافية بالمغرب³². ولم تنحصر هذه العلاقة في الشخصيات الثقافية اللامعة بل شملت نطاقا واسعا من الأدباء نظرا لقرب المسافة بين العدوتين وللخصائص الثقافية المشتركة بين المغاربة والأندلسيين. فكما كانت الأندلس تجذب المغاربة لأسباب مادية و ثقافية و حضارية، كان المغرب كذلك يجذب الأندلسيين لأسباب متعددة على رأسها الأمن و الاستقرار، فاتخاذ المهاجرين الأندلسيين المغرب مقرا لهم ووطنهم الجديد لأقوى دليل على ارتباطهم به.³³

وهذا الارتباط بين العدوتين نلمحه في جل الكتابات المشرقية التي غالبا ما نلفيها توظف لفظ المغرب للدلالة على المغرب و الأندلس من منطقة الغرب الإسلامي الشاسعة، فنجد المشرقي مؤرخا أو أدبيا يتحدث عن المغرب والأندلس معا دون فصل جغرافي أو عضوي بينهما. كما وأنا نلمح نظرة عاطفية للأندلس عند الكتاب المغاربة لا نجدها عند المؤرخين الأندلسيين المتحاملين في مجملهم على المغاربة، فقد "كان لسقوط الأندلس في أيدي المسيحيين الإسبان أثر عميق في نفوسهم باعتبارهم الثقافة والحضارة الأندلسيين جزءا من تراثهم الوطني"³⁴، ومنه تكونت نظرة عاطفية نحو الأندلس وضياعها مقابل إدانة إسبانية للمغرب باعتباره المسؤول عن احتلال واستيطان الأندلس من طرف المسلمين العرب و البربر، وعن حمايتها واستمرارها في ظل العروبة والإسلام خلال ما يناهز ثمانية قرون. ومن هنا تأتي العداوة التقليدية بين المسيحيين الإسبان والمغاربة المسلمين، وكثيرا ما اتخذت هذه العداوة شكلا عسكريا عبر التاريخ، وشكلا فكريا تمثل في الاصطدام حول موضوع الارتباط الأندلسي بإسبانيا أو بالمغرب،

32 - امحمد بن عيود (التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا). (البحث العلمي). جامعة محمد الخامس. الرباط. العدد 34. السنة 1984. (33-58). ص 39.

33 - حدث ذلك على الخصوص عند احتلال المسيحيين الإسبان بمشاركة غيرهم من الفرنسيين و الإيطاليين للأندلس وطرد سكانها حيث لجأ جلمهم إلى المغرب بالذات.

34 - التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا. المرجع السابق. ص 39.

حيث يعتبر كل منهما الأندلس جزءا من تاريخه دون غيره. كما ويبرز التصور العربي لموضوع ارتباط الأندلس بالشرق العربي ثقافيا وحضاريا وأدبيا و دينيا، إذ اعتبر الأندلسيون المشرق هدفا للحج وطلب العلم، فيما اعتبر المشاركة الأندلس امتدادا للعالم العربي الإسلامي، وقد تصدى الأندلسيون لفكرة تبعيتهم المطلقة للشرق العربي وحاول أدباؤهم التفوق على المشاركة حتى في الإبداع الأدبي، و من ذلك ابن بسام في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) و الذي جمع فيه أبرز ما في الشعر و النثر الأندلسيين في القرن الخامس الهجري، ليثبت للمشاركة أن للأندلسيين أدباء لا يقلون إبداعا وبراعة عن الأدباء المشاركة " نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبج، إلا أن أهل هذا الأفق (يقصد الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة..."³⁵.

ولقد كان اعتبار المشاركة للتاريخ الأندلسي جزءا من تاريخهم القومي الدافع الرئيسي وراء إنجاز عدد من الدراسات الهامة المتعلقة بالتاريخ الأندلسي (حسين مؤنس أنموذجا)، وبالآدب الأندلسي (إحسان عباس أنموذجا)، إذ يسرا تحقيق أو إعادة تحقيق مصادر أندلسية هامة منها الذخيرة لابن بسام ونفح الطيب للمقري. ولعل المساهمة المشرقية العربية في التاريخ والآدب الأندلسيين تشكل أبرز مساهمة في إغناء الدراسات الأندلسية بجانب المساهمتين الإسبانية والفرنسية³⁶.

³⁵- الذخيرة ج.1. مصدر سابق. ص11.

³⁶- ساهمت إسبانيا بتأليف قيمة في جوانب متعددة من تاريخ وآدب الأندلس لأمثال: ميغيل آسين بلاثيوس (Miguel Asin Paiciós) صاحب ترجمة لكتاب "الملل والنحل" لابن حزم إلى الإسبانية، وصاحب دراسة لابن حزم وفكره - غرسيا غوميس (E. Garcia Gomez) والذي قام بنقل عدد من المصادر الأدبية والتاريخية الأندلسية إلى الإسبانية منها "طوق الحمامة" لابن حزم - خوان فيرنيت (J. Vernet) المهتم بعلم الأندلس.

وبذكر هؤلاء نكون قد تحدثنا عن مدارس إسبانية، فعلى سبيل المثال يشكل "بلاثيوس" وحده مدرسة ليس فقط بإنتاجاته ودراساته القيمة بل بتكوينه لجيل في ميدان الدراسات الأندلسية.

كما ساهمت فرنسا مساهمة فعالة وهامة، فبالرغم من قلة عدد الباحثين فيها في الدراسات الأندلسية فقد تركوا آثارا واضحة. وشيخ المتخصصين الفرنسيين في الأندلس هو دون شك "ايفرست ليفي بروفنسال" (Levi-provençal)، وذلك بالرغم من وجود فرنسيين آخرين مهتمين بالأندلس أمثال: هنري بيريس (Henri Peres) المتخصص في الآدب الأندلسي خلال عهد الطوائف، و"راشيل أريي" (Rachel Arie) صاحب دراسة حول بني الأحمر بغرناطة.

وإذا كان الأدب الأندلسي قد حظي بالاهتمام المشرقى ما بواه المكانة اللائقة به في الأدب العربي، فإن صورة الأدب المغربي ظلت باهتة في الأدب العربي رغم أنه رافد أساسي من روافده الإقليمية المتكاملة في خلق أدب عربي عام. ذلك أن سؤال تاريخ الأدب العربي يقترن بسؤال الهوية المغربية وفي الرغبة في رد الاعتبار للذات المغربية أمام نفسها أولاً، وأمام المشرق الذات الأم ثانياً، وأمام الأندلس الذات التوأم الفريدة ثالثاً، وأمام الغرب الحضارة الغالبة الخصيمة رابعاً، ولذلك وجدنا الأقلام المغربية هي الوحيدة المتصدية للتعريف بالمغرب وبأدبه وبنبوغ أدبائه من أمثال عبد الله كنون في نبوغه، ومحمد بن تاويت في الأدب المغربي، وعباس الجراري وآخرون. فعبد الله كنون في (النبوغ) لم يسع إلى تمييز الأدب المغربي بميزة ليست في الأدب العربي العام، وإنما سعى إلى بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي، فذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا في العمل على ازدهار الأدبيات العربية³⁷. وهو الذي توقف ضمن عرضه لمبررات التأليف عند إهمال ذكر أدب المغاربة في كتب الأدب وتاريخه، بل إنه يعتبر كتابه عملاً وطنياً فوق كونه عملاً أدبياً³⁸. لقد كان لتأخر المغرب في انطلاقة حضارته الأولى قياساً للمشرق والأندلس انعكاسه السيء على إشعاع الأدب المغربي وعلى تأخر نشأته، كما كان لإهمال وتجاهل وإنكار مؤرخي الأدب العربي في المشرق لأدب المغرب وقعه السيء على التعريف بالأدب المغربي. ويكفي أنه أتيح للمغرب أن يحفظ للأمة الإسلامية العربية توازنها يوم تعرضت لعوامل التمزق والانهيال، مما أسهم في ازدهار الغرب

فلفيفي بروفنصال مساهمات قيمة في ميدان تحقيق المخطوطات المتعلقة بالتاريخ الأندلسي، زيادة على تحقيقه لكتاب "البيان المغرب" لابن عذاري وغيره. إلا أن أبرز مساهمة قدمها تكمن في كتابه (تاريخ إسبانيا الإسلامية) في ثلاثة مجلدات، ومع أن الكتاب القيم ينتهي بالفترة الأموية حيث لا يتطرق لعهد دول الطوائف والعهود التي تتلوها، فإنه يمكننا من الخروج بتصوير واضح عن الأندلس خصوصاً على المستوى السياسي والاجتماعي. (الصراع العربي البربري - النزاعات داخل المجموعات العربية وخاصة القيسيين والكليبيين خلال ق2هـ/ 8م).

37- النبوغ. مرجع سابق. ص13.

38- نفسه. ص16.

الإسلامي ازدهارا عاما مس مختلف جوانب ومظاهر الحضارة والثقافة، وهذا ما أتاح للأندلس نبوغا فكريا وأدبيا متميزا في ظل حماية العدو المغربية.

لقد كان للوحدة المغربية الأندلسية عدة منعكسات ثقافية وأدبية واجتماعية على العدوتين، ذلك أن الوحدة السياسية والإدارية بين المغرب والأندلس - فترة المرابطين ومن بعدهم الموحيدين - وما اكبها من استقرار سياسي واجتماعي أفضت إلى قيام وشائج ثقافية قوية ولدت كما عمقت الرغبة في طلب العلم بين العدوتين، فبه تطالعنا كتب التراجم وهي ترصد الراحلين لطلب العلم في المغرب والأندلس معا، حتى "صارت مراكش³⁹ عاصمة القطرين مركزا مهما يعج بطلاب العلم ويشع بألوان المعارف الأندلسية التي حملها الوافدون على مراكش من الأندلس كأبي العباس الأنصاري الخزرجي⁴⁰ وغيره " ⁴¹، وقد نافست فاس بأدبها مراكش في هذا الإشعاع

³⁹ - لم تكن مراكش ذات امتياز يؤهلها للقيادة الثقافية قبل عهد المرابطين، بل كانت من الصحارى المخوفة لا بناء فيها ولا شجر، إلا أن المرابطين اختطوها عاصمة لدولتهم وجعلوها قلعة عسكرية تحميهم من غارات المصامدة بالجبال، وموقعا تجاريا للذهب وسك النقود، فتحولت في ظلهم إلى حاضرة من أرقى حواضر العالم الإسلامي، ومصدرا للوحدة السياسية بين المغرب والأندلس، وقبلة للحج الثقافي يقصدها الأندلسيون من الكتاب والعلماء مما حولها إلى مركز أدبي وعلمي جدير بأولئك الذين لمعوا في الأندلس واستقروا بمراكش جاعلين منها مصدرا للإشعاع والتمازج الثقافي بين العناصر المغربية والأندلسية، حتى غدت مراكش مسمى دالا على المغرب كله.

وأما تسمية "مراكش" بلغة المصامدة فمعناها " امش مسرعا " لما كان فيها من اللصوص قبل عهد المرابطين، وهناك من رأى أنها سميت باسم عبد أسود كان يقطع الطريق في مراكش. ينظر في الدلالة الأولى: بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس. مرجع سابق. ص 87 (الهامش).

⁴⁰ - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان الأنصاري الخزرجي. توفي سنة 560هـ. ينظر في ترجمته: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. العباس بن ابراهيم السملالي. ج 2. ص 72. فمن الأندلسيين الذين اختاروا الاستقرار بمراكش بعدما لمعوا في الأندلس نذكر:

- أبو الحجاج يوسف السرقسطي (ينظر: التشوف إلى رجال التصوف. التادلي. ص 83).

- أبو شعيب الصنهاجي (التشوف. ص 166).

- أبو الحسن علي حرزهم (التشوف. ص 147).

- أبو الوليد بن رشد (الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. ج 4. ص 130).

- أبو بكر بن زهر (المصدر نفسه. ص 134).

⁴¹ - بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس. ص 38.

في ظل المرابطين مما حولها هي الأخرى لموطن للعديد من علماء الأندلس وأدبائها⁴². كما وأنه من الطبيعي أيضا أن تصبح الأندلس أمام هذه الروابط السياسية و الثقافية - بين العدوتين - محجا لعدد كبير من المغاربة⁴³ الذين قصدوها طالبين للعلم أو متطوعين للجهاد ، فبهم كراجلين حاملين لثقافة وطنهم - سواء إلى الأندلس أو إلى المغرب - ازداد التمازج الثقافي بين العدوتين وتعددت مراكز الإشعاع الثقافي ورحلاته ، مما شكل مهذا لنهضة ثقافية بمنطقة الغرب الإسلامي (الأندلس و المغرب تحديدا).

42 - يذكر مصطفى الزباخ أن فاس استقطبت بدورها علماء وأدباء الأندلس ممن فضلوا الاستقرار بالمغرب آنذاك، ومنهم: أحمد بن عبد الجليل التدميري: صاحب كتاب "نظم القرطبية وضم السقطنية"، جمع فيه أشعار الكامل للمبرد والنوادر لأبي القالي، وله كتاب "الفوائد والفرائد". توفي بفاس سنة 555هـ (ينظر: جذوة الاقتباس. ابن القاضي. ج.1. ص.138). أحمد بن علي المعافري: هو أحمد بن علي بن محمد بن سعيد المعافري، من أهل غرناطة، برع في الأدب والعربية. توفي بفاس سنة 537هـ. (ينظر في ترجمته : جذوة الاقتباس. ج.1. ص.137). إبراهيم بن صواف: هو إبراهيم بن أبي الفضل بن صواف الحجري من أهل شاطبة، كان من أهل المعرفة بالعربية واللغة والأدب والطب. توفي بفاس نحو 506هـ. (ينظر: جذوة الاقتباس. ج.1. ص.88). إبراهيم بن باديس الوهراني: هو إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الوهراني، اشتهر بالحمزي، كان رحالا في طلب العلم ، حريصا على لقاء الشيوخ ، له معرفة بالأدب والحديث ، من أهل المرية. توفي بفاس سنة 560هـ (ينظر: جذوة الاقتباس. ج.1. ص.88).

43 - أ- يذكر الزباخ منهم:

-أبو اسحاق بن فرتون: إبراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد السلمي، من أهل فاس ، دخل الأندلس وتوفي سنة 538هـ (التكملة لكتاب الصلة. ابن الأبار. ج.1. ص.175).
-علي بن طويل القيسي: علي بن طويل بن أحمد بن عامر القيسي من أهل فاس. رحل إلى الأندلس سنة 504هـ. (صلة الصلة. ابن الزبير. ص.146).
-علي بن الحسين اللواتي: علي بن الحسين بن علي بن الحسين اللواتي القاضي، من أهل فاس، دخل اشبيلية وأخذ بها عن علمائها (صلة الصلة. ص.147).
ب- وقد عرف القاضي عياض بكثرة نقله عن النقول المشرقية وبخاصة قدامة بن جعفر (ينظر: الذخيرة ج.2. ص.224). وفي الذخيرة كما في نفح الطيب مؤلفات الأندلسيين التي عارضوا بها المشاركة.

وقد أكد المرابطون في المجال السياسي ولاءهم للخلافة العباسية ببغداد⁴⁴، حيث ظلت الدعوة العباسية قائمة في منابرهم الأندلسية والمغربية إلى قيام الدولة الموحدية، مما جعل الاتصال وثيقا بين الأندلس والمشرق وبينهما وبين المغرب، إذ بدأ تيار الهجرة يحمل وجوها أندلسية ومغربية للمشرق طلبا للعلم أو أداء فريضة الحج أو للتجارة، فالتفاعل هاهنا ثلاثي الأقطاب: الأندلس - المغرب - المشرق.

لقد تأثر أدباء المغرب والأندلس بأدباء المشرق فتلقفوا مؤلفاتهم دارسين وشارحين ومختصرين وحافظين وناقلين ومعارضين⁴⁵، وهو ما كان له انعكاس على أدب العدوتين، وفي ظل هذا الانصهار الثقافي أخذت الشخصية الأندلسية تؤكد حضورها وتبرز وجودها الأدبي خاصة في المجال التأليفي، في حين بدأت الشخصية المغربية تتكون وتخرج من شرنقتها الإدريسية لتبرز في العصر المرابطي في صورة تلميذ ينهل من الأدبين المشرقي والأندلسي متطلعا إلى الندية التي مارسها فعليا في العصر المريني، مرتقيا لدرجة الأستاذة في العصر السعدي ومن بعده العصر العلوي الزاهر.

44- يؤكد ذلك المراكشي في المعجب. ص138.

ويذكر من الأندلسيين الراحلين للمشرق:

- القاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي: رحل للمشرق سنة 485هـ، فلقى أبا حامد الغزالي، وقدم إلى بلده إشبيلية بعلم غزير،

صنف في علوم مختلفة. ولد سنة 468هـ وتوفي 543هـ. (نفع الطيب. ج2. ص52)، و (جذوة الاقتباس ج1. ص260).

- أبو بكر الشنتري: يعرف بابن السراج له تأليف أهمها: اختصار في كتاب العمدة لابن رشيقي، رحل إلى المشرق سنة

515هـ، وتوفي بمصر سنة 545هـ (نفع الطيب. ج2. ص238).

- عبد الله محمد بن خيرة: من أهل قرطبة رحل للمشرق سنة 506هـ وقفل إلى بلده. توفي 527هـ (التكملة. ج2. ص819).

45 - مارست بعض المؤلفات المشرقية تأثيرا قويا على مصادر التكوين الثقافي المغربي والأندلسي منها: كتاب الكامل للمبرد -

النوادر للقيالي - البيان و التبيين للجاحظ - أدب الكاتب لابن قتيبة - الحماسة لأبي تمام - الجمل للزجاجي - مقامات الهمداني -

مقامات الحريري.

و في كتاب "إحكام صنعة الكلام" للكلاعي ثبت بما كان يتداوله الأندلسيون من كتب المشاركة. (مصطفى الزباخ. ص41).

ولقد كان للوحدة بين العدوتين انعكاساتها الاجتماعية إذ عرفت بنية المجتمع الأندلسي في ظل الحكم المرابطي قيما اجتماعية عديدة، نزعت صفة القداسة عن بعض القيم الموروثة وأفسحت المجال لتألق البعض الآخر. وقد كان للرابطة الدينية والأندلسية الصاهرة للأجناس المختلفة⁴⁶ أثر فعال في سيادة القيم المعرفية والأخلاقية في العلاقات الاجتماعية مما جعل العلاقات العرقية علاقات واهية أمام علاقة النسب الروحي والأدبي⁴⁷ التي أقرها مبدأ الأخوة الإسلامية القائم على المساواة التامة والعدالة الشاملة، وبذلك سادت قيم كان لها شأن كبير في مجال الإبداع أبرزها:

1- قيمة الحرية: تبرز هذه القيمة في مجالين هما:

أ- المجال التعبيري: ارتفاع في ظل الاتجاه الإصلاحية المرابطي لصوت النقد الاجتماعي الذي طال الفقهاء الذين أدى تفوقهم إلى خفوت مكانة الأدباء، بل وطال النقد الحكام كذلك (مقامة الحكمة للتملي أنموذجا مغربيا).

ب- المجال الاجتماعي: حرر النظام الاجتماعي المرابطي المرأة من الاستبداد التاريخي الموروث حتى أن الرجل المرابطي كان ينسب إلى أمه⁴⁸، كما أنهم لم يعرفوا تعدد الزوجات فأقروا دور المرأة الحضاري مما لم يكن مألوفا آنذاك⁴⁹، ومارست المرأة دورا سياسيا مثل "زينب النفزاوية" التي أسهمت بقسط وافر في تدعيم ملك يوسف بن تاشفين، "وقمر" التي كان علي بن يوسف يستشير برأيها في سياسة الدولة ومارست دورا ثقافيا فشاركت في عملية الإبداع، و"تميمة بنت يوسف بن تاشفين" التي كانت شاعرة مشهورة برجاحة العقل والأدب⁵⁰،

⁴⁶ - من أبرز عناصر البنية السكانية الأندلسية المتنوعة الأصول نذكر: العرب- البربر- النصارى- اليهود.

⁴⁷ - صار نسب الأدب يقوم مقام نسب الدم كما نلني ذلك في كتابات أدباء العصر.

⁴⁸ - لقب كثير منهم بأسماء أمهاتهم منهم: بنو غانية المنتسبون إلى: غانية اللمتونية، ويحيى بن الصحراوية نسبة إلى أمه المعروفة بالصحراوية، وعبد الله بن فاطمة والي بلنسية، والقائد بن عائشة، وإبراهيم بن يوسف المعروف بابن "تعيشت" نسبة إلى أمه (الزباخ. ص46).

⁴⁹ - وهذا ما عده البعض من نقائصهم (المعجب. ص260).

⁵⁰ - وكانت إلى ذلك غزيرة الحفظ رأت يوما كتابا وقد بهر من منظرها فأثدته من شعر غيرها:

هي الشمسُ مسكنُها في السماءِ فَعَزَّ الفؤادَ عزاءً جميلاً

فلن تستطيعَ إليها الصعودَ ولن تستطيعَ إليك النزولاً

ينظر: جذوة الاقتباس. ج. 1. ص173-174.

و "حواء" زوجة سير بن أبي بكر التي كانت أديبة شاعرة تلتقي بالكتاب والشعراء لتحاضر فيهم وتحاورهم⁵¹، كما كانت أختها "زينب بنت ابراهيم بن تافلويت" من حفظة الشعر والأدب⁵². ولم يعد الشعر يخاطب في المرأة مفاتها الجسدية، وإنما تأسست رؤية الشعراء لها على معايير روحية وأخلاقية وإنسانية مثلما نجد في ديوان الأعمى التطيلي الذي ارتدت فيه المرأة رموز الفضيلة⁵³ والحلم والجود⁵⁴ والحياء⁵⁵ والعلم⁵⁶، وكما نجد لدى شعراء آخرين كابن خفاجة وغيرهم من شعراء ذلك العصر.

2- **قيمة المعرفة:** فقد كان لأمرأة الدولة المرابطية - المشتغلين بالمعرفة والملازمين لرجالها - أثر كبير في رفع قيم المعرفة إلى درجة التقديس في الوجودين الأندلسي والمغربي، الشيء الذي جعل الرغبة في طلب العلم نابعة من الظمأ المعرفي لا المكسب المادي والسياسي، ولأجل ذلك برز النشاط المعرفي على شكلين:

أ- طلب العلم لذاته: إذ لذة التحصيل لدى العلماء تفوق عندهم لذة الجاه، يزهدون في المناصب للاشتغال بالعلم والتأليف كأبي الوليد بن رشد الذي استغنى من القضاء لاشتغاله بتأليف كتاب "البيان والتحصيل"⁵⁷، وأبي القاسم بن جد الذي " أقام زمنا معتكفا على دواوينه، كلفا بالعلم وأفانينه، مشتغلا بالدراسة معتزلا للرياسة"⁵⁸. فالعالم منهم " يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم"⁵⁹.

51 - ينظر: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذارى. تحقيق: إحسان عباس. ج.4. ص.57.

52 - النبوغ. ج.1. ص.82.

53 - ينظر: ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق إحسان عباس. ص.44.

54 - نفسه. ص.45.

55 - نفسه. ص.46.

56 - نفسه. ص.70.

57 - ينظر: الإعلام بمن حل مراکش من الأعلام. العباس بن ابراهيم السملالي. ج.9. مصدر سابق. ص.44.

58 - قلائد العقيان. ص.123-124.

59 - نفع الطيب. ج.1. ص.221.

ومما يذكره التاريخ أن أبا العباس أحمد الأنصاري رغب منه أحد عمال لمتونة أن ينقطع إلى صحبته مقابل أن يعطيه ألف دينار ذهباً مرابطية فامتنع قائلاً: "والله لو أعطيتني ملك الدنيا على أن أخرج عن طريقي وأفارق ديني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء و الانخراط في سلكهم ما رضيت" (الإعلام. ج.9. ص.44).

ب- الشمول المعرفي: كان من نتائج الرغبة الذاتية في طلب العلوم أن تشعب المحصول الثقافي لدى علماء وأدباء العصر، فكانوا محيطين بمختلف العلوم مما أضيف الموسوعية على إنتاجهم كما نجده عند الكثير من أدباء الفترة، أمثال: ابن خير صاحب "الفهرسة"، والقاضي عياض، وابن بسام، وغيرهم ممن وسعوا من حجم الإدراك المعرفي.

من هنا نجد أن بنية المجتمع المرابطي قد أفسحت المجال لسيادة قانون القوة الفكرية الذي نزع عن إنتاجهم رداء التكبس وخلع عليه رداء الإصلاح عن طريق نشر قيم الخير. وقد بدا هذا واضحا في سيادة الرقابة الأخلاقية على أحكامهم النقدية كما نجد عند ابن بسام في "الذخيرة"⁶⁰، وفي "إحكام صنعة الكلام" للكلاعي⁶¹.

لقد انفعل الأدب - باعتباره ظاهرة اجتماعية - بقيم الحياة الجديدة مما أحدث منعطفات لافتة للباحث في معالم التفاعل بين العدوتين شعرا ونثرا، وللتأثير المرابطي في الأدبين المغربي والأندلسي. " فقد حمل العهد المرابطي السنة الشعراء على الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية مما فجر تيارا خلقيا جادا، جمل الشعر من خلال (الحلة وحلية النبلاء العلية)⁶² وأزرى بالنزعة التكبسية⁶³ فيه"⁶⁴. وهكذا وجدنا الشعراء منفعلين بحوادث العصر، مرتبطين بواقعهم، مسجلين انتصارات المرابطين على النصارى كانتصارهم في معركة الزلاقة⁶⁵، ومؤرخين للمآسي التي عرفتها الأندلس سواء بانهييار مدنها كبلنسية⁶⁶، أو ممالكها كبني عباد⁶⁷، ومملكة بني الأفطس⁶⁸،

⁶⁰ - الذخيرة ج.1. ص883/ج.2. ص.890.

⁶¹ - إحكام صنعة الكلام. ص117- 118.

⁶² - ديوان ابن خفاجة. ص.6.

⁶³ - ينظر في الزراية وانتفاء ظاهرة التسول من المجتمع : الذخيرة. ج.2. ص556.

⁶⁴ - بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس. مرجع سابق. ص52-53.

⁶⁵ - تنظر قصيدة ابن وهبون في الذخيرة. ج.2. ص245، وقصيدة ابن عبدون في القلائد. ص.14.

⁶⁶ - ديوان ابن خفاجة. ص354، قصيدته التي مطلعها:

عائتُ بساحتك العدى يا دارُ
ومحا محاسنك البلى والنارُ

⁶⁷ - التي فجرت لسان ابن عباد بالبكاء، وابن اللبابة بالرناء. (القلائد. ص24-32).

⁶⁸ - ينظر: القلائد. ص42، و الاستقصاء. ج.2. ص56.

قصيدة ابن عبدون التي مطلعها :

الدهرُ يفجعُ بعد العين بالأثرُ
فما البُكاءُ على الأشباح والصورُ

كما أفسحت الحرية التعبيرية والمساواة الاجتماعية التي أكدها المرابطون المجال لبروز خطاب شعري متميز يعبر بلسان الحياة اليومية عن أحوال المجتمع وهو "فن الزجل" ، الذي أرسى بنيانه أبو بكر بن قزمان⁶⁹ ، فجاء تعبيراً طبقياً عن سيادة القيم الشعبية قريباً من هموم الشعب ومن قيمه، وهو ما اعتبر في حضارة الأندلس المرابطية ملهماً لآثار فنية أخرى برزت في هذا الاتجاه الشعبي، إذ بلغت الموشحات ذروتها عند وشاحين كبار كأبي بكر بن بقي⁷⁰ ، والأعمى التيطلي⁷¹ ، وأبو بكر بن باجة⁷² ، ممن أبدعوا فيها وأثروا نتائجها كما وكيفاً⁷³ .

وأما ما يهم الإبداع النثري، فقد التزم الفن النثري التزاماً واضحاً بالخط الإيديولوجي المرابطي من حيث صفة الالتزام فيه والتي يقوى بها العمل النثري على التعبير عن أشكال الواقع، مما هياه لأن يحاط بالإجلال⁷⁴ ، ولأن يكون أكثر فنون القول إسهاماً في التعبير عن مظاهر النشاط الاجتماعي والسياسي والثقافي فتتوعد بذلك أنماط تعبيره، ومن ذلك فن المقامة التي تأثرت بالواقع الجديد وتطورت في ظله، حيث أخذت ظاهرة التصنع والإغراب التي أثقلت موروثه تخف، وازمحت ظاهرة الكدية والاحتيال أمام التيار الإصلاحية المرابطية لتبرز على أنقاضها أصوات الوعظ والإصلاح، فكتب فيها من المغاربة أبو عامر بن أرقم، ومن الأندلسيين ما ذكرناه في الباب الأول منوهين بالمقامات اللزومية للسرقسطي رائد فن المقامة بالأندلس بلا منازع. ويبرز خطاب الإصلاح والوعظ بارزاً في فن نثري آخر - على ندرته في العصر المرابطي - وهو فن الخطابة الذي نستجلي خصوصياته من خلال خطب القاضي عياض التي يعمد فيها إلى تنبيه الغافلين وتبيين مقاصد الشريعة في مجال العبادات والمعاملات. ومن الفنون النثرية الأخرى التي عرفت ازدهاراً عهد المرابطين كما الموحدين فن الرسالة.

69 - محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الأصغر. توفي 555هـ. (الذخيرة. ج.2. ص774) و(القلاند. ص213).

70 - توفي سنة 540هـ. (الذخيرة. ج.2. ص615/القلاند. ص322).

71 - أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي. توفي سنة 525هـ. (الذخيرة ج.2. ص728/القلاند. ص315).

72 - أبو بكر محمد بن الحسين بن الصائغ، كانت وفاته سنة 533هـ، وقيل 525هـ. (القلاند. ص346/المغرب في حلى المغرب ج.2. ص119).

73 - للتوسع في الفنين المستحدثين في الأدب العربي ينظر:

✓ صلة الموشحات والأزجال بشعر التروبادور. عبد الهادي زاهر. مكتبة الشباب. ط.1. 1977.

✓ مدخل لدراسة الموشحات والأزجال. محمد زكرياء عناني. دار المعارف. الاسكندرية. ط.1982.

74 - يبدو أن هذا التقدير كان قائماً على معايير أخلاقية كما نجد عند ابن بسام الذي لم يرض الشعر مركباً ولا اتخذه مكسباً (الذخيرة. ج.1. ص18)، وعند الكلاعي الذي فضل النثر على الشعر (أحكام صنعة الكلام. ص31).

لقد واكب النثر الشعر في دفع الحركة الأدبية، حيث استعان ولاة الأمر من المرابطين والموحدين بمختلف الكتاب لكتابة الرسائل الرسمية. كما برز فن التوقيعات وأغلبه صادر عن ولاة الأم، ومنه رد أمير المسلمين على ظهر رسالة أرسلها له "أدفونش" يهدده، فكان جوابه: "الجواب ما ترى ما لا تسمع"⁷⁵، ومنه أيضا من توقيعات المنصور الموحي حين طلب مؤدبين لأبنائه فأحضرا له، وأخبر أن أحدهما بحر في علمه، والآخر بر في دينه، وبعد اختبارهما وجدتهما لا يصلحان فوقع بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ظهر الفساد في البر والبحر"⁷⁶.

وإذا تتبعنا الدراسات المتنوعة التي حصل عليها ولاة الأمر من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين ووزرائهم وانتهاء إلى أبناء الشعب يمكننا أن نفهم سبب اهتمامهم وتشجيعهم للعلم والعلماء في العدوتين، فيوسف بن تاشفين رحب بالعلماء في عاصمته، وكانت ثقافته دينية مستمدة من المذهب المالكي، ولأنه قضى جزءا كبيرا من حياته في الجهاد بالمغرب والأندلس مع ميل للزهد والتقشف ونأي عن مظاهر الترفه التي كانت سائدة في الأندلس، كل هذا جعله بمنأى عن التيارات الثقافية المختلفة بالأندلس، مكثفيا بالدراسات الأدبية ومتأثرا ثقافيا بتلك المجموعة من الأدباء وعلماء الأندلس الذين اتخذ منهم وزراء وكتابا. وعلى العكس من ذلك نجد ابنه علي بن يوسف الذي ولد بمدينة سبتة من أم نصرانية، وعاش فترة كبيرة من حياته بالأندلس واليا عليها، ومن تم استهوته الثقافة الأندلسية فنهل منها، يضاف إلى ذلك تكريمه للعلماء. فإذا انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا حرص خلفاء الموحدين على تزويد أنفسهم بمختلف الثقافات، فالخليفة عبد المؤمن كان حريصا على تلقي العلم منذ صباه، فكان فقيها عالما بالجدل والأصول حافظا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، مشاركاً في علوم كثيرة دينية ودنيوية، إماما في النحو واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات، ذاكرا للتاريخ وأيام الناس⁷⁷. أما الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإن حياته بالأندلس واليا عليها قد أثرت حياته العلمية وجعلت منه عالما بالقرآن والحديث والعلوم الشرعية، عالما بأيام العرب جامعا أخبارهم في الجاهلية

75 - النبوغ. ج2. مرجع سابق. ص89.

76 - نفسه. ص106.

77 - الأنيس. ابن أبي زرع. مصدر سابق. ج2. ص170.

والإسلام متمكنا من علم الفلسفة⁷⁸، وأما المنصور الموحي فكان عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا في كثير من العلوم⁷⁹.

وأما من حيث علاقة المغرب بالمشرق فيكفي التذكير بأن المرابطين اعترفوا بالخلافة العباسية باعتبارها الخلافة الشرعية واستمدوا منها التأييد الروحي، وعلى العكس من ذلك كان موقف الموحدين مخالفا، إذ اعتبروا أنفسهم خلفاء، فكانوا أول من أنشأ خلافة إسلامية بالمغرب، وصار ولي الأمر الموحي خليفة في حين كان ولي الأمر المرابطي أميرا للمسلمين⁸⁰.

إن الوحدة بين العدوتين خلقت تفاعلا بينهما مس عدة ميادين اجتماعية وسياسية وثقافية، يهمنها منها الميدان الأدبي. فمن الصعب القول بأن الأدب المغربي على عهد المرابطين والموحدين لم يتأثر بالأدب الأندلسي أو أنه لم يؤثر فيه، أو أن نفى التأثير المشرقي فيهما معا، بل وتأثيرهما فيه. فقد ظل تأثير الأدب المشرقي العربي مهيمنا على الأدبين الأندلسي والمغربي قبل أن يستقلا بنفسيهما ويحددا ملامح شخصيتيهما. فالأدب المغربي ظل مفتوحا في وجه ثقافتين إحداهما عربية مشرقية والأخرى أندلسية، ولكنه مع ذلك ظل يحتفظ بشخصيته المغربية ويعمل على إبرازها وهو ما بدا جليا في العصرين المريني والسعدي. وكان من نتائج الوحدة اتساع دائرة الهجرة بين العدوتين كما سلف الذكر، وكذا بروز الملاحاة أو المنافسة بين أدياء العدوتين إذ احتدمت بينهما في عهد المرابطين (المقامة البربرية أنموذجا) وزادت احتداما في عهد الموحدين (فن الرسالة)، "إذ كان المغاربة يشعرون بنوع من التعالي الحكمي على الأندلسيين قوبل بتعال ثقافي من قبل الأندلسيين"⁸¹، فقد قادت المنافسة المغاربة إلى معارضة الأندلسيين والارتقاء إلى مستواهم الأدبي، لكنها تمخضت عن نتائج خطيرة أحيانا، ومثال ذلك حادثة مقتل الفتح بن خاقان بمراكش في ظروف غامضة، وهو الأديب الأندلسي الشهير صاحب قلائد العقيان، ومثالها كذلك المفاضلة التي كانت بين علماء العدوتين وأشهرها ما حدث

78 - للتوسع ينظر: المعجب للمراكشي. مصدر سابق. ص 237.

79 - ينظر في ذلك:

- نفح الطيب. ج 4. ص 10.

- جذوة الاقتباس. ابن القاضي. ص 348.

- الصلة. ابن بشكوال. ج 2. ص 587.

80 - للتوسع في الحقبة ينظر: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. مرجع سابق.

81 - حسن جلاب. إحالة سابقة الذكر. ص 269.

بين الشقندي وابن المعلم الطنجي⁸²، والتي تم فيها التنقيص من أدب المرابطين وفكرهم وحضارتهم، ومثال ذلك أيضا المقامة البربرية للسرقسطي وما تبعها من مراشقات قلمية - امتدت إلى القرن الثامن الهجري - ساهم فيها ابن الخطيب بمقاماته البلدانية متخذا من مألقة رمزا للأندلس ومن سلا رمزا للمغرب في تفضيله لمألقة على حساب سلا.

وقد تتبعنا في مطلب سابق (الجوار والوحدة السياسية بين العدوتين) أوجه التأثير الأندلسي في الأدب المغربي، ولذلك يهمننا هاهنا عرض صور من تأثير الأدب المشرقي في الأدب المغربي بشعره ونثره، لأن الأدب المغربي في علاقته مع العدو الأندلسية خضع لتأثير مزدوج وتسرب إليه التأثير المشرقي عبر قناتين: من خلال تأثره بالأندلس المتأثرة بالمشرق العربي، ومن خلال رحلاته للمشرق طلبا للعلم أو الحج أو التجارة. ويعود هذا التأثير المغربي إلى عوامل البيئة المغربية التي كانت تنطبع بالطابع العربي، وإلى الذوقين المتقاربين - في تصور عفيفي وابن تاويت -⁸³، وإلى الروابط المتينة التي وجدت بين منبع الإسلام والمغرب المسلم والتي تمثلت في تبادل الرحلات بين فقهاء القطرين وعلمائهم وطلبتهم وأدبائهم، وإلى أخذ المغرب بطرق التدريس المشرقية واعتماده على كتب المشاركة ودواوين شعرائهم ومؤلفات أدبائهم مما خلف أثرا في ذوق الأدباء المغاربة. ويتجلى هذا التأثير في "محافظة شعراء المدح على الإطار التقليدي العربي للقصيدة المدحية، وسير بعضهم على منوال الغزليين العذريين والبعض الآخر على غرار الغزليين الحضريين، واستهلالهم الرثاء بالحكم كالمشاركة"⁸⁴. فقد نسج الشعراء المغاربة كثيرا من أشعارهم على غرار شعراء المشرق، " فعند ابن تاويت ابن حبوس الفاسي كان متأثرا بالمتنبي، وعند كنون أن نفس ابن حبوس مشرقي، ولو كان بيدنا كثير من شعره لحكنا جزما بذلك، ولا بد من تجاوز الفترة المرابطية ليظهر هذا الأثر أكثر، فقد شبه كنون الشاعر ابن خبازة بأبي تمام في كثير من شعره، ووجد ابن تاويت في شعر الجراوي أثرا للمتنبى، كما لاحظ على قصيدته في معركة الأرك أثرا لأبي تمام"⁸⁵، فالتأثير هم العصرين المرابطي والموحدي وليس بعدهما، فقد تبين لنا أن الأدبيين الأندلسي والمشرقي قد أثرا في

⁸² - نفح الطيب. ج. 4. ص 177-208.

⁸³ - الأدب المغربي. محمد الصادق عفيفي و محمد بن تاويت. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ط. 1. ص. 65.

⁸⁴ - الأدب المغربي. المرجع السابق. ص 62-63.

⁸⁵ - حسن جلاب. ص 277.

الأدب المغربي تأثيرا بارزا، ولكن هذا لم يفقده الشخصية المغربية فقد تاملنا، بل ظهرت ملامحها مبكرا منذ العصر المرابطي، وتجلت أكثر مع الموحدين. ففي العصر المرابطي التزم الأدب الحشمة والوقار والبساطة والإيجاز والجانب الأخلاقي خلافا لما كان عليه الحال في المشرق والأندلس، وهو راجع لتميز الأدب المرابطي بالطابع الديني. وفي اعتقاد كنون أن "هذا الاتجاه الذي أخذه الأدب المرابطي قد أثر في الأدب الأندلسي تأثيرا محسوسا، فظهر بمظهر القوة والجزالة واختفت منه عناصر الضعف والفسولة التي كانت سائدة عليه أيام ملوك المرابطين، وانتحى الشعراء في شعرهم مناحي الجد والتوقير بدل ماكانوا منغمسين في البطالة والمجون، وذلك نتيجة تشبعهم بروح الحفاظ الذي كان يسيطر على رجال الدولة"⁸⁶ ، وبهذا أثرت الشخصية المغربية المرابطية دورها في الأدب الأندلسي، وكانت الشخصية المغربية أكثر وضوحا في الأدب الموحي والأدبين المريني والسعدي حيث مرحلتنا الندية والأستذة، حيث الإبداع والنبوغ الأدبي المغربي. ومن هنا التفاعل في الأدب المغربي في أبرز تجلياته : التأثير والتأثير معا. كما أنه من أبرز مظاهر التفاعل بين الأدبين المغربي والأندلسي تلك المراسقات القلمية بين العدوتين والتي اتخذت من أدبي المقامة والرسالة وسيلتها لترجمة علاقة الصراع والتوتر التي توطر الجارتين عوض ما كان يفترضه الجوار الجغرافي والتاريخ السياسي المشترك من محاباة وتآخ، ومن هنا تنقل لنا المصادر والمراجع صوراً مشوهة عن الإنسان المغربي و الإنسان الأندلسي، وخاصة أن كلا الطرفين بنى مراسقاته على محورين هما: الإنسان والمكان. فقد تحكمت العصبية الإقليمية في تلك المراسقات، فانطلق الأندلسي في تراشقه النثري (الرسالة - المقامة) من عدااء صريح للمغاربة البربر ينفي عنهم الخير ويلصق بهم تهمة الفتنة القرطبية، لكن المغربي كان في تراشقه أكثر حرصا من غيره على ألا يسيء الوصف، بل وعبر الأندلس مرارا لنجدة الأندلس والجهاد إلى صفها.

إن التاريخ يحفظ لنا في باب المراسقات بين الأندلس والمغرب ثلاثة نصوص مقامية، يرجع أولها وهو أندلسي إلى القرن 5هـ، ويعود ثانيها وهو مغربي إلى القرن 7هـ، وأما ثالثها فأندلسي يرجع إلى القرن 8هـ.

⁸⁶ - النبوغ. مرجع سابق.ص84-85.

فأما الأول فعنوانه: "المقامة البربرية"، وهو للسرقسطي صاحب المقامات اللزومية، وهو يمثل العصر المرابطي بكل ما يجسده من توحيد سياسي بين العدوتين، وبكل ما يشهد عليه من نفرة وكراهية بين الإنسان الأندلسي والإنسان البربري المغربي، وبكل ما يعنيه من تحميل لمسؤولية الفتنة القرطبية للجنس البربري، وما حملته - تلك الفتنة - من بوادر مبكرة لسقوط الأندلس 897 للهجرة. وأما الثاني: فعنوانه "طرفة الظريف في جزيرة طريف" وهو لعبد العزيز الملزوري، وأما الثالث: فعنوانه "مفاخرة بين مالقة وسلا" للسان الدين بن الخطيب، وهما نصان يمثلان العصر المريني. فلقد ذم شاعر المرينيين - الملزوري - الأندلس إنسانا ومكانا، وذم بعده بقرن من الزمان ابن الخطيب سلا في حملة خلت من الذوق، خاصة وأنها أوتته أوقات محنته وكانت بلده الثاني في منفاه لمدة سنة كاملة بالعدوة المغربية. ومما لاشك فيه أن المفاضلة بين المدينتين ماهي إلا مفاضلة بين بلدين، أي بين سياستين متحكمتين في الأدب.

فالقصد أن نقرر أن الأندلسيين دأبوا على التقليل من شأن المغرب، وكانوا السباقين إلى زرع بذور العداوة والكراهية خارجين بذلك عن أصول المنافسة الشريفة - التي لاتخلو منها علاقة جوار بين بلدين - إلى تعصب أرسقراطي أندلسي حاد ومتطول.

إن المراسقات القلمية بين العدوتين قد نشأت فعليا في العصر الموحي، لكنها اتخذت من أدب الرسالة لسانها (من ذلك: المفاضلات بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي، في اعتزاز الأول بأندلسيته، واعتزاز الثاني بمغربيته)، ولم تتخذ من فن المقامة لسانها. ومن هنا هذا الإلحاح في تلمس معالم العداوة بين العدوتين من خلال أدب المقامة، وذلك قصد التأسيس لفهم عميق لخلفياتها ومرجعياتها الإيديولوجية والسوسيوثقافية، ولوضعها في سياقات إنتاجها (التفاعل الأدبي بين العدوتين). فمن الحق إنصاف العدو المغربية في سماحتها وكرمها وبطولتها في الدفاع عن جارتها الأندلسية، ومن الباطل إنصاف العدو الأندلسية فيما أتته من أرسقراطية جوفاء، ومن تحامل مجاني على المغرب لا يعقلهما عقل قويم ولا يستسيغهما ذوق سليم.

وأما غير هذه المقامات الثلاث في بابي المراسقات القلمية و المفاخرة بين العدوتين فلا تذكر

المصادر- في حدود ما أعلم - نتاجا مقاميا آخر، ولكنها تضعنا أمام ثلاثة كتب، الأول هو "مفاخر البربر" لمؤلف مجهول يعود إلى ق8 هـ ، وهو في الدفاع عن العدو المغربية، ويعد وثيقة نادرة للتاريخ المشترك بين المغرب والأندلس، وتاريخ أنساب البربر وعلمائهم، ورجال التصوف والفقه والتفسير والأصول والأدب والعلوم (ما يفوق 72 ترجمة لعلماء مغاربة وأتقياء وزهاد ورجال حرب...). وأما الكتاب الثاني فهو كتاب "الأنساب" لابن عبد الحلیم (ق8 هـ /14م) وفيه ذكر لأنساب أهل المغرب، وأن أول الإسلام دخل المغرب عند وصول البربر إليه من فلسطين، وذكر لأقوام من أهل المغرب وصلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأمنوا به، وذكر لمن وصل إلى عمر بن الخطاب، وباب في ذكر فتح المغرب الأقصى. وأما الكتاب الثالث فهو كتاب "شواهد الجلة" لأبي بكر بن العربي (ت543 هـ / 1149م)، وهو في مجمله عبارة عن رسائل تأييد وتوصية ليوسف بن تاشفين في حربه ضد ملوك الطوائف بالأندلس، صادرة عن المشرق وواردة إليه.

فمما لاشك فيه أن البربر (المغاربة) أمة لها أمجاد وحضارة وبطولة يشهد بها التاريخ القديم والحديث، وأن الحيف والاستصغار والإهانة التي حاول الحكام والأدباء الأندلسيون إلحاقها بالمغربي البربري المسلم لاتخرج عن نطاق كتابات ذاتية مدسوسة تعطي مفهوما مغلوطا عن الإقليمية والعصبية القومية وحب الوطن.

• خاتمة الفصل الأول/الباب الثالث:

اقتضى الحديث عن التأثير والتأثير الأدبيين بين المغرب والأندلس على مستوى فن المقامة تحديدا التوسل بعدة مفاهيم من قبيل : التفاعل – الخصوصية – الاستقلالية – الاتباع – الابتداع – التقليد – التجديد – الإبداع – التأصيل – الائتلاف – الاختلاف – المحلية – الإقليمية، وقد انتظمت ثنائية "الإنسان والمكان" كل هاته المفاهيم النظرية واحتوتها في الفصل الموالي والسادس من هذه الدراسة، فتم إبراز ما بين المفهومين من تعلق جعل الهمذاني/الإنسان مرتبطا بمكانه/واقعه في إنشاء مقاماته، وكذلك فعل الإنسان/المغربي والإنسان/الأندلسي إذ ظلا مرتبطين بمنطقة الغرب الإسلامي في مقاماتهما، وهذا الانتماء الجغرافي الواحد والموحد (المكان المشترك) وما شهده أيضا من انتماء سياسي (الحكم المشترك على عهد المرابطين والموحدين) ولد تفاعلا متعدد الضروب الحضارية والعمرانية والفكرية والثقافية والعلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية واللغوية، وهو تفاعل راهنت الدراسة منذ اختمار فكرتها لدي على ضرورة حدوثه على مستوى ادب المقامة ولو أن كل المراجع في بداية البحث كانت ضدي، غير أن الإصرار على الطرح والمضي قدما في الدراسة والبحث المستمرين قاداني إلى إثبات فرضية الأطروحة والثورة على كل القائلين بمرينية النشأة لا بمرابطيتها.

لقد ولدت فعليا الوحدة الجغرافية والسياسية بين العدوتين على عهد المرابطين والموحدين تفاعلا أدبيا كانت الأندلس فيه هي الطرف المؤثر، وهو تأثير سيخف وطؤه تدريجيا مع تطور الأدب المغربي وارتقائه من مرحلة التلمذة على الأندلس والمشرق إلى مرحلة الندية والخصوصية والاستقلالية في العهدين المريني والسعدي. كما ولدت الوحدة بينهما وحدة اجتماعية تمخضت عنها قيم معرفية وأخلاقية نابذة للعرقية والعصبية مشيدة بالمبادئ الإسلامية انعكست إيجابا على مجال الإبداع الأدبي ومن ذلك : قيمة الحرية – قيمة المساواة – قيمة المعرفة، بيد أن هذه الوحدة

بمظاهرها المتعددة جغرافيا وسياسيا واقتصاديا وإداريا وسوسولوجيا وثقافيا وحضاريا ودينيا ،لم تحل دون نشوب مراشقات قلمية بين العدوتين حركتها العصبية الضاربة جذورها في نفوس الأندلسيين والتي تعود أسبابها إلى الفتنة القرطبية أو كما يسميها المؤرخون الأندلسيون الفتنة البربرية،وسيكون الفصل الموالي مجالا واسعا لفهم أبعاد هذا الموضوع نستجلي من خلال مباحثه وعبر فن المقامة كيف تصور الإنسان الأندلسي الإنسان والمكان المغربيين،وكيف نظر المغربي إلى الأندلس إنسانا ومكانا.

● مقدمة الفصل السادس من الأطروحة/الفصل الثاني-الباب الثالث:

أفضى ركوب دراسة التفاعل لدراسة التأصيل في أدب المقامة بين العدوتين إلى استخلاص صور مشوهة للإنسان و المكان المغربيين والأندلسيين ، لكنها دالة على لقطات واقعية للحظات حقيقية من تاريخ العدوتين. فقد أفضت المنافسة بينهما إلى المراسقات القلمية عبر أدب المقامة ،والذي سندرسه وفق منظورين أساسيين هما: الإنسان والمكان، وذلك لاقتفاء ملامح كل من الإنسان والمكان الأندلسيين في مقامات المغاربة، وكذا تتبع سمات الإنسان والمكان المغربيين من خلال المقامات الأندلسية .

لقد أزرى ابن الخطيب في مقامته (مفاخرات مالقة وسلا) من شأن مدينة سلا التي أوته مفضلاً مالقة (الأندلس) على سلا (المغرب) كما وأبدى السرقسطي في مقامته البربرية تعصبه العنصري ضد المغاربة (البربر) فاستخف بالإنسان المغربي البربري واستهزأ به . وقد رد عليه الملزوزي بمقامة (طرفة الظريف) مجرداً الإنسان الأندلسي من عزة النفس والمروءة، ناعثاً إياه بالبخل واللؤم وتبدل اللسان، كما لعن المكان الأندلسي معيباً طريفة والجزيرة الخضراء.

فلم يكن التصنع اللفظي السبب الداعي إلى الإنشاء في هذا الفن النثري العربي بالغرب الإسلامي، بقدر ما كان الدافع السوسولوجي أهم الدواعي، فقد ارتبطت مقامات العدوتين بالبيئة المحلية منطلقاً من واقعها ومنتهية إليه .ومن هنا ما سنستعرضه من معالم الائتلاف (التفاعل) والاختلاف (الخصوصية) في مقامات العدوتين ،منتهين إلى معالم التأصيل في أدب الغرب الإسلامي. فما التفاعل والتأصيل سوى مظهرين للهدف الأسمى من هذه الأطروحة : " التأكيد على التأصيل في أدب الغرب الإسلامي ، من خلال الكشف عن معالم التفاعل بين أدب المقامة الأندلسية وأدب المقامة المغربية " .

-الفصل الثاني: الإطار العملي-

- المبحث الأول: اقتفاء الصوت المغربي في المقامة الأندلسية
- المطلب الأول: المغرب /المكان (ابن الخطيب أنموذجا: مفاخرات مالقة وسلا)
- المطلب الثاني: المغرب/ الإنسان (السرقسطي أنموذجا: المقامة البربرية)
- المبحث الثاني: اقتفاء الصوت الأندلسي في المقامة المغربية
- المطلب الأول: الأندلس/ المكان
- المطلب الثاني: الأندلس /الإنسان (الملزوزي أنموذجا: مقامة طرفة الظريف)
- المبحث الثالث: مظاهر التفاعل والتأصيل في المقامات الأندلسية والمغربية
- المطلب الأول: معالم الائتلاف والاختلاف بين مقامات العدوتين
- ✓ الفرع الأول: معالم الائتلاف/التفاعل
- ✓ الفرع الثاني: معالم الاختلاف/الخصوصية
- المطلب الثاني: معالم التأصيل في مقامات العدوتين

- المبحث الأول :اقتفاء الصوت المغربي في المقامة الأندلسية
 - المطلب الأول :المغرب/ المكان :
- "مقامة مفاخرات مالقة وسلا لابن الخطيب أنموذجاً"

تظهر على الإنسان دلائل الحاجة للمكان في صور مختلفة منها،رغبته في مقر ومسكن يتيح له خصوصية العيش وممارسة حياته اليومية بطمأنينة وحرية، ومنها كون المكان ملجأ و مأمناً للمرء من المحيط الخارجي المتسع لعدة أمكنة أخرى ،ومنها كون المكان لازمة من لوازم استدلال الإنسان على ذاته و إدراكه لهويتها المتفردة ،ذلك أنه لكل نفس إنسانية محيط تتعلق به خلال مراحل و ظروف عيشها فيه.

ومن أمثلة ما يوضح ذلك: مقامة " مفاخرات مالقة وسلا "، إذ يعتد ابن الخطيب بالأندلس كمكان يمثل بلده الأم،وذلك على حساب المغرب كمكان يمثل بلده المستقبل حيث منفاه بمدينة سلا، حيث طغت عواطف الإنسان لتنتكر عليه فضل مكان ،فقط لأنه مكان الآخر، حفز فيه ردود الفعل تجاه موقفه من الإنسان المغربي البربري ومن مكانه. ففي حين حثه المكان المغربي على اتخاذ رد فعل معاد له يقضي بالفرار منه والتعالي عليه - وهو المشحون بعصبية الإقليمية وسخطه على المغرب - فإنه بالمقابل تظهر الأندلس كمكان يهدئ من روع نفسه ويمنحها الطمأنينة والألفة.

إن مفهوم المكان في مقامة "مفاخرات مالقة وسلا" لا ينحصر في دلالاته على البعد الجغرافي الضيق (مدينة سلا) ،وإنما هو في مقصديته لدى ابن الخطيب يتعدى سلا بوصفها مدينة مغربية ليشمل كل بلاد المغرب، لتصبح سلا رمزا للمغرب ،كما كانت طنجة رمزا للمغرب عند السرقسطي في مقامته البربرية.

استهل ابن الخطيب مقامته "مفاخرات مالقة"⁸⁷ وسلا⁸⁸ "بما نصه : « سألتني عرفك الله عوارف السعد المقيم ،وحملني وإياك على الصراط المستقيم المفاضلة بين مدينتي مالقة وسلا،صان الله من بهما من النسيم ،وحباهما من فضله بأوفر القسم بعد أن رضيت بحكمي قاضيا، وبفصلي الخطة سيفا ماضيا، لاختصاصي بسكنى البلدين ،وتركي فيهما الأثر للعين »⁸⁹ .

إن سبب إنشاء هذه المقامة البلدانية - التي وظفها في المفاخرة والمفاضلة بين مدينتين أحدهما أندلسية تمثل المكان الأندلسي في كليته، والأخرى مغربية تجسد المكان المغربي عامة - يرجع إلى دافعين :

-الأول : ما ذكره ابن الخطيب نفسه في تصدير مقامته ،حيث ذكر أن هناك من أشار عليه بكتابتها دون أن يسميه ،ما يفسح المجال هاهنا للتأويل ،إذ يبقى المشير عليه بالكتابة مجهول الهوية لا ندري إن كان مغربيا أو أندلسيا أو شخصا متخيلا.

- الثاني : نفسي مرتبط بحياة ابن الخطيب وظروفه النفسية القلقة فترة كتابة مقامته ،وقد قال بهذا الباعث "وأكدّه الفقيه ابن علي السلوي الدكالي في منظومته التي ألفها في الرد على هذه المقامة ،والتي سماها "إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا "،فقد ألمح في أبيات الأرجوزة المطولة إلى أن ابن الخطيب كان واقعا تحت هذا التأثير النفسي الانفعالي حينما اتخذ سلا مستقرا و مهجرا فتحاماه بعض أعيان المدينة ولم يقوموا بواجب زيارته... فالفقيه الدكالي عد المفاضلة قولاً أعمى"⁹⁰، و الدكالي هاهنا يتفق مع بنشريفة في سياق المفاخرة والمفاضلة

87- مالقة : اسم لمدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق إسبانيا.وفي أيام ابن الخطيب كانت مالقة تعتبر العاصمة الثانية بعد مدينة غرناطة في مملكة بني الأحمر .

88- سلا : مدينة مغربية تعود إلى الرومان تقع على ساحل المحيط الأطلسي بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة الرباط نهر أبي رقرق. وقد أقام فيها ابن الخطيب عندما نفي مع سلطانه محمد الخامس المريني عام 1360م وظل بها حتى 1363م حينما عاد ثانية إلى غرناطة مع سلطانه المذكور.

89- نص المقامة.مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. أحمد مختار العبادي. (ص57-66). ص57.

90- فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب .محمد مسعود جيران. ص519.

التي دارت رحاها بين العدوتين منذ الحكم الأموي، فلم تكن مالقة إلا رمزا للأندلس، ولم تكن سلا إلا رمزا للعدوة المغربية. "ولعل ما يؤيد هذا أن ابن الخطيب كان ينال باستمرار من سلا وأهلها في شعره ونثره، ونحسب أن مالقة و سلا في مفاضلة ابن الخطيب ليست سوى رمزين للأندلس والعدوة"⁹¹.

وقد أقام ابن الخطيب مفاخرته بين البلدين على ثمانية أشياء هي: "المنعة والصنعة والبقعة والشُّنعة"⁹² والمساكن والحضارة والعمارة والاثارة(الفلاحة) والنضارة"⁹³، معلنا منذ بداية مقامته انتصاره إلى مالقة قبل حتى إجراء المفاضلة: "مالقة أرفع قدرا وأشهر ذكرا، وأجل شأنًا وأعز مكانا، وأكرم ناسا و أبعد التماسا من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض أو تصاول، أو تراجع أو تغاول، ولكني سأنتهي إلى غرضك"⁹⁴. ويمضي ابن الخطيب في مفاضلته قائلا: "فأما المنعة فلمالقة حرسها الله فضل الارتفاع ومزية الامتناع...وسلا على ما علمت سور حقير...والماء بها معدوم وليس له جب معلوم...ومنذ سقطت دعوى المنعة، فلنرجع إلى قسم الصنعة فنقول: مالقة حرسها الله طراز الديباج المذهب... وأي صناعة في سلا يقصد إليها أو يعول عليها أو يطرف بها قطر بعيد أو يتجمل بها في عيد...ومنذ سقطت مزية الصنعة فلنرجع إلى مزية البقعة فنقول: خص الله مالقة بما افترق في سواها...وسلا بلد الرمال... بطيحة لا تنجب السنابل"⁹⁵. ويمضي ابن الخطيب في مفاضلته تبعا لباقي العناصر الثمانية إلى أن ينتهي إلى نهاية مقامته: "ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب...ومالقة قطر من الأقطار...وسلا بادية بكل اعتبار.وهنا نُلقى عصا التسيار، ونغض من عنان الإكثار، وحسبنا الله ونعم الوكيل"⁹⁶.

⁹¹ - محمد بنشريفية . من منافرات العدوتين: نص جديد. مرجع سابق. ص13.

⁹² - الشُّنعة: الشهرة و السمعة.

⁹³ - نص المقامة.مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب و الأندلس. مصدر سابق. ص57.

⁹⁴ - نص المقامة. نفس المصدر. ص57.

⁹⁵ - نص المقامة. نفسه. ص57-58-59-60.

⁹⁶ - نص المقامة. نفسه.ص66.

وقد عاب العديد من الباحثين على ابن الخطيب جوده لفضل سلا عليه، ذلك أنه " في سلا سكن المؤلف سنوات اغترابه الأولى، والغريب أنه تتكر لهذه العشرة بقسوة في هذه المقامة، وأبدى جهالة تجاهها، فقد تعرضت مواضعها إلى نقد لاذع، بينما لاقت مالقة سيلا من المديح، وأسبغ عليها كيلا من الصفات الحسنة... ما يهيمه هو تقديم صورة زاهية عن إحدى المدن الأندلسية وإظهار تميزها عن سلا المرفأ الصغير الذي بدا وكأنه ضحية يدفع ثمن اغتراب المؤلف في المغرب، فانتقم من المدينة التي آوته ونصرته" ⁹⁷، "فقد أظهر في هذه المقامة جحودا ونكرانا لهذه المدينة التي آوته طريدا، بعد أن ضيق عليه في وطنه، فقد أفاض عليها من الكلام ما يصل إلى التجريح والإهانة" ⁹⁸. وقد أحصى محمد بنشريفية - في إطار تقديمه لمقامة "طرفة الظريف" للملزوزي - العديد من صور المنافرات والمراشقات بين العدوتين المغربية والأندلسية، والتي حملت في بعض نماذجها ونصوصها ملامح من الكراهية - كما يصفها الحجاري في المسهب - "وأهل العدو بالطبع يكرهون أهل الأندلس" ⁹⁹، أو النفرة على رأي ابن الخطيب، أو العداوة والبغضاء والحسد في رأي بعض المؤرخين، ذلك أنه " لما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا وبالعكس" ¹⁰⁰. وقد عبر بنشريفية صراحة عن موقفه من عداوة العدوتين مقررا أن " الأندلسيين كانوا على العموم هم البادئين بالتجني على أهل العدو الذين كان لهم الحظ الأوفر في فتح الأندلس و الإسهام في بناء حضارتها أولا، ثم الذود عن حماها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانيا. لقد كان ما وصل إليه الأندلسيون من حضارة وعمران في عهد الأمويين من بواعث تبجحهم على أهل العدو ثم زاد شعورهم بالاستعلاء حينما أتيح لهم بسط نفوذهم على المغرب في عهد عبد

⁹⁷-عبد العزيز بومهرة. (المقامة في الأدب المغربي و الأندلسي - القرن الثامن للهجرة نموذجا). (مجلة التواصل في اللغات و الثقافة و الآداب) . جامعة باجي مختار. عنابة . العدد 31. السنة: 2012. (21-32) .ص25.

⁹⁸- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. عبد الحليم حسين الهروط. مرجع سابق.ص95.

⁹⁹- من منافرات العدوتين. مرجع سابق.ص7.

والحجاري : هو أبو محمد بن ابراهيم الكندي الحجاري (ت854ه). مؤرخ وأديب أندلسي ومؤلف كتاب: "المسهب في غرائب المغرب".

¹⁰⁰- نفس المرجع .ص8.

الرحمان الناصر ومن جاء بعده "101 لقد جعل ابن الخطيب مالقة تتفوق على سلا على كل المستويات وهو يرى نفسه موضوعيا غير متحيز، قائلا: " فهذه حجج لا تدفع ودلائل إنكارها لا ينفع"102. فالملاحظ أن ابن الخطيب لم يتجرد من عصبية رغم حبه لبلاد المغرب ولمدينة سلا التي لجأ إليها في أوقات محنته، فقد دفعته للتحيز إلى المدينة الغرناطية مالقة فجعلها المفضلة على الدوام تكريسا منه لروح المنافسة والملاحاة التقليدية التي كانت سائدة بين الأندلسيين والمغاربة وكان لسان حاله يقول :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزةٌ وأهلي وإن ضنُّوا عليّ كرامٌ

ولربما ترجم حبه - المغلف بالشك - لاحقا لمدينة سلا من خلال مقامته " معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار " التي ذكر فيها المكان الأندلسي والمكان المغربي على عهده في القرن الثامن الهجري مركزا اهتمامه على ثلاثة محاور : الجغرافي- الإنساني- الاجتماعي. فقد أقام مقامته على مجلسين، خص الأول بالمدن الأندلسية ، وخص الثاني بالمدن المغربية : بادس، سبتة، طنجة، قصر كتامة، أصيلا، سلا ،أنفا، ازمور، تيط، آسفي، مراكش، أغمات ، مكناسة ، فاس، آقرسلوين، سجلماسة، تازة، غساسة، تلمسان. فإذا ما استحضرننا ما وصف به مدينة سلا في مقامته هاته ،سنجد أنه أفاض عليها كيلا من عبارات المدح لما ذكر: " قلت: مدينة سلا. قال :العقيلة المفضلة والبطيحة المخضلة... ذات الوسامة والنضارة والجامعة بين البداوة والحضارة "103 ، كما وصف مقامه فيها بقوله: " فلا أعد من عمري إلا أيام مقامي فيها " 104 .

101- من منافرات العدوتين. مرجع سابق. ص8.

102- نص المقامة. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب. أحمد مختار العبادي. مرجع سابق. ص66.

103- نفس المرجع. ص104.

فقد أنصف سلا خلافا لمقامة مفاخرات مالقة وسلا : " قلت فمدينة سلا، قال العقيلة المفضلة ، والبطيحة المخضلة ، والقاعدة الموصلة، والسورة المفضلة ذات الوسامة والنضارة ، والجامعة بين البداوة و الحضارة... والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الأجفان ، والقطر الأمن عند الرجفان، والعصير العظيم الشان، والأسواق الممتازة حتى برقيق الحبشان. اكتنفها المسرح والخصب الذي لا يبرح، والبحر الذي يأسو ويعرج، وشقها الوادي يتمم محاسنها ويشرح، وقابلها الرباط الذي ظهر به من المنصور الاعتباط ، حيث القصة والسباط ووقع منه بنظرة الاعتباط...". ص104-105 .

104- أعمال الأعلام فيمن بويح قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. لسان الدين بن الخطيب. ص313.

وما هذا التناقض ما بين المقامتين (مفاخرات مالقة وسلا - معيار الاختيار) إلا باب من أبواب التملق والتزلف الصادرة عن ابن الخطيب رغبة في الحظوة لدى سلاطين المغرب المرينيين، "مقامة معيار الاختيار كتبها أثناء تواجده في المغرب تحت كنف سلاطينها حين أزعج عن وطنه في المرة الأولى ، أما ما وصف به إقامته فيها فكانت أثناء محنته الثانية ، حين استعاض عن وطنه بالفراش الوثير والحياة الآمنة في المغرب" ¹⁰⁵.

إن عدم تجرد ابن الخطيب من عصبية الإقليمية وهو يعلن في بداية مقامته (مفاخرات مالقة وسلا) أن لا وجه أصلا للمقارنة بين مالقة وسلا "مالقة أرفع قدرا...وأبعد التماسا من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض..." ¹⁰⁶ ، يعطينا ذلك فكرة عن تحامله المجاني على سلا ، فنقول مع القائلين " إن المقامة في الحقيقة ليست مفاضلة ، وإنما هي تعظيم مبالغ فيه لمالقة وحملة تخلو من الذوق على سلا ، وهي مدينة طالما أوت ابن الخطيب وأحسنت إليه ولكن هكذا كان شأن الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب - وغير المغرب من البلاد - وخاصة في العصور المتأخرة، فهم يزهون عليها جميعا ولا يرون أن في الدنيا كلها ما يعدل بلادهم ، وهو مذهب مشكور لو أن الأندلسيين أيدهم بالتفاني وبذل الأرواح" ¹⁰⁷. فابن الخطيب قرر قبل الشروع في المفاضلة أن يميل بالميزان ناحية بلدة مالقة ، وهو ما يعلن منذ مطلع المقامة بالتقليل من شأن سلا، والنتيجة أن المفاضلة غير سليمة من أول الأمر، ذلك أن المقارنة بين الجيد جدا والسيء جدا لا تستقيم ولا تصح كما لا تجوز موضوعيا، ولذلك جاء كلامه عاما تشويه المبالغات لكن الطريف فيه أنه بعد أن وجه إلى سلا كل إساءة ونسب إليها كل قبيح نجده يختتم مقامته ببعض الترضية لها " ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب" ¹⁰⁸. ويمكن أن نحصر المظاهر التي تمت فيها المفاضلة بين المدينتين، أو بين البلدين الأندلس والمغرب في مستويين أو فضاءين تجليا وتمظهرا في المقامة :

¹⁰⁵- النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 95.

¹⁰⁶- نص المقامة. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 57.

¹⁰⁷- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس. حسين مؤنس. ص 576.

¹⁰⁸- نص المقامة. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص 66.

أ-المكان/الطبيعة: إذ تحدث ابن الخطيب في هذا المستوى عن مقدرات البلدين الطبيعية من مناخ وسهول وجبال وأودية ورمال ومياه، وعلى الرغم من أن المدينتين تحتلان مواقع ساحلية، بل تمثلان ميناءين مشهورين في الأندلس والمغرب، فإن الكاتب ركز كثيرا على ما بينهما من فروق طبيعية تعلي في نظره كعب مالقة وتحط من قيمة مدينة سلا، نقرأ ذلك في جزء من المقامة: "خص الله مالقة بما افترق في سواها، ونشر بها المحاسن التي طواها..."¹⁰⁹، وتجلو المقامة طبيعة سلا من خلال منظور كاتبها عجفاء جرداء، لا تشتمل على شيء مما يسر النفس فهي " بلد الرمال، ومراعي الجمال، بطيحة لا تتجب السنابل، وإن عرفت المطر الوابل جرد الخارج، وبحرها مكفوف بالقتب والمدارج، وواديها ملح المذاق...عديمة الفاكهة والمنتزهات النابهة"¹¹⁰، فابن الخطيب يعن في سلب المكان المغربي من كل جمالية ممكنة " بلد منخرق منقطع مفترق، ثلته مقبرة خالية وثلثه خرب بالية، وبعضه أخصاص وأقفاص، ومعاطن وقلاص، وأوارى بقر تحلب، ومعاطن سائمة تجلب"¹¹¹، خالصا إلى سلب مزية أو معيار النضارة من سلا بقوله: " وسلا بلد عديم الظلال أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع، والخصب المريع، صار هشيمًا، و أضحى ماؤها حميما وانقلب الفصل عذابا أليما"¹¹².

ب-المكان /الحضارة: جاء حديثه عن هذا المستوى موزعا مفرقا في العديد من مواضع المقامة كما في المستوى الطبيعي، ويتضمن هذا المستوى العديد من المظاهر الحضارية في القرن الثامن الهجري التي عبر عنها ابن الخطيب بالإمارة والتجارة والفلاحة والعمارة. إذ أكد كثيرا على هذا المستوى وخص به مالقة أو على نحو أصح الأندلس، وأضعف شأنه في سلا أو بلاد المغرب، فقد ذكر أنه لم ير شيئا من معالم الحضارة والنعيم في سلا لما عرفت به من " أحوال رقيقة،

¹⁰⁹- نص المقامة. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص60.

¹¹⁰- نفسه. ص60.

¹¹¹- نفسه. ص62.

¹¹²- نفسه. ص63.

وثياب في غالب الأمر خليعة "113، بل يغرب أكثر حينما ينتقد سجية أهلها البربرية قائلاً: " وذم منحة ونفقات تحصرها من التقدير خطة ،ومساجد فقيرة،وقيسارية حقيرة،وزي مجلوب ،وحلي غير معروف ولا منسوب ، تملأ مسجدها الفد العدد والأكسية ،وتعدم فيها أو تقل الطيالس والأردية ، وتكثر البلغات، وتندر النعال ،وتشهد بالسجية البربرية الأصوات واللغات والأقوال والأفعال" 114.

إن هذه المقامة البلدانية في المفاخرة بين مالقة (الأندلس وطن ابن الخطيب الأصلي)، وبين سلا (المغرب المهاجر إليه ساعة محنه) قد أكدت على مظهرين :

- 1- على ذلك الصراع والملاحاة بين العدوتين والتي استمرت فيما يبدو حتى القرن الثامن الهجري، أو إن صح التعبير حتى سقوط غرناطة بعد ذلك بقرن من الزمان.
- 2- انطلق ابن الخطيب في مقامته من عنصرية إقليمية وأرستقراطية جوفاء، ومن عقدة نفسية وهو المنفي بالمغرب يرى أمجاده الخاصة تتبخر أمام عينيه، وتزداد اضمحلالاً أمام تجاهل أعيان سلا له وعدم إحلاله المكانة اللائقة به، مما أغار صدره على المغاربة فنعتهم بالبرابرة مجرداً إياهم من صفتي التحضر والحضارة ، معيباً عليهم معيشتهم اليومي ونمط لباسهم كما أسلفنا. فمقامته تجاوزت ما رسمت له من أهداف تهم التعريف بالمكان المغربي الجغرافي الطبيعي وفق المنظور الأندلسي له ، فكان أن لامست المقامة حتى الإنسان المغربي ونالت منه كما نالت من المكان أو البلاد المغربية. وقد آثرت أن أقف بمقامة (مفاخرات مالقة وسلا) عند مقاربة المكان المغربي مادامت تحفل به بحكم طبيعتها (مقامة بلدانية)، دون أتعداه إلى مكون الإنسان المغربي مادام السرقسطي وهو من أعلام القرن الخامس الهجري قد أمعن في استصغاره والتقليل من شأنه في مقامته البربرية، متطاولاً على المغاربة منحازاً بالكامل إلى حب مسقط رأسه (المكان الأندلسي).

113- نص المقامة. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب. مرجع سابق. ص.62.

114- نفسه. ص.62.

ومن الطريف حقا أنه باكتمال صورة المغرب المشوهة لدى الأندلسيين من خلال دراسة المكان و الإنسان المغربيين كما صورتها المقامات الأندلسية ، أن نجد ابن الخطيب يتراجع عن موقفه العدائي تجاه المغرب و المغاربة فينصفها - كما أسلفنا - في مقامة "معيار الاختيار" والتي كتبها بعد تاريخ كتابته لمقامة " مفاخرات مالقة وسلا " فأ نصف مدينة سلا المغربية التي آوته وأثنى عليها وعلى أهلها، وكل ذلك تزلفا و تملقا للحكام المرينيين .كل ذلك أيضا و المغرب المتسامح يعبر غير ما مرة منذ عهد المرابطين والموحدين والمرينيين إلى الأندلس لنجدتها من غزو النصارى المسيحيين (إسبانيا وحلفائها). إنها مفارقة تستحق فعلا التأمل تاريخيا وأخلاقيا وإنسانيا...

● المطلب الثاني: المغرب / الإنسان :

"المقامة البربرية للسرقسطي أنموذجاً -ق 5هـ"

تحدد المقامة البربرية بكونها مشرقية الأصل، أندلسية المؤلف، مغربية الموضوع. وهو ما يعني التفاعل، أي التأثير والتأثير، ذلك أن العلاقة بين المؤلف والشكل علاقة اتباع، والعلاقة بين الشكل والموضوع علاقة ابتداء. فالخصوصية في الموضوع تكمن في جدته من حيث كونه غير مسبوق، وفي واقعيته (محلّيته) إذ يعبر عن طبيعة العلاقة التي أطرت المغرب والأندلس خلال الفترة ما بين ق 5 هـ / 11 م و 8 هـ / 14 م. ذلك أن الأندلسيين عادة ما انتصروا لبلادهم على حساب المغرب، ومن ذلك - كما ذكرنا - انتصار ابن الخطيب في مقامته البلدانية إلى مالقة على حساب سلا التي طالته عناية وكرم أهلها فترة منفاها بها لكنه تطاول عليها. فالتعصب ضد المغاربة (البربر) صفة لم يسلم منها حتى كبار الأدباء الأندلسيين، فإليهم يردون أسباب الخروج من الفردوس المفقود. فالمقامة البربرية تعد مدخلاً أساسياً لمعالجة مسألة الفتنة البربرية، وذلك بوصفها خلفية تحكمت في إنشاء السرقسطي لها، فما تعصبه العنصري ضد البربر سوى صورة مصغرة لتعصب الأندلسيين خاصتهم وعامتهم ضد المغاربة.

1- صورة الإنسان المغربي في المقامة الأندلسية:

استهل السرقسطي¹¹⁵ مقامته¹¹⁶ بقوله: " قال السائب بن تمام ، ما زلت أجول في المشارق

¹¹⁵- " هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي المازني القرطبي السرقسطي المعروف بالاشتركوني أو الاشتركوني، ولد في سرقسطة ثم كان مسكنه في قرطبة وسبنة سنة 509هـ. لحقته زمانة سنة 536هـ توفي منها". (تاريخ الأدب العربي. عمر فروخ. ج 5. ص 237). وينظر في ترجمته: (الصلة. ابن بشكوال. ج 3. ص 853). و قد سبقت ترجمته فيما تقدم من هذه الدراسة في معرض حديثنا عن المقاميين الأندلسيين المتأثرين بالحريري.¹¹⁶ - ترتيبها في مقاماته اللزومية بالأرقام هو 41. المقامات اللزومية. تحقيق: حسن الوراكلي. ص 385 - 389.

والمغرب، وأغرى بالمساري والمسارب، حتى اشتكتني الذرى والغوارب، وملتني الطوالع والغوارب، وحتى قذفتني الأيام إلى بلاد طنجة " واختتمها بقصيدة شعرية، قائلا: " فلو يدع على ما هناك من مال، وخرج بي إلى تلك الرمال ... فمضى وقد زودني المخافة، وأودعني من قوله حكمة أو سخافة، وهو يقول (من السريع) ما مطلعته:

كَمْ لَكَ يَا سَائِبٌ مِنْ وَقْفَةٍ يُثْنِيكَ فِيهَا الدَّهْرُ عَمَّا تَرِيدُ
وما آخره:

لَمْ يُبْقِ مِنْهُ الدَّهْرُ إِلَّا شَفَى¹¹⁷ أَوْ مِثْلَمَا قَفَّ¹¹⁸ إِهَانُ الْجَرِيدِ¹¹⁹

يحيل عنوان المقامة على جنسين أحدهما جنس أدبي مشرقي الأصل، والآخر جنس بشري موطنه شمال إفريقيا تعزى إلى علاقة الأندلسيين به بعض أسباب الخروج من الجنة (سقوط الأندلس)، ولذلك كان من الضروري أن نتوسل طبيعة هذه العلاقة من خلال المؤلف نفسه ما دام أندلسيا. فمؤلف المقامة يمثل الأندلس، وشكلها يمثل المشرق، وأما موضوعها فيمثل المغرب. إذ العلاقة بين المؤلف والشكل علاقة اتباع، والعلاقة بين الشكل والموضوع علاقة ابتداء. وتعبير آخر، تدل العلاقة الأولى على المعارضة كما على التحدي، وتدل الثانية على الجدة. فقد سعى السرقسطي من وراء تأليفه للاحتفاء بهذا الجنس الأدبي الجديد الذي وفد على الأندلس، معارضا إياه مبرزاً قدرة أدباء الأندلس على النسج على غرار أدباء المشرق والتفوق عليهم من جهة، وكذا قدرته على التجديد وطرق موضوع جديد لم يسبق إليه البديع أو الحريري.

117 - الشفى: بقية الهلال، وبقية البصر، وبقية النهار وما شابه ذلك.

118 - قف: يبس.

119 - الجريد: جمع جريدة، وهي السعفة الطويلة الرطبة. وهو يعني السائب.

أ- القضية المحورية:

إن أول ما يلفت انتباهنا ونحن نمعن النظر في مضمون المقامة البربرية أنها تنسم بالواقعية، وذلك من حيث ارتباطها بما هو محلي، وليس من حيث تسمية المغاربة بالبربر من باب الاستخفاف والاستهزاء. وبمعنى آخر، ارتباطها الوثيق بالواقع الاجتماعي، فهي صورة لتلك الكراهية الأندلسية للمغرب. فالقضية المحورية التي تعالجها هي التهمك والسخرية من المغاربة؛ فقد قال المؤلف في مطلع مقامته التي استغنى فيها عن الراوي: " فأقمت بين أقوام كالأنعام أو كالنعام، وأناس كالسباع أو الضباع، لا أفته مقولهم، ولا يوافق معقولي قولهم ... كأني أصاحب البهائم، أو أسيم السوائم¹²⁰، غير أنها لا تنقاد ولا تسالم، ولا تعاقل ولا تحالم..."¹²¹. "فهذه الصورة للبربر ترسبت في خلد الأندلسيين منذ خراب قرطبة إلى عصر السرقسطي وبعده، ونجد أصداءها في مواقف عدد من أدباء الأندلس كابن حزم وابن حيان وابن بسام والشقندي وغيرهم"¹²². فالسرقسطي حينما صدر عن هذه النزعة العنصرية، إنما صدر عن تصور عام أطر علاقة الأندلسيين بالمغاربة، وهي علاقة قوامها التعالي والإقصاء والتهميش والنفور كما

¹²⁰ - أسيم السوائم: أخرج الماشية من المرعى.

¹²¹ - المقامات اللزومية. ص 385.

¹²² - ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي، من ق 4 إلى 6 هـ. ج 2. سليم زيدان. ص 791.

فالملاحظ أن مؤلفات: ابن حيان، وابن بسام، وابن عذاري، وابن حزم، وابن خلكان، وغيرهم، كلها تحمل تحاملا صريحا على البربر يتعارض مع منهجهم العلمي واشتغالهم بالضبط والتحري في نقل الأخبار.

تدلنا على ذلك الأدبيات التي تعنى بتاريخ الأندلس¹²³. وقد كان السرقسطي موفقا في مقامته هاته في تكريس تلك النزعة الدونية، وهو يصور بعض مظاهر الحياة الاجتماعية للمغاربة من عادات وتقاليد وأساليب العيش اليومية من مأكّل ومشرب، إذ قال: " قدموا إلينا من الشيزى¹²⁴ جفانا كالجوابي¹²⁵، عليها ثرائد¹²⁶ كالهضاب أو الروابي ... وجعلنا نأكلها خضما¹²⁷ وقضما ... والودك من على معاصمهم يسيل، ثم أتوا بماء قليب¹²⁸، وحازر¹²⁹ من اللبن وحليب ... لا أدري ما المراد...إلى أن قال لي أبو حبيب: هذه تحفة القوم، و قرى الضيف في الأمس واليوم، فأبد إليهم قبولا... لا تخالفني طرفة عين، حتى... نترك الأثر للعين ... لولا أنني أصون دمك وأخشى عدمك، لتركتك وسفاك الدماء، و هتاك النماء"¹³⁰. فإكرام المغاربة لهما، وإعلاؤهم من شأنهما، لم يحولا دون جحودهما للعرفان بالجميل. بل إن البطل - وهو المكدي الذي يتوسل رزقه بالحيلة عادة - استباح لنفسه سرقة مالهم وهم نيام. قال: " فلوى يده على ما هناك من مال ... وقال: لا عيبا ولا أفنا، هنيئا لك البقاء...".

¹²³ - " لعل الوقوف عند أغلب ما ورد عند الأندلسيين عن البربر يكاد يعطي الانطباع بالتحامل والهجوم والكراهية الشديدة. وقد شمل هذا الموقف أغلب أنواع المصادر المكتوبة خلال ق 5 هـ/11 م و ما بعده، وبعد اضطرابات هذا القرن - والتي كان البربر أبطالها - خلفوا لدى الأندلسيين جروحا لا تكاد تندمل، ثم أعقب هذه الفترة دخول الأندلس تحت حكم البربر المرابطين والموحدين، وهي مهانة بالنسبة لهم، ما داموا ينظرون إلى أنفسهم نظرة تفوق عليهم، وكان عزائهم الوحيد هو التعبير عن حقدهم وكراهيتهم واحتقارهم لهم من خلال ما يؤلفونه". (البربر في الأندلس. محمد حقي. ص 146).

¹²⁴- الشيزى: شجر تعمل منه القصاع والجفان، وقيل: هو شجر الجوز.

¹²⁵- الجوابي: جمع جوب وهو الكانون.

¹²⁶- ثرائد: هو جمع ثريد، وهو طعام من خبز يفت ويبل بالمرق.

¹²⁷- الخضم: الأكل عامة، وقيل: ملء الفم بالمأكل.

¹²⁸- القليب: البئر ما كانت.

¹²⁹- الحزر من اللبن: فوق الحامض.

¹³⁰- تؤكد أمهات المصادر والمراجع خلافا لما ذهب إليه السرقسطي أنه " من الصفات الحسنة التي وصف بها البربر: الكرم ورفض البخل بحيث مدحوا باستضافة كل من يمر بهم، وتفاخرهم بتقديم الطعام، والفروسية، والصبر، والسماحة، وعزة الجوار، وحماية النزيل، والوفاء بالعهد. ومدحوا بجمال الأبدان وحسن الصورة". (البربر في الأندلس. مرجع سابق. ص 144).

وقد ختم مقامته بشعر على لسان بطله، كما توسطها به، وهو شعر غير راق مما جاء منه :

لا تَصْحَبِ الأَرْدَى فتردى به وأطو بريدا¹³¹ دونه في بريد¹³²
وما أبالي من رِعَاعِ الوَرَى إذا رَمُونِي بِجِفَانِ الثَّرِيدِ

إن النظرة المرضية الدونية التي طبعت علاقة الأندلس بالمغرب شكلت محور المقامة نثرها وشعرها ، لم تحد منها طيبوبة الاحتفاء بالضيف الأندلسي و تكريمه و الثقة فيه ، وإنما قوبلت الثقة بالخيانة والسرقة. فإذا كان المكدي من طبعه التسول واستدرار العطف والشفقة للحصول على المعونة المادية ، فإنه في مقام كمقام البربر يبيح لنفسه استباحة مالهم . ليس لأنهم كانوا سيمتنعون عن منحه إياه ، لأن مظاهر كرمهم تبرز أنهم كانوا حتما فاعلين ، لكنه ترفع وتكبر أن يطلبه ممن يعتبرهم دونه شأنًا و منزلة و جنسا . فهو صاحب المقام الراقى ، وهم أصحاب المقام السافل المنحط ، وهو ما يدل عليه البيتان الشعريان السابقان . فهم مجرد محطة لا تستحق عنده سوى الطي و النسيان ، " لأن موقفه الفردي هذا نابع من موقف جمعي سابق قوامه الازدراء لجنس البربر، و الحقد عليهم ،

¹³¹-البريد: المرحلة والمسافة.

¹³²-البريد: الرسول.

وعدم الوثوق بجانبهم" ¹³³، وكان الداخل إلى ديارهم مفقود والخارج منها مولود .

ب-المعالجة الفنية:

- **الحدث:** تقوم هذه المقامة على حدث واحد هو قيام السرقسطي برحلة إلى بلاد طنجة أي المغرب، ومصادفته هناك "لأبي حبيب" بطل مقاماته الذي خلصه من قبضة البربر، إذ اعتبر إكرامهم للضيف ورطة، وهرب بعد أن سرق مالهم. وهذا الحدث يتكون من بداية نستشعرها منذ اللحظات الأولى التي عقد فيها السرقسطي مقارنة بين بلاد طنجة (المغرب) وبلاد الأندلس، بين الجحيم والجنة، قبل أن يكتشف وجود بطله أبا حبيب بين البربر

¹³³ يذكر محمد حقي أن "الصورة التي رسمتها مصادر العصر الوسيط للبربري صورة سلبية ولم تكن إيجابية إلا في حالات نادرة جدا، فقد هوجم في تدينه وعاداته وإمكانياته العقلية، وجرّد من كل قدرة على الإبداع و الخلق". البربر في الأندلس . ص 139.

فقد عزف الأندلسيون عن أخذ أي شيء عنهم أو تقليدهم، وهو ما قلص من دور البربر في صنع الحضارة الأندلسية، وعمق أيضا شعورهم بالدونية وسعيهم للأخذ عن النموذج العربي، إذ يذكر أحد الباحثين أنهم كانوا يحمرّون عند ذكر نسبهم خجلا، ويحاولون إخفاءه والالتحاق بأنساب عربية. ويذكر لنا التاريخ أن ابن رشد لما نعت يعقوب المنصور المهدي ب "ملك البربر" عاقبه الخليفة بأن شتت رجاله و نفاه إلى مراكش. " ولو قال ابن رشد " ملك المغرب" عوض " ملك البربر" لكان في ذلك ضرب من الإطراء، ولكن ابن رشد جرى على سجيته... ولا يخفى أن علاقة الأندلسيين بالمغاربة لم تكن حسنة دائما إلا في أوائل الفترة التي عبر فيها القوم إلى الجزيرة الخضراء لنجدة أهل الأندلس... وكان الانغماس في حمأة الترف والحياة الناعمة الماجنة قد أضعف الأندلسيين فتهاونوا في الجهاد وشاع فيهم الشقاق... أما المرابطون ومن بعدهم الموحدون من المغاربة، فهم جنود أشداء ألفوا شطف العيش وخشونة الحياة. هذا، وللملك المرابطي يوسف بن تاشفين كلمة جميلة قوية صور فيها قومه أو جنوده للأندلسيين فقال: " لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما هم أحدهم فرسا يروضه ويستقرهه، أو سلاحا يستجدهه، أو صريخ يلبي دعوته" (أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية. محمد رضا الشيببي. ص73).

"يراطن¹³⁴ القوم رطانة ويوسعهم فهما وفطانة..."، والذي أعلمه أنه في ورطة، فإما أن يقبلا استضافة البربر لهما أو أنهما سيقتلان لا محالة¹³⁵، قال: "وما هو إلا الإيجاب أو السيف"، واصفا إياهم بـ "سفاك الدماء وهتاك النماء"، وهو ما بعث الخوف في قلب المؤلف الذي وجدناه مشاركاً في بناء الأحداث، متجاوزاً مع بطله في مداهنة البربر وتصيد الفرصة للهرب والنجاة بحياتيهما، وهو ما تحيل عليه نهاية المقامة. وهما الشخصيتان المحوريتان في المقامة، والصراع أو الصدام المتوقع بين أبي حبيب والبربر هو الذي أنتج وولد السرد. فبعد لقاء السرقسطي ببطل مقامته وإصرار البربر على دعوتها لتناول الطعام ترحيباً بهما وتكريماً لهما - وهي دعوة تصورها ورطة¹³⁶ - كان لا بد من قبول الدعوة ومشاركتهم الطعام، ما عدا الخمر (شراب يدعو البربر الأنزير) ليتمكنوا من الهرب والبربر نيام، ويظفر البطل بالمال بطريقة غير شرعية ولا شريفة. هكذا سارت الأحداث أو الوقائع نحو الذروة بشكل منطقي، وتتسلسل زمني يتسق وطبيعة الحكمة القصصية المقنعة والمثيرة والمشوقة في نفس الآن، وذلك على نحو ما عهدناه في السرديات القديمة. وجاءت النهاية منطقية ودون افتعال، نابعة من صميم أحداث المقامة ووقائعها دون أن تفرض عليها، ما يعني أنها واقعية وطبيعية من وجهة نظر بطل المقامة

¹³⁴- راطن القوم: كلمهم بالرتانة وهي الكلام بالأعجية.

¹³⁵ - أورد محمد حقي في كتابه السابق حديثاً نبوياً - مشكوكاً في صحته - عن ابن الفقيه في كتابه (مختصر كتاب البلدان). قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نساء البربر خير من رجالهم بعث إليهم نبي فقتلوه، فتولت النساء دفنه، و الحدّة عشر أجزاء وتسعة منها في البربر و جزء في الناس". و أهم ما نستشفه من صفات البربر: كفرهم برسالة نبيهم وقتلهم له - أكلهم لحوم الأدميين - سيطرة الطيش عليهم وعلى عقولهم دون سائر الناس- التهور الشديد. ويذكر ياقوت الحموي أن: "البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم لداعية الضلالة، وأصغاهم لنمق الجهالة، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفاك الدماء قط". (ياقوت الحموي. معجم البلدان. ج.1 ص.379).

¹³⁶- قال: "هل من هذه النشبة خلاص؟ ... دعني أطرب القوم بشكرهم، وأستعيز من مكرهم". المقامات اللزومية. ص 386.

وأصحاب الكدية، فالهدف عنده هو الحصول على المال والطعام بصرف النظر عن طبيعة الوسيلة. وهي ها هنا وسيلة غير شرعية قامت على السرقة. وأما أن النهاية طبيعية فلأنه كما أسلفنا، درج الأندلسيون على النظر للبربر بمنظور حيواني دوني يجردهم من العقل، ويصبع عليهم صفات العنف والتوحش¹³⁷. وهذا التحامل على العنصر البربري ليس مجانيا، وإنما يجد جذوره ضاربة في التاريخ، سقتها وغذتها أحداث تمثلت في خلع ملوك الطوائف على يد يوسف بن تاشفين، والاستيلاء على الأندلس وإخضاع أهلها لصرامته، كما أن المؤرخين يحملون العنصر البربري مسؤولية خراب قرطبة ومن تجليات ذلك في المقامة قول الراوي مخاطبا المكدي "أحتى في البرابر الدهم وبين البهائم البهم"¹³⁸. ففي المقامة محاكمة للآخر المغربي وإقصاء له وتحقير، علما أن الفتح الإسلامي وصل إلى المغاربة قبل أن يصل إلى الأندلسيين، بل إن تاريخنا المغربي يشهد على أن العديد من فقهائنا وأدبائنا ساهموا في بناء حضارة وثقافة الأندلس. فالمقامة تعبير صارخ وصريح عن الضمير الجمعي الأندلسي من الجنس البربري، المترسخ فيه كمغتصب (خلع ملوك الطوائف)، ولذلك تنتهي المقامة باغتصاب مالهم. فالمقامة شهادة تاريخية عن ذلك التعصب تجاه المغرب وأهله.

¹³⁷-المصادر الوسيطية والأندلسية ترسم صورة قائمة للبربري، أبرز ملامحها: ضعف التدين - الطيش والعجلة وسرعة القتل - الحقد والحسد - الجهل وضعف العقل - أكل لحوم البشر - تعاطي اللواط واستضافة الناس بالأبناء الذكور. " (البربر في الأندلس. مرجع سابق، ص142).

¹³⁸-التعصب وكان يعرف قديما بالشعوبية وهو على عدة مظاهر: التعصب العنصري- التعصب الديني- التعصب المركب (لأنه قد يشمل العرق واللغة والدين) - التعصب اللغوي.

- **الشخصيات** : محدودة لا تزيد عن ثلاث وهو الشأن في فن المقامة عادة، إذ وجدنا أنفسنا في هذه المقامة إزاء السائب بن تمام بطلا وراوية في نفس الآن، وشخصية المكدي وهو أبو حبيب، ثم الجمهور من البربر سكان المكان. وقد نجح السرقسطي في رسم شخصية بطله ، فهو المتوجس الخائف طوال الوقت، الضائع المتورط المستنكر لمشاهداته في بلاد المغرب، التائق إلى بلاد الأندلس. كما ونجح وفي رسم شخصية أبي حبيب المكدي المحتال المدهن المقتنص لفرصة الحصول على المال، وفي رسم الجمهور البربري في صورة همجية مترسخة في الضمير الأندلسي، يغدو فيها الأكل افتراسا، والرقص ركلا، والإنسان حيوانا¹³⁹.

- **الراوي** : هو رحالة كالراوي المشرقي لكنه بدون غاية، فالمشرقي يرحل في طلب العلم عادة، كما هو حال عيسى بن هشام عند البديع أو أبو زيد السروجي عند الحريري. أما الأندلسي فطريد تائه شريد لا يلوي على مكان محدد، حامل لمشاعر القلق والتيه والغربة تجاه ما كان يتهدده من حروب الاسترداد النصراني. ولعل هذا الطرح يجد حجته ومشروعيته إذا علمنا أن مدينة المؤلف وهي سرقسطة كانت قد سقطت في أيدي النصارى سنة 512هـ. وقد تغاضى السرقسطي عن ذكر الراوي في هذه المقامة في خروج غير مألوف منه عن تقاليد المقامة المشرقية ، كما وأبدع في تصوير ذلك الإحساس بالغربة في غير ما مقام من المقامة لا يسعنا المجال لاستحضار تلويناته جملة وتفصيلا.

- **المكدي** : وهو مزدوج اللغة "يبربر ويعجم ويعرب عنهم ويترجم"، فهو يوظف البربرية توظيف المكدي المشرقي للعربية للتأثير في جمهوره. فقد استغل الازدواج اللغوي لإجراء حيلته على الجمهور، وهو في هذه المقامة وفي جل مقامات السرقسطي يتصف بالغدر والاعتصاب. ففي حين نجد المكدي المشرقي مرتبطا بجمهوره متوددا إليه للظفر بماله عن طيب خاطر بعد جهد قد يقل أو يكثر لاستدراار عطفه عليه، نجد العلاقة التي تربط المكدي الأندلسي بجمهوره قائمة على التوتر والغدر.

¹³⁹-قال: فخرجنا إلى رملة وعثاء ، وسهلة شعطاء ، فركلوا هناك ركلا طويلا واستعانوا حنينا أو عويلا ، لا يطربنا ما يطربهم...". المقامات اللزومية. ص 387.

-الجمهور : وهو إن كان يبدو في المقامات المشرقية ساذجا ظريفا جوادا بماله سخيا عاشقا لسحر الكلام، فإنه في هذه المقامة يبدو بربريا متوحشا غير مجبول ولا مفطور على عشق بيان الكلام، وهو ما يبرر الغدر كسلوك لاغتصاب ماله.

- **المكان والزمان** : المكان مغربي سكانه الأصليون هم البربر، لكن الراوي في هذه المقامة يفتح على مكان آخر هو الأندلس. فالمكان العام أو الموقع الجغرافي هو الغرب الإسلامي، متوزعا ما بين المكان الخاص حيث تجري أحداث المقامة (بلاد طنجة)، والمكان المتخيل الذي يرحل إليه السائب بن تمام ذهنيا و هو يعيش حالة الحنين إليه في اغترابه ببلاد المغرب. إن رحلته أوجدته بالمغرب في بداية المقامة، و هي تتجه به في نهايتها إلى بلاد الأندلس بعدما أيقن النجاة. فالمكان يشير إلى جوار جغرافي بين الأندلس والمغرب، وهو جوار من البديهي أن يولد تقاربا وتآلفا، لكنه وُلدَ ها هنا نفورا وتباعدا. فسكان طنجة أعاجم لغة وجنسا، وسكان الأندلس عرب متحضرون، إذ مقياس التحضر عنده عربي، فقد جرد المغرب من العروبة والإسلام. وأما الزمان فقد شكله - كما هو حال المقامات المشرقية - مفهوم الدهر. قال :

أما ترى الدهرَ يا فتاهُ
يلعب بالمرءِ أو يدورُ

وقد تحققت وحدة الزمان القصصي، وهو على ما يبدو لا يتعدى يوما واحدا، يبتدئ نهارا حيث يجد السائب نفسه بالمغرب بين البربر، وينتهي ليلا حيث يسرق مالهم ويغادرهم وهم نيام.

- **اللغة وأسلوب السخرية** : تبدو لغة المقامة - شأنها في ذلك شأن كل المقامات - لغة موسيقية قائمة على السجع والازدواج، وغيرها من ضروب البديع اللفظي والمعنوي من طباق ومقابلة وجناس وما إلى ذلك. كما ينطوي أسلوب المقامة على روح فكاهية ساخرة، وخاصة في اللحظات التي وصف فيها السرقسطي المأدبة¹⁴⁰.

¹⁴⁰ من ذلك: "جعلنا نأكلها خضما وقضما، ونوسع الأجواف ردما ورضما، والودك من على معاصمهم يسيل، وقد فاض الوادي هناك والمسيل...". المقامات اللزومية. ص 386.

-الحوار : جاء في المرتبة الثانية بعد السرد، إذ لعب دورا تكميليا محدودا في تصعيد الأحداث الحكائية ورسم الشخصيات وتحديد أدوارها، وقد دار معظمه بين بطل المقامة وراويها.

-السرد : وهو العمود الفقري للمقامة سواء ما تعلق بوصف الأحداث أو ما تعلق برسم الشخصيات والمكان والزمان، وإلى جانبه يحضر شكل آخر للخطاب تتضمنه المقامة وهو الشعر.

2- الأبعاد التاريخية والسيكوسوسيولوجية المتحركة في إنشاء المقامة البربرية:

يبدو التجديد في المقامة البربرية تجديدا في المضمون الذي لم يسبق طرقه في المقامات الأم (الهمدانية) أو المقامات النموذج (الحريرية)، فهو تجديد يكتنف إبداع السرقسطي من حيث التصاقه بمحيطه السوسيوثقافي وتعبيره عنه. فقد صدر السرقسطي عن حمية إقليمية وعصبية عرقية تطرح إشكال الماهية والخلفية الإيديولوجية، وهو ما يفترض استقراء التاريخ الأندلسي لفك عقده، أي ضرورة تتبع مسيرة تواجد المغاربة (البربر) بالأندلس منذ بواكر الفتح الإسلامي (92 هـ) حيث لاقوا الترحاب، وإلى سقوط قرطبة حيث الفتنة البربرية، وحيث تحولت العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة من علاقة ائتلاف ومحاباة إلى علاقة اختلاف وتوتر وحقد. فالضرورة هنا تقضي بدراسة تاريخ الأندلس جنبا إلى جنب مع دراسة تاريخ المغرب، فغني عن البيان ما كان بين العدوتين من اتصال وارتباط وتفاعل أدبي وثقافي وسياسي، وهو تفاعل متشعب الخلفيات والأبعاد يكفي أن نشير إلى بعض تجلياته:

- ✓ هناك حقيقة تاريخية ثابتة، وهي أن العرب الذين دخلوا الأندلس على طوابع ثلاثة كانوا قليلي العدد بالنسبة إلى جموع البربر¹⁴¹ الهائلة التي استقرت في الأندلس منذ أن افتتح طارق بن زياد. وسبب هذا التفوق العددي يرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية¹⁴²:
- الأول : سهولة المجاز من المغرب إلى الأندلس.
 - الثاني: توافر الثروات الاقتصادية في الأندلس وتضاؤلها في المغرب لكثرة سكانه وقلة خيراته.
 - الثالث : استخدام البربر في الجيش الأندلسي في خدمة أمراء بني أمية وخلفائهم منذ أن دخل عبد الرحمان بن معاوية الأندلس.

¹⁴¹يشير عبد الحميد العبادي إلى أن المغرب كان مسكونا "بقبائل عرفوا بالبربر ، وهذه القبائل كانت تتميز بصفات هي أقرب الصفات لما كان يتميز به العرب البدو، فالبربري شجاع مكافح قوي الشكيمة محب للحرية ، خشن مطبوع على الجندية والقتال، وليس من السهل إخضاعه والتغلب عليه... وكان البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين : قسم تميز بسكنى المدن ويسمون "البرانس" (نسبة للبرنس ذو الغطاء فوق الرأس ، كان سكان المغرب يلبسونه كزي قومي)، وقسم سكن البادية ويسمون " البتر " (يلبسون زيهم القومي أبتز من غطاء الرأس). ومن " البرانس": قبيلة أزواجة ، وقبيلة مصمودة ، وقبيلة أوربة ، وقبيلة كتامة ، ثم قبيلة صنهاجة ، وقبيلة أوريغة ، وقبائل أخرى كثيرة .ومن قبائل البتر : قبيلة إداسة، ومنها تتفرع قبيلة هواره ، ثم قبيلة برسة ، و قبيلة لواتة، وقبيلة زناتة ، وقبائل أخرى كثيرة ... كان البربر يدينون بأديان مختلفة : فالمسيحية في المدن الساحلية حيث كانت السيادة الرومية، واليهودية داخل البلاد حيث ينتشر اليهود كتجار ومرابين ، ثم الديانة الوثنية أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية بين بقية البربر البدو ، فإذا ما جاء الإسلام تغلب على هذه الديانات، فاعتنقه غالبية الشعب البربري." (المجمل في تاريخ الأندلس.ص32-33-38).

¹⁴²- "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس.دراسة تاريخية،عمرانية،أثرية في العصر الإسلامي".السيد عبد العزيز سالم.ص 79.

إن إحاطة هذا البعد بما يستحقه من الدراسة والعناية لقمين بالوقوف على الأخطاء التاريخية التي تراكمت مفضية للخروج من الأندلس بعد بقاء فيها للعرب وللعربية دام ثمانية قرون. ذلك أنه أسىء فهم البربر وبالتالي أسىء التعامل معهم، وهو ما أفضى إلى كارثة تاريخية عرفت بالفتنة البربرية أو كما يصطلح عليها قاسم الحسيني بالفتنة القرطبية¹⁴³. فلقد أغفل الأندلسيون عدة وقائع تاريخية: فالبرابرة من أصل عربي، وهم من قتل عقبة بن نافع سنة 64 هـ لما عاملهم بقسوة، وهم من ارتدوا مرارا مفشلين حملتين لفتح المغرب، وهم من ينتفض تجاه أدنى سوء معاملة، ومن تم فاستفزاز الأندلسيين لهم واستصغارهم لهم شكل خطأ تاريخيا حاسما في تكدير صفو العلاقة بين العدوتين. ضمن هذا الإطار، يذهب عباس الجراري إلى أن الأمازيغ سكنوا المغرب في العصر الحجري (يسميه الرومان بالبربر، واليونان باللوبيين)، لهجاتهم مختلفة مشتقة من مصر القديمة، تستعمل التيفيناغ أو حروف الهجاء الليبية، وأصلهم الوفود من الجزيرة العربية ومصر في العهد الحجري، مميزا بين: الزناتية (تاريخية) - المصمودية (تاشلحيت) - الصنهاجية (تامازيغيت)، مشيرا إلى أن البربر هم - في الأصل - عرب حميريون، مؤكدا على أن فتح المغرب قد تم على مرحلتين:

- على يد عقبة بن نافع سنة 62 هـ ، وقد قتله البربر سنتين بعد ذلك - أي بعد فتحه طنجة و ويلي - لما عاملهم بقسوة وبخاصة زعيمهم كسيلة.

- على يد موسى بن نصير سنة 79 هـ، وما ساعد البربر على تقبل الدين الجديد هو مشاركتهم للعرب في فتح الأندلس، وما يعني ذلك طبعا من غنائم وتغذية لميلهم الطبيعي للمحاربة، فقد ارتدوا اثنتا عشرة مرة وأفشلوا حملتين لفتح المغرب ما بين 122 هـ و 123 هـ بطنجة وعند

¹⁴³ يذكر قاسم الحسيني أنه " اتسعت رقعة الشر لتشمل البربر الذين أحسوا بأنهم ليسوا طرفا متساويا في المعادلة الأندلسية الصعبة ، فقاموا قومة يريدون الحكم ، لأن الفتوحات تمت على أيديهم ... وفي اعتقادي أن البربر أسىء استعمالهم في الأندلس مرات حتى بلغ السيل الزبي، فتحولوا إلى قوة ضاربة شديدة الوقع والتأثير ... وأعتقد أن ما انتهوا إليه كان نتيجة طبيعية باعتبار حجم قوتهم وكثرة عددهم ، إذ لا يعقل أن تجني القبائل العربية المتصارعة ثمار صراعها ويبقى البربر دون ذلك ". (الأندلس : الإنسان والمكان" ص 22-27-28).

وادي سبو، ولما استقر الإسلام بالأندلس استقر بالمغرب¹⁴⁴.

✓ وارتباطا دائما بنفس البعد القائم على استصغار البربر نذكر أنه لما تم فتح الأندلس أثر العرب أنفسهم بالنصيب الأوفر من الأرض الخصبة، فنزلوا الجهات الشرقية والجنوبية، حيث الخصب والدفء والخيرات الكثيرة، بينما أنزلوا البربر الجهات الوسطى والشمالية القاحلة الباردة التي تواجه الأعداء النصارى¹⁴⁵. وهذا الظلم كان له أثره فيما بعد في حدوث الخلاف بين العرب والبربر، وشكل بداية حقيقية لإذكاء فتيل الفتنة البربرية وبالتالي كان سببا مباشرا من أسباب سقوط الأندلس. لقد كان فتح الأندلس فتحا إسلاميا لكن لم تطبق مبادئه السمحة من مساواة وعدل وتسامح، وطبقت مبادئ العصبية والعنصرية بين بربر وعرب يوحدتهم الإسلام.

✓ وفي مقابل هاذين البعدين المجحفين في حق البربر، يحضرنا بعد ثالث بالغ في الانتصار للبربر. فقد عرف بعض أمراء بني أمية باعتمادهم على العنصر البربري وتهميش العنصر العربي لاعتبارات تتشابه فيها المصالح السياسية بالمصالح الذاتية. إذ يذكر عبد العزيز سالم¹⁴⁶ - في معرض حديثه عن سوء الخلافة الأموية وأثره في اضمحلال قرطبة - أن عبد الرحمان الداخل ومن خلفه من الأمراء، وبخاصة الحاجب محمد بن أبي عامر استكثروا البربر في جيوشهم، فأسفر تفضيلهم للبربر على العرب عن نتيجتين :

-الأولى : أنه أوجد اختلالا خطيرا في الميزان العنصري ، فقد رجحت كفة البربر على العرب، وبذلك أفسح المجال لإيغار صدور العرب على البربر، وغرس الأحقاد عليهم في نفوسهم.

¹⁴⁴-الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها . عباس الجراري. ص 17-45- بتصرف-

¹⁴⁵بحوث ندوة "الأندلس- الدرس والتاريخ". فتحي محمد أبو عيانه. ص 310.

¹⁴⁶- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس. مرجع سابق. ص 83- 84.

والثانية: أن العصبية العربية القديمة (الشعبوية) القائمة على العنصرية الجنسية تحولت إلى نوع من التضامن، أي تحولت إلى عصبية أندلسية هدفها الأول مواجهة العناصر الجديدة الطارئة على الأندلس وتتمثل في الصقالبة والبربر، فالمصالح السياسية تعود إلى رغبة أمراء بني أمية في إضعاف العصبية العربية (الشاميون- الحجازيون- المولدون- اليمينية - القيسية) من جهة ، ثم مواجهة الخطر الفاطمي من جهة ثانية (إذ كان الفاطميون قد استولوا على المغريين الأدنى والأوسط، فصاروا يشكلون تهديدا صريحا للأمويين في المغرب الأقصى والأندلس).

وأما المصالح الذاتية فترجع أصولها إلى أول أمير أموي استخدم البربر في الجيش الأندلسي وهو عبد الرحمان بن معاوية، فمعلوم أنه ابن لامرأة بربرية من " نفزة "، ولعل ذلك ما يفسر حماية البربر له منذ سنواته الأولى بالمغرب من بطش عبد الرحمان بن حبيب الفهري ، وما يوضح محاولاته الدائمة لإنشاء مراكز بربرية لمواجهة جماعات العرب الثائرة على حكمه، وتوزيع أرفع مناصب الدولة عليهم إرضاء لهم.

وفي نفس السياق المرتبط بالانتصار للعنصر البربري، يوضح عبد العزيز سالم أن انتصار البربر- وهم القوة التي اعتمد عليها سليمان بن حكم الملقب بالمستعين بالله في التغلب على غريمه محمد بن هشام الملقب بالمهدي وأنصاره من أهل قرطبة سنة 403هـ - شكل بداية للفتنة، ونتج عنه تعرض قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس لنقمة المستعين وأنصاره البربر الذين استباحوا دماء أهلها، وعاثوا فسادا في جنباتها، ونثروا الخراب في عمرانها¹⁴⁷ ، " فقد كان للفتنة تأثيرها السيء على مرافق الحياة المختلفة في قرطبة، وذلك لأنها كانت مجالا للصراع السياسي، وكان نتيجة لذلك الفشل الاقتصادي الذي عم قرطبة في فترة الفتنة 399-422هـ/1009-1031 م"¹⁴⁸ ، فمن الآثار المباشرة للفتنة:¹⁴⁹

¹⁴⁷ - قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس . مرجع سابق. ص 85-87.

¹⁴⁸ - تاريخ القضاء في الأندلس، من الفتح إلى ق5 هـ. محمد عبد الوهاب خلاف. ص 118.

¹⁴⁹ - تاريخ الأدب الأندلسي في عصر سيادة قرطبة. إحسان عباس. ص 137-141.

- الهلع الذي أصيبت به النفوس من تقلب البربر لدرجة استنقاء شيوخ المالكية في تعجيل صلاة العتمة قبل وقتها خوفا من القتل، إذ كان البرابرة المتلصصون يقفون لهم في طرق المساجد.
- قضت الفتنة على كثير من العلماء والأدباء بالموت أو التشريد أو الهجرة .
- هزت الفتنة قواعد النهضة العلمية الأدبية، ومن الضار النافع أن تكون سببا في بيع الكتب التي كانت بقرطبة إذ كان بيعها سببا في تسهيل انتشار العلوم.

وقد أشار قاسم الحسيني في كتابه " الأندلس : الإنسان والمكان " إلى أثر مباشر آخر لهذه الفتنة قائلا: " إن مشهد الفتنة القرطبية بمختلف صورته يبدو مكتملا عند ابن حيان والمقري ... وبالأخص في مسألة البربر، فقد أظهر ابن حيان عداة صريحا لهم بنفي الخير من أفعالهم، وأنهم كانوا سببا في تمزيق البلاد وانقسام أهلها. واكتفى المقري بسرد الحدث كما ترويهِ المصادر ... فابن حيان أندلسي يصدر عن حمية إقليمية و عصبية عرقية واضحة، بينما المقري بحكم طبيعة الانتماء إلى بر العدو المغرب الموطن الأصلي للبربر، كان أكثر حرصا من غيره على ألا يسيء الوصف"¹⁵⁰.

فمن هنا طبيعة العلاقة بين الأندلسيين والمغاربة، فالأندلسيون هم البادئون بالعداوة وهم المتسببون فيها، والمغاربة هم البربر الذين طالما سامحوا غير ما مرة وهبوا لنجدة الأندلس تلبية لاستغاثات الأندلسيين المتكررة لدرجة استحداثهم لغرض شعري جديد وغير مسبوق في الشعر العربي وهو " شعر الاستغاثة و الاستنجد ". ومن هنا أيضا، هذا الحرص على الرغبة في الإنصاف وتوزيع المسؤولية على عدة عناصر من المجتمع الأندلسي بدل توجيه الاتهام لعنصر واحد هو البربر، وإصاق الفتنة به وجعلها فتنة بربرية، وليست قرطبية أو عامية أو أندلسية. ولذلك فإن دراسة جزء كبير من تاريخ الأندلس لا يمكن أن يتم إلا ضمن دراسة تاريخ المغرب، وذلك لتكوين تصور شمولي عن تراثنا الذي يتطلب منا المزيد من تضافر الجهود لنُبش قبور مخطوطاته عليها تكشف عن تاريخ التاريخ.

¹⁵⁰-الأندلس : الإنسان والمكان. مرجع سابق.ص31.

- المبحث الثاني :اقتفاء الصوت الأندلسي في المقامة المغربية

● المطلب الأول :الأندلس/المكان .

يعتبر المغرب الأندلس جزءا منه ،إذ تتحدث المصادر التاريخية عن أول هجرة مهمة من قرطبة إلى مدينة فاس تهم الربضيين، حيث اشتهروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين)، وذلك في عهد ادريس الثاني، وترجع إلى ظروف داخلية تتعلق بالأندلس ذاتها ،ويذكر ابن أبي زرع أن عدد الذين استقر منهم بفاس بلغ ثمانية آلاف بيت¹⁵¹ ، وهو استقرار كانت له أبعاد سياسية كبيرة منها ثورة الأندلسي عبد الرزاق الخارجي على الأمير الإدريسي علي بن عمر بن إدريس، إذ " كان طموح الثائر الأندلسي بعيدا، فقد ذهب إلى حد تسميته قلعة بناها باسم بلده الأصلي بالأندلس،وشقة "152، و" حين انتصار الثائر الأندلسي على الأمير الإدريسي ملك عدوة الأندلس بفاس ، وخطب له بها بدون أي صعوبة، في حين امتنعت عدوة القرويين"¹⁵³، و"عند استرجاع الأمير الإدريسي لقوته وهزيمته للثائر الأندلسي ولي الأمير على عدوة الأندلس بفاس ربضيا من شذونة بالأندلس، وظلت الولاية في أبنائه الربضيين"¹⁵⁴. وهذا يدل على أن الجالية الربضية بعدوة الأندلس بفاس كانت حريصة على خلق نوع من التوازن في علاقاتها مع

¹⁵¹ - روض القرطاس. ابن أبي زرع. ص.47.

¹⁵² - الأتيس المطرب بروض القرطاس.مصدر سابق.ص.78.

¹⁵³ - المصدر نفسه.ص.78-79.

¹⁵⁴ - نفسه.ص.79.

الأدراسة إلى أن تتصيد فرصة التحرك¹⁵⁵، كما يدل على أن الأدراسة كانوا يعلمون بفعل وقوة وتماسك الجالية الأندلسية فكانوا يخاطبونهم من خلال مواطنيهم، وكما يدل على أن المغرب - منذ نشأة الأندلس إلى حدود سقوط غرناطة حيث أعظم هجرة للمورسكيين إلى المغرب على مر العصور السياسية وعلى مر تسعة قرون من عمر دولة الأندلس - كان يعتبر الأندلس جزءا منه بحكم الجوار الجغرافي والوحدة السياسية عصري المرابطين والموحدين، وبحكم اللغة والدين. ولذلك وفي إطار المراسقات تندر المقامات المغربية البلدانية خلا ما وجدناه من إشارات في المقامة المرابطية والمقامة الملزورية.

فالقصد أن نقرر أن تطول الأندلسيين على المغاربة ضارب في الزمان قبل حتى حدوث الفتنة القرطبية التي يعزي إليها الأندلسيين سبب كراهيتهم للمغاربة، وأن المغاربة دأبوا على اعتبار الأندلس "التوأم" أو "الجار"، ولذلك قلما ذهب الأندلسيين في المراسقات القلمية والملاحاة والمنافسة لحد العداوة والحسد والكراهية.

إن الأندلس تسجل حضورها كمكان في المقامات المغربية في مقامتين ووفق مقامين :

- المقام الأول: يرتفع بالأندلس لدرجة الحنين إليها في غربة وبعد المقامي المغربي عنها في بلاد المغرب، وهو ما يجعل المكان هاهنا يتخذ شكلين: المكان الأدنى (الغربة) - المكان الأقصى (الألفة).

- المقام الثاني: يزري بالأندلس كمكان جغرافي ازراءه بالإنسان الأندلسي في ذم استثنائي من الجانب المغربي تأخر كرد فعل تجاه المقامة البربرية لقرنين من الزمان .

155 - العقلية الأندلسية في حقيقتها رمت بالأساس إلى تحقيق كيان أندلسي بالمغرب حيث المنطقة التي يستقرون بها بفاس

أيام الأدراسة .

إن المقامة المرابطية المدحية لأبي عامر بن أرقم في الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين ليست بلدانية ولا رحلية يمكن أن تيسر مسك عناصر تشكل المكان الأندلسي في النصوص المقامية المغربية، ولكنها قائمة على المدح الخالص بوصفه غرضاً شعرياً تقليدياً مألوف تناوله في المقامات المشرقية، وهي مع ذلك أشارت إلى المكان الأندلسي بوصفه المكان المأمول والمرغوب فيه غير أبهة بالمكان المغربي حيث منشؤها، إذ بدا كل من الراوي والبطل في هذه المقامة متلهفين إلى الرحيل إلى غرناطة مفتخرين بها. فعامر بن أرقم والأمير المرابطي تميم بن يوسف يعيشان حالة من التقاطب والتجاذب بين المكان الأدنى (المغرب) والمكان الأقصى (الأندلس)، وهو تقاطب ينطوي على تراتبية اجتماعية وثقافية وأخلاقية، كما أنه يحيل على عدة معانٍ من قبيل الفصل بين الأهل والغرباء، أو الأخيار والأشرار. فالعلاقات هنا تتخطى اعتبار المكان مجرد فضاء أو رمز لبلاد برمتها إلى الارتقاء إلى مجال استحضار القيم الإنسانية المثلى.

يظهر ميل المقامي إلى غرناطة على حساب المغرب في المقامة منذ بدايتها، إذ ذكر في مطلعها: "قال فلان بن فلان ولما اجتلبت ما نصه واستوفيت ما قصه قلت أحق منزل يبرك، فعجت إلى الرواحل لأطوي المراحل، أمل كعبة الآمال وقبلة الآمال، فبينما أنا أسير وقد لظى الهجير ولا ناطح إلا الآكام والأباطح، ولا سائح ولا بارح إلا الآل والبارح"¹⁵⁶، فالكاتب يتوق إلى المكان الأندلسي توق أميره المرابطي المشمول بمدحه في مقامته "فقال أين أمك وما همك؟".

156- فلاند العقيان. مصدر سابق. ص 140.

قلت: غرناطة، فقال: حيث اللمة المشفقة المحتاطة و السدى والندى، والأمجاد و الأنجاد، والاصراخ والانجاد، و الغور والنجاد، أكرمت فارتبط، قلت وما علمك بها؟ ، قال : " هي المطلع وإليها بحول الله المرجع .قلت: دنا مرادك" ¹⁵⁷، ومنها - على قصرها - قوله: " قلت: فسطاطها، فقال: قصور تقر لها إرم بالقصور، وسور أعين الحوادث عنه صور كأنه الثغر المبتسم والسلك المنتظم" ¹⁵⁸، واختتمت المقامة بشعره المدحي في الأمير تميم.

لقد ارتبط المكان في المقامة المدحية المرابطية اليتيمة بشكلين :

-المكان الأدنى: مثله في المقامة المكان المغربي، حيث الزمان وقت الظهيرة، وحيث البطل والراوي متواجدان بعدوة المغرب، حيث الصحراء " لا قعيد ولا ناطح إلا الآكام" ¹⁵⁹، وحيث الكاتب يستعد للرحيل إلى غرناطة " كعبة الآمال وقبلة الآمال" ¹⁶⁰. فالمكان المغربي هاهنا يبدو بمثابة الجحيم بالنسبة للكاتب وللأمير المرابطي، إذ المكان القريب هو المرفوض، والمكان البعيد هو المرغوب.

-المكان الأقصى: مثله في المقامة غرناطة بوصفها رمزا للأندلس، والتي طالها مدح عامر بن أرقم لأنه يربطها بالألفة والطمأنينة "حيث اللمة المشفقة... أكرمت فارتبط " ¹⁶¹، فهي مقر الاستقرار النفسي والاجتماعي، "هي المطلع وإليها بحول الله المرجع" ¹⁶²، وهي منبع الحضارة

157- القلائد .مصدر سابق.ص141

158- القلائد .ص141

159- المصدر نفسه .ص140

160- نفسه .ص140

161- نفسه .ص141

162- نفسه .ص141

" قصور تقر لها إرم القصور وسور...كأنه الثغر المبتسم" ¹⁶³. فالمكان البعيد هو النعيم، والمكان القريب هو الجحيم.

وإذا كانت المقامة المرابطية الوحيدة قد شكلت رحلة ذهنية إلى غرناطة، فإن مقامة "طرفة الظريف" للملوزي قد مثلت رحلة حقيقية للكاتب إلى الأندلس. وإذا كانت المقامة الأولى قد نظرت إلى المكان الأندلسي بإجلال وتقدير وتطلع للاحتضان، فإن المقامة الملزوزية قد صورتها بكل تحقير و استصغار بنى عليهما الكاتب تصويره كذلك للإنسان الأندلسي مما سنفصل فيه في المطالب الموالي من هذه الدراسة المتواضعة .

لقد ذكر عبد العزيز الملزوزي في مقامته (طرفة الظريف في أهل الجزيرة وطريف) مكانين جغرافيين من بلاد الأندلس هما: طريف، والجزيرة الخضراء. وواضح أنها تمثل ارتسامات مغربي عن المكانين الأندلسيين وعن أهلها، وأنها تدخل في باب المراسقات القلمية و المعارك الأدبية بين العدوتين، والمرتكزة هاهنا أساسا على تشبه الأندلسيين بالنصارى "وهو ما ألحت مقامة "طرفة الظريف" في أكثر من موضع على التشهير به، وتعرية ذلك التناقض بين تبجح بعض الأندلسيين بالأنساب العربية وتخليهم عن سنن العرب حتى لم يبق لهم من العروبة إلا الأسماء" ¹⁶⁴. وحيث إن المكان هو ما يعنينا في المقامة، فإن الأهم في هذا المقام هو كيفية تصوير الملزوزي للمكان الأندلسي ما دام قد أعلن عن حقه صراحة للإنسان الأندلسي بمقامته وجعله مدارها. فقد ذكر الملزوزي في جزء من مقامته: " فدخلت طريف، فوجدتها بصد اسمها، فدعوت الله تعالى بمحو رسمها، ورأيت القصبه أضيق من أنبوب القصبه وكدت أهلك بنسيمها الأذفر" ¹⁶⁵.

¹⁶³ - القلائد ص 141

¹⁶⁴ - من منافرات العدوتين .مرجع سابق ص 20

¹⁶⁵ - من منافرات العدوتين . نص المقامة ص 35

فهو ينفي عن طريف الطرافة والظرف ويدعو عليها بالفناء، ويعيب عليها قصبته¹⁶⁶ والرائحة الكريهة المنبعثة من مجاري المياه العادمة بها والصادرة عن دورها ومساكنها. وقد أقسم على مغادرتها إلى الجزيرة الخضراء، قائلاً: " وأقسمت حينئذ بالذي وضع الغبراء¹⁶⁷، ورفع الخضراء¹⁶⁸، لأيممَّ الجزيرة الخضراء، فوليت عن طريف مشمرا، وأتيت إلى الجزيرة متممرا، فدخلتها وخليت خلفي زادي وعدتي وإلي، في يوم كثر أوارُه¹⁶⁹ وظهر من ساكنها عوارُه¹⁷⁰ " ¹⁷¹، إذ لما خاب ظن الكاتب بطريفة كمكان نتن كريبه لا قيمة لقصبته الضيقة، قصد الجزيرة تاركا خلفه بلده الأم (المغرب)، حيث الألفة والطمأنينة والأهل وطيب الأخلاق في مقابل بخل الأندلسيين وعرضهم الماء للبيع، قال: " فخرجت عن ناديهم وسرت لأشرب من واديهم فوجدته ملحا أجاجا، لا فراتا ولا تجاجا، وقد تغير لونه، وصار كالعدم لونه، فقلت : سألتكم بربنا عزّ وجلّ هذا الذي تدعونهُ وادي العسل " ¹⁷².

ثم التفت الكاتب إلى جدار مهدم، فأخبره أهل الجزيرة أنه الذي وجده الخضر يريد أن ينقض فأقامه ولم يستطع مع صاحبه إقامة، وأن هذه القرية هي التي استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما،

¹⁶⁶- المراد : قسبة طريف، وما تزال قائمة إلى يومنا هذا ، وقد وقف عندها السفير المغربي ابن عثمان وقرأ الحجر المكتوب فيه تأسيسها في العصر الأموي. أما الرائحة الكريهة في طريف فقد أشار إليها ابن عثمان وذكر أن سببها أودية الماء المضاف الخارج من الديار وما يجتمع به من قذارات كثيرة تبقى كذلك إلا أن يأتي السيل وقت المطر فيذهب بالجميع إلى البحر (من منافرات العدوتين. ص 48).

¹⁶⁷- الغبراء : الأرض.

¹⁶⁸- الخضراء : السماء.

¹⁶⁹- أواره : حرارته وقيظه.

¹⁷⁰- أي: بدا ما كان مستورا من عيبه .

¹⁷¹- من منافرات العدوتين . نص المقامة . ص 35

¹⁷²- نفسه. ص 36

يذكر ابن سعيد في المغرب: " ونهرها يعرف بوادي العسل ، سمي بذلك لحلاوته " . ص 320

فخلص المقامي إلى أنه بين أقوام بخلاء لئام لا بد من التعجيل بالرحيل عنهم، قال: " ولؤم الجزيرة
يؤثر حتى في الجماد، ومازلت أدعو الله أن يهون في جواز السلطان ، ويبلغنا الأوطان... فمازلنا
نُجبل في الرحيل الأفكار، ونكثر منه الأذكار... إلا وشرع أمير المسلمين في الارتحال، فعندما
تركت الجزيرة خلفي، وطمعت في اجتماعي بالفي نظرت إليها بعدما أبعدها، وأمسكت لحيتي في
يدي وأنشدتها:

إذا ما عدتُ نحوكِ فأحلقها بموسى أو بقارٍ فانتهيها
وقلٌ للجزيرة الخضراء مهما ركبْتُ الفُلكِ نحوكِ غرقيها
فما أبصرتُ في الخضراء إلا وجوهاً يستبينُ اللؤمُ فيها " 173

فالمقامي يبدو مستعجلاً بالرحيل إلى وطنه الأم نافراً من الأندلس ومن طباع أهلها، إذ المكان
القريب نقمة والمكان البعيد نعمة، فالأندلس جحيم والمغرب نعيم، وهي نظرة مخالفة تماماً لنظرة
المقامة المرابطية للمكان الأندلسي. وخلا هاتين المقامتين لا يمكن رصد المكان الأندلسي في باقي
المقامات المغربية¹⁷⁴ (ما قبل العصر العلوي) بحكم العوامل التي ذكرنا سابقاً والمتمحورة أساساً
حول اعتبار المغرب الأندلس جزءاً لا يتجزأ منه، ومن تم استبعاد ذمه وذلك في مقابل الذم
الأندلسي المجاني للمغاربة مكاناً وإنساناً.

¹⁷³ - من منافرات العدوتين . نهاية نص المقامة. ص43

¹⁷⁴ - تناول مالك بن المرحل المكان المشرقي في مقامته الزهدية لما رحل ذهنياً إلى نجد و أدار أحداث مقامته على المكان النجدي.
وأما باقي المقاميين فقد ارتبطوا ببيئتهم المحلية ، إذ اقتصر الوهراني على وصف فاس ، وسخر المكلاطي الطبيعة على غرار
الأندلسيين في مفاخراتهم بين الأزاهير لبلوغ هدفه المدحي لأبي بكر الدلاي . كما أن الأزاريفي تناول في مقامته صحراء سوس،
وتناول الحضرمي مضمونا اجتماعياً أقامه بفضاء مغربي (المفاخرة بين الجواري العشر) . وبذلك غاب المكان الأندلسي عن المقامات
المغربية عدا ما رصدناه في المقامة المرابطية من تعلق بغرناطة (الأندلس) ، و ما رصدناه في مقامة طرفة الظريف المرينية من
نفور من طرفة و الجزيرة الخضراء (الأندلس) .

● **المطلب الثاني: الأندلس / الإنسان (الملزوزي أنموذجا)**

يستثير المضمون أو الدلالة الأساسية لهذه المقامة - وهي رسم مساوئ الإنسان الأندلسي - عملا آخر يطرح الموضوع من الجهة المقابلة تم إنشاؤه في عهد المرابطين وهو المقامة البربرية التي سبق أن تعرضنا لها بالدراسة والتحليل، وهو ما يقود للقول بأن مقامة "طرفة الظريف" ما هي إلا رد فعل من المغاربة، تأخر به الزمان إلى القرن السابع الهجري لما كتب لفن المقامة وقيد له النضج على يد أقلام مريئية. فالمقامة الملزوزية تحمل سخطا وسخرية من الإنسان الأندلسي مثلما حملته قبلها المقامة البربرية من استخفاف واستهزاء بالإنسان المغربي .

لقد عالج الملزوزي مكون الإنسان الأندلسي - بوصفه عنصرا أساسيا من عناصر التفاعل بين العدوتين- وفق أربعة مستويات أو أماكن أو مجالس تدور في فلك رصد مساوئ الإنسان الأندلسي في أماكن متفرقة ومتنوعة من الأندلس كمكان جغرافي شاسع :

-**المجلس الأول:** مجلس مع أهل طريفة أبرز من خلاله نسيان الأندلسيين لوحدتهم وتفرقهم واعتمادهم على الماضي والافتخار بالأباء والأجداد، ففي هذا المجلس يصف الراوي جماعة من أهل طريف وصفا ماديا ومعنويا مدعما بالشواهد الشعرية، إذ عاب عليهم انفرادهم في الأكل واجتماعهم بعده، قائلا: " وأخذ كل منهم نصيبه ولم يشارك في الأكل نزيله ولا نسيبه... فعندما أكلوا اجتمعوا "175. كما عاب عليهم فخرهم بأنسابهم وقبائلهم (نكر عشرة قبائل منها الأوس والخزرج) معيرا إياهم شعريا :

بل أنتم ككلابٍ عند جيفتكمُ
هذا دليلٌ على أن ليس عندكمُ
بعضٌ ينالُ وبعضٌ خلفه يثبُ
يا أهل أندلس فضلٌ ولا حسبٌ¹⁷⁶

175- من مناقرات العدوتين . نص المقامة .ص25

176- نص المقامة .المرجع نفسه.ص26

-**المجلس الثاني:** مجلس مع أهل الجزيرة، أبرز فيه بخلهم ولؤمهم وعدم إكرامهم الضيف، يبدأ المجلس بقول الراوي: " فوليت عن طريف مشمرا، واتجهت إلى الجزيرة متمرا فدخلتها"¹⁷⁷، ولما طلب جرعة ماء "قال أحدهم: هات حقها، وتكون مستحقها"¹⁷⁸. ولم يقف الأمر عند حد البخل، بل إن الراوي رأى أمر من ذلك وهو تبدل السنة القوم، فكلمة الملك تنطق "الملق" وهو ما أدى إلى تحريف القرآن الكريم، " فما يترجى من قوم تغيرت ألسنتهم وأقوالهم، وتبدلت سيرهم وأحوالهم... فقد قرأوا الخيانة قبل الديانة، وتعلموا الوضاعة قبل الرضاعة"¹⁷⁹.

-**المجلس الثالث:** مجلس مع إمام يصلي بالناس، أبرز تبدل السنة الأندلسيين وتغيرها وما ترتب عن ذلك من تحريف لكتاب الله تعالى. يبدأ المجلس بقول الراوي: "ومن غريب ما اتفق لي حين كنت أوافيها أني مررت بإمام يصلي"¹⁸⁰، إذ وجده يقرأ سورة الناس فيبدل الوسواس ب "الوسويس"، والخناس ب "الخنيس"، قال: "فأمهلته ريثما أتم صلاته وقراءته... فابتدأته بأشد العتاب، وقلت له: لم بدلت كلام الله... فأقسم أنه قرأه كذلك على قراء عصره، وأن تلك لغة أهل عدوته ومصره"¹⁸¹.

-**المجلس الرابع:** مجلس مع القاضي ابن عذرة، أبرز من خلاله تبدل السنة الأندلسيين في تغيير أحكام القضاء حتى أنهم كانوا " يرون الخطأ صوابا والمأثم ثوابا"¹⁸². يبدأ المجلس بقوله: "وجلست يوما عند القاضي ابن عذرة"¹⁸³ ليسمع أحكامه ويوجهه"فقلت له: تدبر أحكامي وتعجب

177 - من منافرات العدوتين . نص المقامة.ص 35

178 - المرجع نفسه .ص.35

179 - نفسه .ص.37

180 - نفسه.ص.38

181 - نفسه .ص.38

182 - نفسه .ص.37

183 - نفسه .ص.39

من بدائع إحكامي...فانصرفت وتركت القاضي على جهالته، وخلفته على ضلالته¹⁸⁴.

فقد تضافرت المجالس الأربعة في المقامة لتكون صورة الإنسان الأندلسي من خلال أقواله وأفعاله كما رسدها الملزوزي، وهي كما وردت في المقامة تباعا: عدم الاجتماع على الأكل - عدم البسمة قبله - الفخر بالماضي والأنساب لا بالعلم - البخل - تحريف الأحكام والقرآن الكريم بسبب تغيير السنة الأندلسيين - اللؤم - الوضاعة والخسة. وهي صفات أخلاقية ذميمة تعبر عن التدني الأخلاقي لدى الإنسان الأندلسي وفق المنظور الملزوزي، وهي صورة تخدم باب المراسقات القلمية بين العدوتين لكنها لا تعبر عن الصورة الحقيقية للإنسان الأندلسي، مثلما تعزف المقامة البربرية عن تقديم الصورة الحقيقية للإنسان المغربي لأن الأمر يتعلق بسجال وتراشق أدبي، وبملاحاة ومنافسة كانت مشتتة بين أدباء العدوتين. هكذا، يبدو الإنسان الأندلسي غير متحضر، مثلما بدا الإنسان المغربي في المقامة البربرية همجيا غير متحضر. كما بدا المكان الأندلسي نتنا مقفرا خلوا من كل ميزة حسنة، خلافا للمأثور من وصف الجغرافيين الأندلسيين ولما تبديهم أشعارهم من استحداث للمفاخرة بين الأزاهير والورود في تعبير صارخ وصريح عن جمال الطبيعة / المكان الأندلسي¹⁸⁵. وقد خص المقرئ القسم الأول - وهو من ثمانية أبواب في وصف جزيرة الأندلس - من نفع الطيب لتقديم مقدمات عامة في مزايا الأندلس تعطي صورة مخالفة لصورة الملزوزي، كما ذكر رسالة لابن حزم في فضل الأندلس في المجلد الثالث¹⁸⁶، ورسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس جاءت لما جرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم

¹⁸⁴ - من منافرات العدوتين . نص المقامة . ص42

¹⁸⁵ - مما ذكر بنشريعة في وصف الرازي للجزيرة الخضراء قوله: " من أرشق المدن وأطيبها ، وأرقها بأهلها ، وأجمعها لخير البر والبحر، وقرب المنافع من كل جهة " . (من منافرات العدوتين . ص23)
وأما نسبة البخل إلى الأندلسيين " فلأنهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما بين أيديهم خوف ذل السؤال " . نفع الطيب . ج5.

ص208

¹⁸⁶ - نفع الطيب . ج3 . ص156

ذكر ابن حزم في رسالته فضائل علماء الأندلس لما عاب عليه أبو علي الحسن التميمي القيرواني تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم، كما ذكر فيها عددا مهما من التأليف الأندلسية.

الطنجي نزاع في التفضيل بين العدوتين ، " فقال الشقندي¹⁸⁷: لو لا الأندلس لم يُذكر برُّ العدو، ولا سارت عنه فضيلة... فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عربا وأهل بركم بربر؟ فقال حاش الله . فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا "188، ومنه عمل كل منهما رسالة في تفضيل بره . والغريب أن المصادر تحتفظ لنا برسالة الشقندي في حين لم تصلنا رسالة الطنجي، كما أن الغريب في أمر العداوة أن الأندلسيين كانوا دوما هم البادئين بها كما يتضح من خلفيات المراسقات القلمية عبر فن الرسالة بين العدوتين . "وقد نقدر أن رسالة الشقندي كانت مما استمد منه صاحب "مفاخر البربر" المريني يفتخر مؤلفه المجهول بطائفة من أعلام الأندلس ذوي الأصول المغربية... والواقع أن الفخر بالأعلام في نطاق المفاضلة بين العدوتين أصبح منذ امتزاجها في عهد المرابطين ومن بعدهم مثار تنازع في معاجم الأعلام... فابن الأبار وابن الزبير يدعوها التعصب إلى نظم عدد من أعلام العدو المغربية في سلك الأندلسيين ضنانة بعلمهم على العدو "189، وربما يرجع ذلك إلى التعصب الأندلسي الذي قابله المغاربة بحمية مغربية واضحة تبدت في أدب أدبائه من أهل المغرب، وهو أدب لا يقل شأنًا عن الأدب الأندلسي ، ذلك أننا " نجد الشعور الإقليمي كان عند الأندلسيين أقوى منه لدى المغاربة، فهم كانوا يتجنون غالبا على أهل العدو، ويتيهون عليهم بحضارتهم وعلمهم وأدبهم، ويكشفون عن كرههم للمغاربة المقيمين بين ظهرانيهم، حتى بعد توحيد البلدين في عهد المرابطين والموحدين... أما في الأوقات العصيبة فقد كان سوء المعاملة ينسحب حتى على الأندلسيين ذوي الأصل المغربي "190 .

¹⁸⁷ - الشقندي: " هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد، وشقنده المنسوب إليها قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب

، له رسالة في تفضيل الأندلس عارضه بعدها أبو يحيى في تفضيل بر العدو أورد منها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع .

كان جامعا لفنون من العلوم الحديثة و القديمة، وعني بمجلس المنصور، وولي قضاء بياسة و قضاء لورقة. مات باشبيلية 629هـ".

النفح . ص222- 224 .

188 - النفح . ص186

189 - من منافرات العدوتين . ص10-11

190 - نفسه . ص11

-المبحث الثالث :مظاهر التفاعل والتأصيل في المقامات الأندلسية

والمغربية

• المطلب الأول :معالم الائتلاف والاختلاف بين مقامات العدوتين

✓ الفرع الأول :معالم الائتلاف/ التفاعل

أسس الهمذاني لفن المقامة جاعلا الكدية موضوعا أساسيا لمقاماته مرتبطا بقضايا عصره معريا إياها بالنقد الاجتماعي اللاذع المتوسل بالسهولة اللغوية والوضوح، وجاء من بعده تلميذه الحريري ليعطي للمقامة العربية المشرقية شكلا لغويا خاصا إذ لزم ما لا يلزم فصارت مقاماته " تعد من أغرب نماذج النثر المصنوع " ¹⁹¹. ومع ما كان بين المشرقيين من تأثر اللاحق بالسابق، وما كان من معالم الائتلاف - مما عرضنا له في الباب الأول - فإنه كانت بين الأستاذ وتلميذه مظاهر شتى للاختلاف، ذلك أن الهمذاني لما مال إلى السهولة، مال الحريري إلى الإغراب والصنعة، ولما اتسم نقد الهمذاني بالحدة، اتسم النقد الاجتماعي للحريري للحكام والقضاة بالحذر والاحتراس، ولما ضيق الهمذاني من دائرة أسماء مقاماته المنسوبة إلى الأماكن فقصرها على فارس والعراق والشام، وسعها دائرتها الحريري لتشمل مصر والمغرب ومكة والمدينة، ولما سجل بطل الحريري حضوره في المقامات الحريرية ولم يتخلف عن أية مقامة، فإن بطل الهمذاني - أبو الفتح الإسكندري- تخلى عن مكانه لغيره في أكثر من مقامة، ولما كانت مقامات البديع كلها نثرية وحظ الشعر فيها قليل، جاءت مقامات الحريري مثقلة بالمنظوم، يقارب حجم الشعر فيها حجم النثر بل ويزيد. ¹⁹²

¹⁹¹- النثر الفني في القرن الرابع. مرجع سابق. ص203

¹⁹²- ينظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث، فرع : الائتلاف و الاختلاف بين المقامات الأم والمقامات النموذج . ص57-60.

إن ما يعنينا من هذه التوطئة ليس تكرر ما سبق وفصلنا فيه القول- في الباب الأول - من شأن الائتلاف والاختلاف بين المقامات الأم والمقامات النموذج، وإنما القصد التذكير ببعض خصائص المقامة المشرقية العربية ومواجهة المقامتين المغربية والأندلسية بها لتبين مواطن الإخلاص في التبعية فيهما، ومواطن الانحراف عن أصول المقامة المشرقية، ومواطن التجديد والإبداع، وذلك لتبيان خصوصيات مقامة الغرب الإسلامي في كليتها، وخصوصيات المقامة الأندلسية والمقامة المغربية في تفردهما وتميزهما، أي في تأصيلهما.

تلتقي المقامة الأندلسية مع المقامة المغربية في عدة مظاهر تمس المضمون كما تطال الشكل، وهي في شموليتها تعكس معالم خصوصيتهما واستقلاليتهما من جهة، كما وتعكس بعضا من مظاهر اتباعيتهما وتأثرهما بالمقامة المشرقية العربية من جهة ثانية، ومن ذلك:

أ-تداخل فن المقامة مع فن الرسالة: فقد لاحظنا - في الباب الأول من هذه الدراسة - كيف أن أدب المقامة الأندلسية قد تداخل مع أدب الرسالة لحد الالتباس أحيانا، إذ تفقد العقدة والراويّة والبطل وتصبح على لسان منشئها¹⁹³. كما أنها انسلخت عن موضوع الكدية والاحتيال ما عدا ما وجدناه للسرقسطي في مقاماته اللزومية، كما ولاحظنا - في الباب الثاني - أن " جملة من المقامات المغربية أقرب إلى البناء الرسالي منه إلى المقامي ، أو لعلها لم تتخلص من الظلال الترسلية التي غمرت النثر المغربي ، أو لعل أصحابها اتبعوا مرونة في تعاملهم مع الأنواع الأدبية"¹⁹⁴، فما يقترب بالمقامة المغربية إلى فن الرسالة هو ابتعادها عن أركان المقامة المشرقية

¹⁹³ - من ذلك ما ذكرنا في باب الخصوصية في المقامات الأندلسية من أن ابن شرف القيرواني في مقامته النقدية الطويلة لم يعارض البديع ولم يتقيد بالضوابط التي وضعها الهمذاني في مقامته ، ولم ينشئ مقامة في الكدية ، مما جعلها أقرب إلى رسالة نقدية .

¹⁹⁴ - الترسل الأدبي بالمغرب . مرجع سابق . ص 367

(البطل- الراوي- العقدة...)، قدر ابتعادها عن موضوع الكدية. وبتجرد المقامة المغربية والأندلسية من بعض هذه الأركان ومن موضوع الكدية والاحتتيال، صارت أشبه بالرسالة¹⁹⁵

ب- ارتباط أدب المقامة بأدب الرحلة: فقد سجلنا ارتباط المقامة الأندلسية بأدب الرحلات لدى ابن شهيد، " ولا نتبين من خلال قراءتها مفهوماً آخر إلا وصف الرحلة التي قام بها، ولا تتخذ مقامته شكل المقامة عند بديع الزمان الهمذاني "¹⁹⁶، وكان ابن الخطيب قد أبدع في ربط مقاماته بأدب الرحلة مبتدعاً " المقامات البلدانية " ، كما وأن ذلك الارتباط مرده حب الأندلسيين للرحلة على اختلاف أغراضها (علم - حج - تجارة...) . وأما المقامات المغربية - على قلتها مقارنة مع المقامات الأندلسية - فقد ارتبط ما يعادل نصفها بالرحلة، ومن ذلك : ارتباط مقامة أبي عامر بن أرقم برحلة ذهنية إلى غرناطة ، تماشى فيها معه مالك بن المرحل في رحلته الذهنية إلى نجد (المشرق) ، وكذلك مثلت المقامة الأزاريقية رحلة حقيقية في صحراء تارودانت تكشف بؤر الفساد فيها وترفعها لأمير تارودانت ، ومثلت مقامة " طرفة الظريف في أهل الجزيرة و طريف " رحلة حقيقية للكاتب مع أميره إلى طريفة و الجزيرة الخضراء نقل فيها صوراً عن الأندلس مكاناً وإنساناً .

ج- خدمة المقامتين المغربية والأندلسية لأغراض شعرية: فقد أقام المقاميون الأندلسيون والمغاربة مقاماتهم على أغراض شعرية على رأسها المدح كما في مقامة مالك القرطبي في مدح

¹⁹⁵ - مالك بن المرحل في مقامته النجدية كان المقامي المغربي الوحيد الذي اجتر موضوع الكدية و الاحتتيال ، لكنه قدم رؤية جديدة للاحتتيال لما جعل البطل الغني يحتال على الراوي المملق . وأما ممن أغفلوا ذكر الراوي و البطل في مقاماتهم فنذكر على سبيل التمثيل : أبو عامر بن أرقم الذي أقام مقامته على المدح الخالص - الملزوزي الذي زواج بين البطولة والرواية ، وأشرك الجمهور في الرواية - الحضرمي الذي جعل البطولة نسائية جماعية ...

¹⁹⁶ - المقامة بين الأدب العربي و الأدب الفارسي . مرجع سابق . ص78.

ابن صمادح ، وكما في مقامة الوادي أشي في مدح القائد ابن ميمون ، وكما المقامة القرطبية المنسوبة للفتح بن خاقان و القائمة على الذم كغرض شعري تقليدي . كما ولاحظنا ارتباط المقامة المرابطية المغربية بغرض المدح إذ أقامها أبو عامر بن أرقم على مدح الأمير تميم ، وارتباط المقامة النجدية بغرض شعري هو الزهد ، وارتباط مقامة الحضرمي بالفخر ، و ارتباط مقامة المكلاطي بشعر الطبيعة (المفاخرة بين الأزاهير المستحدث أندلسيا) في مدح شيخه .

د- خلو المقامات المغربية والأندلسية من الكدية : فخلافا للمقامات المشرقية القائمة على عنصر الكدية و الاحتيال ، نأت مقامات الغرب الإسلامي (الأندلس و المغرب تحديدا) عن الكدية و الاستجداء ، باستثناء ما جاء به السرقسطي¹⁹⁷ ، ومالك بن المرحل في مقامته النجدية القائمة على الكدية والاحتيال. فقد خلت المقامات الأندلسية و المغربية من عنصر الكدية الملازم للمقامات المشرقية العربية، والمعبر إلى حد بعيد عن مجتمع القرن الرابع الهجري بكل أزماته الاقتصادية والاجتماعية (العصر العباسي).

إن المجتمعين المغربي والأندلسي لم يخلوا من فوارق طبقية ومن فقر، بيد أن المغاربة على غرار الأندلسيين معروفون بخوفهم من مهانة السؤال حريصون على حسن التدبير، ذوو عزة نفس وأنفة، ومن تم خلو مقاماتهم من الاستجداء و الكدية .

هـ - الارتباط بالبيئة المحلية : فقد أدار ابن فتوح مقامته النقدية الأدبية حول شعراء أندلسيين ولم يدرها حول شعراء مشاركة، وكذلك فعل ابن شرف القيرواني إذ رغم تعرضه لشعراء المشرق فإنه لم يغفل شعراء الأندلس ،ومن ذلك الارتباط بالواقع أيضا مقامة العيد للأزدي . وأما المقاميون المغاربة فقد أغرقوا في ارتباطهم بواقعهم ، إذ أجرى أبو عامر بن أرقم مقامته على مدح أميره المرابطي ، وأدار الوهراني مقامته على مدينة فاس ناقدا أدباء و علماء عصره الموحدين ، وجعل الملزوزي مقامته رحلة إلى الأندلس ينتقد فيها الإنسان الأندلسي وما آل إليه من هوان وذل وتبجح

¹⁹⁷ - تنظر المقامات : 3-4-5-6-30-31 ، إذ قامت كلها على الكدية .

بالأنساب وتعال على سائر الأقسام (وفي مقدمتهم المغاربة) ، كما وعبر مالك بن المرحل عن حياته الأولى في مقامته الزهدية مصورا شدة إملاقه ، ما جعله مرتبطا بسيرته الذاتية و بمجتمع عصر المرينيين . وكذلك عبر التملي عن حقه تجاه الأمير - الذي جرده من ماله وممتلكاته وأمر بسجنه - فنعته بالشذوذ الجنسي الذي تؤكد المصادر التاريخية ، وهو ما جعل التملي مرتبطا بالواقع الحقيقي لعصره السعودي . وكذلك مدح المكلائي شيخه أبا بكر الدلائي من خلال مقامته الزهدية . ومن الارتباط بالواقع المحلي المغربي كذلك ، نقل الأزاريفي لصورة اجتماعية من صحراء تارودانت المغربية ، وتعرض الفشتالي بالنقد الإيجابي لأدباء عصره السعديين . فالارتباط بالواقع المحلي خاصة أندلسية ومغربية تطبع المقامات المغربية والأندلسية على حد سواء لم تخل منه أية مقامة مغربية¹⁹⁸ أو أندلسية .

و-الخلو من التعقيد اللغوي : فإذا كان الهمذاني معروفا بجنوحه للسهولة والوضوح فإن تلميذه جنح للوعورة والإغراب في انتقاء ألفاظه لازما ما لا يلزم . وأما في معارضة المقاميين الأندلسيين للمقامات المشرقية فقد نحوا منحى المقامات الأم في سهولة ألفاظها ودقة معانيها ونأيها عن الوعورة في الألفاظ و التعمق في اللغة عدا ما لمسناه في المقامات اللزومية للسرقي لأنهم كان معارضا للحريري وليس للهمذاني . وكذلك ألفينا المقامات المغربية بعيدة عن الإغراب و تصيد غريب اللفظ وموحشه ، نائية عن التكلف والصنعة الشديدين ، محتفية بالمضمون أكثر من الإيقاع ، مرجحة "سيولة القريحة وغلبة الطبع و الارتجال على الصنعة والاحتفال " .¹⁹⁹

¹⁹⁸ - حتى المقامة النجدية التي تدور أحداثها بنجد (المشرق) أراد صاحبها من ورائها تعرية أوضاع المجتمع المغربي المريني وليس المجتمع المشرقي العربي ، كما نقل فيها ملامح من سيرته الذاتية و جوانب من شخصيته السيكوسوسيولوجية و ما عاناه من فقر و إملاق .

¹⁹⁹ - من منافرات العدوتين . مرجع سابق . ص 16

ز- **طول الحجم والإطناب** : اشتركت المقامات الأندلسية و المغربية في سمة الطول على غرار المقامات المشرقية العربية (الأم و الأنموذج) ، وقد كنا قد استدللنا على ذلك بإعمال ابن بسام مقصه بالحذف في العديد من المقامات الأندلسية عازيا تصرفه فيها إلى شدة إطنابها²⁰⁰، وبإعمال الفتح بن خاقان لمقصه بالحذف في المقامة المرابطية اليتيمة ما قزمها إلى صفحة وربع الصفحة ، كما و لاحظنا أن المقامة الزهدية لابن المرغل وردت في عشرين صفحة، وجاءت مقامة الحضرمي في ثلاث عشرة صفحة. فالإطناب سمة مغربية و أندلسية ميزت مقامات الغرب الإسلامي عن المقامات المشرقية العربية ، وهو دليل على تمكن المقاميين المغاربة و الأندلسيين من زمام اللغة العربية وقدرتهم على التوسع في الإنشاء .

ك- **استحداث موضوعات مقامية جديدة** : فقد استحدثت الأندلس المقامات السياسية على يد ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري، ولا جنور لها بالمشرق العربي²⁰¹ ، كما ابتدع المقامات البلدانية وهي نوع جديد غير مسبوق في المشرق احتفى فيها ابن الخطيب بالمدن الأندلسية منشئا فيها أربع مقامات كما سبقت الإشارة إلى ذلك.²⁰²

وأما المقامات المغربية فقد اتخذت منذ نشأتها الأولى شكل الرسالة و تداخلت معها لدرجة أنه لا يمكن الحديث عن مقامة مغربية بالمعنى المشرقي لمفهوم المقامة، وإنما نلفي المقامات المغربية الرسائل (المقامة / الرسالة)، وذلك راجع أساسا لقفزها على بعض العناصر الثابتة في المقامات المشرقية (بطل- راو- عقدة- شخصيات ثانوية - جمهور...)، كما وأن المقامة المغربية أضافت لفن المقامة في الأدب العربي موضوعا جديدا غير مسبوق و هو البطولة النسائية الجماعية القائم على المفاخرة بين الجواري ، ثم إن عدوى المراسقات القلمية بين العدوتين لم تقتصر على فن الرسالة وإنما امتدت إلى فن المقامة، ومن هنا ظهور موضوع جديد غير مألوف لدى المشاركة وهو التراشق بالمقامات (السرقسطي و الملزوزي أنموذجين) .

²⁰⁰- من ذلك مقامات : ابن شرف- معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار لابن الخطيب – ابن شهيد ... و غيرها.

²⁰¹- له فيها : المقامة السياسية – ومقامة الإشارة إلى أدب الوزارة .

²⁰²- المقامات هي : الأولى: خطرة الطيف في رحلة الشتاء و الصيف(وهي في غرناطة) – الثانية: غير مسماة تدور في المغرب

- الثالثة: مفاخرات مالقة و سلا – الرابعة: معيار الاختيار .

✓ الفرع الثاني : معالم الاختلاف /الخصوصية

تشارك المقامات المغربية والمقامات الأندلسية في عدة سمات ومميزات تكسبها طابع التفاعل والتأصيل ، وتوحد فيها خصائص شاهدة على الانتماء لأدب الغرب الإسلامي. بيد أن التفاعل بين المقامات المغربية والمقامات الأندلسية لا يلغي ما قد يخفيه التأثر والتأثير من سمات خاصة تميز أدب كل عود على حدة بغض النظر عن انتمائهما معا لمنطقة واحدة موحدة (الغرب الإسلامي) ، ويمكن رصد تلك السمات كما يلي :

- انفرد المقاميون الأندلسيون بتضمين مقاماتهم بأشعارهم الخاصة، من نظمهم الشخصي ولم يوردوا أشعار غيرهم، في حين أن المقاميين المغاربة لم يجدوا حرجا في إيراد أشعار غيرهم من المشاركة والأندلسيين أو حتى المغاربة ، وتضمينها مقاماتهم . وهو اتجاه عام لدى المقاميين المغاربة؛ فقد كنا قد لاحظنا على الأزاريفي اقتباساته الكثيرة من أشعار المتنبي والحريري، ولاحظنا على المكلاطي اقتباسه من الصنوبري الشاعر الأندلسي ،ومن صفي الدين الحلبي المشرقي، ومن القاضي عياض المغربي.²⁰³

- بدت المقامات الأندلسية أكثر كما وإطنابا من إسهاب المغاربة في مقاماتهم ، ولعل مرد ذلك إلى وفرة النصوص المقامية الأندلسية قياسا إلى قلة المتون المقامية المغربية (لا تتعدى ما قبل العصر العلوي حيث حدود الدراسة تسع مقامات).

- تردد موضوع الكدية في المقامات الأندلسية أكثر من تردده في المقامات المغربية، إذ لا نجد له ذكرا إلا في المقامة الزهدية لمالك بن المرحل ، ولم يكن القصد منه المحاكاة والمعارضة على غرار ما وجدناه لدى السرقسطي ،بقدر ما هدف الكاتب لبث حالته النفسية المتأزمة والمكلومة من خلال بطل مقامته المشرد بالمشرق، فما البطل سوى مالك بن المرحل وما المشرق سوى

²⁰³- ينظر تفصيل ذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذه الدراسة،ضمن المطلب الثالث من المبحث الثاني: خدمة المقامة

المغربية لأغراض شعرية / الاستشهاد بأشعار الغير .

المجتمع المريني. فقد قاده حذره واحتراسه من الحكام المرينيين إلى التلميح والرمز، كما وأن توظيفه للكدية لم يكن الباعث عليه الاحتيال لكسب المال ، وإنما تصويره لفترة من حياته حيث قاسى الجوع والنبذ ، وهذا ما يعني أن توظيفه لموضوع الكدية لم يكن مجانيا كتوظيف السرقسطي له ، وإنما كان توظيفا لسيرته الذاتية، ومنه ارتباط مالك بن المرحل بواقعه وعدم قفزه عليه.

- انفراد المقامة المغربية بالبطولة النسائية الجماعية في المقامة الحضرمية (المفاخرة بين الجوارى العشر) وهو حدث غير مسبوق في تاريخ مقامة الغرب الإسلامي ولا في تاريخ مقامة المشرق العربي. وبغض النظر عن مدى استلهاهم الحضرمي لمقامته من الزجل المغربي الشعبي أو من ألف ليلة وليلة ، فإنه قد أعطى لركن هام من أركان المقامة بعدا جديدا خرج به من صيغة المفرد المذكر المألوف أو صيغة المثنى - حيث المزوجة بين دور البطولة ودور الرواية - إلى صيغة الجمع المؤنث حيث البطولة نسائية جماعية.

- انفراد مقامة الملزوزي (طرفة الظريف) بالاهتمام بالجمهور ورفعته إلى مستوى المشاركة في الرواية والحوار.

- غياب الجمهور في مقامة الحكمة، واهتمام التلمي بالتحليل النفسي لشخصيتي الراوي والشاب الرومي من خلال تبادل الرواية بينهما في مواضيع شاذة جنسيا ، رام من ورائها الكاتب إلى نقد الأمير السعدي الذي يشهد التاريخ على شذوذه وفق ما تذكره المصادر.

- الخروج المبكر للمقامة المغربية عن تقاليد المقامة المشرقية العربية ، والتصاقها الشديد بواقعها بخلاف ما عرفته الكثير من المقامات الأندلسية من إخلاص شديد في اتباعيتها للمقامات الأم (ابن شهيد - ابن شرف القيرواني - القرطبي - ابن فتوح - أبو الوليد بن عبد العزيز المعلم - الفتح بن خاقان - أبو حفص بن برد) ، وللمقامات النموذج (أبو الخصال - السرقسطي - الوادي أشي- ابن عياض اللبلي)، بينما لم يتعد عدد المجددين أربعة مقاميين : ابن المرابع - لسان الدين بن الخطيب - الفقيه عمر الزجال - النباهي المالقي صاحب المقامات النخيلية ، وهم من مقاميي الأندلس الصغرى حيث دنو أفول شمس الأندلس (897 هـ).

● المطلب الثاني: معالم التأصيل في مقامات العدوتين

إن ما رصدناه - على قلته - في محاور سابقة من تماثل بين المقامات المشرقية والمقامات المغربية والأندلسية لا يتعدى الثابت في المقامات العربية المشرقية من أركان المقامة المعروفة، والتي لم تخل دورها من إغفال لدرجة ميل المقامات الأندلسية والمغربية نحو أدب الرسالة. ذلك أن المتنوع والجديد في مقامات العدوتين أكثر من الثابت المتوارث، كما وأن بعضا من التماثل لا يلغي كثيرا من التمايز في مقامات العدوتين، وهو تمايز طال مضمون المقامة كما طال شكلها، مما طبع مقامات العدوتين بالتميز والتأصيل الناجمين أساسا عن تعلق شديد بالبيئة المحلية وبالواقع المعيش. إن ما يرسخ طابع التأصيل في مقامات العدوتين هو انطلاقها من واقعها الاجتماعي بالنقد والتعرية والكشف بهدف الوصول إلى حل و بديل، ومن تم ارتباط مقامات العدوتين بخطاب الإصلاح، وتسخير الأدب لخدمة المجتمع و أهدافه.

لقد نبتت مقامات العدوتين من تربة مجتمع البرين، في كثير من الالتصاق بالواقع والتعبير عنه وكشفه لتقويم وإصلاح اعوجاجاته الاجتماعية المنحدرة افتراضا من اعوجاجات سوسيو-اقتصادية أو سياسية أو نفسية. ولعل استعراض ما درسنا من مقامات العدوتين كفيل بإبراز خصوصيات مقامة العدوتين واستقلاليتها، والكشف عن معالم هويتها وتأصيلها، وتعبيرها عن خصوصيات أدب الغرب الإسلامي (العدوتين أساسا)، بالشكل الذي يجعل المتلقي (قارئا أو مستمعا) يحكم بانتماء المقامة إلى المغرب أو الأندلس دون أن يعي مسبقا اسم المقامي الذي أنشأها.

فالتأصيل في مقامات العدوتين تأصيل في النأي عن التعقيد اللغوي و عن الكدية، بل و عن أركان المقامة المعروفة وابتداع المقامة/الرسالة، وابتداع البطولة النسائية الجماعية، واتباع و تتبع المجتمع المحلي و الالتصاق به، وابتداع المقامات البلدانية والمقامات السياسية، ليرتبط التأصيل ها هنا بالإبداع والجدة و الخلق و الابتكار، مع الحفاظ على مقومات الشخصية الأندلسية و المغربية واكتساء أدب العدوتين للون المحلي الذي يضيف على التأصيل مشروعيته و مصداقيته. ذلك أن

كل أدب في بداياته ينزع إلى الاحتذاء الذي قد يرغم المقامي على التخلي عن المحلي و النهل من النتاج المشترك ، لكن الأدبين الأندلسي والمغربي لم يظلا طويلا حبيسي مرحلة التلمذة (على المشرق العربي) بل تجاوزاها لما كتبت لهما أسباب الندية و بعدها الأستاذة دون أن يفقد أي منهما لونه المحلي الخاص و المميز. و من هنا، التأصيل في أدب العدوتين .

إن التأصيل في المقامات الأندلسية قد بدت معالمه بارزة منذ أول مقامي أندلسي أنشأ مقامة مسهبة في الطول- لم تصلنا كاملة - تتداخل مع أدب الرحلة و تخلو من عنصر الكدية و هو ما جعل منها أول نص مقامي رحلي أندلسي. والارتباط الوثيق بين الرحلة و المقامة متأت من خصوصية محلية للمجتمع الأندلسي التواق للرحلة نحو المشرق و نحو المغرب طلبا للعلم أو الحج أو التجارة، وأما طول المقامة الشديد وكون " ابن بسام اقتضب من فصولها لطولها ما يدل على براعة كاتبها، وبلغ ما اقتضبه منها نحو عشرين صحيفة "204، فلتمكن صاحبها الواضح من المقدمة عن فن الكتابة التي خص بها مقامته، كما أن استهلاله لمقامته بالحديث عن مهنة الكتابة لا سرد الحكاية شيء مقصود منه لتبيان أفكاره النقدية و موسوعية ثقافته الأندلسية. كذلك ألفينا ابن شرف مقصيا للكدية من مقامته خارجا بها إلى ما يشبه رسالة نقدية تناولت فيما تناولته 205 شعراء الغرب الإسلامي، فكانت " أطول مقامة نقدية وفق صاحبها في النهوض بها من حديث سريع مجمل إلى رسالة لها مقدمة و فصول و نهاية "206. وقد ذكرنا أن ابن شرف وهو من أوائل الأندلسيين المنشئين في فن المقامة قد وسع من الدائرة الضيقة التي كانت المقامة سجينة خلال إطارها وهو موضوع الكدية.207

204- تاريخ الأدب عصر الدول والإمارات - الأندلس - . مرجع سابق . ص527

205- احتوت على نقد مشاهير الشعراء الجاهليين و الإسلاميين و شعراء الغزل وكذا المحدثين، لكنها لم تنس التعرض لشعراء الغرب الإسلامي .

206-النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي . مرجع سابق . ص391

207- نفسه . ص391

وهذا الانحراف المبكر للمقامة الأندلسية عن أصول المقامة المشرقية المشرقية مرده إلى التأصيل والاستقلالية و الخصوصية، وهي سمات أدب الغرب الإسلامي حيث طغيان الطابع المحلي على الأدب. ومن ملامح التأصيل جعل أغراض الشعر في خدمة المقامة، إذ لم يكن المدح فقط ديدنها، فقد أقام ابن عياض اللبلي مقامته الدوحية أو الغزلية على فن الغزل، واستحدث ابن الخطيب المقامات البلدانية والسياسية وجعل منها منبرا للتعريف بالغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب أساسا). و أما أبو محمد بن إبراهيم الأزدي المعروف بابن المربع (ت 750 هـ) فصاحب مقامة ساسانية تدعى "مقامة العيد" كتبها إلى حاكم مالقة يستجديه أضحية العيد، وهي تصور المجتمع الغرناطي في القرن الثامن الهجري أحسن تصوير بغض النظر عن موضوع الكدية " تصور ربة البيت... وترينا نظام التوثيق... وصناعة الفخار، و المحتسب و من يساعده " 208. ثم إن الحسن النباهي المالقي (ت 792 هـ) لم يخرج عن واقعه المحلي في مقامته النخلية، وهي مفاخرة بين النخلة و الكرمة، وهو اتجاه جديد بدت ملامحه في القرن السابع الهجري لدى المغربي المريني الحضرمي (مفاخرة الجواري العشر)، و ترسخ لدى ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري (مفاخرات مالقة و سلا)، ليكتمل لدى النباهي وهو يرمز للأندلس بالنخلة، وللعنصر النصراني بالكرمة في التصاق بواقعه المعيش وهو يتابع حملات الاسترداد النصراني لمدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى حتى لم يعد من الأندلس سوى دولة بن الأحمر بغرناطة. فقد عيرت الكرمة النخلة بالكبر و اليبس في إيذان بدنو انمحاء أثر الإنسان العربي من الأندلس و طرد المسلمين من غرناطة (الأندلس الصغرى).

208- تاريخ الأدب عصر الدول والإمارات - الأندلس- مرجع سابق . ص522

ولقد ذكرنا أن المقامات المغربية نحت نحو التأصيل منذ ميلادها المرابطي وبدا التأصيل فيها أكثر حدة منه في المقامة الأندلسية، إذ لم يعرف الأدب المغربي المقامة بقدر ما عرف المقامة/الرسالة، وبدا في استحداث الحضرمي لغرض المفاخرات في أدب المقامة بمقامته (مفاخرات الجواري العشر)، وباعتماده فيها على أسلوب الرسائل من حمدلة وثناء على الله تعالى وعلى الرسول الكريم، وهو ما شاركه فيه الأزاريفي لما ضمن مقامته مقطعاً شبيهاً بمقطع من رسالة أسلوبها تحميد وثناء وتسليم على رسول الله الكريم. وهذا التداخل بين أدبي المقامة و الرسالة نعهده مظهراً من مظاهر أدب الغرب الإسلامي لم نعهده في مقامات المشاركة، إذ لا جذور مشرقية له.

وكنا قد سجلنا كذلك خلو أدب المقامة في المغرب من الكدية التي طالت عدواها بعض المقامات الأندلسية، واكتفائه بالمضمون دون احترام التقاليد الهذانية (بطل - راو - عقدة - حيلة)، أو العناية بالشكل والإيقاع لدرجة التكلف الشديد. فليس في المقامة المغربية شيء من ذلك، وإنما فيها من معالم الخصوصية والتأصيل ما يطمس فيها كل معالم الاتباعية : فقد قدم مالك بن المرحل رؤية جديدة للاحتيال مارسه الثري على الفقير، كما ابتدع الحضرمي البطولة النسائية الجماعية، وتم تقاسم البطولة و الرواية وغاب الجمهور في مقامة الحكمة الإباحية، وتم إشراك الجمهور في الرواية في المقامة الحضرمية، ووصف الصحراء المغربية بتارودانت في المقامة الأزاريفية، وتوسل المكلاطي بالمفاخرة بين الأزهير لمدح شيخه الدلائي، و ما إلى ذلك. فكلها مظاهر للتأصيل ولاصطباغ المقامة المغربية باللون المحلي اصطباغ المقامة الأندلسية به، فما التأصيل في أدب الغرب الإسلامي إلا ملمح عام لملمح تأصيل مغرق في ارتباطه بالإقليمي والمحلي في الأدبين الأندلسي و المغربي .

• خاتمة الفصل الثاني/الباب الثالث:

إن التأصيل في أدب مقامة الغرب الإسلامي يجد دلالاته العميقة في مقاماته نفسها، فهي تحدد الموقف من الآخر أولاً، ثم من الذات ثانياً. بمعنى، أنها تحدد موقف الإنسان المغربي من جاره الأندلسي والمطبوع بالكرم والضيافة والجهاد إلى صفه ضد حروب الاسترداد الصليبي لمدن الأندلس، وتجلي موقف الإنسان الأندلسي من جاره المغربي الذي يرد إليه أسباب الفتنة البربرية ويتعالى على جنسه الأمازيغي، وبمعنى أيضاً اتجاه كل من المقامي الأندلسي والمقامي المغربي إلى الالتصاق بواقعه وبالتعبير عنه، وهذا فعلاً دأب مقامي الغرب الإسلامي، فقد كانت مقامات الأندلسيين والمغاربة – في مجملها- مرآة صادقة لما يروج في مجتمعيهما وهذا هو جوهر التأصيل، فمقاماتهما يمكن إرجاعها إلى أصل ثابت وأساس تقوم وتبنى عليه، تنطلق منه وتصب فيه، تستنطق مشاكل المجتمع بغية الإصلاح، وهذا ما يفسر جنوح أدب مقامة الغرب الإسلامي منذ بدايات نشأته الأولى نحو الخصوصية، والتعلق بالواقع، والنأي عن موضوع الكدية، واستحداث موضوعات مقامية جديدة، والتداخل مع أدب الرسالة، وما إلى ذلك من معالم للتأصيل، ذلك أن النهل من الموروث المشرقي العربي المشترك لم يفقد المغرب والأندلس ارتباطهما بالإقليمي والمحلي الخاصين.

خاتمة:

تبينت لي من خلال هذه الدراسة عدة نتائج بالغة الأهمية موزعة بين أبوابها الثلاثة، وبين ثنايا فصولها الستة. فأما النتائج التي توصلتُ إليها في الفصل الأول (الإطار النظري) من الباب الأول من هذه الدراسة فيمكن إجمالها فيما يأتي:

- إن النثر الأندلسي في مراحلته الأولى كان لا ينفصل عن النثر المشرقي العربي وبخاصة في عهد الفتح الإسلامي وعهد الأمويين وملوك الطوائف، وأما بعد ذلك فقد انحصرت نسبياً بذور الاتباعية - التي شملت الشعر والنثر على حد سواء - ، وبدأت على النتاجات النثرية خيوط الجودة والإبداع والتميز. ومن ثم لم تكن اتباعية الأندلس للمشرق اتباعية مطلقة بقدر ما كانت اتباعية نسبية، تحكمت فيها طبيعة الشخصية الأندلسية الميالة للإبداع والتميز والمعارضة والتحدي والتفوق، وذلك في علاقتها بالمشرق، والتي طبعها الحنين والاحتذاء مرة، وطبعها الصراع والمعارضة مرات أخرى، كما طبعها التفوق الأندلسي على المشرق لدرجة التأثير، وهو تأثير لا تستسيغ الكتابات المشرقية الاعتراف به عادة.

- وإن النثر الأندلسي عكس الصراع المحتدم الذي كانت المشرق مسرحاً له، وهو الصراع بين القديم والحديث، وقد بدأ ذلك واضحاً على كتاب الأندلس، فكان أن سار النتاج المقامي الأندلسي في اتجاهين: اتجاه تقليدي اتباعي، واتجاه تجديدي ابتداعي.

- ثم إن المقامات لم تكن يوماً زهرة برية نبتت فجأة - كما يتصور عبد الفتاح كيليطو - ، بل إن الهمداني - مخترع أدب المقامة بشكله الفني المعروف - كان مسبقاً في مقاماته بخلفيات شكلت - مقامات الزهاد لابن قتيبة (ت 282 هـ) ، و مقامات الوعاظ ، والمحاورات الأدبية المعروفة بالمقامات في القرن 3هـ، وأقاصيص الكدية - البوادر الأولى لاهتداء البديع لإنشاء مقاماته.

- وإن القول بفارسية أصل المقامة لا بعروبيتها مردود على أهله، لأن الباحثين يكادون يجمعون على معارضة الأدب الفارسي للأدب العربي في إنشاء المقامات كالتالي "للحميدي"، وليس العكس.

- وإن القول بتأثر البديع بابن دريد ومعارضته قول مردود على أصحابه، لأن المعارضة تكون في العدد وفي المواضيع، ولا وجود لشيء من ذلك بين البديع وابن دريد.

- وإن الربط بين المقامات والكدية هو ربط غير ضروري منهجياً ، وغير ذي أساس معرفي متين. فصحيح أن أغلب المقامات تدور حول الكدية لكن ليست كلها كذلك، ذلك أنه لكل مقامة موضوع منفصل وقائم بذاته، وأما الكدية فهي صفة ملازمة للبطل وحده.

- وإن وصول المقامات المشرقية للأندلس لم يشجع كثيراً الأندلسيين على معارضة البديع بقدر ما احتقوا بالحريري، الذي صارت مقاماته أنموذجاً للمعارضة والشرح (الشروح الثلاثة للشريشي). وحيث إن جل المقاميين مشاركة وأندلسيين كانوا أدباء يشتغلون بالمنظوم والمنثور معاً، فقد كان طبيعياً أن تكسر المقامات الحدود بين الشعر والنثر مشكلة فضاء لتفاعل عدة أجناس أدبية في خدمة أغراض ظاهرها تعليمي لغوي، وباطنها ثوري اجتماعي.

وأما النتائج التي توصلت إليها في الفصل الثاني (الإطار العملي) من الباب الأول، فيمكن إجمالها فيما هو آت:

- إن دراسة مظاهر التقليد و الاتباعية في المقامات الأندلسية كانت مشروطة بدراسة المقامات المشرقية وخاصة الهمدانية والحريرية ، وذلك لتبين خيوط الاتباعية لدى المقامين الأندلسيين. فرصدت أولاً خصائص كل مقامي منهما، منتهياً إلى أن التشابه بينهما أمر بديهي تأثر اللاحق فيه بالسابق ، لكنه تشابه و انتلاف لا يلغي مظاهر الاختلاف بينهما ، و هي التي جعلت من مقامات الحريري : "المقامات النموذج" ، فقد غير في أسماء المقامات ووسع في ذكر البلدان (مصر ، المغرب ، مكة ، المدينة) .ثم إن الهمداني أبان عن شخصية سيكولوجية ضعيفة إذ تعرض بطله مراراً للخداع، على عكس بطل الحريري المفحم دائماً لمن يعترض سبيله. وكان الهمداني أيضاً جريئاً في انتقاد الأوضاع السياسية، في حين بدا الحريري محتشماً في تعريتها.

- وإن النتاج المقامي الأندلسي محصور ما بين القرن 5 و9 هـ ، وإن الأندلس لم تقدم للأدب العربي مقامياً على غرار الحريري والهمداني باستثناء السرقسطي، وأما من سواه فلم يتجاوز نتاجه

مقامة أو مقامتين . وإن من الأندلسيين من حاكى المشاركة ، لكن منهم من جدد وخرج بالمقامة الأندلسية لما يشبه الرسالة، وهو انحراف مبكر عن مسار المقامة عرفته الأندلس منذ عهدنا الأول بالمقامات. ولذلك لا غرو أن تم التركيز على المقامات السرقسطية التي وإن كانت تصنف ضمن الاتجاه التقليدي، فإنها لا تخلو من مظاهر التجديد و الاستقلالية والخصوصية. فقد صرح السرقسطي بمعارضته للحريري في صدر مقدمة مقاماته، وكان مخلصا في اتباعيته مضمونا وشكلا لدرجة أنه عرض لظاهرة الكدية في ثلاث عشرة مقامة من مقاماته، رغم أن ظاهرة التسول كانت شبه منعدمة بالأندلس. واكتفى في عرض آرائه النقدية باجترار آراء سابقه (مقامة الشعراء، مقامة النظم والنثر)، وما يزيد في تكريس صفة الاتباعية لديه، هو تصويره لنفس المدن التي صورها المشاركة، ولو كان قد احتفى بوصف وذكر المدن الأندلسية لكانت مقاماته حقا صورة حية لواقعه لا للواقع المشرقي. وأما على مستوى الشكل فقد أجرى مقاماته مجرى المقامات المشرقية مخالفا غيره من الأندلسيين من حيث الإطالة والإسهاب ، كما أخلص في تقفي السجع لدرجة لزوم ما لا يلزم - على غرار الحريري والمعري في ديوانه اللزوميات - كما كان وفيها في المحافظة على أركان المقامة المعروفة : وحدة البطل والراوي / وحدة الزمان والمكان / وحدة الشكل اللغوي / وحدة الموضوع / وحدة الوظيفة.

وأخيرا لم يكن الحكم باتباعية السرقسطي حكما مطلقا وموضوعيا، بقدر ما شابته النسبية، فالحريري في اتباعيته للهمذاني كان محتذيا ولكن مع نسبة لا يمكن تجاهلها أو إنكارها من الخصوصية والتميز، وكذلك اعترف السرقسطي باتباعيته للحريري ، لكن ذلك لم يمنع من ظهور عدة ملامح للخصوصية في نتاجه المقامي . فقد خالفه في أسلوبه المعقد والمتكلف [اللهم: المقامة المثلثة - المرصعة - الرقطاء (حروفها أحدها منقوطة والآخر بلا نقط) - المغربية (تقرأ عبارتها طردا وردا)]، واتخذ راويتين عوض راو واحد ، وخلت بعض مقاماته من المقدمة والخاتمة ، ولم يسم كثيرا من مقاماته . وقد بدت الخصوصية لديه في المقامة الحادي والأربعين (البربرية) إذ ألفيتها مجالا تطبيقيا لفحص مظاهر التفاعل بين الأدب العربي المشرقي وأدب الغرب الإسلامي :

فشكل المقامة مشرقي ، وموضوعها مغربي، ومؤلفها أندلسي، والعلاقة بين المؤلف والشكل علاقة اتباع ، في حين أن العلاقة بين الشكل والموضوع علاقة ابتداع .فالخصوصية في الموضوع تكمن في جدته إذ هو غير مسبوق، وفي واقعيته إذ يعبر عن طبيعة العلاقة التي أطرت المغرب بالأندلس، وكان الأندلسيون عادة ما ينتصرون لبلادهم على حساب المغرب، ومن ذلك على سبيل المثال : انتصار ابن الخطيب في مقامته البلدانية إلى مالقة على حساب سلا، وهو من كان لفترة من عمره محط عناية وكرم أهلها . فالتعصب ضد البربر (المغاربة الأمازيغ) صفة لم يسلم منها حتى كبار الأدباء والأندلسيين (خاصة المؤرخين)، وإليهم يردون أسباب الخروج من الفردوس المفقود. فقد اتخذت من المقامة مطية لمعالجة الفتنة البربرية بوصفها خلفية تحكمت في إنشاء السرقسطي لها، ليكون بذلك أكثر التصاقا بواقعه خلافا لما أفيناه في باقي مقاماته من تنقل بين بقاع المشرق لا الأندلس . وما تعصبه العنصري (وهم الشعور بالنوع - تعصب العرب ضد البربر) إلا صورة مصغرة لتعصب الأندلسيين جملة وتفصيلا ضد المغاربة (البربر) .

- وأما المقامات الأندلسية التي سبقت وجود السرقسطي أو تلتها فإنها حبلى بمظاهر الخصوصية، إذ بدا الانحراف عن التقاليد المقامية الموروثة عن الهمذاني والحريري واضحا منذ البداية حتى لدى الرواد الأوائل (الاتجاه التقليدي)، أمثال ابن شهيد وابن شرف القيرواني وابن مالك القرطبي، إذ مالوا بها إلى الرسالة في إطنابهم ، وفي عدم تقيدهم بالقوالب الفنية التي وضعها الهمذاني. وحتى من جاء بعد السرقسطي من المجددين من أمثال لسان الدين بن الخطيب ، لم يلتزموا بأصول المقامة المشرقية لا شكلا ولا موضوعا، إذ استحدث ابن الخطيب المقامات البلدانية والمقامات السياسية.

إن المعالم الدالة على التجديد والخصوصية في النتاج المقامي الأندلسي عديدة سبق لنا إثبات حجيتها ، ومن ذلك: التداخل مع الرسالة - والارتباط بأدب الرحلة - وخدمتها لأغراض شعرية (المدح مثلا) - خلوها من الكدية (ماعدا ما تعرض له السرقسطي في مقاماته)- التزام طول الحجم والإطناب (باستثناء مقامات السرقسطي) -الارتباط بالبيئة المحلية (مقامة ابن فتوح في

شعراء عصره الأندلسيين (نموذجاً) - الخلو من التعقيد اللغوي (سهولة الألفاظ و دقة معانيها) - استحداث موضوعات مقامية جديدة (سياسية و بلدانية).

وأما النتائج التي توصلت إليها في الباب الثاني الخاص بدراسة مظاهر التقليد والتجديد في المقامة المغربية ما قبل العصر العلوي، فيمكننا إجمالها في الآتي :

- ضرورة تصحيح تاريخ نشأة المقامة المغربية المرتبط بالعصر المريني (1244-1456م) والرجوع به إلى العصر المرابطي و الموحدية بعده، إذ افترضت هذه الدراسة منذ البدء ضرورة حدوث تفاعل أدبي بين العدوتين في ظل الوحدة السياسية على عهدي الموحدين والمرابطين. وعليه، مثلت للعصر المرابطي بمقامة عامر في مدح أميره المرابطي تميم، ومثلت للعصر الموحدية بالمقامة الفاسية للوهراني المعد مغربياً بحكم اعترافه بمغربيته في المعجب للمراكشي، أو لنقل على الأقل إنه شخصية مشتركة يتنازعها المشرق والمغرب الإسلامي.

- تأخر انبثاق أدب عربي في المغرب عن ظهوره في الأندلس على الرغم من أن المغرب عرف الفتح الإسلامي قبل الأندلس، إذ لم يسمح العصر الإدريسي - في ظل غياب تعريب المجتمع، وانعدام الوحدة المركزية للدولة - بظهور الأدب المشروط بالأمن لازدهاره، ولذلك لا يمكن الحديث عن نشأة أدب مغربي إلا مع قيام دولة المرابطين أولاً، ثم الموحدين أساساً. فرغم ارتباط العصرين بالجهاد في الأندلس لكنهما عرفا برعاية الأدب، وهو ما يعني خضوع المغرب لتأثير مزدوج مارسه الأدبان المشرقي العربي والأندلسي على الأدب المغربي الناشئ آنذاك (مرحلة التلمذة).

- عرف أدب المقامة ازدهارا واسعا في العصر المريني (مرحلة الندية)، ازداد أهمية في العصر السعدي (مرحلة الأستذة)، ذلك أن المغرب قدم للأدب العربي مقاميين متميزين أبانوا عن قدرة عالية على المحاكاة والتجديد في خصوصية واستقلالية تامين، وفي تأصيل وارتباط بالخصوصيات المحلية. والتفكير في إعادة كتابة تاريخ جديد للمقامة المغربية ينبغي أن تكون بداياته العصر المرابطي والموحدية (رحم المقامة المغربية)، ونشأته العصر المريني (مهد المقامة المغربية)، واكتماله وتمازج العصر السعدي (مرحلة الأستذة بالنسبة للمقامة المغربية على مثيلاتها المشرقية العربية والأندلسية).

- يحصر جل الباحثين المقاميين المغاربة ما قبل العصر العلوي في خمسة أعلام منها ثلاثة أسماء تمثل العصر المريني (عبد العزيز الملزوزي(ت667 هـ) - عبد المهيمن الحضرمي(ت749 هـ) - مالك بن المرحل (ت 699 هـ) ، وعلمان يمثلان العصر السعدي (محمد بن أحمد بن عيسى التملي (ت 990 هـ)، ومحمد بن أحمد المكلاطي (ت 1041 هـ))، بيد أن الدراسة وسعت من عدد المقاميين ليصل إلى تسعة مقاميين مغاربة ، أثبتت المصادر والمراجع المتفرقة المعتمدة فيها أن منهم المرابطي و الموحدي و المريني و السعدي ، محتفية بمقامتين قلما تم التعرض لهما بالدراسة أو التحقيق ، وهو حال " مقامة الحكمة للتملي " لفرط إباحيتها وتناقضها مع المنهج الأخلاقي الفقهي المغلف للأدب المغربي منذ عصر المرابطين، أو بالدرس وإعادة ترتيب تاريخ المقامة المغربية والاحتفاء بأدب البدو(عمق المغرب المنسي مقارنة بالحواضر)، وهو حال "مقامة الأزاريفي" .

- لم يخل النتاج المقامي المغربي – ما قبل عصر العلويين – من مظاهر للاتباع النسبي لا المطلق للمقامة المشرقية العربية (مجاتها في بعض موضوعاتها التقليدية) ، وللمقامة الأندلسية (تأثر المكلاطي بالمفاضلات الأندلسية بين الزهور في مقامته الزهرية في مدح الشيخ أبي بكر الدلائي)، لكنه في نفس الآن لم تخف اتباعيته تأصيله ونزوعه نحو التجديد والاستقلالية والخصوصية. إذ لم تخل مجاراته للمشاركة من توسيع في بعض الموضوعات أو تقليص لبعضها، أو قفز على بعضها الآخر وبخاصة ظاهرة الكدية التي شكلت العمود الفقري للمقامات المشرقية العربية. فلم يتعرض لها سوى مالك بن المرحل، ولم يخل تناوله لها من ارتباط بواقعه المعيش وخصوصيات مجتمعه المحلية، إذ لم تكن المقامة سوى بعضا من سيرته الذاتية، عبر من خلالها عن وضعه الاجتماعي والاقتصادي المأزوم في فترة من فترات حياته. وعليه، فالقول باتباعية المقامة المغربية يكتنف خصوصية واستقلالية وتأصيلا لا مجال لإنكارها جميعا، ومنه نفهم التأثير في المقامة المغربية على أنه محاكاة وليس تقليدا، وأنه تأثر نسبي لا مطلق.

- عرفت المقامات المغربية منذ نشأتها الأولى انحرافا مبكرا عن تقاليد المقامة المشرقية ، ما جعلها تزخر بعدة معالم للتجديد والتأصيل سبق وأن عبرنا عنها بمعالم الاستقلالية في المقامة

المغربية: التداخل مع الرسالة (لحد القول إن المغرب لم يعرف المقامة بل المقامة/ الرسالة)، وذلك لابتعاد المقامة المغربية عن أركان المقامة المشرقية (بطل - راو - عقدة - كدية واحتيال)، واعتمادها أسلوب أدب الرسالة من تحميد وثناء وغيرهما مما لاحظناه على الأزاريفي والحضرمي- الارتباط بأدب الرحلة (مقامتان حقيقتان: مقامة طرفة الظريف للملوزي في طريفة والجزيرة الخضراء بالأندلس، والمقامة الأزاريفية للأزاريفي في صحراء تارودانت بالمغرب؛ و الثالثة خيالية ذهنية: المقامة النجدية لمالك بن المرحل، عرّى بها أحوال نجد المشرقية و أحوال بطلها المتشرد، وهو لا يعني إلا نفسه وبلاده المغرب في العصر المريني) - الخلو من الكدية - طول الحجم و الإطناب- الارتباط بالبيئة المحلية - استحداث البطولة النسائية الجماعية - توسيع دائرة المرافقات القلمية بين العدوتين من فن الرسائل إلى فن المقامات من خلال رد الملوزي بمقامته (طرفة الظريف) على مقامة السرقسطي (المقامة البربرية) ليقيم كل منهما صورة معاكسة لواقع الأندلس والمغرب إنسانا و مكانا.

وقد شكل الباب الثالث من هذه الدراسة فضاء لدراسة هذا الجانب من المرافقات القلمية بين العدوتين من خلال أدب المقامة، وذلك بوصفه مدخلا من المداخل التي تتيح دراسة أوجه التفاعل بين الأدب الأندلسي والأدب المغربي حيث تتجلى معالم التأصيل في مقامات العدوتين، وحيث تكتسي مقامة الغرب الإسلامي حلة مختلفة تماما عن حلة المقامة المشرقية العربية، ذلك أن اللون المحلي البادي على مقامات العدوتين هو ما منحهما استقلاليتها وتأصيلهما.

- اقتضى الحديث عن التفاعل بين العدوتين وما يرسخه من سمات التأصيل في أدبهما (فن المقامة تحديدا) التوسل بعدة مفاهيم شكلت ثنائية "الإنسان والمكان" مرتكزا الأساس. فتم إبراز ما بين المفهومين من تجاور وارتباط وتعلق جعل الهمذاني يرتبط بمكانه/واقعه في إنشاء مقاماته ذات البعد الاجتماعي، وكذلك كان المقاميون المغاربة والأندلسيون مرتبطين بمنطقة الغرب الإسلامي عاكسين خصوصياتها الإقليمية في مقاماتهم المصطبغة باللون المحلي، كما و تم إبراز كيفية تناول كل من المقامات الأندلسية و المقامات المغربية للآخر (الإنسان) ولبده (المكان) في ظل عداوة

العدوتين وما كان بينهما من مراشقات قلمية. فكان أن أفرز التفاعل بين الجارتين صورا مشوهة للإنسان و المكان، لكنها صور دالة على واقع حقيقي يثبت تاريخ العدوتين. ومن هنا، التأسيس في أدب الغرب الإسلامي، إذ هو سمة ملازمة له تمنحه دلالة هويته وانتمائه وخصوصيته المحلية، وهو ما يجعل الذات الأدبية للعدوتين مختلفة ومتميزة عن أية ذات أدبية أخرى .

- انتماء المغرب والأندلس جغرافيا إلى منطقة الغرب الإسلامي، والوحدة السياسية بينهما على عهد المرابطين والموحدين، والتاريخ المشترك فتحا إسلاميا ولغة وعروبة (أصل الأمازيغ عرب كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ، ولد بين الجارتين تفاعلا أدبيا مارست الأندلس فيه في البداية دور المؤثر قبل أن تتحقق للشخصية المغربية استقلاليتها في العهدين المريني والسعدي. وإذا كان السبق الزمني للأندلس على المغرب من حيث ميلاد أدبها يبرر مشروعية تأثير الأدب المغربي بالأدب الأندلسي، فإن الأدب المغربي على الرغم من تأثره بالأدب الأندلسي وتأثره بالأدب المشرقي العربي، فقد ظل محافظا على ملامحه الخاصة المنبثقة من ارتباط الأديب المغربي ببيئته وواقعه المحلي. وإذا كان الأدب الأندلسي قد حظي باهتمام الأعلام المشرقية ما بواه المكانة اللائقة بإسهامه في الأدب العربي العام والمشارك، فإن الأدب المغربي ظلت صورته باهتة في الأدب العربي، بل وإنه قد حفظ لنا التاريخ العديد من المصادر الأندلسية بينما ضاعت العديد من المصادر المغربية العلمية والأدبية، زيادة على اتجاه الأدباء المغاربة إلى تخليد ذكر الأندلس في مؤلفاتهم خلافا لما عهدناه في مؤلفات الأندلسيين من تحامل على المغاربة ومن تعال عليهم (المراكشي في المعجب أنموذجا).

- أفضت المنافسة والملاحاة بين العدوتين إلى المراشقات القلمية فكان أن امتطيتها لقياس التفاعل بين البرين من خلال ما أنتجته الأندلس والمغرب من مقامات. وبنيت دراستي لهاته المقامات على أساس محورين هما: الإنسان والمكان، واستطعت من خلالهما اقتفاء ملامح كل من الإنسان والمكان الأندلسيين في مقامات المغاربة، وكذا تتبع سمات الإنسان والمكان المغربيين من خلال المقامات الأندلسية، فكان الحاصل – كما أسلفنا – صورا مشوهة لا تعبر عن واقعها، ومرد ذلك إلى طبيعة النفرة والعداوة بين العدوتين ، فهي ما أنتجها ووسمها بمعالم القبح بدل الجمال المتأصل

فيها. فقد أزرى ابن الخطيب من شأن مدينة سلا التي أوتاه مفضلاً مالقة (الأندلس) على المغرب (مفاخرات مالقة وسلا). كما وأبدى السرقسطي تعصبه العنصري ضد البربر - الذي ما هو إلا مظهر لتعصب الأندلسيين ضد المغاربة - فاستخف بالإنسان المغربي البربري واستهزأ به في مقامة أنشأها فيه وأسمها "المقامة البربرية" لا لشيء سوى للتهكم والسخرية من المغاربة. وقد رد عليه الملزوزي بمقامة (طرفة الظريف) مجرداً الإنسان الأندلسي من عزة النفس والمروءة، ناعثاً إياه بالبخل واللؤم وتبدل اللسان وتحريف كلام الله تعالى وتحريف أحكام القضاء. كما ولعن المكان الأندلسي معيباً على طريفة الرائحة الكريهة المنبعثة من مجاري المياه العادمة، عازماً الرحيل إلى بلده الأم (المغرب) حيث الألفة والأهل ومكارم الأخلاق.

- وإذن لم يكن التصنع اللفظي - وإبراز الكفاءة والتمكن اللغوي والتقيد بالأساليب الأدبية والأسلوبية الشائعة آنذاك - السبب الداعي إلى الإنشاء في هذا الفن النثري العربي بالغرب الإسلامي، بقدر ما كان الدافع السوسيولوجي أهم الدواعي. فقد كان فن المقامة فنا نثرياً جديداً فرضته وقائع اجتماعية جديدة أيضاً، استدعت من الأدباء التعبير عنها وتعريفها فيما يعرف بـ "النقد الاجتماعي"، متوسلين فيها بثتى فنون القول شعراً وحكماً وأمثالاً ومناظرات ووصايا وخطبا ورسائل وألغازاً، سادين آنذاك باب النقص في فني القصة والمقالة العربية. وهو ما أفاد منه الأدب الأوروبي - في العصور الوسطى - فيما عرف بقصص الشطار التي شكلت الإرهاصات الأولى لميلاد القصة والرواية بمفهومهما الحديث، في الوقت الذي كانت فيه المقامة العربية في طريقها إلى الأفول إبان عصر الجمود والانحطاط الحضاري للعرب، إذ ميل بها عن سياقها الأصلي ولم يتشبت الأدباء فيها بغير الجانب الشكلي مهملين الجانب المضموني. ولذلك فالمحاولات العربية إبان عصر النهضة لإحياء هذا الفن باءت بالفشل (ناصر اليازجي - حافظ إبراهيم - بيرم التونسي - وغيرهم)، خاصة مع اكتمال تطور فن القصة لدى الغرب، ناهيك عن "الكاريكاتير المصور" على أيامنا، والذي سد الطريق نهائياً في وجه فن المقامة. ولا غرو في ذلك فلكل وقت آذان، فبالأمس القريب كان فن المسرح واليوم فن السينما وغداً شيء آخر. إنها سنة التطور والتحول والتغير، فقد كانت المقامة لما لم تكن هناك مقالة أو قصة كما نفهمها اليوم.

إن للمقامات قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية عالية، فهي وثيقة مهمة تصور ذوق عصرها وثقافته العامة، وأخلاقه وحالته الاقتصادية. إنها تؤرخ لمجتمعها في لحظة ما من لحظات تشكله وتحوله، ممتطية السرد في تمثيل الواقع والتعبير عنه والتمرد عليه لتغييره وتعديله عبر أشكال متعددة من النقد البناء، والهدم (معتقدات بالية) والبناء (قيم جديدة)، والاحتيايل. فالاحتيايل بالسرد هو ما انحرف بنهاية شهرزاد من القتل إلى العفو، وبشهر يار من حالة اللا استقرار النفسي إلى الاستقرار الاجتماعي (زواجه بشهرزاد وإنجابه منها)، ومبدأ الاحتيايل هذا والانحراف به من غاية إلى غاية هو ما شكل محور المقامات في قيامها على الكدية والتسول، فالبطل يتوسل بالسرد لتضليل سامعيه للحصول على غايته المادية.

إن هذه القيمة العالية لفن المقامات هي ما يجعلنا نتجاوز النظر إليها على أنها مجرد حديقة لغوية أدبية باعثة على المتعة البلاغية، إلى اعتبارها خطابا سرديا إدانيا. ومن هنا، تركيزي على مضمونها أكثر من الاحتفاء بإيقاعها خلافا لما نهجته أغلب الدراسات.

إن أول ما يلفت الانتباه في إلحاحنا على التمسك بالجانب المضموني في المقامات هو ارتباط تلك المضامين بالواقع، ومن ثم لم يكن استحداث الهمذاني لفن المقامة متأسسا على خيال محض، بقدر ما كان نابعا من تجذره في مجتمعه العباسي (ق 4هـ)، الذي كانت قد وصلت فيه الحضارة العربية أوج ازدهارها، وهو ازدهار لم يخف على المؤرخين ما آلت إليه الحالة الاجتماعية والاقتصادية للعباد لدرجة سرقة الأطفال الصغار وشيهم، أو شي الكلاب، وما إلى ذلك مما تشمئز النفس من ذكره. ومثل هذه الصور السوداوية هو ما حمل الهمذاني على الالتفات إليها وتصويرها وتعريفها رغبة منه في التغيير الاجتماعي.

إن إعادة النظر في المقامة كمضمون اجتماعي واقعي، يقتضي استبعاد النظر إليها على أنها مجرد شكل لفظي متكلف، غايته الأولى والأخيرة تعليم اللغة. وهذا يقودنا بالضرورة إلى اعتبار المقامة ضمير عصرها، والشاهد على طبيعته. ولذلك لا غرو إذا قلنا إن المقامات الهمذانية كانت استجابة طبيعية لمؤثرات العصر العباسي، وأن المقامات السرقسطية كانت مرآة عاكسة لمعالم عهد

المرابطين بالأندلس، كما كانت المقامات المغربية أكثر إلحاحا على التشبث بواقعها المحلي. فالأدب نتاج المجتمع الذي ظهر فيه، والتعقيد في الأدب هو نتاج التعقيد في الواقع، بحيث لا يبقى مظهر من مظاهر حياة ذلك العصر إلا وبالإمكان تلمسه في المقامات، ولا يبقى في المقامات من مظهر إلا وبالإمكان تلمسه في ذلك المجتمع. و من هنا مكن الأهمية التاريخية للمقامات بوصفها أول ثورة أدبية واجتماعية على تدهور الأوضاع في المجتمع العربي القديم، وليست مجرد شكل لفظي مرصوف ومتحجر. بل إنها وثيقة تاريخية وحضارية واجتماعية وأدبية ودينية صادقة عن عصرها. فالمقامات البديعية، كما الحريرية، والأندلسية، والمغربية، تبسط أمامنا مناظر وصور واقعية واضحة وشبه كاملة عن حياة المجتمع الذي أنشئت فيه، ليس لمجرد العرض والبسط، وإنما للنقد والإصلاح والتوجيه والتغيير الاجتماعي.

إن العناية بأدب المقامة ترجع أولا وقبل كل شيء إلى أهميتها الإنسانية العميقة، إذ المقامات أدب يستمد مباشرة من الحياة، ونحن حين نتأملها نستكشف ونكتشف معا ما بين أنفسنا وما بين الحياة علاقات وطيدة جديدة. فاستحداث فن المقامة عند الهذاني وركوبه عند لاحقيه من المعارضين الأندلسيين والمغاربة لم يحدث من فراغ أو فجأة، وإنما استمد مادته من الحياة، يسائلها في تناقضاتها ويدفعها ويوجهها نحو هدف أسمى هو الإصلاح والتغيير. والمقامي البارع هو الذي يتأثر بمجتمعه ويتخذ لنفسه موقفا فكريا إيجابيا وليس سلبيا، كما هو حال كثير من أبطال المقامات -المشرقية خصوصا- الذين انغمسوا في حياة اللهو والخمر كشكل من أشكال الهروب من الواقع والخنوع له. ولقد بدا بعض المقاميين المغاربة جريئين في تعرية الواقع السياسي والاجتماعي لمجتمعاتهم (مقامة الحكمة للتملي)، في حين لم تتعد جرأة البعض التلميح (المقامة الزهدية لمالك بن المرحل).

إن المقامي البارع هو الذي يتأثر بمجتمعه ثم يؤثر فيه بما يقدمه له من قيم جديدة تساعد على تغييره وإعادة تشكيله. فلقد شكلت المقامة ثورة أدبية حقيقية في النثر العربي شكلا ومضمونا، ثورة تمخضت عن ثورات اجتماعية أشعل ويشعل فتيلها صراع سرمدى بين الخير والشر. ثورة رامت تعرية الواقع والعلاقات الاجتماعية ليس لمجرد الكشف أو التقديم في قالب كاريكاتيري قاتم

السواد، وإنما لهدف أسمى وأنبى هو الإصلاح. وهذا الهدف بدأ لنا جليا من خلال الإرهاصات الأولى لظهور المقامة في الغرب الإسلامي وقبل ذلك، أي الحريري والبديع في المشرق، وقبلهما الجاحظ وغيره، وقبلهم جميعا عند الخطباء والزهاد والوعاظ .

ولعل حديثا مثل هذا عن الروافد والأصول والغايات الحقيقية من استحداث فن المقامة، يفتح بنا لا محالة على امتداداتها في الأدب الأوربي، وعلى إشكاليات قد تكون مجال اشتغال أوسع مستقبلا ويمكن أن نسوقها على سبيل التمثيل لا الحصر كما هو آت :

أ - علاقة فن المقامة العربي بقصص الشطار أو رواية الصعلكة المعروفة في الأدب الإسباني إبان القرنين 16 و 17 الميلاديين.

- حدود مساهمة المقامة في ميلاد فني القصة والرواية بمعناها الحديث بأوربا.

- جذب المقامة للقصة وللرواية الأوربيتين إلى المجال الواقعي، حيث صار القاص الأوربي يتحدث عن مجتمعه الراهن، في إطار فني محكم، بطله إنسان عادي وليس إلهة كما هو الحال في الأدب الإغريقي.

ب - وإذا تجاوزنا الأدب الإسباني إلى الأدب الفرنسي مركزين على "الفابولا" أو "الفابيلو" كأحد الأجناس الأدبية الفرنسية الأولى للقصة منتصف القرن 12 وحتى أوائل القرن 14 الميلادي، فإنه يمكن أن تكون قد تأثرت بالمقامة تأثرها الواضح بكليلة ودمنة، خاصة وأنها أقصوصة شعبية شعرية تحمل معنى النقد والهزاء الاجتماعي في شكل مثير للسخرية ومستدع للضحك.

ج - و إذا شئنا أخيرا أن نسائل الأدب الألماني عن تأثره بفن المقامة العربية ، تستوقفنا رواية "أمريكا" للشاعر الألماني فرانتس كافكا (ت1924م) وقد بدأ تأثره واضحا بمقامات الحريري من حيث طابعها الهزلي ومغامراتها المتسمة بالبهجة والإثارة والمتعة، وشكلها الفني القائم على فصول مستقلة، إذ أن كل فصل فيها يشبه المقامة في كونه قائم بذاته، لكنها كلها فصول تدور حول مغامرات لبطل رئيسي تتوالى في قاع المجتمع الأمريكي وكأنه البطل المراوغ أو المتسول عند الحريري أو الهمذاني أو السرقسطي .

إنها جماع مؤشرات تجبرنا على الإقرار بأننا إزاء فن من الأدب الأوروبي مشابه للشكل العربي المعروف بالمقامات.

إن لفن المقامة بالغرب الإسلامي (الأندلس والمغرب تحديدا) خصائص محددة وخصوصيات مميزة هي التي حملتني على البحث فيه، ولما كانت الأندلس وكان المغرب في وقت ما دولة واحدة (تحت حكم المرابطين والموحدين)، كان لزاما علي الاتجاه لدراسة تاريخ المغرب والأندلس معا، ذلك أن دراسة جزء كبير من تاريخ وأدب الأندلس لا يمكن أن تتم إلا ضمن دراسة تاريخ المغرب، وذلك لتكوين رؤية موضوعية وتصور شمولي عن تراثنا العربي عامة، وتراث الغرب الإسلامي خاصة. ولذلك بدا البحث في موضوع "المقامة في الغرب الإسلامي بين التقليد والتجديد" بحثا جديا أغراني بالتناول والتحليل والنقد، خاصة وأن الساحة الأدبية المغربية تكاد تكون خلوا من الدراسات الخاصة بالمقامات المغربية. فإذا كانت الدراسات المشرقية لم تعر اهتمامها للمقاميين في المغرب الأقصى، فإنه حتى الدراسات المغربية لم تخرج عن مجرد عرض لمتون المقامات دون تحليل أو تأريخ، مثلما الحال بالنسبة لكتاب النبوغ المغربي لعبد الله كنون، والمعسول لمحمد المختار السوسي. أو هي مجرد أحاديث مقتضبة عن النشأة، ومحاولة ربطها بالقصة المغربية، ومن ذلك: الأدب المغربي لمحمد بن تاويت، وفن القصة بالمغرب لأحمد الياهوري، وأما المقالات فلا تخرج عن التلميح، وكلها تعود للستينات.

ومن هنا، كان البحث في المقامة المغربية - في الباب الثاني - امتدادا طبيعيا ومشروعا للبحث في المقامة الأندلسية - في الباب الأول - خاصة و أن الأمر يتعلق بأدب جامع موحد السمات، متعلق بخصوصياته المحلية، وهو المعروف ب " أدب الغرب الإسلامي".

فضمن هذا الإطار العام (الغرب الإسلامي) حدث تفاعل بين العدوتين (الأندلس- المغرب)، وهو تفاعل سمح لنا بكشف وتبين مواطن التأثير والتأثير بين مقاميي الغرب الإسلامي من جهة، وأكد على أن إنتاجاتهم المقامية رمت منذ محاولاتها الأولى إلى التأسيس والالتصاق بالواقع المحلي، للخروج بأدب مقامة الغرب الإسلامي من أسر قيود المقامة البديعية والحريرية من جهة ثانية.

إن للمقامات المشرقية طابعا، وإن للمقامات الأندلسية والمغربية طابعا آخر ولونا محليا خاصا بهما
يمنحهما هويتهما وتأصيلهما.

المباح الأول:

المقارنة الأندلسية بين التقليد والتجديد

الفصل الأول:

الإطار النظري

الفصل الثاني :

الإطار العملي

الباب الثاني :

المقامة المغربية بين التقليد والتجديد

الباب الثالث:

أدب المقامة في الأندلس والمغرب:

التفاعل والتأصيل

- بيبليوغرافيا -

-وفق الترتيب الأبجدي-

❖ - أولا: المصادر

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أ- المخطوطة:

-1-

- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ، ت 535هـ) فائد العقيان .د.ت . (مخطوط مصنف بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، تحت عدد: A03322).
- ابن ادريس (محمد بن جعفر الكتاني). سلوة الأنفاس و محادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء و الصلحاء بفاس. نسخة حجرية . المكتبة الخاصة لكلية الآداب بالرباط (المركز) مصنفة تحت عدد : م.خ.ح (920.064 / كتا . و : عر / 33205) .
- ابن عيسى (محمد بن احمد الصنهاجي ، ت 990هـ) . مقامة في الحكمة و الإشارة إلى ما تحت التكة . مخطوط مصنف بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط ، تحت عدد : 5408 / مجموع .
- الإفرائي(محمد الصغير بن محمد بن الحاج بن عبد الله النجار المراكشي).صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر . نسخة حجرية. المكتبة الخاصة لكلية الآداب بالرباط (المركز) . مصنفة تحت عدد : م.خ.ح /920.064 إفر. و : عر/33466

ب – المطبوعة:

-1-

- ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، ت 658 هـ). التكملة لكتاب الصلة. تحقيق: عزت العطار الحسيني. القاهرة. طبعة: 1956 م.
- ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي). أ- الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية. الرباط. دار المنصور للطباعة: ط 1972 م.
- ب- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط. المطبعة الملكية. ط 2: 1999 م.
- ابن الأحمر (أبو الوليد). مستودع العلامة ومستبدع العلامة. تحقيق: محمد التركي الأندلسي و محمد بن تاويت الطنجي. الرباط. منشورات كلية الآداب. د. ت.
- ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني، ت 542 هـ). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق: سالم مصطفى البدري. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى. 1998 م. الأجزاء: الأول والثالث والرابع.
- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف عبد الملك، ت 578 هـ / 1183 م). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. تحقيق: إبراهيم الأبياري. الجزء الثالث. القاهرة. دار الكتب المصري. الطبعة الأولى: 1998 م.
- ابن الخطيب (لسان الدين، ت 776 هـ). أ- الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق: محمد عبد الله عنان. المجلد 4. القاهرة. مكتبة الخانجي. ط 4: 2001 م.
- ب- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب. تحقيق: عبد الله عنان. المجلد 2. القاهرة. المطبعة العربية الحديثة. ط 1: 1981 م.

ج- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تعليق: أحمد

مختار العبادي.الدار البيضاء. دار النشر المغربية.د.ت.

د- أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك

الإسلام.تحقيق:ليفى بروفنسال. دار المكشوف.ط2. 1956م.

• ابن خفاجة (أبو إسحاق).ديوانه.تحقيق: سيد غازي.الاسكندرية.ط2. 1979م.

• ابن خلدون(عبد الرحمان بن محمد ، ت808هـ). أ- تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر

واديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان

الأكبر.المجلد السابع.بيروت.دار الكتب العلمية.ط1: 1992م.

ب- المقدمة. تحقيق: علي عبد الواحد

وافي. الجزء الأول . منشورات مكتبة الأسرة. طبعة: 2006 م.

• ابن خلكان(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، ت 681 هـ). وفيات

الأعيان وأبناء أبناء الزمان. تحقيق: إحسان عباس. بيروت. دار صادر. طبعة: 1975م

(ثمانية مجلدات).

• ابن سعيد(الأندلسي).المغرب في حلى المغرب.تحقيق:شوقي ضيف.مصر.دار المعارف.ط

3. 1978م.(جزءان).

• ابن الزبير(أبو جعفر أحمد). صلة الصلة. تصحيح وتعليق : ليفى بروفنسال.الرباط.المطبعة

الاقتصادية.ط:1938م.

• ابن زيدان(عبد الرحمن).إتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.ج1.الرباط.

المطبعة الوطنية. ط: 1929م.

• ابن عبد ربه(أحمد بن محمد الأندلسي). العقد الفريد. شرح وضبط و عنونة المواضيع: أحمد

أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. الطبعة الثالثة:

1965م (سبعة مجلدات).

- ابن عياض (محمد اليحصبي). التعريف بالقاضي عياض تحقيق: محمد بن شريفة الرباط. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ط 2: 1982م.
- ابن القاضي (أحمد المكناسي). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. الرباط. دار المنصور للطباعة والوراقة. ط: 1973م (جزءان).
- ابن قتيبة (أبو محمد الدينوري). عيون الأخبار. القاهرة. دار الكتب. ط: 1963م (4 أجزاء).
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري). لسان العرب. بيروت. دار صادر. الطبعة السادسة: 1997م (ثمانية مجلدات).
- الإفرائي (محمد الصغير بن محمد بن عبد الله المراكشي). نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي. الرباط. مكتبة الطالب. ط 2: 1988م.

-ب-

- البيهقي (إبراهيم بن محمد، ت 320 هـ). المحاسن والمساوي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. ط: 1991م.

-ث-

- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق: مفيد محمد قميحة. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى: 2000م.

-ح-

- الحموي (أبو عبد الله ياقوت شهاب الدين). معجم البلدان. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي. بيروت. دار صادر. الطبعة الأولى: 1990م (ثمانية أجزاء).

-خ-

- الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن سنان الحلي). سر الفصاحة. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى: 1402 هـ / 1982م.

- س -

- السرقسطي (أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي). المقامات اللزومية. تحقيق: حسن الوراكلي. الأردن . عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع وجدارا. الطبعة الثانية: 2006م.
- السملالي (ابن إبراهيم). الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. تحقيق: عبد الوهاب بن منصور. الرباط. المطبعة الملكية. ط: 1974م.
- السوسي (محمد المختار). المعسول. الجزء الثامن. مطبعة النجاح. ط: 1960م-1961م (20 جزء).

- ش -

- الشريشي (أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي). شرح مقامات الحريري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الجزء 1. القاهرة. المؤسسة العربية الحديثة للنشر والتوزيع. د. ت .

- ص -

- الصنوبري (أحمد بن محمد بن الحسن الضبي ،ت 334 هـ). ديوانه. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. ط: 1998م.

- ع -

- عبد الحميد (محمد محيي الدين). شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني. بيروت. دار الكتب العلمية. طبعة: 1979م.

- غ -

- غريظ (محمد). فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان. فاس. المطبعة الجديدة. ط: 1367 هـ .

- ف -

- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب). القاموس المحيط . بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الثالثة: 2009م.

-ق-

- القادري (محمد بن الطيب) نشر المئاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ج.1. مطبوعات دار المغرب بسلسلة التراجم. رقم 3 ط: 1977م.
- القاسم (يوسف بن محمد). برنامج التجيبي. تحقيق: عبد الحفيظ منصور. طرابلس. تونس. الدار العربية ط: 1981م.
- القنوجي (صديق بن حسن، ت 1307 هـ / 1889 م). أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم. تحقيق: عبد الجبار زكار. الجزء الأول. دمشق. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. طبعة: 1978م.

-ك-

- الكلاعي (أبو القاسم محمد بن الغفور). إحكام صنعة الكلام. تحقيق: محمد رضوان الداية. 1966م.

-م-

- المراكشي (عبد الواحد). أ- المعجب في تلخيص أخبار المغرب. الدار البيضاء. دار الكتاب. ط: 7. 1978م.
- ب- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق: إحسان عباس. بيروت. دار الثقافة. ط: 2. 1980م.
- المسعودي (أبو الحسن بن علي). مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة. ط 3. 1958م (4 أجزاء).

● المقري (أحمد بن محمد التلمساني). أ- أزهار الرياض في أخبار عياض. منشورات صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة. ط: 1978م.

ب- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. تحقيق: إحسان عباس. المجلد الثالث. بيروت. دار صادر. طبعة: 2004.

● الملزوزي (عبد العزيز). نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك. الرباط. المطبعة الملكية. 1963م.

● المنجور (أحمد). فهرس أحمد المنجور. تحقيق: محمد حجي. الرباط. مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. ط: 1976م.

❖ - ثانيا: المراجع

-أ-

● ابن تاويت (محمد). الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى. الدار البيضاء. نشر وتوزيع الشركة الوطنية. دار الثقافة. ط1: 1982م (الأجزاء: الأول، الثاني، الثالث).

● ابن رمضان (صالح). الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم. بيروت. منشورات دار الفارابي. الطبعة الثانية: 2007م.

● ابن شقرون (محمد بن أحمد). مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني. الشركة الوطنية. دار الثقافة. ط: 1985م.

● ابن محمد (علي). النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله. بيروت. منشورات دار الغرب الإسلامي. الطبعة الأولى: 1990م.

● أبو زيد (سامي يوسف). الأدب الأندلسي. عمان. الأردن. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة. الطبعة الأولى: 2012م.

- أبو عيانة (فتحي محمد). بحوث ندوة الأندلس – الدرس والتاريخ. منشورات كلية الآداب. جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية. طبعة: 1961 م.
- أبو غزالة (ضاهر). الإنسان الأندلسي بين واقعه العربي وما طمح إليه. بيروت. دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية: 2001 م.
- اسماعيل (عز الدين). الأدب وفنونه – دراسة ونقد. منشورات دار الثقافة العالمية للطباعة. طبعة. 1968 م.

-ب-

- بوباية (عبد القادر). مفاخر البربر لمؤلف مجهول. دار أبي رقرق للطباعة والنشر. د.ب.ت.
- البيومي (محمد رجب). الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. طبعة: 1980 م.

-ت-

- التادلي (أبو يعقوب بن يحيى بن عيسى). التشوف إلى رجال التصوف. نشر وتصميم أدولف فور. الرباط. مطبعة إفريقيا الشمالية الفنية. ط: 1958 م.
- الترغي (عبد الله المرابط). فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها، تطورها، قيمتها العلمية. جامعة عبد الملك السعدي. منشورات الكلية. سلسلة الأطروحات: رقم 2. د.ب.ت.

-ج-

- الجراري (عباس). أ- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها. البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة. الطبعة الأولى: 1979 م (الجزء 1 و2).

ب- صباية أندلسية، دراسات مهداة إلى يوسف بن تاشفين منشورات

النادي الجراري. د. ب. ت.

- **جلاب (حسن)** الدولة المرابطية، قضايا وظواهر أدبية. مراكش. المطبعة والوراقة الوطنية. ط1: 1418 هـ - 1997 م.
- **الجندي (أنور)**. خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي الحديث. دار الكتاب اللبناني. د. ب. ت.
- **الجون (محمد)**، (أولية الأدب المغربي، عوائق النشأة). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات)، الرباط: منشورات كلية الآداب. سلسلة ندوات ومناظرات. رقم: 130 (ص 181-196).

-ح-

- **حسن (حسني عبد الوهاب)**. مجمل تاريخ الأدب التونسي. تونس. مكتبة المنار. ط: 1968 م.
- **حسن (خالد)**. المكان في الرواية الجديدة. الرياض. مؤسسة اليمامة. ط1: 2000 م.
- **حسن (علي حسن)**. الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. مصر. منشورات مكتبة الخانجي. ط1: 1980 م.
- **الحسيني (قاسم)**. الأندلس: الإنسان والمكان. سلا. مطبعة بني يزناسن. الطبعة 1: 2007 م.
- **الحسيني (قصي عدنان سعيد)**. فن المقامات بالأندلس، نشأته وتطوره وسماته. عمان. الأردن. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 1999 م.
- **حقي (محمد)**. البربر في الأندلس، دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة (92 هـ / 422 هـ). البيضاء. شركة النشر والتوزيع، المدارس. الطبعة الأولى: 2001 م.
- **حليفي (شعيب)**. الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل. رؤية للنشر والتوزيع. طبعة: 2006 م.

-خ-

- **خريوش (حسين يوسف)**. ابن بسام وكتابه الذخيرة. عمان. دار الفكر للنشر والتوزيع. طبعة: 1984 م.
- **خلاف (محمد عبد الوهاب)**. تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح إلى ق5هـ. مصر الجديدة. المؤسسة العربية الحديثة. ط1: 1992م.

-د-

- **الداية (محمد رضوان)**. أ - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس. بيروت. منشورات مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية: 1993 م.
- **ب - في الأدب الأندلسي**. دمشق. منشورات دار الفكر. ط1: 2000م.
- **الدخيل (محمد بن ناصر)**. دراسات ومقالات في الأدب العربي. إصدارات نادي المنطقة الشرقية الأدبي. الطبعة الأولى: 1999 م.
- **الدهري (آمنة)**. الترسل الأدبي بالمغرب، النص والخطاب. المحمدية. منشورات كلية الآداب. سلسلة الرسائل والأطروحات: رقم 5. ط: 2002م.

-ر-

- **ارحيلة (عباس)**، (لماذا ظلت صورة الأدب المغربي باهتة في تاريخ الأدب العربي). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات)، الرباط: منشورات كلية الآداب. سلسلة ندوات ومناظرات. رقم: 130. (ص 197-204).

-ز-

- **زيدان (سليم)**. ظاهرة التماثل والتميز في الأدب الأندلسي من ق4 إلى 6هـ. منوبة. تونس. منشورات كلية الآداب. سلسلة الآداب. المجلد: 46. ط: 2001م.

- زاهر (عبد الهادي). صلة الموشحات والأزجال بشعر التروبادور. مكتبة الشباب. الطبعة الأولى: 1977م.
- الزباخ (مصطفى). بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس، قراءة في المشروع الحضاري المغربي بالغرب الإسلامي. الدار البيضاء. دار النشر المغربية. ط: 1991م.
- زنيبر (محمد). دراسات في الحضارة الإسلامية وثقافة الغرب الإسلامي. الرباط. كلية الآداب. مطبعة الأمنية. سلسلة أبحاث ودراسات. رقم: 42. ط: 1. 2010م.

- س -

- سالم (جورج). دراسات في الأدب. منشورات دار الشرق ومكتبة الشهباء. ط: 1970 م.
- سالم (السيد عبد العزيز). قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي. الجزء الأول. الإسكندرية للنشر. مؤسسة شباب الجامعة. طبعة 1997م.
- السايح (الحسن). من تاريخ القصة والمسرحية في الأدب العربي. صادر عن كلية الآداب والعلوم الاجتماعية. معهد الدروس العليا المغربية. بيانات ومستندات. مطبعة الفجر. د.ت.
- سلامة (علي محمد). الأدب العربي في الأندلس، تطوره، موضوعاته، وأشهر أعلامه. بيروت. الدار العربية للموسوعات. الطبعة الأولى: 1989 م.
- السهلي (إبراهيم موسى بن حاسر). تجديدات الأندلسيين في النثر العربي. منشورات نادي مكة الثقافي الأدبي. الطبعة الأولى: 1999 م.

-ش-

- الشاهدي (حسن). أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني. الجزء 1. دار عكاظ للطباعة والنشر. ط: 1990م.
- الشببي (محمد رضا). أدب المغاربة و الأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية. منشورات جامعة الدول العربية ومعهد الدراسات العربية العالية. ط: 1961م.
- شكري (فيصل). مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي. دار العلم للملايين. ط: 1986م.
- الشكعه (مصطفى). الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. بيروت. منشورات دار الثقافة. طبعة: 1978 م.

-ص-

- صفدر (فرح ناز علي). المقامة بين الأدب العربي والأدب الفارسي. بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى: 2011 م.

-ض-

- ضيف (أحمد). بلاغة العرب في الأندلس. مطبعة مصر. الطبعة الأولى. د.ت.
- ضيف (شوقي). أ - الفن ومذاهبه في الشعر العربي. دار المعارف بمصر. ط: 9. د.ت.
- ب - الفن ومذاهبه في النثر العربي. القاهرة. دار المعارف. ط: 8. د.ت.
- ج - المقامة. القاهرة. دار المعارف. طبعة: 1945م.

-ع-

- العبادي (أحمد مختار). مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس. الاسكندرية. منشورات مؤسسة شباب الجامعة. ط: 1983م.
- العبادي (عبد الحميد). المجلد في تاريخ الأندلس. القاهرة. مكتبة النهضة المغربية وملتزمة للطبع والنشر. الطبعة الأولى: 1985 م.
- عباس (إحسان). أ- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة. بيروت. دار الثقافة. الطبعة الخامسة: 1987 م.
- ب- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين. دار الشروق للنشر والتوزيع. الطبعة الثالثة: 2011 م.
- عبد الحميد (إبراهيم). الأدب المقارن من منظور الأدب العربي - مقدمة وتطبيق - الدمام: منشورات نادي المنطقة الشرقية الأدبي. الطبعة الأولى: 1997 م.
- عبد المعطي (محمود علي). تجليات الإبداع الأدبي، دراسات في العصر العباسي الثاني. دار النشر الدولي. الطبعة الأولى: 2007 م.
- عتيق (عبد العزيز). الأدب العربي في الأندلس. بيروت. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. الطبعة الثانية: 1976 م.
- عروس (بسمة). التفاعل بين الأجناس الأدبية، مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة من القرن الثالث إلى السادس الهجري. منوبة. منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات. طبعة: 2008 م.
- عفيفي (محمد الصادق) وابن تاويت (محمد). الأدب المغربي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ط1. 1960م
- عناني (محمد زكرياء). مدخل لدراسة الموشحات والأزجال. الإسكندرية. دار المعارف. طبعة: 1982م

● عوض (يوسف نور) فن المقامات بين المشرق والمغرب. مكة المكرمة: منشورات مكتبة الطالب الجامعي. الطبعة الثانية: 1986 م.

● عيسى (فوزي سعد). رسائل ومقامات أندلسية. الاسكندرية. منشورات منشأة المعارف. د. ب. ت.

-ف-

● فروخ (عمر). تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين. الجزء الخامس. دار العلم للملايين. الطبعة الأولى: 1982 م.

-ق-

● القلطاظ (منجي). الإنسان والمكان في الشعر العربي القديم. الدار التونسية للكتاب. ط1: 2016 م.

● قميحة (جابر). التقليدية والدرامية في مقامات الحريري. القاهرة. منشورات مطبعة الشباب الحر. طبعة: 1985 م.

-ك-

● كاظم (نادر). المقامات والتلقي، بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى: 2003 م.

● الكتاني (محمد)، (نظرات في علاقة الأدب المغربي بالأدب العربية). ضمن (الأدب المغربي إشكالات وتجليات)، الرباط: منشورات كلية الآداب. سلسلة وندوات ومناظرات. رقم: 130. (ص 130-196).

● الكعبي (ضياء). السرد العربي، الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى: 2005 م.

● الكك (فكتور). بديعيات الزمان. بيروت. المطبعة الكاثوليكية. طبعة: 1961 م.

- **كنون (عبد الله).أ-** النبوغ المغربي في الأدب المغربي.بيروت.مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني. ط3: 1975م.(الجزء 1 و2).
- **ب-** رسائل سعدية.تطوان.دار الطباعة المغربية. ط: 1954م.
- **كيليطو (عبد الفتاح).**المقامات: السرد والأنساق الثقافية.ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي. البيضاء. دار توبقال للنشر. الطبعة: 1993 م.

-ل-

- **لاشين (كمال عبد الباقي).**الابتداع والاتباع، دراسة في النقد العربي القديم.مصر. مطبعة الحسين الإسلامية. الطبعة الأولى: 1993 م.

-م-

- **مبارك (زكي).**النثر الفني في القرن الرابع.ج1.منشورات مكتبة الأسرة.طبعة 2010 م.
- **المحروقي(سيف محمد سعيد).**نماذج إنسانية في السرد العربي.منشورات هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.دار الكتب الوطنية.ط1 : 2010م.
- **محفوظ(محمد).**برنامج الوادي آشي.أثينا.اليونان.دار المغرب الإسلامي.ط1: 1981م.
- **محمد (سعيد محمد).**دراسات في الأدب الأندلسي.ليبيا.منشورات جامعة سبها.الطبعة الأولى: 2001 م.
- **معكول(علال).**النثر الأدبي في المغرب في ق 11 و12هـ.مكناس.منشورات جامعة مولاي اسماعيل.رقم18. ط1: 2003م.
- **مؤنس(حسين).**تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس.المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.ط2: 1968م.

-ن-

- النجار (محمد رجب). النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابية، فنونه، مدارسه، أعلامه. دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 1996 م.

-ه-

- الهروط (عبد الحليم حسين). النثر الفني عند لسان الدين بن الخطيب. عمان. الأردن. دار جرير للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: 2006 م.
- هلال (محمد غنيمي). الأدب المقارن. بيروت. منشورات دار العودة ودار الثقافة. الطبعة الخامسة: 1987 م.
- هيكل (أحمد). الأدب الأندلسي. مصر. دار المعارف. الطبعة السادسة: 1971 م.

-و-

- الواد (حسين). البنية القصصية في رسالة الغفران. ليبيا. تونس. الدار العربية للكتاب. طبعة: 1977 م.
- ولد آدب (آدي). الإيقاع في المقامات اللزومية للسرقسطي. الإمارات العربية المتحدة. إصدارات دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة. الطبعة الأولى: 2006 م.

-ي-

- ياغي (عبد الرحمن). رأي في المقامات. الأردن. دار الفكر والنشر والتوزيع. طبعة 1985 م.
- يزن (أحمد). النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي. الرباط. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. ط: 1985 م.

- **يعلى (محمد)**. ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي: كتاب الأنساب لابن عبد الحليم (ق 8 هـ-14م)، كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول، كتاب شواهد الجلة لأبي بكر ابن العربي (ت 543 هـ - 1149م). مدريد. منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية. الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي. 1966م.

❖ - ثالثا: الرسائل الجامعية

- **جبران (محمد مسعود)**. مالك بن المرحل أديب العدوتين (604-699هـ)، دراسة تحليلية في أخباره وآثاره وتحقيق نصوصه الأدبية الباقية. أطروحة، درجتها العلمية: حسن جدا (امتياز). الأستاذ المشرف: محمد بن شريفة. تاريخها: 1997/01/13. كلية الآداب بالرباط.
- **السولامي (محمد)**. فن المقامة بالمغرب في العصر العلوي. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. عدد: ر.ج/818.6964/سول. الأستاذ المشرف: عباس الجراري. السنة: 1985 / 1986م. كلية الآداب بالرباط.
- **كظيمي (عبد الرحمن)**. البذور الضاوية في مناقب الزاوية الدلائية (تحقيق مخطوط: البذور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، لأبي الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله الشفشاوني الفاسي الملقب بالحوات). رسالة. د.د.ع. عدد: ر.ج/ 810.090964 - عر/ 66519. الأستاذ المشرف: عباس الجراري. بتاريخ: 1993م. كلية الآداب بالرباط.

❖ - رابعا: المجلات والجرائد

أ - المجلات:

- ابن تاويت (محمد). (أدب الدولة المرابطية والدولة الموحدية). (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد: 2. (ص 134-149).
- ابن شقرون (محمد). (النهضة الأدبية والفنية على عهد بني مرين). (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي. الرباط. العدد: 13. السنة: 1968. (ص 33-37).
- ابن عبود (محمد). (التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا). (مجلة البحث العلمي). جامعة محمد الخامس. الرباط. العدد: 34. السنة: 1984. (ص 33-58).
- ابو سريع (ابراهيم حسين اسماعيل). (فن المقامة في العصر المريني-دراسة تحليلية-). (مجلة كلية دار العلوم). القاهرة. العدد: 67. السنة: 2013. (ص 267-305).
- الأخصر (محمد). (الأدب المغربي في القرون الإسلامية الأولى). (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز لجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد: 22. السنة: 11. 1974. (ص 79-86).
- أعراب (سعيد). أ- (المقامة الفاسية لابن محرز الوهراني). (مجلة البحث العلمي). إصدارات المعهد الجامعي للبحث العلمي. الرباط. السنة: 1965. (ص 195-204).
ب- (نص جديد في تاريخ المقامة المغربية: المقامة الأزاريفية لأبي محمد الأزاريفي الحامدي). (مجلة البحث العلمي). العدد: 26. السنة: 13. 1976. (ص 163-173).
- بنشريفة (محمد). (من منافرات العدوتين: نص جديد). (مجلة كلية الآداب بالرباط). العدد: 1. السنة: 1977. (ص 7-49).
- بومهرة (عبد العزيز). (المقامة في الأدب المغربي والأندلسي - القرن الثامن للهجرة نموذجاً). (مجلة التواصل في اللغات والثقافة والآداب). جامعة باجي مختار. عنابة. العدد: 31. السنة: 2012. (ص 21-32).

- جبران (محمد مسعود). (المقامة النجدية لمالك بن المرحل - نص أندلسي مغربي جديد). (مجلة البحث العلمي). الرباط. العدد 41. السنة 26: 1992-1993 م. (ص 80-92).
- حجي (محمد). أ- (المراكز الثقافية أيام السعديين) . (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد 6. 1965. (ص 35-67).
- ب- (المراكز الثقافية المغربية في العصر السعدي الثاني). (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد 7. 1966. (ص 12-44).
- حركات (ابراهيم). (أوضاع المغرب ومشاكله قبيل الدولة السعدية) . (مجلة البحث العلمي). إصدارات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد 24. (ص 82-91).
- الحسيني (قاسم). (المؤثرات الثقافية القصيدة الشعرية الأندلسية). (مجلة كلية الآداب بالرباط). مطبعة النجاح. الدار البيضاء. العدد: 28. السنة: 2008. (ص 123-151).
- زمامة (عبد القادر). أ- (مدخل بحث عن أدب المقامات). (مجلة البيئة). إصدارات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية. الرباط. (ص 69-73).
- ب- (نشأة الأدب العربي بالمغرب). (مجلة دعوة الحق). منشورات وزارة عموم الأوقاف. الرباط. العدد الأول. 1959. (ص 43-45).
- السايح (حسن). (في الثقافة المغربية). (مجلة البيئة). العدد العاشر. السنة الأولى: 1963. (ص 43-73).
- السولامي (محمد). (خطاب الإصلاح في المقامة المغربية، مقامة الأزاريقي نموذجاً). (مجلة بحوث). كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالمحمدية. العدد: 1988. (ص 71-92).
- كنون (عبد الله). أ- (عقيدة المرشدة للمهدي بن تومرت). (مجلة البحث العلمي). المعهد الجامعي للبحث العلمي. الرباط. العدد 9. (ص 175-185).
- ب- (من أدبنا الشعبي). (مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية). العدد: 5. السنة: 1960. (ص 35-56).

- متفكر (أحمد). (المقامة الكنسوسية). (البحث العلمي). إصدارات المعهد الجامعي للبحث العلمي. جامعة محمد الخامس. الرباط. العدد 39. السنة: 24. (ص 172-200).
- الياهوري (أحمد). (تطور الفن القصصي بالمغرب: النقد القصصي). (مجلة الباحث للأبحاث العامة). المجلد الأول. السنة الأولى: 1972. (ص 273-293).

ب- الجرائد:

- بوجندار (محمد). (أبداع المقالات في فن المقامات). (جريدة السعادة). الرباط. العدد: 2063. السنة 16: 1920 م. والعدد: 2084. السنة: 1920 م. والعدد: 2091. السنة 16: 1920 م.